السهل المفيد
فى
تفسير القرآن المجيد

الجزء الخامس

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص : سورة مكية .
نزلت لتقرر أن القوة الوحيدة فى الوجود : هى قوة الله .
وأن القيمة الوحيدة فى هذا الكون : هى قيمة الإيمان.

وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ }
[الآيتان ١ ، ٢]

أى : هذه آيات من هذا الكتاب المبين، وهو القرآن.

* * *

{ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٣]

يعنى : نتلوا عليك فيها، بعضاً من نبإ خبر موسى وفرعون بـــ الوجه الحق الذى لا تحريف فيه، ولا شك حوله لقوم يؤمنون ويصدقون، فينتفعون.

* * *

لذلك ..اسمع – أعانك الله – وانتفع، نفعنى وإياك المولى سبحانه.

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }
[الآية ٤]

إن فرعون هذا ..

قد علا فى الأرض التى يحكمها، وهى أرض مصر، وتجبر، وطغى، ونسى العبودية، وادعى الألوهية.

و كذلك جعل أهلها أى : أهل هذه الأرض شيعاً فرقاً وطوائف ممزقين، وليسوا يداً واحدة ؛ ليسهل له الطغيان فيهم.

وكان يستضعف طائفة منهم فيذلهم، ويسخرهم فى خدمته، ويذبح أبناءهم ويستحى نساءهم فقط لخدمته.

وباختصار ..

إنه كان من المفسدين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون.

* * *

هذه هى قصة فرعون فى كلمات معدودات.

* * *

ولكن .. أين كانت عناية الله بخلقه؛ لتنقذهم من هذا الطاغية ..؟

يقول تعالى :

{ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ }

[الآيتان ٥ ، ٦]

يعنى : ونريد بعنايتنا ورعايتنا .. هذه الأشياء.

أولاً : أن نمن نتفضل على الذين استضعفوا فى الأرض وهى أرض مصر، من بنى إسرائيل، الذين كانوا فيها من أيام يوسف عليه السلام، وكانوا خير أهل الأرض وقتها .. أى : نتفضل عليهم بإنقاذنا لهم من ظلم فرعون.

ثانياً : ونجعلهم أئمة قادة فى الخير، يدعون الناس إليه.

ثالثاً : ونجعلهم الوارثين لغيرهم فى الملك والسلطان من أهل زمانهم.

رابعاً : ونمكن لهم فى الأرض فنجعل لهم عليها سلطاناً وحكماً.

خامساً : ونرى فرعون وهامان وجنودهما أى : هؤلاء الظلمة منهم أى من بنى إسرائيل ما كانوا يحذرونه ويخافونه ، من قوتهم وانتقامهم منهم.

* * *

هذا ..
وقد تحقق كل ما أراده الله.
وإليك التفاصيل من أولها ..

يقول تعالى :

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }
[الآية ٧]

إذاً .. الإنقاذ سيكون – بعناية الله – على يد موسى عليه السلام.
الذى تبدأ قصته مع فرعون بهذه الآية.
وهذه الآية : فى غاية الإبداع والإعجاز.
ففيها : كما يقول العلماء.

أولاً : خبران .. وهما أوحينا إلى أم موسى و إذا خفت عليه.
ثانياً : أمران .. وهما أرضعيه و ألقيه فى اليم أى الماء.
ثالثاً : نهيان .. وهما لا تخافى و لا تحزنى.
رابعاً : بشارتان .. وهما إنا رادوه إليك أى : سنعيده إليك، وجاعلوه من المرسلين أى : سنجعله نبياً رسولاً.

* * *

وفهمت أم موسى الخبرين .
ونفذت الأمرين .
وامتثلت للنهيين .
وفرحت بالبشارتين.
وألقى موسى طفلاً رضيعاً فى الماء.
وكانت تحرسه عناية الله.

{ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ }
[الآية ٨]

أى : فالتقطه آل فرعون من الماء، واستخرجوه، وذهبوا به إلى فرعون.
وكان ذلك ليكون أمر الله نافذاً، ونجعله لهم عدواً يعاديهم وحزناً يحزنهم.
إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين فى كفرهم، وطغيانهم، واستعلائهم، وسوء فهمهم لعناية الله وقدرته.

* * *

وهكذا ..
دخل الرضيع إلى قصر فرعون ؛ ليكتب سطور نهاية الظلم.

{ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }
[الآية ٩]

وقالت امرأة فرعون لفرعون، لما رأت الطفل الرضيع : هذا قرة عين لى ولك إذّ ليس لنا أولاد.
ثم قالت لا تقتلوه كما تقتلون الذكور كل لحظة عسى أن ينفعنا حينما يكبر أو نتخذه ولداً ونتبناه.
واستجاب فرعون لها .
فلم يقتلوه .
وبقى فى القصر.
وهم لا يشعرون جميعاً، بما يدبره الله لهم.
لا هى تشعر أنه سيكون : سبب إيمانها وهدايتها.
ولا هم يشعرون أنه سيكون : سبب هلاكهم.

* * *

هذا .. عن الطفل الرضيع الذى ألقته أمه بأمر الله فى الماء.
فماذا عن أمه ..؟
يقول تعالى :

{ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }
[الآيتان ١٠ ، ١١]

يعنى : وأصبح فؤاد قلب أم موسى فارغاً من كل شئ ، بسبب القلق على وليدها إن كادت أى : قاربت لتبدى به أى تخبر بقلقها عليه، وبخاصة لما وقع فى يد آل فرعون، وأدخل إلى قصره أيضاً لولا أن ربطنا على قلبها بالثبات والصبر لتكون من المؤمنين المصدقين برعاية الله وحفظه.

وقالت لأخته من فرط حبها له قصيه تتبعى خبره ٠٠

واستجابت ابنتها، وبدأت فى معرفة الأخبار .

فبصرت به أى : رأته وهو فى أيديهم عن جنب عن بعد وهم لا يشعرون بها، ولا يعرفون أنها أخته.

بعض الشئ.

واقتربت منهم..

* * *

يقول تعالى :

{ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ }
[الآية ١٢]

يعنى : و كنا ..

قد حرمنا عليه المراضع ومنعناه الرضاعة من قبل أن تراه أخته.

وكان أهل القصر فى نكد شديد لعدم رضاعته من أى مرضعة يحضرونها له.

فقالت أخته لهم فى هذا الجو القلق عن الرضيع :هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم إرضاعاً ورعاية وهم له ناصحون أى : مخلصون فى رعايته وإرضاعه.

* * *

وأجابوها إلى ما قالت؛ حرصاً على حياة الرضيع.

وعادت بالطفل إلى البيت.

{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }
[الآية ١٣]

وهكذا .. لما وعدها ربنا بقوله إنا رادوه إليك رده إليها، وبسرعة.

ووعد الله حق دائماً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

فلا يصبرون ..!!

أو فلا يؤمنون..!!

* * *

وعاش الطفل موسى : بعناية الله، تحت سمع وبصر أمه، وعلى نفقة فرعون ٠٠

{ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }
[الآية ١٤]

أى : ولما كبر موسى، وبلغ أشده يعنى : كمال قوته البدنية والعقلية آتيناه من عندنا حكماً أى : حكمة وعلماً أى : دراية بمصالح الدنيا والآخرة.
وكذلك يعنى كما فعلنا بموسى وأمه نجزى المحسنين المؤمنين.

* * *

ثم يقول تعالى عن موسى :

{ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ }
[الآية ١٥]

يعنى : لما آتاه الله الحكمة والعلم : خرج موسى من قصر فرعون، وعاش بعيداً، وصار يدعو إلى الله، وعرف الناس عنه ذلك، وصار له شيعة وأتباع.
ودخل المدينة ذات يوم على حين غفلة واستراحة من أهلها.
فوجد فيها رجلين يقتتلان فيما بينهما :
هذا من شيعته وهذا من عدوه
فاستغاثه الذى من شيعته وطلب منه النصرة على الذى من عدوه.
ولبى استغاثته فوكزه موسى أى ضربه بكل قوته فقضى عليه ومات.
وهنا قال موسى لنفسه هذا الذى فعلته : عمل من عمل الشيطان الذى دفعنى إليه، وأثار غضبى عليه إنه أى الشيطان عدو مضل مبين.

* * *

وبعد أن اعترف بخطئه : ندم على فعله، وتاب إلى الله.

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ }
[الآيتان ١٦ ، ١٧]

وغفر له ربه ذنبه، الذى تاب منه، ولم يصر عليه.
حيث إنه سبحانه هو الغفور لذنوب عباده المؤمنين الرحيم بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم.
ثم .. عاهد ربه على أن لا يعود لمثلها.
قال رب بما أنعمت على بالمغفرة فلن أكون يوماً ما ظهيراً نصيراً للمجرمين الكافرين بك، أو المخالفين لأمرك.

* * *

ومع ذلك ..
لم يهدأ لموسى بال وهو فى المدينة، بعد هذه الحادثة.
يقول تعالى :

{ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ }
[الآيتان ١٨ ، ١٩]

أى : فأصبح موسى وهو فى المدينة خائفاً على نفسه من أهلها ؛ بسبب قتل هذا القبطى يترقب الأذى منهم.
وبينما هو كذلك :
فإذا بالرجل الذى استغاث به، واستنصره بالأمس وهو إسرائيلى من شيعته يستصرخه من ظلم قبطى آخر.
وهنا : جاء موسى، وقال له أى للإسرائيلى : إنك لغوى مبين كثير الشر، كثير المعارك.
ولم يتمالك موسى نفسه، أمام هذا الظلم، وأراد أن يضرب هذا الظالم القبطى.
فلما أن أراد أن يبطش يضرب بالذى هو عدو لهما وهو القبطى : ظن الإسرائيلى أن موسى سيضربه هو.
لذلك أخذ بالظن ، و قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ولا يعرف ذلك سوانا.
ثم تنكر للفضل، وقال :
يا موسى إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض تضرب وتقتل، ولا تفكر فى العواقب وما تريد أن تكون من المصلحين

* * *

ولكن ..
ليس كل المؤمنين على هذا السوء من الأخلاق، ولا بهذه السلبية، التى رضيت بالذل والهوان.
حيث إن هناك غير هذا ..
يقول تعالى :

{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ }
[الآية ٢٠]

فى هذه الآية : منتهى الإيجابية المطلوبة من المؤمن.
وجاء رجل ينكر ذاته، وبدافع من نفسه المؤمنة بالخير.
من أقصى المدينة لم يقل : الأمر لا يعنينى ، المنكر ليس فى جهتى، ولا قريباً منى.
يسعى بجدية، ليغير المنكر، ولا يهم التعب، ولا المعاناة من أجل ذلك.
قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك مكاشفة بالخطر، ووضوح فى التعبير عنه.
فاخرج قدم البديل، وأشار إلى المخرج.
إنى لك من الناصحين أنصحك ولا ألزمك، أشير عليك ولا أكرهك.

* * *

وسمع موسى النصيحة .
ونفذ موسى النصيحة.

{ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٢١]

وخرج موسى من مصر، ونجاه الله من القوم الظالمين بها.

* * *

وتوجه إلى بلاد مدين بالشام، وهى خارج سلطان فرعون.

{ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ }
[الآية ٢٢]

ولما توجه إلى بلادن مدين !!
استعان بالله قبل كل شئ ..
حيث قال عسى ربى أن يهدين سواء السبيل.

* * *

ووصل إلى بلاد مدين.

{ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ }
[الآيتان ٢٣ ، ٢٤]

يعنى : ولما وصل موسى إلى مدين، وذهب إلى مكان الماء فيها وجد عليه أمة من الناس أى : جماعات كثيرة منهم يسقون دوابهم.
و هناك وجد من دونهم أى بعيداً عنهم بعض الشئ امرأتين تذودانتدفعان وتسوقان غنمهما، ولا تسقيان.
فسألهما قال ما خطبكما أى : لم تقفان بعيداً ولا تسقيان كما يسقى الناس.
قالتا له لا نسقى حتى يصدر الرعاء حتى ينتهى الرعاة من سقيهم، ويعودون راجعين، ثم نسقى بعدهم ؛ حيث إن أبانا شيخ كبير لا يستطيع أن يسقى هو، ولذلك نسقى نحن عنه.
فتأثر لضعفهما، ولظلم الناس لهما، وهو الذى فر من الظلم.
فسقى لهما أغنامهما؛ رغبة فىالمعروف ، وإغاثة للملهوف.
ثم تولى وعاد إلى الظل ليستريح فيه من حر الشمس.
وناجى ربه ..
فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير.

* * *

وعادت البنتان إلى أبيهما، وأخبرتاه خبر هذا الرجل الذى سقى لهما قبل موعدهما.
فطلب من إحدى ابنتيه أن تستدعيه لأبيها.

يقول تعالى :

{ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

[الآية ٢٥]

* * *

ولما استمع الجميع إلى قصته، وعرفوا حكايته ..!!

{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ }

[الآية ٢٦]

أى : استأجره لنا، يراعى أغنامنا، ويدير شئوننا.

ثم بينت مؤهلاته لهذه الوظيفة فى العبارة التالية إن خير من استأجرت القوى فى العقل والبنية الأمين على الأعراض والحرمات.

* * *

ولكن .. كيف يستأجره، ويقيم معهم ..!!

إنها ليست مشكلة .. ما دام هناك لها حل ..

{ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَانَقُولُ وَكِيلٌ }

[الآية ٢٧ ، ٢٨]

يعنى : قال هذا الشيخ الكبير لموسى إنى أريد أن أنكحك أزوجك إحدى ابنتى هاتين.

على أن يكون المهر .. أن تأجرنى وتعمل عندى ثمانى حجج ثمان سنوات .

فإن أتممت هذه المدة عشراً فمن عندك هذه الزيادة فضلاً وما أريد أن أشق عليك إن كنت لا ترغب فى هذه الزيادة.

واطمئن يا موسى ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فى المعاملة، ولن أكلفك فوق طاقتك إذا قبلت.

* * *

وقبل موسى ..

ثم اشترط موسى لنفسه شرطا ؛ حيث قال: {ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل}.

أى : قال له موسى : وافقت على الزواج، وذلك الصداق وعد بينى وبينك أيما الأجلين ثمانية أو عشرة من السنين قضيت معك فلا عدوان على فى الموعد الآخر، بطلب الإقامة فيه.

والله على ما نقول وكيل.

* * *

وعاش موسى عليه السلام .. مع هذه الأسرة الطيبة الكريمة : مدة من الزمن ..!!

حتى انقضى الموعد المتفق عليه بين موسى وهذا الشيخ الكبير ..

وأراد موسى أن يعود إلى أهله ومسقط رأسه مصر ..

فماذا حدث ..؟

يقول تعالى :

{ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ }

[الآية ٢٩]

يعنى : فلما قضى موسى المدة المتفق عليها، وأراد العودة إلى مصر، أخذ زوجته معه، وخرج من بلاد مدين وسار بأهله .

وهو فى طريق العودة هذه : ضل الطريق .

فى ليلة باردة .

ولكنه آنس رأى من جانب الطور ناراً تضئ.

وهنا : قال لأهله زوجته امكثوا انتظروا إنى آنست ناراً بعيدة، سأذهب إليها لعلى آتيكم منها أى : من أهلها بخبر عن الطريق، أو جذوة شعلة من النار لعلكم تصطلون تستدفئون بها.

* * *

وبقيت امرأته حيث أمرها ..

وذهب موسى إلى النار ..

{ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[الآية ٣٠]

فلما أتاها موسى : سمع نداءً، ممن يخاطبه ويكلمه، ويقول له .
يا موسى إنى أنا الله رب العالمين.

* * *

وعلى الفور .. سمع التكليف التالى :

{ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ }
[الآية ٣١]

ونفذ موسى الأمر، وألقى عصاه : فصارت حية تسعى ..!!
فلما رآها موسى تهتز تتحرك وتتلوى كأنها جان حية : فزع فزعاً شديداً .
وهنا: ولى مدبراً رجع للخلف مسرعاً ولم يعقب أى : ولم يعد، أو يلتفت ..!!
فسمع ربه يقول له : يا موسى أقبل تعال ولا تخف منها أو من غيرها إنك من الآمنين لأنك فى حمايتى، وتحت رعايتى.
وعاد ..
ونظر إليها دون خوف.

* * *

وكان الأمر الثانى ..
يا موسى ..

{ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ }
[الآية ٣٢]

يعنى : أدخل يدك فى فتحة قيمصك ..تخرج منه بيضاء اللون، يتلألأ منها نور كنور القمر من غير سوء أى من غير مرض بها.

واضمم إليك جناحك وضم يدك إلى صدرك.. يذهب عنك ما بك من الرهب أى: الخوف.

ثم قال له ربه تعالى :

فذانك العصا، واليد برهنان دليلان من ربك على وحدانيته وقدرته .. اذهب بهما إلى فرعون وملائه وادعهما لتوحيدى، وعبادتى، وطاعتى؛ حيث إنهم كانوا قوماً فاسقين مخالفين لأوامر الله وشرعه.

* * *

وأدرك موسى خطورة الموقف ..!!

لذلك ..

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون }

[الآية ٣٣]

يعنى : فإذا قتلونى .. لا أستطيع تبليغ رسالتك.

* * *

كما أحسَّ عليه السلام .. بثقل المهمة.

فطلب المعونة قائلاً :

{ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون }

[الآية ٣٤]

أى : و أنت تعلم يا رب .. أن أخى هارون هو أفصح منى لساناً وأقدر منى بياناً فأرسله معى ردءاً أى : معيناً يصدقنى ببيان المعنى عند ساعات النقاش والجدال؛ حيث إنى أخاف أن يكذبون فلا يؤمنون.

* * *

وفى الحال ..

أجاب له ربه طلبه، وثبت من الخوف فؤاده ..

{ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ }
[الآية ٣٥]

أى : قال له ربه .. يا موسى سنشد عضدك سنقوى أمرك بأخيك هارون ، ونجعله نبياً كما طلبت.
و أيضاً نجعل لكما سلطاناً حجة قوية، وعناية إلهية فلا يصلون إليكما بأذى .
اذهبا إليهم بآياتنا دعوة إلى توحيد الله وعبادته.
فـــأنتما ومن اتبعكما الغالبون لهم بإذن الله.

* * *

وبعد أن تلقى هذا الوحى ..
عاد بأهله إلى مصر.
وذهب إلى فرعون وقومه؛ يدعوهم إلى الله.

{ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ }
[الآية ٣٦]

يعنى : دخل موسى عليه السلام على فرعون وقومه .
ودعاهم إلى توحيد الله وطاعته .
وعرض عليهم آيات الله الواضحة، وهى العصا واليد.
فوجئوا ..
ولم يؤمنوا ..
بل قالوا أمرين :

الأول : ما هذا الذى معك من العصا واليد إلا سحر مفترى أى : سحر كاذب، وليس بمعجزة من عند الله.
الثانى : وما سمعنا بهذا الذى تدعونا إليه فى آبائنا الأولين.
فمن أين جئت به ..؟
إنه من عندك أنت.

* * *

فأجابهم ..

{ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }
[الآية ٣٧]

وقال موسى لهم .
ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده أنا أو أنتم ..!!
و كذلك ربى أعلم من تكون له عاقبة الدار أى : النهاية الحسنة، أنا وأنتم ..!!
ثم قال لهم : لا تكونوا من الظالمين ؛ لتفلحوا وتفوزوا .
حيث إنه لا يفلح الظالمون أبدا .

* * *

وهنا ..
أصبح موقف موسى واضحاً، وصارت حجته بينة قوية.
وأسقط فى يد فرعون ؛ حيث لا حجة معه.
ماذا يفعل ..؟

يقول تعالى :

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ }
[الآيتان ٣٨ ، ٣٩]

وقال فرعون لكبار قومه ورؤسائهم ما علمت لكم أى ليس لكم من إله غيرى كما يدعى موسى.
وحتى يؤكد لهم كلامه ..
التفت إلى واحد من زبانيته .. وقال :
فأوقد لى يا هامان ناراً على الطين ليتحمل البناء العالى فاجعل لى أى: فابن لى به صرحاً قصراً عالياً لعلى أصعد عليه، وأطلع إلى إله موسى هذا ٠٠ الذى يدعونا إلى الإيمان به.
وإنى لأظنه من الكاذبين فى دعواه.
ولم يبن هارون الصرح.
ولم يصعد فرعون ليطلع إلى إله موسى ..!!

{ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٤٠]

يعنى : و مع ذلك استكبر فرعون وجنوده على الله، فلم يؤمنوا .
وطغى على الناس فى الأرض بغير الحق أى : ظلماً وعدواناً.
و ما ذلك : إلا لعدم تصديقهم باليوم الآخر؛ حيث ظنوا أنهم إلينا لا يرجعون بعد الموت، وسنحاسبهم.

* * *

وعاث فرعون فى الأرض فساداً.
واستمر على كفره، ولم يؤمن بالله عناداً ..

{ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ }
[الآيات ٤٠ – ٤٢]

يخبر تعالى أنه : أنزل بفرعون وجنوده ، خمس عقوبات :

الأولى : فى الدنيا ..
وهى : الإهلاك فأخذناه وجنوده فنبذناهم فأغرقناهم بقدرتنا فى اليم وهو البحر، فى لحظة واحدة.
فانظر واعتبر يا كل ظالم كيف كان عاقبة الظالمين السيئة..!!
الثانية : فى الآخرة ..
حيث : جعلهم قادة إلى النار، كما كانوا فى الدنيا قادة للكفر والشر وجعلناهم أئمة يدعون الطغاة ويرشدونهم إلى طريق النار ودخولها.
الثالثة : فى الآخرة ..
وهى : خذلانهم وعدم نصرتهم ويوم القيامة لا ينصرون من العذاب، حين يطلبون الهروب منه.
الرابعة : فى الدنيا ..
وهى : لعنهم إلى يوم الدين وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة أى : طرداً من رحمة الله، على ألسنة الأنبياء والمؤمنين.
الخامسة : فى الآخرة ..
وهى : تقبيح صورهم وأرواحهم ويوم القيامة هم من المقبوحين أى : الفاسدين روحاً، المشوَّهين وجوها.

* * *

أيها المستمعون الكرام ..
خبرونى .. أبعد هذا العذاب عذاب ..؟
لذلك : يرشد المولى أهل زمان موسى عليه السلام إلى طريق النجاة من وقوع مثله بهم ..
وذلك عن طريق التمسك بما جاء به موسى.
يقول ربنا جلت حكمته :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }
[الآية ٤٣]

وكتاب موسى : هو التوراة .
وقد أعطاها الله لموسى حين بعثه بعد هلاك القرون الأولى .
وهى : قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، على هؤلاء الأنبياء السلام.
وكانت التوراة : بصائر أى أنواراً للناس يبصرون بها الرشد والسعادة وهدى لهم من الضلال ورحمة لمن تعبد بها لربه.
كل ذلك لعلهم يتذكرون أى : يتعظون.

* * *

هذا ..
وبعد أن انتهت قصة موسى عليه السلام :
يخاطب الله محمداً صلى الله عليه وسلم : بما يُثبتُ به للدنيا كلها نبوته ورسالته.
حيث يقول ربنا تبارك وتعالى له :

{ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }
[الآيات ٤٤-٤٦]

فى هذه الآيات الكريمة .. من الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما يلى، حسب قوله تعالى له :

الدليل الأول : وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى الذى كان فيه ميقات موسى مع ربه إذّ وقت أن قضينا أوحينا إلى موسى الأمر بالرسالة ،،،!!
ولكن أعطيناك العلم به.

الدليل الثانى : وما كنت من الشاهين الحاضرين هذا اللقاء الإلهى مع موسى ،،!!

ولكن أعطيناك العلم به.

ولكنا أنشأنا خلفنا قروناً أى : أمماً فتطاول عليهم العمر وَبَعُدَ عهدهم عن هذه الرسالة، ووقع التحريف،،!!

فأرسلناك لتجديد الدعوة ،، وأعطيناك علم ذلك كله.

نعم ،، أرسلنك إليهم :

الدليل الثالث : وما كنت يا محمد ثاوياً مقيماً فى أهل مدين حتى تتلوا عليهم على أهل مكة آياتنا التى حدثت معهم ،،!!

ولكنا كنا مرسلين لك، فأعطيناك العلم به.

الدليل الرابع : وما كنت بجانب الطور فى سيناء إذ نادينا موسى، ليلة المناجاة ،، !!

ولكن أعطيناك العلم به رحمة من ربك بالعباد .

وذلك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير يدعوهم إلى الله، ويخوفهم عقابه من قبلك أى فى الفترة التى بينك وبين عيسى عليه السلام ؛ لعلهم يتذكرون يتعظون.

ويدخل فى هذه الفترة : كل أهل الكتاب، الذين حرفوا كتبهم، وغيروا فيها وبدلوا.

* * *

يا أيها السادة :

من عجيب الأمر : أن هؤلاء القوم الذين قدمت الأدلة الدامغة لهم على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته .

يخبر عنهم ربنا بقوله :

{ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }

[الآية ٤٧]

يعنى : ولولا أن تصيبهم مصيبة عقوبة بما قدمت أيدهم أو قلوبهم فيقولوا ساعتها ربنا لولا أى : هلّاأرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى الإيمان بك وتوحيدك فنتبع بعد دعوته لنا آياتك ونكون من المؤمنين بك.

أى : حتى لا يقولون ذلك ، ويتعللون لكفرهم ..

أرسلناك إليهم، وإلى الدنيا كلها بالحق بشيراً ونذيراً.

* * *

{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ }
[الآية ٤٨]

أى : فلما جاءهم الحق من عندنا وهو القرآن المعجز، مع رسولنا قالوا عناداً لولا أوتى من الآيات الحسية مثل ما أوتى موسى كالعصى، واليد، وغير ذلك ..؟
حقا : إنه تنطع منهم وعناد.
ومع ذلك يرد الله عليهم، قائلاً :

أولاً : أو لم يكفروا بما أوتى موسى من الآيات من قبل القرآن ..؟
حيث قالوا فى موسى وهارون سحران أى ساحران من تظاهرا تعاونا مع بعضهما البعض.
وقالوا أيضاً إنا بكل واحد منهما كافرون.

* * *

ثم يرد المولى ثانياً عليهم بقوله للحبيب صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٤٩]

يعنى : قل لهم يا محمد ..
ما دمتم قد كفرتم بالتوراة وبالقرآن :فأتوا أنتم بكتاب غيرهما من عند الله يكون هو أهدى منهما وأنا أتبعه لأنى لا أستكبر عن اتباع الهدى من الله.
هيا افعلوا .. إن كنتم صادقين فى رغبتكم الوصول للحقيقة.

* * *

وبالطبع ..
لن يأتوا بذلك، ولن يستطيعوا، بل لن يستجيبوا لهذا العرض.
لذلك يقول القوى القاهر :

{ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ٥٠]

يعنى : فإن لم يستجيبوا لك فيما عَرَضْتَه عليهم يا محمد، ولن يستجيبوا فاعلم أنما يتبعون أهوائهم بلا دليل ولا حجة.

وعلى ذلك : فهم ضالون عن الحق والصواب.

وحقاً .. من أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟

لا أحد مطلقاً.

حيث إن الله لا يهدى بهداه القوم الظالمين.

* * * ومع أنهم : عاندوا ، وكفروا ..!!

ومع أنهم : لم يستجيبوا لك فى أن يأتوا بكتاب من عند الله أهدى من التوراة والإنجيل..!!

فإنا لم نهمل بلاغهم ..

{ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }
[الآية ٥١]

يعنى : ولقد أنزلنا لهم القرآن موصولاً بعضه ببعض، الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب، متتابعاً فى النزول، حسب الحوادث والنوازل.

كل ذلك لعلهم يتذكرون فيتعظون فيؤمنون.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

استمعنا فيما سبق إلى الآيات الكريمة .. التى يثبت الله بها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

فلنستمع الآن إلى ما يؤكد ذلك مرة أخرى.

يقول تعالى :

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ }
[الآيتان ٥٢ ، ٥٣]

أى : أن الذين آتيناهم الكتاب التوراة والإنجيل من قبله أى القرآن هم به أى : بمحمد صلى الله عليه وسلم يؤمنون لأنهم يعترفون بنبوته ..!!

وأما أنتم فليس معكم كتاب : ومع ذلك لا تؤمنون..!!

و هؤلاء أيضا : كانوا إذا يتلى عليهم القرآن قالوا آمنا به بعد نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم؛ حيث إنه الحق من ربنا.

ثم قالوا إنا كنا من قبله أى من قبل نزوله مسلمين له، مؤمنين؛ لما وجدنا من البشارة بمحمد فى كتب الأنبياء السابقين.

* * *

وبعد أن بين الله أن إيمانهم مرتين :
مرة بالكتب السابقة .
ومرة بالقرآن الكريم.
أخبر أنهم يكافؤن مرتين كذلك.
فقال :

{ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ }
[الآيتان ٥٤ ، ٥٥]

يعنى : أولئك الموصوفون بهذا الوصف ..يؤتون من الله تعالى أجرهم على إيمانهم هذا مرتين.

وذلك بما صبروا أى : بصبرهم على الطاعة، حينما آمنوا بكتابهم الأول واتبعوه، ثم على إيمانهم بالقرآن واتباعهم له.

وبعد أن وصفهم ربنا عز وجل .. بالصبر.
أضاف إلى هذه الصفة أيضاً : صفة أخرى ..
وهى : أنهم يدرؤن يدفعون بالسيئة الحسنة أى : المعصية بالطاعة.
وصفة ثالثة ..
وهى : أنهم ينفقون ومما رزقناهم ينفقون أى : ينفقون على خلق الله من الرزق الحلال.
وصفة رابعة ...
وهى : أنهم يبعدون أنفسهم عن اللغو ومجالسه وإذا سمعوا اللغو من القول أعرضوا عنه وابتعدوا .
وقالوا لأصحابه : أنتم فى واد ونحن فى واد آخر لنا أعمالنا ولكن أعمالكم .
ثم فارقوهم وقالوا سلام عليكم نحن لا نبتغى مخالطة الجاهلين بشرع الله، المبتعدين عن الالتزام بتعاليمه.

* * *

وهكذا ..
اتضحت وثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بما لا يدع مجالاً لتشكك ..

ولكن .. ماذا تفعل مع الطبيعة الجاحدة، والقلوب المغلقة المعاندة ..؟
ولذلك يقول ربنا لحبيبه وحبيننا صلى الله عليه وسلم :

{ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }
[الآية ٥٦]

أى : لا تحزن يا محمد لعدم إيمانهم بعد هذا كله ؛ حيث إنك لا تهدى بنفسك من أحببت له الهداية.
إنّ عليك البلاغ فقط والله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء هدايته إلى الحق.
وهو عز وجل أعلم بالمهتدين أى بالمستحقين للهداية؛ فيهديهم.

* * *

ثم يناقش أعذارهم الواهية فى عدم إيمانهم.
فيقول :

{ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٥٧]

يعنى : قال هؤلاء الكافرون لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لتبرير عدم إيمانهم به وعدم اتباعهم له ٠٠ إن نتبع الهدى معك ونخالف الناس من حولنا نتخطف من أرضنا يعنى : يعادوننا ويحاربوننا.
والعجيب .. أيها المستمعون الكرام ..!!
أنها نفس حجة من لا يطبقون شرع الله فى هذا الزمان ..!!
وكأن الناس من حولهم .. لا يعادونهم ولا يحاربونهم، حتى مع عدم تطبيقهم لشرع الله ٠٠!!
المهم ..
يرد الله عليهم هذا التبرير الكاذب بقوله جلت حكمته :
أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقاً من لدنا وهم كفار ٠٠؟
أفلا نفعل لهم ذلك وهم مؤمنون ٠٠؟
بل نفعل ٠٠ ونفعل.
ولكن أكثرهم لا يعلمون أنا قادرون على ذلك.
وإذا علموا : لا يسلمون بذلك، عناداً.
ومن هنا : فهم لا يؤمنون.

* * *

ولأن موقفهم هذا : هو عين الظلم ..!!
فإن الله يقول :

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ }
[الآية ٥٨]

أى : سنهلكهم؛ لعنادهم وظلمهم.

وكم أهلكنا قبلهم من أهل قرية بطرت معيشتها طغت فلم تشكر نعم الله عليها، وتحسن فيها، وتؤمن بسببها.

وهذه مساكنهم التى يمرون عليها، والتى يكتشفها علماء الآثار كل حين لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وليس لها وارث.

وكنا نحن الوارثين لها.
ألا يتعظون .. فيؤمنون ..؟

* * *

على أية حال :

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ }
[الآية ٥٩]

يعنى : فى أى زمان لم يهلك ربنا أحداً إلا وقد أرسل رسولاً يتلوا آياتنا، ويبلغ رسالتنا قبل هذا الإهلاك.
كذلك : ما أهلكنا أحداً إلا وهو ممن يستحقون العذاب.

* * *

وهذا عذر واهٍ آخر فى عدم إيمانهم – أيها الكرام – ورد عليه.
يقول تعالت قدرته :

{ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ }
[الآيتان ٦٠ ، ٦١]

يعنى : لا ينبغى أن يكون متاع الحياة الدنيا وزينتها الفانية : صارفاً لكم عن الإيمان وطاعة الله، أو عن الإلتزام بشرع الله؛ حيث إن ما عند الله خير من هذا وأبقى منه.
أفلا تعقلون ذلك..؟
أيضاً ..
أفمن وعدناه نحن وعداً حسناً إذا آمن، وأطاع الله، والتزم بشرعه فهو لاقيه و واجده قطعاً : كمن متعناه متاع الحياة الدنيا لفترة قصيرة، وهو غير مؤمن ..؟
ثم هو فوق ذلك يوم القيامة من المحضرين إلى جهنم؟
إنهما أبداً .. لا يستويان.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..!!
بعد الرد على أقوال الكافرين والعصاة الفارغة : ينتقل الحديث إلى بعض مشاهد يوم القيامة.
إذ يقول الواحد الأحد :

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }
[الآية ٦٢]

هذا هو المشهد الأول ..
وفيه : بيان لبعض ما يحدث مع الكفار يوم القيامة.
ويوم يناديهم المولى فيقول لهم أين شركائى الذين كنتم فى الدنيا تزعمون أنهم شركائى؟
وفى هذا المشهد .. ينطقون ..!!
ويحكى العزيز العليم جوابهم بقوله :

{ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ }
[الآية ٦٣]

يعنى : ينطق الدعاة إلى الكفر، من شياطين الإنس والجن، وهم الذين حق عليهم القول أى : وجب عليهم العذاب.

فيقولون يا ربنا هؤلاء الذين أغوينا من الكفار أغويناهم باختيارهم كما غوينا باختيارنا، ولا إلزام لنا عليهم، ولا إكراه منا لهم، على كفرهم.
يا ربنا تبرأنا إليك منهم، ومن كفرهم، فهم ما كانوا إيانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءَهم، وشهواتِهم.

{ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ }
[الآية ٦٤]

أى : وقيل لجميع المشركين، حيئنذ ادعوا شركاءكم الآن لينقذوكم من العذاب.
فدعوهم ونادوهم ..
ماذا حدث ..؟
فلم يستجيبوا لهم لأنهم لا يجيبون، ولا يستطيعون.
ورأوا أى : ورأى المشركون العذاب أى : ونزل بهم العذاب.
يقول تعالى لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا : لما حدث لهم ذلك فى الآخرة.
وكأنها دعوة إلى مراجعة النفس : من الكافرين، والعصاة الضالين.

* * *

ثم يكون المشهد الثانى من مشاهد يوم القيامة ..
يقول العليم الحكيم ..

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ }
[الآية ٦٥]

أى : ويوم القيامة ينادهم المولى فيقول لهم : ماذا كان جوابكم الذى أجبتم به المرسلين حينما دعوكم إلى الإيمان ..؟

* * *

وفى هذا المشهد : يحاولون النطق، لكن لا يستطيعون ..
والسبب ..!!
يقوله المولى سبحانه :

{ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ }
[الآية ٦٦]

فعميت فخفيت عليهم الأنباء يومئذ فى كل شئ .
إنهم يفكرون، ويفكرون، حتى ينطقوا ويجيبون .. ولكنهم لا يصلون إلى معرفة شئ، لا عن الرسل، ولا عن بلاغهم لهم، ولا عن جوابهم هم.
وهذا الحال : فى جميعهم.
ولهذا فهم لا يتساءلون أى : لا يسأل بعضهم بعضاً، عن جواب هذا السؤال.

* * *

وهذا الموقف : لمن أصر على الكفر، ومات عليه.

{ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ }
[الآية ٦٧]

يعنى : فأما من تاب أى : رجع عن كفره، وآمن بالله، واتبع شرعه، وأطاع رسوله وعمل صالحاً يسعد به العباد، ويصلح به البلاد، ويرضى به الله : فعسى أن يكون من المفلحين الناجحين فى الدنيا، الفائزين فى الآخرة.

* * *

وعلى كل حال ..
فمرد الأمر كله إلى الله ..

{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ٦٨]

نعم .. وربك يخلق ما يشاء كما يشاء، فهو سبحانه المتفرد بعملية الخلق والإيجاد، و هو كذلك يختار ما يشاء لمن يشاء، حسب ما يناسبه فى علم الله.
ما كان لهم أى : البشر جميعاً الخيرة يعنى : الاختيار؛ بل عليهم التسليم المطلق لله، والتوكل الكامل عليه.
سبحان الله وتعالى عما يشركون معه من آلهة، لا تملك شيئاً من ذلك، ولا من غيره.

* * *

هذا ..

{ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ }
[الآية ٦٩]

أى : وربك سبحانه يعلم وحده ما تكن ما تخفى صدورهم من الإيمان، أو الكفر، أو الحقد على الإسلام وأهله وما يعلنون وسيحاسبهم على هذا وذاك.

* * *

{ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآية ٧٠]

يعنى : وهو الله سبحانه لا إله إلا هو ولا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار إلا هو، كما لا يعلم ما تكن صدور عباده جميعاً، سواه.
لذلك ..
له الحمد فى الأولى والآخرة أى : واجب على كل العباد.
وله الحكم أى : له التشريع، والتحليل والتحريم وحده؛ لأنه الخالق وحده.
وإليه ترجعون جميعاً، فيجازى كل واحد بما يستحق من الجزاء.

* * *

ثم يدلل الله عز وجل على هذه الوحدانية ..
فيقول :

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ }
[الآية ٧١]

أى : قل لهم يا محمد، ويا كل داع إلى الله في كل زمان ومكان ، لأهل الدنيا كلها أرأيتم أى : أخبرونى إن جعل الله عليكم الليل سرمداً دائماً إلى يوم القيامة بظلمته مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء
تبصرون به ..؟
أفلا تسمعون فتعقلون، فتؤمنون ..؟

* * *

ثم يقول أيضاً ..

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ }
[الآية ٧٢]

يعنى : أفلا تبصرون هذه النعمة، فتعقلون، فتؤمنون ؟..

* * *

ثم بين وجه إنعامه فى جعل الليل والنهار.
حيث يقول :

{ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }
[الآية ٧٣]

أى : أن الله عز وجل جعل لكم الليل والنهار لهذه الحكم :

أولاً : رحمة منه بكم، وإنعاماً عليكم.
ثانياً : لتسكنوا فى الليل من متاعب عمل النهار.
ثالثاً : لتبتغوا فى النهار بالسعى والعمل، من فضل الله تعالى، ورزقه.
رابعاً : ولعلكم تشكرون الله على ذلك، فتثابون.

* * *

أليس الله بعد ذلك .. هو الواحد الأحد، المتفرد بالخلق، الذى له ما يشاء ويختار ..!!؟
بلى .. وألف بلى.

* * *

ثم يكون المشهد الثالث .. من مشاهد يوم القيامة.

يقول تعالى :

{ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }
[الاية ٧٤]

يعنى : ويوم القيامة يناديهم المولى فيقول لهم أين شركائى الذين كنتم فى الدنيا تزعمون أنهم شركائى ..؟

* * *

وفى هذا المشهد : لا ينطق الكافرون كما فى المشهد الأول، ولا يحاولون كما فى المشهد الثانى ٠٠ بل : لا ينطقون تماماً.
لذلك يقول العزيز الحكيم :

{ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآية ٧٥]

أى : و لأنهم لا ينطقون جميعاً فى هذه الحالة نزعنا استخرجنا من كل أمة واحداً منهم، يكون شهيداً عليهم، يتكلم بدلاً عنهم.
فقلنا لهؤلاء المنتزعين هاتوا برهانكم دليلكم على شركائكم الذين كنتم تعبدونهم فى الدنيا.
فعلموا حينئذ أن التوحيد الحق لله والعبادة الحقة لله، لا لغيره.
لذلك : فلم ينطقوا، بدورهم أيضاً.
وضل عنهم وغاب عنهم كما عميت الأنباء على جموعهم ما كانوا يفترون كذباً من الشركاء.

* * *

هذا ،،
وتبدأ آيات السورة الكريمة ،،
فى ذكر قصة قارون .
يقول تعالى :

{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }
[الآيتان ٧٦ ، ٧٧]

يخبر ربنا عز وجل عن قارون بثلاثة أشياء :

الأول : أنه كان من قوم موسى يعنى : كان من بنى إسرائيل .
ويقولون : ملكة فرعون قد عليهم.
الثانى : أنه بغى عليهم أى : على قومه، وظلمهم، واستخف بهم، ولم يرع فيهم حق القرابة؛ بسبب غناه، وكثرة ماله.
الثالث : أنه كان من الأغنياء جداً وآتيناه من الكنوز أى الأموال ما إن مفاتحه التى تفتح بها خزائن هذه الكنوز لتنوء تثقل بالعصبة أولى القوة بالجماعة الأقوياء.

إذ قال له الصالحون من قومه وهم يعظونه : خمسة وصايا ..
وهى كما يلى :

الوصية الأولى : لا تفرح بالدنيا وزينتها ، فرحاً يؤدى بك إلى البطر والطغيان ؛ حيث إن الله لا يحب الفرحين الذين أحبوا الدنيا واطمأنوا إليها، ونسوا الآخرة، ولم يستعدوا لها.
الوصية الثانية : وابتغ فيما آتاك الله من الغنى والكنوز، ثواب الدار الآخرة باستعمال ما وهبك الله فى وجوه التقرب إليه.
الوصية الثالثة : ولا تنس نصيبك من الدنيا فى المباحات؛ استمتع بها على الوجه الذى يوافق شرع الله، بلا تقتير ولا إسراف.
الوصية الرابعة : وأحسن إلى الخلق بحسن المعاملة، وإلى الخالق بحسن الطاعة كما أحسن الله إليك.
الوصية الخامسة : ولا تبغ الفساد فى الأرض بالظلم، والصد عن سبيله؛ حيث إن الله لا يحب المفسدين الذين يؤذون العباد، ويخربون البلاد.

* * *

والله إنها لوصايا غالية ..
فهل استمع إليها قارون، وعمل بها ..؟
نعم .. استمع إليها .. ولكنه :

{ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ }
[الآية ٧٨]

أى : قال لهم : استريحوا من وصاياكم، فإنى لا أحتاج إليها، إذّ لا فضل لأحد فى هذا المال على إنما أوتيته واكتسبته على علم عندى أى : بمجهودى، وذكائى، وعلمى.

وهذا منه : قول فاسد، وفهم باطل.

أ جهل ولم يعلم أن الله القوى القادر قد أهلك من قبله من القرون السابقة من هو أشد منه قوة فى بدنه وأكثر جمعاً فى ماله ؛ وذلك لعدم شكرهم لله، وردهم الفضل فى ذلك إليه.

وبالتالى : فإنا قادرون على إهلاك هذا المغرور المجرم.

ولا يسأل عن ذنوبهم وعللها وسببها المجرمون بل يؤخذون أخذ عزيز مقتدر.

* * *

وبعد أن قال لهم قارون هذا الكلام ..!!

يقول تعالى عنه :

{ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ }

[الآيتان ٧٩ ، ٨٠]

يعنى : فخرج ذات يوم على قومه فى كامل زينته.

ولما رآه الناس على تلك الحال .. من روعة المنظر، وبهاء الزينة : انقسموا فريقين :

الفريق الأول : وهم الذين يريدون الحياة الدنيا ..

وهؤلاء قالوا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون من هذه الزينة، وتلك الأموال.

الفريق الثانى : وهم العلماء وأهل الدين.

وهؤلاء : لم يبهرهم هذا المنظر، ولم تفتنهم هذه الزينة ..

ولذلك قا لوا للذين بهروا ممن يريدون الحياة الدنيا : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن بالله وعمل صالحاً يرضى الله، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.

وقولهم هذا : يتوافق مع ما فى الحديث الصحيح "يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون [السجدة : ١٧].

ثم أكمل هذا الفريق كلامه، قائلاً ولا يلقاها أى : الجنة، التى هى ثواب الإيمان والعمل الصالح إلا الصابرون على عمل الطاعات، والبعد عن المعاصى، ولم يفتنوا بزينة الحياة الدنيا، ورضوا فيها بما قسم الله لهم.

* * *

هذا ..

ولما زاد بغيه وطغيانه : حل عقابه ..

يقول الجبار المنتقم :

{ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ }
[الآية ٨١]

يعنى فخسفنا به أى : بقارون وبداره معه الأرض.
وذلك : عقوبة له على بغيه.
ولما فعلنا ذلك :
فما كان له من فئة جماعة، ممن حوله من المنتفعين به، أو من غيرهم ينصرونه من دون الله أى يمنعونه أو يمنعون عنه عذاب الله.
وما كان هو من المنتصرين لنفسه؛ بما عنده من علم مزعوم، أو قوة موهومة.

* * *

وهلك قارون ..!!
وضاعت زينته ...!!
ولم ينفعه ماله ..!!

{ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }
[الآية ٨٢]

وأفاق الذين يريدون الحياة الدنيا..!!
وهم الذين تمنوا أن يكونوا مكانه أى مثله بالأمس : من هول صدمة خسف قارون ..!!
وعرفوا أن الدنيا لا تدوم، وأنها إن حلت أوْحلت، وإن كست أوْكست، وإن بسطت قبضَت، وإن أعطت أخذت، وأن زينتها ذاهبة.
لذلك : أصبحوا ..
يقولون ندماً وَىْ لإظهار هذا الندم.
ثم يقولون كأن الله يبسط الرزق يوسعه لمن يشاء من عباده بقدرته ويقدر أى : يضيقه على من يشاء من عباده بقدرته .
ثم قالوا : لولا أن من الله علينا بعفوه عن أمنياتنا الخاطئة، ونظرتنا الفاسدة للمال : لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون.
ويكأنه لا يفلح الكافرون مهما أوتوا من زينة الحياة الدنيا، وكثرة أموالها، وقوة البغى فيها.

* * *

وبعد أن قص الله علينا قصة قارون، وفتح عيوننا على ما فيها من دروس وعبر : يعقب عليها ببيان سنة من سننه تعالى.

حيث يقول :

{ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

[الآيتان ٨٣ ، ٨٤]

يعنى : تلك الدار الآخرة التى عرفتم أوصافها ٠٠نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض واستكباراً على أهلها ولا فساداً فيها.

وذلك : لا يكون منهم إلا بعدم إرادة المعاصى، وتركها بالتالى، وفعل الطاعات، والتعلق الدائم بمرضاة الله.

والعاقبة الحسنة، عندنا للمتقين.

ولذلك : من جاء بالحسنة يوم القيامة ..فله منا خير منها.

ومن جاء بالسيئة التى عملها فى الدنيا، من الكفر والمعاصى ٠٠فلا يجزى الذين عملوا السيئات من العقاب إلا مثل ما كانوا يعملون.

* * *

هذا .. ولما فصل ربنا فى أحوال الآخرة أيضاً : فصل فى بعض أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠

إذ قال :

{ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }

[الآية ٨٥]

أى : إن الله الذى فرض عليك أحكام وتعاليم القرآن وخصك به لرادك إلى مكة فى معاد حدده هو سبحانه، ويعلمه هو سبحانه، تدخلها فيه منتصراً، بعد أن أخرجوك منها وحيداً.

وهذه بشرى لمحمد صلى الله عليه وسلم، ودليل على نبوته .

حيث أخبر الغيب : وحققه الله له، وفق ما أخبر به.

لذلك قال له :

قل للناس جميعاً ربى أعلم من جاء بالهدى وهو أنا ومن هو فى ضلال مبين وهم المشركون.

* * *

وفى نهاية السورة : يذكّر الله محمداً صلى الله عليه وسلم ببعض نعمه عليه، ويطالبه بمجموعة أوامر ونواهٍ.
على النحو التالى :

{ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآيات ٨٦-٨٨]

يعنى : وما كنت ترجو أو تتوقع أو تظن أن يلقى وينزل إليك من ربك الكتاب أى : القرآن.
ولكن رحمة من ربك بك وبأمتك، وبالبشرية كلها : نزل هذا القرآن.
لذلك عليك بما يلى :

أولاً : فلا تكونن ظهيراً مساعداً، ولا مناصراً للكافرين الذين يعادونك، ويبغضون دينك، بل فارِقهم وخالفهم.
ثانياً : ولا يصدنك ويمنعك عن تبليغ آيات الله وأحكامه والعمل بها بعد أن أنزلت إليك أحد.
ثالثاً : وادع إلى توحيد ربك وطاعته، وعبادته.
رابعاً : ولا تكونن من المشركين انتساباً، أو مشاركة لهم فى عمل، أو اعتقاد.
خامساً : ولا تدع مع الله إلهاً آخر ليُعْبَد.
حيث لا تليق العبادة إلا له.
إذّ كل شئ هالك فانٍ إلا وجهه سبحانه، الحى القيوم، تموت الخلائق، ولا يموت.
له الحكم والأمر، والنهى، والتشريع، والتصرف، فى الدنيا والآخرة.
وإليه ترجعون أيها الناس كلكم، يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الـم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيات ١ – ٥]

هذه بداية سورة الروم المكية.
وهى : تخبر عن معركة وقعت بين الفرس المجوس، وبين الروم أهل الكتاب .
وقد غلب فيها الفرسُ الرومَ، وفرح بذلك المشركون.
كما تبشر هذه البداية : بمعركة أخرى تقع بين الروم والفرس؛ بعد ذلك.
يغلب فيها الرومُ الفرس .. ويفرح بذلك المؤمنون.

* * *

وألم هى واحدة من هذه الحروف التى افتتحت بها بعض السور؛ لجذب الاهتمام، ولفت الأنظار ، حتى يُسْمَع ما بعدها من القرآن.

غلبت الروم من فارس فى أدنى أقرب الأرض إلى العرب، وهى بلاد الشام.

وهم أى : الروم من بعد غلبهم وهزيمتهم أمام الفرس سيغلبون الفرس فى بضع سنين فى مدة لا تتجاوز العشر السنوات ؛ إذ البضع : هو من الثلاث إلى العشرة.

ولله وحده الأمر من قبل ومن بعد أى : من قبل النصر ومن بعده، وكذلك من قبل كل شئ ومن بعده.

ويومئذ أى: يوم ينتصر الروم أهل الكتاب ، على الفرس المجوس، وتتحقق البشارة يفرح المؤمنون بنصر الله لأنهم والروم يؤمنون بالله، وهؤلاء أهل الكتاب، وهؤلاء مثلهم أهل الكتاب .

والمعركة أصلاً : بين فريق الكفر وفريق الإيمان ، سواء بين الروم والفرس، أو بين المسلمين والمشركين.

لذلك : فرح المشركون لانتصار الفرس على الروم.
على أية حال :
ينصر الله من يشاء من عباده، على من يشاء منهم.
وهو سبحانه العزيز الغالب لأعدائه الرحيم العاطف على أوليائه.

* * *

كانت هذه البشارة ..

{ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٦]

يعنى : أن نصر الروم على الفرس .. وعد من الله ولا يخلف الله وعده أبداً.
وقد تحقق هذا الوعد بالفعل : وانتصر الروم على الفرس، فى ذات اليوم الذى انتصر فيه المسلمون على المشركين فى بدر، ورد الله شماتة المشركين بالمسلمين.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون صدق وعد الله.

* * *

وما ذلك .. إلا لأنهم :

{ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }
[الآية ٧]

أى : أن الذين لا يعلمون صدق وعد الله، ولذلك لا يلتزمون بشرعه :
يعلمون فقط ظاهراً واحداً من ظواهر الحياة الدنيا وشغلوا وفتنوا به ..
وهم فى ذات الوقت عن معرفة الآخرة والاستعداد لها بالعمل الصالح هم غافلون.

* * *

هؤلاء الذين غفلوا عن الآخرة.

{ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ }
[الآية ٨]

يعنى : أ غفلوا أيضاً ولم يتفكروا فى أنفسهم وهى أقرب شئ إليهم، ولو أنهم تفكروا لعرفوا أنه ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما عبثاً.

بل ما خلق الله ذلك كله إلا بالحق أى : لغاية وحكمة ٠٠ هى الحق كله، والصواب كله.
و كذلك أجل مسمى تنتهى عنده الخلائق.
وما دام هذا الخلق : ليس عبثاً، بل لغاية، ولأجل محدد ومعلوم عند الله تعالى؛ فإن القادر على ذلك : قادر على البعث.
وبذلك : فالبعث حق، ولقاء الله حق.
ومع هذا الوضوح : فـــ إن كثيراً من الناس بلقاء ربهم أى بالبعث لكافرون منكرون.

* * *

هؤلاء الذين ينكرون البعث : يهددهم الله بقوله ..

{ أوَ لمْ يَسيرُوا فِي الأرْضِ فيَنظرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قبْلِهِمْ كَانُوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأثارُوا الأرْضَ وَعَمَرُوهَا أكْثرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أسَاؤُوا السُّوأى أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ }
[الآيتان ٩ ، ١٠]

يعنى : أ قعدوا ولم يسيروا بأبدانهم، أو بعقولهم فينظروا ويتفكروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فى الدنيا من الهلاك ..؟
مع أنهم كانوا أى : الذين من قبلهم أشد منهم قوة كعاد وثمود وأثاروا الأرض حرثوها وزرعوها وأفادوا منها وعمروها بالبنيان وغيره أكثر مما عمروها أى : أكثر مما عمرتموها أنتم ..!!
وجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته، وقد أيدهم الله بالبينات وهى المعجزات الواضحة فى صدق نبوتهم.
ولكنهم .. كذبوهم : فأخذهم الله، وأهلكهم فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.
وهذا : فى الدنيا.
ثم كان عاقبة هؤلاء الذين أساؤا : هى السوآى أى : جهنم ...
وذلك : فى الآخرة.
بسبب أن كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده وقدرته وكانوا بها يستهزؤن.

* * *

هذا ..
ولما بين تعالى أن عاقبة هؤلاء المكذبين المستهزئين ٠٠ هى جهنم فى الآخرة.
أخذ يقدم الأدلة على إثبات هذه الآخرة، التى إليها يبعثون، وفيها يحاسبون.
فقال سبحانه :

{ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآية ١١]

أى : أن من قدر على الخلق ، وخلق : قادر على الإعادة ، وسيعيد ثم إليه ترجعون فيجازى كل واحد بما عمل.

فاعملوا خيراً ، واستعدوا ..

* * *

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ }
[الآيتان ١٢ ، ١٣]

يعنى : ويوم تقوم الساعة هذه يبلس المجرمون يتحيرون، ويكتئبون.

ولم يكن لهم أى : وليس لهم فى هذا اليوم العصيب من شركائهم الذين عبدوهم فى الدنيا شفعاء يشفعون لهم فى تخفيف العذاب عنهم .

خاصة : و هم الذين كانوا بسبب شركائهم هؤلاء كافرين بالله.

* * *

أيضاً :

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ }
[الآيات ١٤–١٦]

يعنى : ويوم تقوم الساعة هذه يومئذ يتفرقون أى يتفرق الناس باعتبار إيمانهم بالبعث ، واستعدادهم له قبل ذلك – إلى ٠٠ مسلمين وكافرين .

وهذه هى الفرقة : التى لا لقاء بعدها أبداً.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الدنيا : فهم اليوم فى روضة أى : فى جنة يحبرون يسرون وينعمون.

وأما الذين كفروا بالله ورسله وكذبوا بآياتنا الدالة على وجودنا ووحدانيتنا ٠٠ فى الدنيا : فأولئك فى العذاب محضرون مقيمون، لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم.

* * *

ولما بين ربنا – كما عرفنا – أنه فى يوم القيامة ، يتفرق الناس إلى فريقين : ناج، وهالك.
أتْبَع ذلك : بذكر ما يوصل إلى هذه النجاة، وينجى من هذا الهلاك.
فقال :

[فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ]
[الآيتان ١٧ ، ١٨]

فسبحان الله أى : نزهوا الله تعالى عن كل نقص وعيب، حيث له عز وجل كل كمال فى ذاته، وصفاته وأسمائه.
وهذا التنزيه يتناول :
التنزيه بالقلب : وهو اليقين الكامل، والاعتقاد الجازم.
والتنزيه باللسان : وهو الذكر الحسن.
وبالأركان : وهو العمل الصالح.
حيث إن الإنسان : اعتقد شيئاً بقلبه : ظهر على لسانه .
فإذا قال : ظهر صدقه فى مقاله، وظهر فى أفعاله .
فإذا فعل : ظهر صدقه فى أحواله.
ومن المعلوم : أن الصلاة أفضل الأعمال .
ولذلك : نوه على أهمية التنزيه فى هذه الأوقات.
حين تمسون فى صلاة المغرب والعشاء.
وحين تصبحون فى صلاة الفجر.
وعشياً فى صلاة العصر.
وحين تظهرون فى صلاة الظهر.
ومن المعلوم أيضاً : أن قوله وله الحمد فى السموات والأرض إشارة إلى أنَّ هذا التسبيح لنفع العباد ومصلحتهم ..
إذّ هو الغنى سبحانه عن العالمين.

* * *

وهو سبحانه الذى :

{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ }
[الآية ١٩]

أى : آمنوا به، ونزهوه عن كل نقص، وصفوه بكل كمال ..
فهو القادر على بعثكم بعد موتكم، وحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم فى يوم القيامة.
وهو الذى يخرج الحى من الميت كالحيوان من النطفة، أو الدجاجة من البيضة.
و هو الذى يخرج الميت من الحى على العكس مما سبق.
و هو الذى يحى الأرض بالإنبات بعد موتها بعدمه.
و كذلك أنتم تخرجون من قبوركم للبعث والحساب.

* * *

والدلائل على قدرة الله عز وجل على هذا البعث كثيرة ..!!
ومنها ما يلى :
يقول تعالى :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ }
[الآية ٢٠]

هذه أول الدلائل، التى يسوقها المولى هنا.
ونلحظ ابتداءً.
وركزوا معى – أعزكم الله – فى هذه الملحوظة.

أولاً : جملة ومن آياته سوف تتكرر هنا ست مرات.
ثانياً : هذه الآيات تتعلق بقدرة الله فى الأنفس والآفاق.
ثالثاً : ذَكَرَ اللهُ تعالى فى الأنفس من الآيات ..
أمرين أصليين .. وهما : خلقكم وخلق لكم من أنفسكم، يعنى .. الذكر، والأنثى
أمرين هما لازمين .. وهما : اختلاف ألسنتكم، واختلاف ألوانكم.
وأمرين عارضين .. وهما : منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله فى النهار.
رابعاً : ذكر الله تعالى فى الآفاق من الآيات.
أمرين أصليين .. وهما السموات و الأرض.
وأمرين لازمين .. وهما قيام الساعة بغير عمد، وقيام الأرض دون سقوط.
وأمرين عارضين .. وهما البرق و نزول المطر.

* * *

وتعالوا بنا إلى استعراض هذه الآيات سريعاً.

أولاً : ومن آياته سبحانه فى الأنفس .
الدالة على قدرته : وتوحيده.
أن خلقكم أيها الناس من تراب باعتبار أصلكم، أو غذائكم ثم إذا أنتم بشر تنتشرون على وجه الأرض، تتصرفون فى أمور حياتكم ومعاشكم.

* * *

ثانياً :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآية ٢١]

يعنى : ومن آياته سبحنه فى الأنفس ..
الدالة على : قدرته، وتوحيده .
أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ، أى من : جنسها ، ليكون الألف وليس التنافر.
و كذلك جعل بينكم مودة ورحمة تفيض منهما على أهل الدنيا جميعاً.
إن فى ذلك المذكور لآيات بينات واضحات لقوم يتفكرون فى صنع الله.

* * *

ثالثاً :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }
[الآية ٢٢]

يعنى : ومن آياته سبحانه فى الآفاق، وفى الأنفس ..

الدالة على : قدرته، وتوحيده.
خلق السموات والأرض بهذا النظام البديع الفريد العظيم.
و كذلك اختلاف ألسنتكم لغاتكم المتعددة وألوانكم المتباينة.
إن فى ذلك المذكور لآيات بينات واضحات للعالمين.

* * *

رابعاً :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾
[الآية ٢٣]

يعنى : ومن آياته سبحانه فى الأنفس ..
الدالة على : قدرته، وتوحيده.
منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله أى منامكم بالليل، وابتغاؤكم أى طلبكم الرزق من فضله بالسعى فى ذلك بالنهار.
إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون سماع تدبر وفهم.

* * *

خامساً :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
[الآية ٢٤]

يعنى : ومن آياته سبحانه فى الآفاق ..
الدالة على قدرته، وتوحيده.
إنه يريكم البرق فى السماء خوفاً من الصواعق وطمعاً فى نزول المطر بعده.
و كذلك ينزل من السماء أى : السحاب ماءً وهو المطر فيحيى به الأرض بالإنبات بعد موتها.
إن فى ذلك المذكور لآيات بينات واضحات لقوم يعقلون أى يستعملون عقولهم.

* * *

سادساً :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ }
[الآية ٢٥]

يعنى : ومن آياته سبحانه فى الآفاق ..
الدالة على : قدرته، وتوحيده.
أن تقوم أى : قيام السماء هكذا بغير أعمدة.
و كذلك الأرض ثابته دون أن تسقط فى هذا الفراغ الكونى الرحيب الرهيب.
وذلك بأمره وتدبيره، وقدرته، سبحانه.
ثم فى يوم القيامة إذا دعاكم أيها البشر وأنتم فى قبوركم للبعث من الأرض إذ أنتم سراعاً تخرجون للعرض، والحساب، والجزاء.

* * *

أبعد كل هذه الدلائل والآيات : تكذبون بالبعث، ولا تؤمنون بهذا الإله ، القادر، الواحد، سبحانه وتعالى ..؟!!

* * *

يقول تعالى :

{ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

أى : أتكذبون وله سبحانه من فى السموات والأرض ملكاً وتصرفاً.
وكل له وحده قانتون خاضعون.
فلم لا تصدقون، وتخضعون ..؟
خاصة :

وهو سبحانه الذى يبدأ الخلق لا غيره ثم يعيده بالبعث للحشر والحساب والجزاء، لا غيره وهو أى أهون وأيسر عليه.

و أيضاً له سبحانه المثل الأعلى الوصف الأعلى على ألسنة من فى السموات والأرض لا غيره.

وهو سبحانه العزيز الحكيملا غيره .

* * *

أيها الكرام ..!!

إذا كانت الآيات السابقة : تدل على قدرة الله ووحدانيته..!!

فإن رب العزة سبحانه وتعالى يؤكد على موضوع الوحدانية، بضرب المثل التالى للمشركين ..

فلنستمع إليه سوياً :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

[الآية ٢٨]

يعنى : ضرب الله لكم أيها المشركون مثلاً من أنفسكم يدل على وحدانية الله فأنتم فيه سواء أى : متساوون ..؟

وفى ذات الوقت تخافونهم أن يقاسموكم فيه، أو يحاسبوكم عليه كخيفتكم أنفسكم معاشر الأحرار ..؟

طبعاً .. لا.

فكيف إذا لا ترضون هذا لأنفسكم من عبيدكم وهم بشر مثلكم، وترضون هذا لله من أصنام لا تعى ولا تعقل ..؟

كذلك التوضيح : تفصل الآيات والدلائل لقوم يعقلون.

* * *

على أية حال : ليست المسألة عند هؤلاء انعدام عقل، بل عدم استخدام العقل.

يقول تعالى :

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

[الآية ٢٩]

أى : بل اتبع هؤلاء الذين ظلموا وكفروا أهواءهم وشهواتهم بغير علم أتاهم بذلك، أو دليل عندهم ٠٠

وضلوا ...!!
فمن يهدى من أضل الله ..؟
لا أحد.
وما لهم من ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله حين ينزل بهم.

* * *

وبعد ..!!
وبعد أن اتضحت جلياً قدرة الله ووحدانيته : لكل ذى عقل.
وبعد أن لم يستفد منها، أو ينتفع بها المكذبون : المعاندون.
يوجه الله تعالى المصدقين .. قائلاً :

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٠]

أى : فأقم وجهك يا محمد، ويأكل مؤمن للدين واستقم عليه، والتزم بتشريعاته وأحكامه .
وكُنْ حنيفاً أى : مائلاً، ومبتعداً عن كل الأديان المحرفة، والملل الفاسدة.
حيث إن دين الله، الذى هو الإسلام : هو فطرت الله أى الخلقة التى فطر الله الناس عليها.
لا تبديل لخلق الله أى : لا ينبغى لأحد أن يبدل أو يحاول أن يبدل هذه الفطرة.
أيضاً ذلك الدين الذى نطالبك بالاستقامة عليه، والالتزام به هو الدين القيم الذى لا انحراف فيه، ولا اعوجاج لمبادئه.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

* * *

ثم يكمل هذا التوجيه .. بقوله :

{ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }
[الآيتان ٣١ ، ٣٢]

يعنى : وكونوا منيبين إليه مقبلين عليه، راجعين إليه فى كل ما أمر به وكل ما نهى عنه.
واتقوه إذا أقبلتم عليه، ولا تأمنوا فتهملوا، بل خافوه، وداوموا على عباده.

وأقيموا الصلاة أدوها، وحافظوا عليها.

ولا تكونوا من المشركين فى عبادتكم غيره سبحانه، بل كونوا موحدين، مخلصين لله فى كل شئ ..

يعنى : لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم بدلوه، وحرفوه، وغيروه، وتفرقوا من بعده وكانوا شيعاً وأحزاباً وصار كل حزب منهم بما لديهم من باطل فرحون به.

* * *

ثم يبين ربنا بعضاً من طبيعة الإنسان ..

فيقول :

{ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ }

[الآيات ٣٣ – ٣٥]

أى : أنه إذا مس الشيطان ضر وأصابتهم شدة ، أو أية أزمة : دعوا ربهم وأخلصوا له الدعاء منيبين إليه قاصدونه وحده.

ثم إذا تغير حالهم، وذهبت عنهم الشدة، وزالت عنهم الأزمة : إذا فريق منهم بربهم يعودون إلى ما كانوا عليه ، ويشركون بالله.

دَعْهُم ..

ليكفروا بما آتيناهم من نعم .

ويكفروا – كذلك – بصاحب هذه النعم، كما يريدون، ويملى عليهم هواهم.

نقول لهم :

فتمتعوا يا من كفرتم ..فسوف تعلمون وبال كفركم، وعاقبة شرككم.

ثم يعجب ربنا من حالهم..

فيقول :

أم أنزلنا عليهم سلطاناً حجة ودليلاً.

يعنى : هل أنزلنا لهم دليلاً فهو يتكلم ويدل لهم ويساعدهم فى موقفهم وتمسكهم بما كانوا به يشركون ..؟

كلا ..

إن موقفهم هذا : انحراف عن فطرة الله الموحِّدة.

* * *

كذلك :

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

أى : أنه إذا أذقنا الإنسان رحمة منا، وأنعمنا عليهم بنعمنا : فرحوا بها فرح بطر وغرور.

وإن تصبهم سيئة مصيبة، أو أزمة بما قدمت أيديهم أى : بسبب منهم، كمعصية، أو إهمال : إذا هم يقنطون من رحمة الله.

يعنى : حال الناس عجب .. !!

فهم فى المصائب، والأزمات : بين رجاء وقنوط .

وفى الرخاء : بين غرور وكفران.

أو لم يروا ويعلموا أن الله سبحانه .

هو الذى يبسط الرزق يوسعه لمن يشاء ابتلاءه بالسراء من عباده .. !! ؟

وهو الذى يقدر يضيق، لمن يشاء ابتلاءه بالضراء من عباده ..؟

إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

* * *

أيها الأحبة .. ما دام الله هو الباسط وهو القابض ... !!

ومنه تبارك وتعالى يكون الغنى، وبأمره يكون الفقر ..!!

إذن ..

{ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية ٣٨]

يعنى : فأعط ذا القربى فقيراً كان أو غنياً حقه من الصدقة، والصلة، والبر و كذلك المسكين وابن السبيل وهو المسافر المحتاج إلى نفقة.

ذلك أى : إعطاء هؤلاء والإنفاق عليهم خير للذين يريدون وجه الله وثوابه، ومرضاته.

وأولئك المعطون الخيرون هم المفلحون فى الدنيا والآخرة.

* * *

هذا ..

{ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ }
[الآية ٣٩]

أى : إذا لم تعطوا الأقارب والمساكين وأبناء السبيل ، حقوقهم من أموالكم، على جهة الصدقة .. !!
بل آتيتم أموالكم رباً ليربوا فى أموال الناس ويزيد لكم : فلا يربو عند الله أى : فلا يبارك الله فيه ؛ حيث يمحقه، يمحق الله الربى ويربى الصدقات [البقرة : ٢٧٦].
و أما ما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله وثوابه، ومرضاته ، به : فأولئك الذين يفعلون ذلك هم المضعفون المضاعفون لحسناتهم عند الله.

* * *

وهو ..

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية ٤٠]

يعنى : الله عز وجل وحده .. هو الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم لا شريك له فى ذلك كله.
فهل من شركائكم أيها المشركون من يفعل من ذلكم المذكور من شئ ولو بسيط ..؟
لم يجيبوا ..!!
ولن يجيبوا ..!!
سبحانه وتعالى عما يشركون به.
وعلى هذا : فالشرك فظيع.

* * *

وهذه بعض آثاره ..

{ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآية ٤١]

ظهر الفساد : أى كثر وانتشر، وعلا صوته، وارتفع أصحابه .
والفساد : هو الانحراف عن أوامر الله، وعدم إسعاد العباد، وعدم إصلاح البلاد.
نعم ..
ظهر الفساد .
فى البر والبحر أى صار عاماً.
وذلك بما كسبت أيدى الناس من المعاصى والذنوب، والشرك بالله.
وكان ذلك ليذيقهم الله نتائج وآثار بعض الذى عملوا من الخطايا.
لعلهم يرجعون عن هذه المعاصى.

* * *

إن كانوا يشكون فى هذا : ويريدون دليلاً ..!!

{ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ }
[الآية ٤٢]

أى : قل لهم سيروا فى الأرض فانظروا واعتبروا كيف كان عاقبة الذين عصوا من قبل ..؟
حيث أهلكناهم.
وذلك : بسبب أنه كان أكثرهم مشركين.

* * *

وما دام الأمر كذلك ..!!

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ }
[الآية ٤٣]

أى : فأقم وجهك أيها المؤمن للدين القيم الذى هو الإسلام، واستقم عليه، والتزم بتشريعاته.
وذلك من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله وهو يوم القيامة.
يومئذ يصدعون يتفرقون ..
وهم أهل الموقف.

* * *

{ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ }
[الآيتان ٤٤ ، ٤٥]

يعنى : من كفر منهم : فعليه وبال كفره وهو جهنم.
ومن عمل صالحاً منهم : فلأنفسهم يمهدون طريقهم إلى الجنة.
وذلك :
ليجزى الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات على أعمالهم من فضله.
وأما الذين كفروا : فـــ إنه لا يحب الكافرين بل يعاقبهم.

* * *

كل ذلك أيها الناس .. فى اليوم الآخر : الذى ينبغى أن تؤمنوا به، وأن تستعدوا له.
وللتدليل على ذلك اليوم : يقول تعالى ..

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }
[الآية ٤٦]

أى : ومن آياته الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته على بعث الخلائق، وحسابهم، ومجازاتهم ..
أن يرسل بقدرته الرياح..

أولاً : مبشرات بالمطر، الذى يغيثكم الله به من القحط والجفاف والمجاعات.
ثانياً : وليذيقكم من رحمته حينما ينزل المطر، وتنبت الأرض.
ثالثاً : ولتجرى الفلك فى البحر عند هبوبها بأمره أى : بتصريفه وتدبيره.
كل ذلك منه سبحانه وتعالى لكم .
ولعلكم تعرفون هذه الإنعامات الإلهية وتشركون الله عليها..!!

* * *

هذا ..

ومن المعلوم .. أن قضية اليوم الآخر، والجزاء فيه، والتدليل عليه: قضية فى غاية الوضوح، حيث بُعِثت بها الرسل، وأقيمت عليها الدلائل :

استمع إلى قوله تعالى :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }

[الآية ٤٧]

يعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم لدعوتهم إلى توحيد الله، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، والاستعداد له .

فجاؤهم بالبينات الدالة على صدق ذلك.

فكذبوهم.

فانتقمنا من الذين أجرموا أى : كفروا .

وذلك : بالإهلاك عليهم فى الدنيا، ونصرنا المؤمنين عليهم .

وكان حقاً علينا نصر المؤمنين.

* * *

والذى ينتقم من المجرمين، وينصر المؤمنين .. هو :

{ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ }

[الآيتان ٤٨ ، ٤٩]

أى : هو الله الذى يرسل الرياح بقدرته فتثير سحاباً وتحركه فيبسطه الله فى السماء أى : فى جهتها كيف يشاء على الوضع الذى يريده.

ويجعله سبحانه كسفاً أى : قطعاً متفرقة فترى الودق أى المطر يخرج يسقط من خلاله أى : من بين ثناياه.

فإذا أصاب الله به أى : بهذا المطر، وأسقطه على بلاد من يشاء من عباده أن ينزله عليهم : إذا هم يستبشرون ويفرحون بنزوله عندهم، وسقياهم منه، وانتفاعهم به وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر، منذ مدة طويلة من قبله المبلسين آيسين من نزوله، فاقدين الأمل من سقوطه.

* * *

{ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٥٠]

فانظر أيها الإنسان إلى آثار رحمة الله وهى المطر، وكيف يحى الله به الأرض بعد موتها فتنبث وتثمر للناس ما يحتاجون إليه، ويعيشون عليه..!! ؟

لتعرف قدرة الله سبحانه على البعث.

حيث إن فى ذلك الذى فعل هذا .

لمحى الموتى وباعثهم من قبورهم ..

وهو سبحانه على كل شئ قدير.

* * *

هذا ..

{ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ }
[الآية ٥١]

أى : ولئن أرسلنا لهؤلاء الذين يستبشرون بالمطر ريحاً مصفراً لا يمطر فرأوه مصفراً وأصيبوا بآثار اصفراره من الجفاف وغيره ..لظلوا من بعده يكفرون بكل نعم الله، بدل أن يصبروا على بلائه لهم بقلة المطر ، ويَجِدُّوا فى أعمالهم، ويتوكلوا عليه.

* * *

مثل هؤلاء فى الناس : هم موتى القلوب.

{ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ }
[الآيتان ٥٢ ، ٥٣]

يعنى : فلا تحزن لعدم إيمانهم ؛ إذ هم موتى فإنك لا تسمع الموتى وهم صم عن الحق ، وأنت لا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا جميعاً هؤلاء وهؤلاء مدبرين معرضين عنك.

و أيضاً ما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم.
إن تسمع أى : أنت لا تُسْمِع ، ولا يسمع منك سماع تدبر إلا من يؤمن بآياتنا وهو القرآن .
فــ هؤلاء هم مسلمون أى : منقادون للحق، خاضعون له، عاملون به.

* * *

أتذكرون أيها الأحباب : آيات الله فى الأنفس والآفاق .
التى ذكرت فى أول السورة ..؟
والتى كانت تبدأ بقوله تعالى ومن آياته ..؟
يلاحظ : أن الله عز وجل .. أعاد ذكر بعض آياته فى الآفاق ، بقوله تعالى – كما استمعنا – منذ قليل الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً .. الآية ..!!
وهنا : سيعيد سبحانه أيضاً بعض آياته فى الأنفس.
وذلك لمزيد التأكيد على وحدانيته، وقدرته، وإثبات اليوم الآخر.
حيث يقول :

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ }
[الآية ٥٤]

يعنى : هو الله الذى خلقكم من ضعف ماء مهين .
ثم جعل من بعد ضعف آخر، وهو الطفولة قوة وهى قوة الشباب .
ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعفاً وهو ضعف الكبر وشيبة وهو الهرم.
سبحانه يخلق ما يشاء من الضعف والقوة ، والشباب والهرم.
وهو سبحانه العليم بأحوال خلقه القدير على تغيير هذه الأحوال.

* * *

ولما فصلت الآية فى أحوال بدء الخلق : جاء التفصيل بعض الشئ فى أحوال إعادة الخلق .. على النحو التالى :

{ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }
[الآيات ٥٥-٥٧]

يعنى : ويوم تقوم الساعة .
يقسم يحلف المجرمون الكافرون ..
ولكن .. علام يحلفون ..؟
يحلفون على : أنهم ما لبثوا ما عاشوا فى الدنيا، أو ما بقوا فى قبورهم غير ساعة واحدة.
كذلك العُمْى عن الصدق كانوا يؤفكون يصرفون عن الإيمان بيوم البعث هذا ٠٠ فى الدنيا.
وأما الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة وغيرهم : فيقولون غير ذلك.
إذّ يقولون لهم : لقد لبثتم مكثتم فى كتاب الله وقضائه إلى يوم البعث.
ويلاحظ : أن أهل العلم والإيمان .. هم الذين كانوا يعلمونهم بأمر هذا البعث قبل ذلك ٠٠فى الدنيا أيضاً.
ثم يوبخونهم على إنكارهم السابق ليوم البعث هذا ، قائلين لهم : فهذا يوم البعث أنتم فيه الآن ولكنكم كنتم فى الدنيا لا تعلمون أنه آت ، لعنادكم وكفركم، وتكذيبكم الرسل.
ولكن : ماذا يفيد العتاب، أو التوبيخ، أوالاعتذار ٠٠؟
لقد فات الأوان..!!
فيومئذ :
لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم عن كفرهم .
ولا هم يستعتبون أى : لا يطلب منهم الاعتذار .
ولا ينفعهم الاعتذار .. إذا اعتذروا ..!!

* * *

ولكن .. هل بقى مجال للحديث عن الاعتذار ..؟
أبداً والله ..
يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ }
[الآيتان ٥٨ ، ٥٩]

يعنى : ولقد وضحنا للناس الحق ، وضربنا لهم عليه الأمثال ؛ ليفهموه ، فيتبعوه.
ولكن الذين كفروا مهما جئتهم بالآيات والدلائل : يقولون إن أنتم إلا مبطلون وهذا زور وباطل.
كذلك يطبع الله ويختم على قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون الحق ويعاندونه، ويجادلون فيه.

* * *

لذلك ..

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ }
[الآية ٦٠]

أى : فاصبر على عنادهم وتكذيبهم إن وعد الله بنصرك على أعدائك، وإظهار دين الإسلام على كل الأديان حق ووعد من الله .

ووعد الله لا يتخلف.

ولا يستخفنك الذين لا يوقنون أنك على الحق، وأن الله ناصرك، أى : لا يحملونك على استعجال النصر، أو الجزع مما يقولون لك أو عنك.

فأنت بعون : الله منصور.

ودينك بإذن : الله منصور.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى سورة : مكية .
تبدأ بقوله تعالى :

{ الـــم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآيات ١ -٥]

هذه آيات من الكتاب الحكيم وهو القرآن، الذى نزل من حكيم خبير. وهو كتاب حكيم .. فى كل ما جاء به من تشريعات، وما حواه من آداب.

وهو هدى ورحمة للمحسنين يهديهم إلى كل خير، فينالون الرحمة فى الدنيا والآخرة.

والمحسنون هؤلاء : هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون.

وعلى ذلك : فلا يتصف بالإحسان إلا من .. أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأيقن بالآخرة.

وأنه : إذا وجدت هذه الصفات ..

وجد الإحسان .

وكان الاهتداء بالقرآن .

ونال أصحاب ذلك : الرحمة من الله ، فى الدنيا وفى الآخرة.

ثم يقول ربنا :

أولئك على هدى هداية وبصيرة من ربهم فى عقيدتهم وفى سلوكهم. وأولئك هم المفلحون الفائزون برضوان الله ، فى الدنيا والآخرة.

* * *

ثم يبين ربنا : أن الكفار ينشغلون عن هذا الخير كله.

فيقول سبحانه :

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآيتان ٦ ، ٧]

ومن الناس صنف آخر غير هؤلاء ..

وهو من يشترى ويختار، ويفضل لهو الحديث وهو ما يلهى عن طاعة الله، ويصد عن ذكر الله، والاعتبار بآياته، ويلهى عن القرآن كذلك.

وذلك ليضل نفسه، أو غيره عن سبيل الله وهو طريق الهداية، أو الإيمان، أو مزيد الطاعة بغير علم حقيقى، يستند إليه، أو يعتمد عليه، فيما يفعل.

وقد يكون : ممن يدعون العلم والمعرفة.

و هو فى ذات الوقت يتخذها أى : الآيات، أو سبيل الله هزواً يستهزئ بها، ويسخر منها.

أولئك لهم عذاب مهين.

و هؤلاء إذا تتلى عليه أى على الواحد منهم آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ‎٠٠‎ من القرآن : ولى أعرض عنها، ولم يستمع لها مستكبراً متكبراً مترفعاً عن الاستماع إليها.

كأن لم يسمعها بالمرة، مع أنه سمعها .

أو كأن فى أذنيه وقراً مع أنه ليس فى أذنيه شئ.

فبشره أى : فأعلمه بعذاب أليم ينتظره فى يوم القيامة.

* * *

ولما ذكر ربنا تبارك وتعالى جزاء هؤلاء الستكبرين : ذكر بعده جزاء المحسنين.

فقال :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآيتان ‎٨‎ ، ‎٩‎]

يعنى : أما الذين آمنوا بالله ورسله، وأحسنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأيقنوا بالآخرة، واستعدوا لها وعملوا الصالحات التى ترضى الله تعالى، وتصلح البلاد، وتسعد العباد : فـــ لهم عند الله جنات النعيم يكونون خالدين فيها لا يخرجون ولا يموتون.

وهذا وعد الله وكان وعد الله حقاً واقعاً لا محالة.

و كيف لا وهو العزيز الغالب الحكيم فيما قضى وقدر.

* * *

وهو سبحانه الذى من آيات قدرته :

أنه ..

{ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }
[الآية ١٠]

أولاً : خلق السماوات ورفعها بغير عمد أى : حوامل لها ترونها أصلاً لأنه لا حوامل، أو أن لها حوامل ولكنكم لا ترونها لأنها قدرة الله تعالى.

وهذا من مظاهر عزته سبحانه وحكمته.

ثانياً : وألقى فى الأرض رواسى أى : جبالاً ثابتة، لـــ أن لا تميد تضطرب بكم وبذلك : تتمكنون من الحياة عليها.

وهذا : من مظاهر عزته عز وجل وحكمته أيضاً.

ثالثاً : وبث أى : خلق ونشر فيها وهى الأرض من كل دابة أشكالا، وأصنافا، لمصالحكم، ومنافعكم.

وهذا – ثالثاً – من مظاهر عزته وحكمته.

رابعاً : وأنزلنا من السماء السحاب ماءً بقدر، تشربون منه، وتنتفعون به.

وهذا – رابعاً – من مظاهر عزته، وحكمته.

خامساً : فأنبتنا فيها أى فى الأرض بهذا الماء من كل زوج من النبات كريم حسن المنظر والطعم والرائحة.

وهذا – كذلك – من مظاهر عزته تعالى وحكمته.

* * *

أيها الناس ..

{ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }
[الآية ١١]

أى : هذا الذى ذكر هو من خلق الله العزيز الحكيم.

فأرونى إذاً : ماذا خلق الذين تعبدونهم من دونه سبحانه..؟

إن أحداً من الكافرين لا يستطيع ذلك؛ لأنه ليس أحد ممن يعبدونهم يخلق شيئاً أبداً ..!!

بل الظالمون الكافرون فى ضلال جهل وعمى وضياع مبين واضح، حيث إنهم لا يدركون : عزة الله، وحكمته سبحانه وتعالى فى كتابه، ولا فيما خلق، ولا فيما فعل ؛ ومن ثمَّ يكفرون ويعاندون.

* * *

هذا : وبعد أن أصبح واضحاً ..

أن الحكمة فى القرآن الكريم ..!!

يأتى نموذج عملى للحكمة .. فى قصة لقمان :
حيث نتعرف من خلالها : على أدب تلقى الحكمة من الله.
إذ يقول تعالى :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }
[الآية ١٢]

أى : ولقد آتينا من لدنا لقمان الحكمة وهى : الإصابة فى القول والفعل، والفهم، والعلم، وحسن التدبير.
وقلنا له أن اشكر لله على أن آتيناك ذلك.
حيث إنه من يشكر الله فإنما يشكر لنفسه ونَفْعُ شكره عائد إليه.
كما أن من كفر النعمة، ولم يشكر المولى عليها : فإن الله غنى عن هذا الشكر، لا يحتاج إليه؛ إذ هو حميد محمود فى نفسه .. شكره وحمده أحد، أو لم يشكره ويحمده أحد.
وقد دل ذلك على :
أن الله كمل لقمان بالحكمة .
وأن كل نعمة : ينبغى أن يكون عليها شكر لصاحبها ؛ أدباً فى تلقيها.

* * *

وبعد أن أصبح لقمان متحلياً بالحكمة فى نفسه : بدأ يُحلّى بها غيره.
وترينا الآيات التالية : كيفية نشر الحكمة وتعليمها ..
إذ يقول تعالى :

{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }
[الآية ١٣]

وهذه أول الحكم، وأشرف الوصايا، التى بدأ بها لقمان فى وعظه لابنه، وغيره ..
يا بنى لا تشرك بالله إذ كل وصية مع من يشرك بالله ، ويستمر على شركه : لا فائدة منها، ولا رجاء فيها.
كما أن التخلية من الشرك : مقدمة على التحلية بآية أدب أو وصية.
حقاً : إن الشرك لظلم عظيم.

* * *

الوصية الثانية :

{ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

[الآيتان ١٤ ، ١٥]

وهذه هى : الوصية بالوالدين، وبخاصة الأم منهما .

حيث إن الإنسان حملته أمه وهناً على وهن أى : ضعفاً على ضعف ، كلما مرت أيام الحمل و أيضاً فصاله عن أمه : أى رضاعه ، يكون فى عامين شاقين عليها كذلك.

والوصية هنا هى : الشكر لهما، والإحسان إليهما أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير فأجزيك على هذا الشكر الواجب عليك ، خيراً.

و بالرغم من هذه الوصية بهما إن جاهداكأى أمراك، أو ألزماك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما فى ذلك.

ومع ذلك صاحبهما فى الدنيا بجسمك معروفاً أى بالمعروف؛ فإن حقهما على جسمك فقط ؛ إذ هما المربيان له.

واتبع سبيل من أناب إلى وأطاعنى .. بعقلك وفكرك وعقيدتك ..

فأنا المربى الحقيقى لكل ذلك – وغيره – منك.

ثم إلى فى النهاية مرجعكم جميعاً .. أنت وهما فأنبؤكم بما كنتم تعملون وأجازى كل فريق منكم بعمله.

* * *

الوصية الثالثة :

{ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }

[الآية ١٦]

وهذه الوصية : فى تربية النفس على مراقبة الله تعالى.

قال له : يا بنى إنها أى : الخطيئة أو المظلمة .. مهما صغرت، حتى إن تك فى صغرها مثقال حبة من خردل ومع هذا الصغر فتكن خفية فى صخرة أو بعيدة فى السموات أو مدفونة فى الأرض : فهى مع هذا كله يأت بها الله ويحضرها يوم القيامة؛ ليحاسب عليها صاحبها.

حيث إن الله سبحنه لطيف يعلم مكانها وإن خفيت خبير بخطورتها.

* * *

ثم يقول تعالى على لسان لقمان.. وهو يعظ ابنه :

وفى هذه الآية الكريمة : نجد ..
الوصية الرابعة .. وهى أقم الصلاة أتمها، وداوم عليها، بحدودها وأوقاتها.
الوصية الخامسة .. وهى .
وأمر بالمعروف وهو ما لا تنكره الفطرة السليمة، ويقره الشرع الحنيف ..
وانه عن المنكر وهو ما تنكره الفطرة السليمة، ولا يقره الشرع الحنيف.
الوصية السادسة .. وهى واصبر على ما أصابك من أذى مادى أو معنوى .. فى سبيل التزامك بدينك، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف منه، والنهى عن المنكر الذى لا يرتضيه.

* * *

ثم يقول سبحانه :

{ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }
[الآية ١٨]

وفى هذه الآية كذلك .. نجد :
الوصية السابعة .. وهى ولا تصعر خدك للناس أى : لا تتكبر عليهم، ولا تحتقرهم، بل تواضع لهم وأقبل عليهم؛ حتى يألفونك، ويحبونك.
الوصية الثامنة .. وهى ولا تمش فى الأرض مرحاً أى : متكبراً، مختالاً، جباراً؛ حتى لا يبغضك الله .
حيث إن الله لا يحب كل مختال معجب بنفسه فخور على غيره، بما أعطاه الله له.

* * *

ثم يكمل تعالى هذه الوصايا على لسان لقمان بقوله :

{ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ }
[الآية ١٩]

ونجد فى هذه الآية كذلك

الوصية التاسعة ... وهى واقصد فى مشك أى : كن متزناً، معتدلاً فى مشيك ، لا متسرعاً، ولا متباطئناً .
ويقاس عليه : طلب الاعتدال فى كل الأحوال.
الوصية العاشرة .. وهى اغضض من صوتك أى : اخفضه، ولا تبالغ فيه، ولا ترفعه فيما لا فائدة منه.
لأن الصوت العالى : فيه شبه بصوت الحمير.
وإن أنكر الأصوات أقبحها لصوت الحمير فإنها كأصوات أهل النار، أو لها زفير وآخرها شهيق، على خلاف جميع الأصوات.

* * *

وبذلك : انتهت الوصايا العشرة، التى هى من عيون الحكمة.

* * *

ثم عاد الكلام إلى ما كان عليه قبل قصة لقمان .. من خطاب المشركين، وتوبيخهم فى إصرارهم على الكفر ..

حيث يقول تعالى :

{ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : أ عجبتم أيها المشركون، ولم تروا وتعلموا أن الله الواحد عز وجل .
سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض بقدرته ؛ لمنفعتكم.
و كذلك أسبغ وأتم عليكم نعمه الكثيرة، سواء كانت ظاهرة تشاهد وتحس أو باطنة لا تعلم إلا بدليل يدل عليها.
و مع ذلك :
نجد من الناس فريقاً ، هو من يجادل فى الله ووحدانيته، وقدرته، وآياته بغير علم مستفاد من دليل ولا هدى من رسول ولا كتاب من رب العالمين منير.
و أكثر من هذا .
إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله من القرآن على رسوله قالوا لا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا حتى ولو كان باطلاً ..
وهو بالفعل باطل.
عجيب أمرهم .. أ يتبعونهم ، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ٠٠؟
إنه أمر : فى غاية العجب .. ودليل على قلة العقل.

* * *

إذا كان حديثنا عن الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير قد انتهى : فإن الحديث هنا يبدأ بمقابلهم وهم الذين يسلمون وجوههم إلى الله وهم محسنون.
حيث يقول سبحانه :

{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ }
[الآية ٢٢]

الآية الكريمة : تبين شروط صحة الأعمال من العبد، وقبولها عند الله سبحانه.
وهما .. شرطان :
الأول : الإخلاص ومن يسلم وجهه إلى الله ينقاد لأمره، ويقبل على طاعته، ويخلص له وحده.
الثانى : موافقة الشرع وهو محسن فى عمله، يتبع ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه.
من يتصف عمله بهذين الأمرين :فقد استمسك بالعروة الوثقى التى توصله إلى مرضاة الله، ونعيمه.
وإلى الله عاقبة الأمور فهى راجعة إليه، وسيجازى عليها.

* * *

ولما بين ربنا حال المسلم : عاد إلى بيان حال الكافر ..
فقال :

{ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ }
[الآيتان ٢٣ ، ٢٤]

يعنى : ومن لم يسلم وجهه إلى الله، بل كفر وعاند .. فهذا الصنف من الناس لا يحزنك كفره ولا تتألم بسببه.
واعلم ما يلى :

أولاً : إلينا مرجعهم فى يوم الحساب فننبؤهم ونجازيهم بما عملوا.
ثانياً : إن الله عليم بذات الصدور ولا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم، وهل سيؤمنون أو سيموتون على كفرهم..؟
ثالثاً : نمتعهم قليلاً فى الدنيا ثم نضطرهم فى يوم القيامة إلى عذاب غليظ.

* * *

ومن عجيب أمر هؤلاء ..!!
أنه ..

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }
[الآيتان ٢٥ ، ٢٦]

أى : ولئن سألت هؤلاء الكافرين .. عن من خلق السموات والأرض؟ ليقولن لك : إنه الله.
إذن قل أولاً الحمد لله على ظهور الحجة عليهم والدليل على ألسنتهم على توحيده سبحانه وتعالى.
بل انتبه إلى أن أكثرهم لا يعلمون وضوح هذه الحجة عليهم والإلزام لهم.
حقاً .. لله ما فى السموات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً.
اعترفوا بذلك، أو لم يعترفوا..!!
حيث إن الله هو الغنى الحميد المستحق للحمد، حتى ولو لم يحمده أحد.

* * *

وقل ثانياً : لا تظنوا أن ما فى السموات والأرض من ملكوت الله هذا ٠٠ له نهاية ٠٠

{ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }
[الآية ٢٧]

أى : أن ملك الله لا يحصره الحصر، ولا نهاية له.
ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ولوصنع كل الشجر على وجه الأرض أقلاماً للكتابة، وكانت مياه البحار حبراً والبحر يمده من بعده سبعة أبحربهذا الحبر .
وذلك : لكتابة معلومات الله الدالة على كائناته غير المتناهية .
لو حدث ذلك ما نفذت كلمات الله كما فى قوله تعالى قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً [الكهف : ١٠٩].
إن الله عزيز لا يعجزه شئ حكيم فى كل شئ، سبحانه وتعالى.

* * *

ثم قل لهم ثالثاً :

{ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }
[الآية ٢٨]

يعنى : ما خلقكم جميعاً، وكل البشر ولا بعثكم يوم القيامة جميعاً، وكل البشر، فى قدرة الله تعالى إلا كنفس واحدة لأنه لا يصعب عليه شئ، إذّ يقول سبحانه فقط للشئ : كن فيكون.

وعلى ذلك : فآمنوا، وأسلموا أمركم لله، وانقادوا لشرعه، واتبعوا رسوله، ولا تعاندوا.

إن الله سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم.

* * *

أيها الكرام ..

لعلكم تذكرون قرأنا فيما سبق قوله تعالى ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة من نفس سورة لقمان ..؟!

ولأن ذلك تسخير لما فى السموات وما فى الأرض، وهو نعمة ..

وكان بيان ذلك على سبيل الإجمال ..!

فقد بدأ المولى عز وجل : يفصل هنا فى بيان هذا التسخير.

حيث يقول :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }
[الآيتان ٢٩ ، ٣٠]

وهذا بعض مما سخر الله للإنسان من ملكوت السموات.

حيث يولج يدخل بقدرته اليل فى النهار ويولج النهار فى الليل حسب نظام فى غاية الدقة والانضباط ؛ بما ينفعكم فى أمور حياتكم.

كما أنه سبحانه سخر الشمس والقمر تسخيراً مفيداً نافعاً .

وكل منهما يجرى بقدرة الله، فى مسار محدد، لا يتعداه إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة.

وأن الله الذى سخر كل هذا :بما تعملون أيها البشر خبير لا يخفى عليه من أمركم شئ.

ذلك التسخير للأجرام، والإبداع فى الألوان : بـــ سبب أن الله هو الحق الثابت الواحد القادر.

و هو دليل على أمرين :

الأول : أن ما يدعون ويعبدون من دون الله هو الباطل.

الثانى : أن الله عز وجل ، الذى يفعل كل ذلك هو وحده العلى الكبير.

* * *

ويقول أيضاً ..

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ }
[الآيتان ٣١ ، ٣٢]

وهذا بعض مما سخر الله – كذلك – للإنسان، ولكن فى الأرض.

حيث جعل الله الفلك أى : السفن تجرى فى البحر بنعمة الله على الإنسان ليريكم أيها الناس ..آية من آياته الدالة على توحيده وقدرته.

حقاً .. إن فى ذلك لآيات ودلائل لكل صبار على البلاء شكور على النعماء.

و العجيب .. !!

أن هؤلاء :

إذا غشيهم موج كالظلل من الماء فى البحر، أو من المصائب والنوازل والكوارث فى الحياة دعوا الله لينقذهم مما هم فيه، ويكونون ساعة هذا الدعاء والسؤال والاستغاثة مخلصين له الدين لا يرون غيره مخلصاً ولا منقذاً.

فلما استجاب دعاءهم، ونجاهم إلى البر أى : بر الأمان .. من الغرق فى الماء، أو من الغرق فى الهموم والمصائب فمنهم مقتصد أى : مقتصد فى إيمانه، بخيل به، باق على كفره، جاحد نعمة الله عليه.

وليس هذا بغريب عليه : فقد جحد بالقرآن قبلاً.

وما يجحد بآياتنا وينكر لنعمتنا إلا كل ختار غدار كفور.

* * *

هذا ..

ولما وضحت السورة ، الدلائل على وحدانية الله وقدرته : وعظت بتقوى الله وخشيته.

يقول تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }
[الآية ٣٣]

نعم ..

يا أيها الناس جميعاً :

اتقوا ربكم بالخوف منه، والعمل بكتابه، والإلتزام بشرعه، واتباع رسوله.

واخشوا يوماً وهو يوم القيامة .
حيث لا يجزى فيه ويدفع والد عن ولده شيئاً .
كذلك ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .
وإن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء :حق لا يتخلف.
وما دام الأمر كذلك :
فلا تغرنكم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها عن الآخرة والاستعداد لها.
ولا يغرنكم بالله فى كرمه وعفوه الغرور وهو الشيطان أو الدنيا.

* * *

وفى نهاية السورة : يبين الله تعالى أن مفاتيح الغيب بيده وحده سبحانه .
إذ يقول :

{ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }
[الآية ٣٤]

يعنى: إن الله عنده وحده .. العلم والقدرة على هذه الأشياء:

الأول : علم الساعة أى : وقت القيامة .
فلا يعلمه إلا هو.
الثانى : وينزل الغيث أى : المطر ..
فلا يقدر على ذلك إلا هو.
الثالث : ويعلم ما فى الأرحام سعيد أو شقى، غنى أو فقير .. إلخ ..
فلا يعلم ذلك إلا هو.
الرابع : وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً من الأرزاق أو الأعمال .. فلا يعلم ذلك إلا هو.
الخامس : وما تدرى نفس بأى أرض أو وقت تموت ..
ولكن الذى يدرى ويعلم ذلك وحده : هو الله سبحانه وتعالى.
وهذه هى : مفاتيح الغيب الخمسة ..
لا يعملها إلا الله.
حيث إن الله عليم خبير.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

السجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

{ الـم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيتان ١ ، ٢]

هذه : هى سورة السجدة، وهى سورة مكية.

وفى الصحيح : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها فى صلاة الفجر من يوم الجمعة فى الركعة الأولى، ويقرأ فى الركعة الثانية هل أتى على الإنسان حين من الدهر.

والمعنى لهذه الآية : تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن لا ريب لا شك فيه أنه من رب العالمين.

* * *

وبعد أن نفت هذه الآية عن القرآن الكريم الشك : يؤكد ربنا أنه الحق من عنده ..
فيقول :

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ }
[الآية ٣]

أيعترفون بالقرآن ويصدقون .. !!

أم يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم افتراه وألفه من عند نفسه ..؟

لقد كذبوا حينما قالوا : إنه افتراه.

بل هو الحق من ربك أُنزِلَ عليك لتنذر تخوف به قوماً من عذاب الله ما أتاهم من نذير من قبلك بمثل هذا القرآن، ولا بغيره سواك.

فأنذرهم لعلهم يهتدون إلى الحق ؛ فيؤمنون ، ويعملون بموجبه.

* * *

وهكذا :

ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ..

وثبت أيضا : أن القرآن من عند الله.

لذلك .. بدأت السورة تعرفهم بالله عز وجل

حيث تقول الآيات.

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ }
[الآية ٤]

أى : هو الله الواحد الأحد .
الذى خلق بقدرته سبحانه السموات ذاتاً وصفاتاً والأرض ذاتاً وصفاتاً وما بينهما ذاتاً وصفاتاً فى ستة أيام.
ثم استوى سبحانه على العرش استواءً يليق به.
ما لكم من دونه أى : غيره من ولى يلى أموركم، ويتولى شئونكم ولا شفيع يشفع لكم إلا بإذنه عز وجل.
بعد كل هذا ..
أفلا تتذكرون وحدانية الله وعظمته، وقدرته فتؤمنون ..؟

* * *

وهو سبحانه الذى :

{ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ }
[الآية ٥]

أى : أنه كما خلق الخلق .. فهو يدبر أمرهم .
يدبر الأمر كله فى ملكوته كله من السماء والأرض مدة الحياة الدنيا .
ثم يعرج يرجع إليه أمر الفصل والحكم فى هذا الملكوت فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون من سنوات الدنيا ..
هذا اليوم : هو يوم القيامة.

* * *

الذى خلق هذا الأكوان ..
والذى يدبر أمور هذا الملكوت.

{ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ }

[الآيات ٦-٩]

يعنى : ذلك الإله الواحد القادر، الموصوف بما سبق.
هو الموصوف بهذه الصفات كذلك :

أولاً : هو عالم الغيب والشهادة أى : ما غاب عن العباد وما شاهدوه.
ثانياً : هو العزيز الغالب الرحيم بخلقه، فهو عزيز فى رحمته، رحيم فى عزته، وهذا غاية الكمال.
ثالثاً : هو الذى أحسن خلق كل شئ خلقه.
رابعاً : و هو الذى بدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم عليه السلام.
ثم جعل نسله أى : ذريته من سلالة نطفة من ماء أى : منى مهين ضعيف.
ثم سواه صنعه بقدرته ونفخ فيه من روحه أى جعله حياً حساساً، بعد أن كان جماداً.
رابعاً : و هو الذى جعل لكم السمع لتسمعوا كلام الله والأبصار لتبصروا آيات الله والأفئدة لتعقلوا وحدانية الله.
ولكن . قليلاً ما تشكرون الله على هذه النعم ..!!

* * *

بعد كل هذا .. ماذا كان موقف الكافرين ..؟

{ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} ١٠-

أي:(وقالوا) مستنكرين (أئذا ضللنا في الأرض) وغبنا في ترابها (أئنا لفي خلق جديد) نعود .. مرة أخرى ..؟

حقاً .. بل هم بلقاء ربهم كافرون.
إنهم : كفروا بالله ..
إنهم : أنكروا البعث ..

{ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }

[الآية ١١]

قل لهم : لابد من الموت، وسوف يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم لقبض أرواحكم، حينما تحين آجالكم وتنتهى أعماركم فى الدنيا.

ثم إلى ربكم الذى خلقكم ترجعون حين يبعثكم ليحاسبكم على ما قدمتم.

* * *

ولما بين ربنا : أنهم إلى ربهم راجعون ..!!

اتبعه ببيان حالهم : عندما يرجعون ..

فقال :

{ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ }

[الآية ١٢]

أى : ولو أنك ترى إذ المجرمون حين العرض والحساب ناكسوا رؤسهم من الذل والندم والحسرة ، وهم عند ربهم

ساعتها .. يقولون ربنا أبصرنا ما أنكرنا قبل ذلك من أمر البعث وسمعنا الآن ما نصدق به رسلك فيما كذبناهم فيه بل يقولون :

يا ربنا فارجعنا إلى الدنيا مرة أخرى نعمل عملاً صالحاً ننتفع به .. إنا موقنون مصدقون الآن بالبعث والحساب.

وقد كَذَبُوا .. !!

إذّ لوردوا إلى الدنيا : لعادوا لما نهوا عنه.

* * *

ولذلك : لن نعيدهم ، فقد سبق القول منى .. أنهم إليها لا يرجعون.

{ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }

[الآيتان ١٣ ، ١٤]

يعنى : و كما أننا لو شئنا هدايتهم من البداية لآتينا كل نفس منهم ما عندنا من اللطف فى الدنيا لتختار هداها.

ولكن لم نفعل معهم ذلك.

حيث حق القول منى بسبب علمى أنهم سيختارون الكفر والتكذيب والضلال : أنه لأملأن جهنم من الجنة والناس المكذبين من الصنفين أجمعين.

ونقول لهم على سبيل التفريغ والتوبيخ :

فذوقوا بما نسيتم متعمدين لقاء يومكم هذا الذى أنتم فيه.

إنا نسيناكم أى عاملناكم بما تستحقون.

وذوقوا أيضاً عذاب الخلد الدائم فى جهنم بما كنتم تعملون من المعاصى والذنوب ، والتكذيب فى الدنيا.

* * *

وإذا كان هؤلاء لإلفهم بالبطل ، يكفرون بآيات الله ..!!

فهناك من يؤمن بها :

يقول تبارك وتعالى :

{ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ }
[الآيتان ١٥]

إى : إنما يؤمن بآياتنا الدالة على الوحدانية والقدرة، وصحة البعث .. الموصوفون بهذه الصفات :

الأولى : الذين إذا ذكروا بها أى بهذه الآيات .. خروا لله سجداً شكراً على نعمة الإسلام، وإعلاناً لطاعتهم لربهم.

الثانية : وسبحوا بحمد ربهم أى : نزهوه سبحانه عن كل نقص.

الثالثة : وهم لا يستكبرون عن السجود لله، والتسبيح بحمده، بل هم خاشعون له، متواضعون لجنابه.

* * *

{ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }
[الآيتان ١٥ ، ١٦]

والصفه الرابعة : تتجافى جنوبهم عن المضاجع فى فرشهم، بسبب قيام الليل طاعة لربهم.

الخامسة : يدعون ربهم ويعبدونه خوفاً من غضبه وطمعاً فى مرضاته سبحانه.

السادسة : ومما رزقناهم ينفقون فى طاعة الله، وتقرباً إليه.

* * *

وعن جزاء هؤلاء يقول ربنا تشويقاً.

{ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٧]

أى : فلا تعلم أية نفس مقدار، ولا نوع ما أخفى لهم من جزاء حسن .. هو قرة أعين تستقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره؛ لأنه : مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال قلب بشر جزاءً لهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من الصالحات.

* * *

ما رأيكم – بعد هذا الحديث عن الكافر والمؤمن – هل يستوى هذا وذاك ..؟

{ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ }
[الآية ١٨]

طبعاً .. لا يستوون ..!!

* * *

إذن : تعالوا – أعزكم الله – لنعرف مصير كل فريق :
أولاً :

{ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ١٩]

الله ..!!
ما أَنْعِمْ به من جزاء ..!!
وما أحسن به من مصير ..!!
نسأل الله تعالى أن يجعلنا من هؤلاء .. إنه نعم المولى ونعم النصير.
ثانياً :

{ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : وأما مصير الذين فسقوا وكفروا وخرجوا عن طاعة الله.. فمأواهم أى : منزلهم ومسكنهم النار يعذبون فيها.

كلما أرادوا أن يخرجوا منها تضربهم النار – كما روى – بلهيبها، فيرتفعون إلى طبقاتها العليا، حتى إذا اقتربوا من أبوابها، وأرادوا الخروج، ضربهم لهيبها إلى أسفل ، وأعيدوا فيها أى : فى قعرها.

وليس هذا فقط.

بل قيل لهم توبيخاً وتحسيراً ذوقوا عذاب النار الذى كنتم تكذبون بها، حينما أخبركم عنها، وخوَّفكم منها رسلُنا.

و مع ذلك.

لنذيقنهم فى الدنيا أيضاً من العذاب الأدنى الذى هو : القلق، والاضطراب، والأزمات، والمشاكل والهموم دون أى : قبل العذاب الأكبر يوم القيامة فى جهنم لعلهم يرجعون عن الكفر إلى الإيمان، وعن الفسوق إلى الطاعة !!..

* * *

وهؤلاء .. بعد تذكيرهم بالقرآن الكريم، وتهديدهم بعذاب الله ، دون أن يؤمنوا : ليسوا من الظلمة فقط، بل هم من أظلم الظلمة.

يقول سبحانه :

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ }
[الآية ٢٢]

وهذا : هو عين العدل معهم.

* * *

وإذا كنا قد آتيناك القرآن ..!!

فإنا – كذلك – آتينا موسى التوراة.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[الآيات ٢٣-٢٥]

المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب أى : التوراة، كما آتيناك القرآن .

فكُذّب، وأوذى.

فلا تكن يا محمد فى مرية شك من لقائه أى من لقاء هذا التكذيب والأذى من قومك، كما لاقى موسى عليه السلام.

و قد جعلناه أى كتاب موسى هدى لبنى إسرائيل كما جعلنا القرآن هدى للعالمين.

وجعلنا منهم أى : من بنى إسرائيل، وهم الذين اهتدوا بالتوراة أئمة يهدون الناس بأمرنا إلى ما فى التوراة من دين الله وشريعته.

وذلك : عندما امتلكوا صفتين.

الأولى : لما صبروا على طاعة الله، وعن معصيته.

الثانية : وكانوا بآياتنا وهى التوارة يوقنون ولا يشكون.

أى : وسنجعل من أمتك أئمة يهدون الناس إلى دين الله ، إذا تحلوا بهاتين الصفتين.

هذا ..

وسيكون خلاف بين هؤلاء الدعاة إلى الهدى ، وبين من يدعونهم إليه.

وإن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون .

فيرفع شأن الدعاة إلى الله : ويجازيهم خير الجزاء .

ويعاقب معانديهم، ومن يحاربونهم : ويجازيهم أشد الجزاء.

* * *

وإذا كان ربنا عز وجل سيعذب المعاندين : فقد أعذر إليهم وأنذر.

يقول تعالى :

{ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ }
[الآية ٢٦]

يعنى : أ غفلوا ولم يهد لهم أى : يتبين لهم كم أهلكنا ودمرنا من قبلهم من قرن كعاد وثمود وقوم لوط، وهم يعرفونهم، ويمشون فى مساكنهم ويرون آثار دمارهم ..؟

إن فى ذلك لآيات علامات واضحات على وجوب الإيمان.

أفلا يسمعون المواعظ .. فيتعظون، ويؤمنون ..؟!!

* * *

ولما بين ربنا أن الإهلاك والضر بيده : بين عقيبه أن الإحياء والنفع بيده أيضاً.
فقال سبحانه :

{ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ }
[الآية ٢٧]

يعنى : أ عموا ولم يروا آثار قدرتنا، ونفعنا لهم .. !!؟
فمثلاً أنا نسوق الماء بقدرتنا إلى الأرض الجزر وهى اليابسة التى لا نبات فيها فنخرج به أى: بهذا الماء زرعاً مختلف الألوان والأنواع تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .
أفلا يبصرون ذلك .. فيستدلون به على وحدانيتنا وقدرتنا ،ويؤمنون ..؟

* * *

والأدهى من ذلك : أنهم يعاندون ..

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٢٨]

أى : ويقولون للمؤمنين استهزاءً متى هذا الفتح أى : النصر علينا، أو الفصل بيننا وبينكم إن كنتم صادقين فيما تقولونه لنا.

* * *

والجواب عليهم من رب العالمين.

{ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ }
[الآيتان ٢٩ ، ٣٠]

أى : قل لهم يوم الفتح الذى تستعجلونه .. آت لا محالة.

وساعتها :

تؤمنون، ولكن لا ينفع الذين كفروا إيمانهم .

أو تطلبون تأخير العذاب عنكم .. فيقول رب العزة ولا هم ينظرون.

فآمنوا خيراً لكم ..

يا حبيبى يا محمد .. إن لم يؤمنوا فأعرض عنهم وبلغ فقط ما أنزل إليك من ربك وانتظر النصر عليهم، وهلاكهم، حيث إنهم أيضاً منتظرون النصر عليك وهلاكك.

وسترى بإذن الله فى النهاية : نصرك عليهم، وعلو شأنك، ورفع راية رسالتك، وهلاكهم أيضاً.

فإن العاقبة – دائماً – للمتقين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة : مكية.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ }
[الآيتان ١ ، ٢]

نعم .. الحمد المطلق فى الدنيا والآخرة لله رب العالمين.
الذى له جميع ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما، ملكاً وتصرفاً.
و الذى له الحمد المطلق فى الآخرة حيث يحمده أهل الجنة؛ سروراً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم.
وهو سبحانه الحكيم فى أقواله، وأفعاله، وشرعه، وقدره الخبير بخلقه.
وهو سبحانه الذى يعلم ما يلج ما يدخل فى الأرض كماء، وكنوز، وغيرهما وما يخرج منها كنبات وغيره.
و سبحانه الذى يعلم ما ينزل من السماء من رزق وغيره وما يعرج أى يصعد فيها من عمل للعباد، وغيره.
وهو سبحانه الرحيم بعباده؛ حيث ينزل إليهم ما يحتاجون إليه الغفور عن ذنوبهم إذا تابوا.

* * *

هذا هو الإله العظيم، صاحب هذه النعم العظيمة : كفر به أناس من خلقه، وأنكروا لقاءه..!!

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٣]

وقال الذين كفروا بالله : إنكاراً للبعث لا تأتينا الساعة وليس هناك حساب ولا جزاء.
قل لهم : رداً على إنكارهم ..
بلى وربى لتأتينكم أى : نعم، لتأتينكم وربى عالم الغيب كله، الذى لا يعزب لا يغيب عنه مثقال ذرة مما فى السموات ولا يغيب عنه مثقال ذرة مما فى الأرض.
كما أنه: لا كل ذلك ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا وهو مدون ومسجل ومذكور فى كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ.
فكيف لا يبعثكم، حتى وإن تلاشت، وتفرقت وغابت أجزاؤكم ..؟

* * *

ثم بين تعالى حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة .. بقوله :

{ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ }
[الآيتان ٤ ، ٥]

أى : ليجزى الله فى يوم الساعة هذا..!!
الذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاءً حسناً.
يبينه ربنا سبحانه بقوله: أولئك لهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم حسن فى الجنة.
و أما الذين سعوا فى الصد عن سبيل الله، وتكذيب الرسل، وإبطال آياتنا أى : القرآن معاجزين لنا، ظناً منهم أننا لن نقدر عليهم، ولن نبعثهم، ولن نعاقبهم: فلهم سوء الجزاء.
الذى يبينه ربنا سبحانه بقوله: أولئك لهم عذاب من رجز وهو أسوأ العذاب أليم غاية الألم.

* * *

وهناك حكمة أخرى .. لإعادة الأبدان، وقيام الساعة.
هى :

{ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }
[الآية ٦]

يعنى : ويرى المؤمنون من أهل الكتاب، ومن أتباعك، وهم الذين أوتوا العلم حينما يعاينون القيامة وأحوالها ٠٠ أن الذى أنزل إليك من ربك وأخبر بما يرون وهو القرآن: هو الحق.
و يستيقنون أنه كان يهدى إلى صراط العزيز الحميد وهو دين الإسلام، المؤدى للنجاة من أهوال هذا اليوم.

* * *

ومع ظهور أمر الساعة ٠٠!!
ومع وضوح الأدلة على وقوعها ٠٠!!
فإن الكفار يستهزؤن، ويتعجبون من الإخبار عنها.
يقول عز من قائل :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ }
[الآية ٧]

أى : وقال الذين كفروا استهزاءً، لبعضهم البعض: هل ندلكم على رجل لم يصرحوا باسمه، مع أنه في غاية الشهرة بينهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ تقليلاً لشأنه ينبؤكم يخبركم أنكم إذا متم، ودفنتم، ومزقتم كل ممزق أى : وبليتم تماماً أنكم بعد كل ذلك لفى خلق جديد وتبعثون ٠٠؟

* * *

ثم لم ينتظروا إجابة لبعضهم ٠٠
بل أجابوا هم قائلين :

{ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ }
[الآية ٨]

ما الذى دفعه إلى ما يقول: هل يكذب على الله ..؟ أو أنه أصيب بمس الجنون ..؟
ويرد عليهم رب العزة استهزاءاهم .. بقوله :

{ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ }
[الآية ٩]

أى : لا هو افتراه على الله كذباً، ولا هو به جنة ..
بل : هم فى كمال اختلال العقل، وغاية الضلال عن الفهم والإدراك، الذى هو الجنون حقيقة، وفيما يؤدى إليه من العذاب.
ولذلك : يقولون ما يقولون..!!
أفلم يروا وينظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فيعرفوا عظمة الله، وقدرته؛ فيؤمنوا به، وبالبعث؟
إنهم لو نظروا نظر اعتبار: لآمنوا.
ولكنهم عموا: فأنكروا، وكذبوا ..
إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً أى : قطعاً من السماء: لفعلنا ذلك بقدرتنا عليهم؛ جزاء ظلمهم وكفرهم.
ولكنا نؤخر ذلك عنهم لحلمنا.
إن فى ذلك الكون الرحيب، وما يرون فيه من عجائب صنع الله لآية دالة على قدرة الله على البعث لكل عبد لله منيب رجاع إليه بالتوبة، غير مصر على المعصية، ولا متعصب لها.

* * *

ولما ذكر ربنا عز وجل من ينيب من عباده إليه.
أتبعه بذكر من أناب إلى الله بالفعل، وشكره على النعمة.
ومن هؤلاء داود عليه السلام، الذى استغفر ربه وخر راكعاً وأناب [ص: ٢٤].
كما بين سبحانه وتعالى : ما آتاه الله على إنابته ..
فقال :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

[الآيتان ١٠ ، ١١]

نعم ٠٠ ولقد آتينا داود عليه السلام منا فضلاً وهو النبوة والكتاب.

ثم قلنا أولاً يا جبال أوبى رجعى معه التسبيح، فكان يسمع صوتها وهى تسبح معه.

بل يروى : أنه كان إذا أصابه تعب وسكت، سبحت الجبال، فيسمع صوتها؛ فينشط بالتسبيح من جديد.

و ثانياً نادينا الطير أيضاً ٠٠ أن تسبح معه.

و ثالثاً ألنا له الحديد جعلناه ليناً فى يده يشكله كيف يشاء، دون نار يدخل فيها، أو مطرقة يدق بها.

وأمرناه قائلين أن اعمل من هذا الحديد، دروعاً سابغات واسعة، تامة وقدر فى السرد أى : اجعلها دقيقة الصنع، مريحة للابسها، حافظة له.

و قلنا لأهله اعملوا آل داود معه عملاً صالحاً يتقبله الله منكم.

إنى بما تعملون مراقب لكم بصير بكم، وسأجازيكم عليه.

* * *

ومن عمل من أهله عملاً صالحاً، وأناب الله أيضاً.

ولده : سليمان.

فآتاه الله خيراً ٠٠

يقول تعالى :

{ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }

[الآيتان ١٢ ، ١٣]

يعنى : و أنعمنا على داود أيضاً؛

حيث سخرنا لسليمان ولده، ما يلي:

أولاً : الريح التى كان غدوها أى : سيرها فى الغداة وهو النهار ٠٠ مسيرة شهر وسيرها فى الليل فى رواحها أى : عودتها ٠٠ مقدار شهر، والتى كانت تحمله إلى حيث يشاء.

و ثانياً : أسلنا له أى : أذبنا من الذوبان والسيولة عين القطر وهو النحاس، إذّ جعل لله النحاس يسيل من عين كما يسيل الماء، معجزة لسليمان عليه السلام.

و ثالثاً : سخرنا له الجن ..
فكان من الجن من يعمل بين يديه مطيعاً له بإذن ربه بقدره، وتسخيره له ..
و كان من يزغ منهم عن أمرنا له بطاعة سليمان، ويهرب نذقه من عذاب السعير الحريق.
وكان هؤلاء الجن يعملون له ما يشاء حسبما يأمرهم به سليمان من : محاريب أبنية عالية يصعد عليها.
وتماثيل ولم يكن ذلك حراماً فى شريعة سليمان عليه السلام.
وجفان أى : آلات يؤكل فيها كالجواب مثل : الأحواض الكبيرة.
وقدور أى : آلات يطبخ فيها راسيات لا تنقل من مكانها لعظمها وضخامتها.
ثم قلنا اعملوا آل داود معه بالطاعات شكراً على ما أنعم عليكم به فى الدنيا والآخرة.
وقليل من عبادى الشكور.

* * *

وظل الجن يعملون لسليمان ما يشاء ..
حتى وافاه الأجل: واقفاً متكئاً على عصاه.
وما علمت الجن أنه مات..!!
يقول تعالى :

{ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ }
[الآية ١٤]

أى : فلما قضينا عليه أى على سليمان الموت: مات.
ومكث قائماً مستنداً على عصاه: والجن تعمل بين يديه هذه الأعمال الشاقة، ولا تدرى أنه مات.
وظل الحال على ذلك فترة من الزمان: حتى علموا أنه مات.
ولكن كيف عرفوا أنه مات ..؟
يقول سبحانه وتعالى :
وما دلهم على موته إلا دابة الأرض وهى الأرضة التى تأكل الخشب. حيث صارت تأكل منسأته أى : عصاه، وهو واقف متكئ عليها.
فلما أكلتها : انهارت العصا، وسقط سليمان عليه السلام.
فلما خر أى : سقط.
تبينت الجن أمرين :
الأول : أنه مات.

الثانى : أنهم لا يعلمون الغيب؛ إذ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا ومكثوا مدة موت سليمان واقفاً فى هذا العذاب المهين لهم.

* * *

هذه أيها الأحبة : هى قصة داود وسليمان.
وهى قصة من أناب إلى الله بالطاعة، وشكر الله على نعمه وآلائه.

* * *

وإليكم قصة من لم يطع الله، ولم يشكر نعمه، ويعترف بآلائه.
وهى قصة سبأ، وهم قوم كانوا باليمن.
يقول تعالى عنهم :

{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ } [الآية ١٥]

نعم ٠٠ لقد كان لسبأ فى مسكنهم ومحل إقامتهم آية تدل على قدرة الله وإحسانه، ووجوب شكره.
هذه الآية : هى جنتان بستانان كبيران، أحدهما عن يمين مساكنهم و الثانى عن شمال مساكنهم.
هذه البساتين : مليئة الخيرات وأنواع الثمار والفواكه الكثيرة.
وقلنا لأهل سبأ على ألسنة رسلنا إليهم :
كلوا من رزق ربكم ونعمه عليكم.
واشكروا له هذا الرزق، وهذه النعم.
واعلموا أن :
بلدتكم هذه، التى تقيمون فيه بلدة طيبة وربكم الذى يرزقكم رب غفور ٠٠!!
فآمنوا به، واعبدوه، واشكروا له.

* * *

ماذا فعلوا ٠٠؟

{ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ }
[الآية ١٦]

أى : فأعرضوا عن الإيمان، ولم يعبدوا الله تعالى، ولم يشكروه على هذه النعم التى يعيشون فى ظلالها.
أتدرون ماذا فعل الله بهم ٠٠؟
يقول عز وجل :
فأرسلنا عليهم بقدرتنا مطراً غزيراً، تجمع منه سيل العرم الذى حطم الجسور، وهدم السدود، وأغرق البساتين، وأتلف الثمار ٠٠
وضاعت منهم النعم.
وبدلناهم بجنتيهم المليئتين بالخيرات جنتين ذواتى أي فيهما :
أكل ثمر خمط بشع مر.
وأثل نبات لا ثمر له، ولا فائدة منه.
وشئ من سدر أى : نبق قليل ٠٠
وهذا أفضل ما كان عندهم بعد هذا التبديل.
وهكذا ٠٠ تبدل حالهم بعد الراحة شقاءً، وبعد الغنى فقراً، وبعد النعيم ذلاً وهواناً.

* * *

{ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ }
[الآية ١٧]

يعنى : ذلك كان جزاؤهم، الذى جزيناهم به بما كفروا بربهم، وأعرضوا عن طاعته، ورفضوا شكره.
وهل نجازى بمثل هذا إلا الكفور ٠٠؟

* * *

كان هذا ٠٠ أيها الأحبة فى الله حديث القرآن عن نعم الله الداخلية على أهل سبأ، والتي لم يشكروا الله عليها؛ فأبدلها لهم كما رأينا.
وهناك حديث آخر: عن نعم الله الخارجية عليهم ٠٠
تعالوا إلى حديث القرآن عنها :
يقول عز وجل :

{ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ }
[الآية ١٨]

أى : و من نعم الله عليهم ٠٠
أننا جعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها وهى قرى الشام قرى ظاهرة واضحة، متواصلة من اليمن إلى الشام وقدرنا فيها السير المريح لهم؛ حيث كانوا يأتنسون بأهل هذه البلاد، ويستريحون فيها خلال سفرهم.
وقلنا لهم سيروا فيها حيث شئتم ليالى وأياماً دون خوف آمنين على أنفسكم، وأمتعتكم.

* * *

فهل شكروا الله على ذلك ٠٠؟
يقول تعالى :

{ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ }
[الآية ١٩]

يعنى : فــ بطروا النعمة، وطغوا، وسئموا الراحة، وتمنوا طول الإسفار، والكد فى المعيشة ٠٠

وقالوا يا ليت المسافات بين هذه القرى كانت بعيدة ٠٠
ثم دعوا ربهم قائلين يا ربنا باعد بين أسفارنا ٠٠!!
وعجل الله لهم إجابة هذه الدعوة: بتخريب تلك القرى الظاهرة، العامرة، المتواصلة، التى كانوا يستريحون فيها، ويأنسون لأهلها.
و بذلك ظلموا أنفسهم بكفرهم، وعدم شكرهم هذه النعم.
بل أكثر من هذا ٠٠
يقول ربنا عز وجل :
فجعلناهم أحاديث لمن بعدهم، يتحدث الناس بقصتهم، ويتعجبون من سفاهتهم.
ومزقناهم أى : قبائلهم كل ممزق يعنى : فرقناهم فى البلاد، فرقة لا يلتئمون بعدها أبداً.
إن فى ذلك المذكور من حال الشاكرين، ووبال الكافرين لآيات وعبر لكل صبار على طاعة الله، والبعد عن المعاصى شكور على نعم الله.

* * *

هذه ٠٠ هى قصة أهل سبأ.

{ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : ولقد صدق عليهم إبليس ظنه أى : حقق ظنه فيهم، وكان ظنه أن يتبعوه إذا أغواهم ٠٠
فأغواهم فاتبعوه أى : أهل سبأ.
إلا فريقاً من المؤمنين أى : قلة من أهل سبأ، وهم المؤمنون فيهم لم يتبعوه، بل آمنوا بالله، وشكروا بالنعم ٠٠
وأما الغالبية منهم فقد اتبعوه.
وما كان له عليهم حينما اتبعوه من سلطان يكرههم به على الكفر.
وما اتبعوه إلا لنعلم لنظهر من يؤمن بالآخرة منهم ممن هو منها أى : الآخرة والإيمان بها فى شك من وقوعها.
وربك على كل شئ حفيظ ٠٠!!
فليحذر العصاة غضبه سبحانه.
وليشكر المؤمنون نعمه.

* * *

وهكذا ·· بين الله حال الشاكرين، وحال الكافرين.
وكان المقصود بهذا البيان: وعظ المعاندين لمحمد صلى الله عليه وسلم، المستهزئين بما يقول.
لذلك ··
يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم :

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ *وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ }
[الآيتان ٢٢ ، ٢٣]

أي : قل لهم يا محمد ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة، وعبدتموهم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر، وينفعوكم ··
ثم يقول ربنا مبيناً حال هذه الآلهة المزعومة:
إنهم أي: هذه الآلهة المزعومة لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض حتى ينفعونكم أو يضرونكم.
و أيضاً ما لهم فيهما أي في السماوات، وفي الأرض من شرك يعني: من مشاركة لله، لا في الخلق ولا في الملك لهما.
و ثالثاً ما له سبحانه منهم من هذه الآلهة المزعومة من ظهير يعينه على تدبير شئون الخلق.
فهم: فقراء، ضعفاء، عجزة ··
فكيف تعبدونهم ··؟
كما أنهم لا يملكون الشفاعة لكم ··
ولا تنفع الشفاعة عنده من أحد لأحد إلا لمن أذن له تعالى أن يشفع ·· وحال هذا الإذن بالشفاعة: يصيب الجميع الفزع الشديد.
حتى إذا فزع عن قلوبهم كشف عنها الفزع..!!
قالوا لبعضهم البعض: ماذا قال ربكم ··؟
قالوا: قال القول الحق فيها؛حيث أذن بها.
وهو سبحانه العلي القاهر فوق خلقه الكبير العظيم.

*** * * ثم يقول رب العزة للنبي صلى الله عليه وسلم:**

{ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

أى : قل لهم من يرزقكم من السموات بالمطر، ومن الأرض بما ينبت من الزرع ٠٠؟
ثم أمره أن يجيب عنهم، قائلاً له:
قل أنت الله بدلاً منهم؛ لأنهم قد لا ينطقون بألسنتهم، بالرغم من أن قلوبهم تقر بذلك.
وإنا وأياكم أى : أحدنا لعلى هدى أو فى ضلال مبين..!! ولذلك:
فعلى كل واحد منا أن يراجع نفسه.
وفى هذا : منتهى الأدب فى الحوار، ومنتهى الذكاء فى الاقناع.
ثم يأمره رب العزة ٠٠ أن يزداد فى التواضع أكثر وأكثر، من باب قطع طريق المكابرة والعناد عندهم.
إذّ يقول له :
قل لهم لا تسألون عما أجرمنا إن كنا على خطأ ولا نسأل عما تعلمون أنتم ٠٠ أى : كل منا مسئول وحده عن عمله، ولا مسئولية عليه لعمل الآخر، والفيصل بيننا يوم القيامة.
لذلك : قل لهم أيضاً يجمع بيننا ربنا يوم القيامة، مع جميع الخلائق ثم يفتح أى : يحكم بيننا فيما نحن عليه، وما أنتم عليه، وهو سبحانه ٠٠ يحكم بالحق أى : بالعدل.
وهو الفتاح أى : الحاكم العليم بحقائق الأمور، والصواب فيها.
ثم قل لهم أرونى معبوداتكم الذين ألحقتمــوهم، به وجعلتموهم شركاء لله فى العبادة..!!
كلا ارتدعوا بل هو الله سبحانه، المستحق وحده للعبادة؛ إذ هو العزيز الغالب الحكيم فى تدبيره لخلقه، فلا يعقل أن يكون له شريك فى ملكه.

* * *

على كل حال :

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٨]

يعنى : وما أرسلنا للناس كلهم إلا بشيراً للطائعين المؤمنين بالجنة ونذيراً للعصاة الكافرين بالنار.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون عموم رسالتك، وأنك بشير، وأنك نذير؛ ولذلك يعاندونك ويكذبونك.

* * *

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٢٩]

أى ويقولون مستهزئين بالمؤمنين، وبالنبى صلى الله عليه وسلم، ووعودهم: متى يكون هذا الوعد بالعذاب، الذى تخوفوننا به إن كنتم صادقين فى كلامكم عنه ؟

* * *

أجبهم يا محمد ..

{ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ }
[الآية ٣٠]

أى قل لهم: لكم ميعاد يوم تبعثون فيه، وتحاسبون، وتعذبون.
وهذا: اليوم له موعد محدد لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون.
فانتظروا .. ما يحدث لكم، وينزل بكم فيه ..!!

* * *

بعد كل هذا الإقناع والتخويف .. يقول رب العزة :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ }
[الآية ٣١]

يعنى : و بالرغم من وضوح الدلائل : على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى مجئ اليوم الآخر..!!

قال الذين كفروا بكل تبجح لن نؤمن بها القرآن الذى تتلوه علينا ولا بالذى بين يديه مما يخبر عنه من أمور الآخرة، وما فيها من حساب وغيره.

ولأن النقاش المألوف مع هؤلاء المعاندين ٠٠ لا يفيد ٠٠!!

فإن القرآن يعرض بعض مشاهدهم فى الآخرة ٠٠

فيقول :

ولو ترى إذّ الظالمون هؤلاء وأمثالهم: موقوفون محبوسون عند حساب ربهم وهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يتعاتبون ويتلاومون ٠٠

حيث ٠٠

يقول الذين استضعفوا منهم للذين استكبروا فيهم، بكل غيظ وحقد: لولا أنتم الذين منعتمونا، وخدعتمونا لكنا مؤمنين وكنا مع الفائزين.

* * *

وهنا يكون التبرى منهم ٠٠

{ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ }
[الآية ٣٢]

أى قال الذين استكبروا فى الدنيا للذين استضعفوا أمامهم فيها، وأطاعوهم مع الكفر: أنحن صددناكم ومنعناكم عن الهدى مع المهتدين، والإيمان باليوم الآخر، والاستعداد له، مع المؤمنين بعد إذّ جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم، وبلغكم به الدعاة والعلماء.

أبداً ٠٠ نحن ما منعناكم، وأين كانت عقولكم ٠٠؟

بل كنتم بطبعكم مجرمين حيث عرضنا عليكم فقط الكفر فكفرتم، دون إلزام منا لكم ولا إرغام.

* * *

فهل يسكت الذين استضعفوا ٠٠؟
كلا ٠٠

{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٣٣]

وقال الذين استضعفوا وهم الأتباع للذين استكبروا رداً عليهم وتكذيباً لهم: بل أنتم السبب فى كفرنا، وفى ضياعنا اليوم؛ حيث كان مكر الليل والنهار منكم بنا، إغراءً تارة، وتهديداً أخرى، إذّ كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً نعبدهم معكم.
وهنا ٠٠ تنقطع حجة الذين استكبروا : فلا يستطيعوا رداً.
وتتكشف الحقيقة الكاملة والخديعة السابقة للذين استضعفوا، ولا تفيدهم ردودهم.
فيسكتون، ويندمون ٠٠
يقول الواحد القهار وأسروا الندامة على كفرهم لما رأوا العذاب.
و هكذا: جعلنا الأغلال القيود فى أعناق الذين كفروا.
خبرونى بربكم: هل يجزون الآن إلا الجزاء العادل، بسب ما كانوا يعملون فى الدنيا ٠٠؟

* * *

ويكون الرد على منطقهم الفاسد هكذا..!!

{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ }
[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

يعنى : قل لهم إن ربى يعطى المال والدنيا لمن يحب ولمن لا يحب.
ولذلك: يبسط الرزق أي يوسعه لمن يشاء من عباده ويقدر
أى : يضيقه على من يشاء من عباده، وفق حكمته ومشيئته، وليست وفق محبة الله للعبد أو عدم ذلك.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.
فيظنون خطأ: أن التوسعة علامة الرضا، وأن التضييق على غير ذلك.
وما أموالكم هذه ولا أولادكم هؤلاء، فى ذات الوقت – بـــ الأشياء التى تقربكم عندنا زلفى أى : ليست دلالة على محبتنا لكم.
إلا أن من آمن وعمل صالحاً فهو القريب منا، والمحبوب إلينا.
ثم يقول تعالى عن جزاء من آمن وعمل صالحاً : فأولئك لهم جزاء الضعف ..
أى : تضاعف حسناتهم الوحدة عشراً، ثم إلى سبعمائة ضعف.
وذلك بما عملوا فى الدنيا من الصالحات.
إضافة إلى ذلك: وهم فى الغرفات أي الجنات مقيمون آمنون من كل خوف وأذى.

* * *

ولمزيد الإنعام على من آمن وعمل صالحاً .. يذكر ربنا جزاء أعدائهم فيقول تبارك وتعالى :

{ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ }
[الآية ٣٨]

أى : والذين يسعون فى إبطال آياتنا والصد عن سبيل الله، وهم يظنون أنهم معاجزين لنا، ولن نعذبهم .. أولئك فى العذاب محضرون لا يفرون منه، ولا يغيبون عنه.

* * *

مرة أخرى .. بخصوص الأموال والأولاد ..

{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }
[الاية ٣٩]

يعنى قل لهم، وأكد عليهم: أن يفهموا قضية الرزق فهماً صحيحاً، حيث إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له لحكمة يدركها هو، حيث يجعل هذا غنياً وهذا فقيراً ٠٠ إلخ.
لذلك : آمنوا، وأنفقوا، فهو خير لكم.
وما أنفقتم من شئ كثير أو قليل، وما دام فى سبيل الله: فهو يخلفه ويزيده لكم.
وهو سبحانه خير الرازقين.

* * *

وبعد أن فند الله تعالى لهم شبهة افتنانهم بسعة الرزق، وغرورهم بكثرة الأموال والأولاد ٠٠!!
يفند لهم ويبطل زعماً آخر من مزاعمهم.
فيقول عز من قائل :

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ }
[الآيتان ٤٠ ، ٤١]

أى : ويوم القيامة يحشرهم المولى سبحانه وتعالى جميعاً الذين استكبروا، والذين استضعفوا ٠٠
ثم يقول للملائكة موبخاً للكافرين أهؤلاء الكافرون إياكم كانوا يعبدون أى : أأنتم أمرتموهم بعبادتكم ٠٠؟
فتجيب الملائكة ربها: قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم نحن عبيدك، نبرأ إليك مما قالوه ٠٠
ثم تقول: بل هم كانوا يعبدون الجن أى الشياطين، وهم الذين أضلوهم، وزينوا لهم عبادة الهوى والأصنام.
بل أكثرهم بهم مؤمنون متبعون، وخاضعون.

* * *

يقول ربنا وهو الحكم العدل:

{ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ }
[الآية ٤٢]

نعم ٠٠ فى يوم القيامة : لا يملك أحد لأحد شيئاً.
ويقول ربنا سبحانه للذين ظلموا وكفروا: ذوقوا عذاب النار فهذه هى النار التى كنتم بها فى الدنيا تكذبون الرسل.

* * *

هؤلاء هم الكفار..!!
وهذا بيان بعض أحوالهم، التى يصيرون إليها، وينتهون عندها..!!
نحن نحذرهم الآن منها ٠٠

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٤٣]

و مع ذلك: فهم إذا تتلى عليهم آياتنا من القرآن، الدالة على وحدانية الله، وقدرته، واليوم الآخر، وهى آيات بينات واضحات، لا لبس فيها، ولا غموض..!!
كان موقفهم هكذا :
أولاً : شككوا فى دعوته قالوا للناس ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم ويمنعكم مما كان يعبد آباؤكم ٠٠ فلا تطيعوه.
ثانياً : كذبوه، وكذبوا ما جاء به وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى كذب لا أص له، اختلقه من نفسه.
ثالثاً : وصفوه بالسحر ليصرفوا الناس عنه وقال الذين كفروا للحق القرآن لما جاءهم به إن هذا إلا سحر مبين.

* * *

ما الذى دفعهم إلى هذا العناد، وإلى هذه الأقوال ٠٠؟
خاصة :

{ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ }
[الآية ٤٤]

يعنى : لم يصرون على الشرك، وتقليد الآباء، ورفض الحق، وتكذيبه على هذا النحو..!!
مع أننا ما آتيناهم من كتب يدرسونها قبل القرآن، فتكون حجة ولو واهية لهم فى موقفهم المعاند هذا..!!
و كذلك ما أرسلنا إليهم قبلك يا محمد من نذير فيكون حجة ولو واهية لهم فى موقفهم المعاند هذا..!!

* * *

على أية حال عليهم أن يتعظوا بمن سبقهم من المكذبين.

{ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ }
[الآية ٤٥]

أى : و قد كذب الذين من قبلهم من الأمم وما بلغوا أى : ما بلغ أهل مكة معشار عشر ما آتينا الذين من قبلهم، من طول الأعمار، وكثرة الأموال والأولاد ٠٠
فكذبوا أى : الأمم السابقة؛ فأهلكناهم.
فـــ انظر كيف كان نكير أى : كيف كان عقابى لهم، ونكالى بهم، واتعظ..!!

* * *

هذا ٠٠
وبعد أن ذكرت آيات السور:
الدلائل الكثيرة على وحدانية الله تعالى.

وإثبات رسالة النبى صلى الله عليه وسلم.
وحتمية اليوم الآخر ٠٠!!
تؤكد عليها هنا فى صورة موجزة مرة أخرى.
حيث يقول تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }
[الآية ٤٦]

يعنى : قل لهم يا محمد إنما أعظكم بصفة واحدة تتصفون بها.
وإذا فعلتموها وصلتم إلى الحق ٠٠
وهى :
أولاً : أن تقوموا لله أى : لوجهه خالصاً، لا لعصبية، ولا لقومية، ولا لغيره ٠٠
وذلك طلباً لمعرفة الحق فقط، على أن تكونوا مثنى وفرادى.
وفى هذا: تأكيد للوحدانية، حيث يقومون لله وحده، لا لغيره.
ثانياً : ثم تتفكروا فى أمر محمد، فتعلموا أنه ما بصاحبكم من جنة أى : ليس به جنون، كما تزعمون إن هو إلا نذير لكم.
وفى هذا: تأكيد لرسالة النبى صلى الله عليه وسلم؛ حيث يعلمون أنه ليس بمجنون، بل هو نذير.
ثالثاً : تتأكدون أنه نذير لكم بين يدى عذاب شديد فى يوم القيامة، إن بقيتم على كفركم.
وفى هذا: تأكيد على الإيمان باليوم الآخر.

* * *

ولكى لا يكون النبى محل تهمة عندهم، ولا صاحب مصلحة منهم : يقول له ربه تبارك وتعالى :

{ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
[الآية ٤٧]

أى : قل لهم ما سألتكم من أجر على إنذارى لكم، ودعوتى إياكم للإيمان ٠٠

وإن كنت قد سألتكم شيئاً فهو لكم فخذوه..!!
وأنتم تعلمون جيداً: أنى ما سألتكم أجراً أبداً، حتى أكون صاحب غرض، أو طالب منفعة منكم ..
ولكن النفع فى دعوتى إياكم: هو لكم أنتم، ولكم وحدكم.
وأما أنا .. إن أجرى إلا على الله أطلب منه القبول، وأطلب منه الثواب، ومنه فقط لا من غيره.
وهو على كل شئ شهيد يعلم صدقى وإخلاصى.

* * *

يا محمد

{ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ }
[الآيتان ٤٨ ، ٤٩]

قل لهم إن ربى يقذف يدفع بالحق الذى ينزله على أنبيائه، ومنه ما نزل علىَّ،الباطلَ بصفة عامة، وما أنتم عليه بصفة خاصة.
فهو سبحانه علام الغيوب فلا يعلم الغيب إلا هو.
وقل لهم كذلك جاء الحق بالإسلام وذهب الباطل وهلك، وما يبدئ الباطل وما يعيد فلا حياة للباطل ولا بقاء.
والحق : هو المنتصر، وهو الباقى.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل، على لسان نبيه، أن الهداية فيما جاء به الوحي ..
فيقول :

{ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ }
[الآية ٥٠]

قل لهم: ما دام الحق أصبح واضحاً؛ فإنه من ضل فإنما يضل على نفسه حتى ولو كنت أنا.
ومن اهتدى : فبهدى الله سبحانه وتعالى.
فابحثوا عن هديه، وآمنوا به.
إنه عز وجل.
سميع لأقوال عباده، وما أقوله لكم.
قريب منى ومنكم.
ويجازينى ويجازيكم، كل منا بما يستحق.

* * *

ثم تعرض السورة علينا مشهداً من مشاهد بعض الكافرين في يوم القيامة.
وهم الذين كانوا يقولون فى الدنيا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه.
حيث يقول الحق سبحانه.

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ }
[الآيات ٥١ – ٥٣]

يعنى : ولو ترى هؤلاء الكافرين يوم البعث إذ فزعوا من قبورهم ٠٠ لرأيت أمراً عجيباً..!!
حيث يقول ربنا فلا فوت ولا مهرب لهم منا وأخذوا قسراً من مكان قريب وهو القبور.
وقالوا فى هذه اللحظة آمنا به أى : بالله، أو الرسول، أو القرآن، أو اليوم الآخر، وتبنا إلى الله مما كنا فيه.
ولكن: هيهات..!! أنى لهم التناوش أى : التناول لهذه التوبة من مكان بعيد عليهم، وهو الدنيا؛ حيث كانت متاحة لهم.
و لكنهم قد كفروا به أى : بالله، أو الرسول، أو القرآن، أو اليوم الآخر من قبل حينما كانوا فى الدنيا.
و العجيب فى أمرهم: أنهم كانوا يقذفون بالغيب جهلاً؛ حيث ينكرون البعث والحساب من مكان بعيد عن الصدق؛ الذى عاينوه الآن.
وفى هذه اللحظة يتمنون الرجوع إلى الدنيا، ويشتهون الإيمان، ليتخلصوا به من هذا العذاب المهين المقيم.
ولكن..!!
يقول ربنا عز وجل :

{ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ }
[الآية ٥٤]

يعنى : وحيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان، أو الرجوع إلى الدنيا لعمل الصالحات، وأصبح من المستحيل عليهم الوصول إلى هذه الأمانى.

وذلك: كما فعل بأشياعهم أشباههم فى الكفر من قبل حيث تمنوا ذلك لما عاينوا العذاب..!!

وهكذا: استحقوا العذاب، ويخلدون فيه.

حيث إنهم كانوا فى شك من الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مريب.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة : مكية
وهى تسمى كذلك بسورة الملائكة.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ١]

هذه السورة : هى خاتمة السور الخمس التى بدأت بالحمد لله .
وهى : الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ.
وقد حمد الله تعالى نفسه ٠٠ تعليماً وتعظيماً.
وقد وصف الله نفسه بعدة صفات :
الأولى : فاطر السموات والأرض أى : خالقهما على غير مثال سابق.
الثانية : جاعل الملائكة رسلاً بينه وبين أنبيائه أولى أجنحة متعددة للملك الواحد مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك.
الثالثة : المشيئة المطلقة يزيد فى الخلق أنواعاً، وأوصافاً، الخ ما يشاء سبحانه وتعالى.
الرابعة : القدرة التامة إن الله على كل شئ قدير أى : قادر.

* * *

الصفة الخامسة ٠٠

{ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية ٢]

أى : لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا مانع لما يعطى، ولا معطى لما يمنع.
وهو العزيز القوى الغالب الحكيم فى كل ما يقدر، ويحكم به.

* * *

وما دام ربنا كذلك ٠٠!!
فكل الفضل منه .
وكل النعم منه .
ولذلك : ينبغى أن يكون التوجه له، والإخلاص له، والتعبد له.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ }
[الآية ٣]

يا أيها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم نعمة الله عليكم وهى كثيرة لا تحصى وما بكم من نعمة فمن الله [النحل ٥٣] واشكروه سبحانه عليها.
وإلا تفعلوا ٠٠ فخبرونى هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض يستحق الذكر والشكر ٠٠؟
كلا ٠٠
لا إله إلا هو صاحب هذه النعم، وخالق السموات والأرض، والذى يرزق عباده، والذى يستحق الشكر والعبادة وحده.
بعد كل هذا ٠٠!!
فأنى تؤفكون بأى وجه تصرفون عن الإيمان به، وتوحيده، وشكره ، وتكذبون الرسل ٠٠؟

* * *

على أية حال :

{ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ }
[الآية ٤]

وإن يكذبوك بعد هذا كله : فلا تهتم ولا تحزن .
وذلك لسببين :
الأول : لست وحدك فى ذلك فقد كذبت رسل من قبلك فاصبر.
الثانى : سنجازيهم على كفرهم وإلى الله ترجع الأمور وذلك فى يوم الجزاء.

* * *

وبعد أن ذكَّر ربنا خلقه بنعمه ، وطالبهم بالشكر عليها : يحذرهم من الغرور بالدنيا والشيطان، ويطالبهم بالعمل الصالح.
إذ يقول :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ }
[الآية ٥]

يعنى : يا أيها الناس إن وعد الله بالبعث والحساب حق فآمنوا به.
وانتبهوا جيداً ..
فلا ينبغي أن تغرنكم الحياة الدنيا ببهجتها وزخرفها ومتاعها، عن الاستعداد له .
ولاينبغي أنيغرنكم كذلك بالله فى حلمه وإمهاله الغرور وهو الشيطان عن المسارعة فى الخير.

* * *

ثم يبين ربنا عداوة هذا الشيطان ..
فيقول :

{ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ }
[الآية ٦]

أى : هو عدو لكم، عداوته قديمة، وعداوته شديدة فاتخذوه عدواً لكم فى عقيدتكم، وفى عبادتكم، وفى جميع أموركم.
وهو لا يريد لكم ولا منكم ، إلا أن تكونوا معه من أصحاب السعير .
وهى جهنم.

* * *

على كل حال : من أطاعه هلك، ومن ابتعد عنه وعصاه نجا.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }
[الآية ٧]

الذين كفروا بالله، وأطاعوا الشيطان لهم عذاب شديد.
والذين آمنوا بالله، وتغلبوا على وسوسة الشيطان وعملوا الصالحات ولم يغتروا بالدنيا: لهم مغفرة لما سبق من ذنوبهم وأجر كبير على ما فعلوه.

* * *

الذين كفروا : زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فرأوها حسنة ..

وهذا خطر كبير.
يقول الحق سبحانه :

{ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }
[الآية ٨]

يعنى : أفمن زين له من الشيطان سوء عمله فخذع بذلك فرآه حسناً وأصر عليه ..
ماذا تملك له؟
هذا : أضله الله فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء.
لذلك : فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ولا تأسف على كفرهم.
حيث إن الله عليم بما يصنعون.

* * *

ويعود السياق فى الآيات الكريمة مرة أخرى : إلى قضية البعث ، التى حذر من نسيانها وعدم الاستعداد لها فى قوله السابق إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور.
وذلك : ليدلل بألوان من قدرته عز وجل على هذه القضية، وهى قضية البعث ..
فيقول تعالى :

{ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ }
[الآية ٩]

أى : كما أننا بقدرتنا نرسل الرياح فتثير سحاباً محملاً بالمطر فسقناه بقدرتنا، وأنزلناه ماءً إلى بلد ميت بلا ماء فأحيينا به أى بهذا الماء الأرض حيث أنبتت بعد موتها ..!!
كذلكنحن قادرون على النشور وبعث العباد للحساب والجزاء.

* * *

يا أيها الناس..!!
آمنوا بالله، ولا تغتروا بمتاع الدنيا، ولا بالشيطان، حتى وإن أردتم العزة.

{ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ }
[الآية ١٠]

نعم ..
من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا: فليلزم طاعة الله تعالى؛ لينال ما يريد فلله العزة جميعاً.
ولينتبه إلى أن ما يطلب به العزة : ليس متاع الدنيا، ولا غرور الشيطان، بل الإيمان، والعمل الصالح.
حيث إنهإليه يصعد الكلم الطيب عموماً والعمل الصالح يرفعه الله إليه، ويتقبله من صاحبه.
و أما الذين يمكرون السيئات ويسلكون الطرق البعيدة عن مرضاة الله؛ طلباً لهذه العزة : لهم عذاب شديد فى الآخرة.
و فوق ذلك مكر أولئك أى : وحيلهم لنوال هذه العزة هو يبور يفسد، ولا يوصل إلى عزة، ولا إلى غيرها.

* * *

ثم عود إلى الاستدلال بآثار القدرة على وحدانية الله تعالى، وإمكانية البعث.
إذ يقول عز من قائل :

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }
[الآية ١١]

نعم ..
إن ذلك كله: على الله يسير.
وبعث الخلق أيضاً بعد موتهم لحسابهم: أمر يسير.

فآمنوا بالله، ووجوده، وآمنوا بالبعث واستعدوا له. إن كنتم عقلاء..!!

* * *

ومن آثار قدرته، الدالة على وحدانيته، أنه :

{ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

[الآية ١٢]

يعنى : لا يستوى الماء العذاب والماء المالح ٠٠

ومع ذلك ٠٠ فإنه من كل منهما :

أولاً : تأكلون لحماً طرياً وهو السمك.

وهذه آية من آيات الله.

ثانياً : وتستخرجون من كل منهما حلية تلبسونها وهى اللؤلؤ، وخلافه٠٠

وهذه آية من آيات الله.

ثالثاً : وترى الفلك أى السفن فيه أى فى كل منهما مواخر تجرى فى الماء لتبتغوا من فضله دون أن تسقط فى الماء.

وهذه آية من آيات الله.

و كان كل ذلك لعلكم تشكرون الله؛ بإيمانكم به، واتباع رسله، والاستعداد ليوم لقائه.

* * *

ومن آثار قدرته كذلك، الدالة على وحدانيته –كذلك– أنه :

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ }

[الآية ١٣]

أى : يولج يدخل الليل فى النهار بقدرته ٠٠
وهذه آية.
ويولج النهار فى الليل بقدرته ٠٠
وهذه آية.
و كذلك سخر لصالح الإنسان الشمس والقمر كل منهما يجرى لأجل مسمى محدد، وهو يوم القيامة ٠٠
وهذه آية.
الذى صنع هذه الآيات كلها: إله قادر.
ذلكم هو الله ربكم الذى له الملك كله، وله الأمر كله سبحانه وتعالى.
و أما الذين تدعون وتعبدون من دونه من آلهة أخرى : فإنهم ما يملكون شيئاً؛ لا من السموات ولا من الأرض، ولا مما بينهما، ولو كان شيئاً من قطمير وهو القشرة الرقيقة الملتفة على النواة.
وإذا كانوا لا يملكون : فهم لا يتصرفون، ولا يستطيعون شيئاً.
فكيف إذا تعبدونهم ٠٠؟

* * *

جربوا ٠٠
ونادوهم، واطلبوا منهم شيئاً..!!
إنكم :

{ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ }
[الآية ١٤]

أى : هم لا يسمعون شيئاً، ولا يعقلون شيئاً ٠٠
إنهم أصنام.
إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم أبداً.
ولو افترضنا أنهم سمعوا: ما فهموا، وما استجابوا لكم بشئ مما تطلبون.
و أكثر من هذا: يوم القيامة لو نطقوا يكفرون بشرككم لهم.
نحن نعلمكم بذلك الآن، وننبؤكم به؛ لتؤمنوا، ولتستعدوا للقاء الله.

ولا ينبؤك مثل خبير بالأمر كله، وهو الله تعالى.

*** * *أيها الأحبة فى الله ..**

لما طالت دعوة النبى صلى الله عليه للكفار أن يؤمنوا، وألح عليهم فى ذلك، وبالغوا فى إصرارهم على الكفر، وتمادوا فى عنادهم.

قالوا : ما يفعل محمد ذلك؛ إلا لأن ربه يحتاج إلى عبادتنا.

لذلك : رد الله عليهم فهمهم الخاطئ، وقولهم الفاحش هذا ..

بقوله :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ }

[الآيات ١٥ – ١٧]

يا أيها الناس أنتم الفقراء المحتاجون إلى الله فى كل شئ.

والله سبحانه وحده.

هو الغنى المنفرد بالغنى عن كل شئ.

وهو المحمود فى جميع ما يفعله، ويقوله، ويقدره، ويشرعه.

وهو عز وجل له المشيئة الكاملة المطلقة إن يشأ يذهبكم كلكم أيها الناس إلى العدم ويأت بقدرته بخلق جديد فعل، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

وما ذلك الإفناء للخلق، والإنشاء لغيرهم على قدرة الله ومشيئته بعزيز أى : بممتنع، أو عسير..!!

* * *

وبما أن الله غير فقير إلى عبادتكم: فتفكروا، واعلموا أنه لن يحمل أحد عنكم وزركم، وعقوبة عصيانكم.

{ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }

[الآية ١٨]

نعم ..

الله عز وجل عادل، حيث لا تزر نفس وازرة آثمة وزر ذنب نفس أخرى إذ كل نفس بما كسبت رهينة.

و كذلك إن تدع وتطلب نفس مثقلة بالأوزار، نفساً أخرى إلى أن تحمل عنها حملها لا تستجيب لها، ويظل وزرها كما هو لا يحمل منه شئ حتى ولو كان المدعو ذا قربى كالأب أو الأخ، أو الولد، أو الأم، أو البنت، أو غير ذلك.

وما دام الأمر كذلك : فدعهم لا يتعظون.

وعليك بمن هم أهل للموعظة، فأنذرهم ..

إنما تنذر الذين أصلحوا باطنهم وصاروا يخشون ربهم بالغيب وأصلحوا ظاهرهم بالعبادة وأقاموا الصلاة.

واعلم أنه: كما أن الوزر على صاحبه، فالحسنة لصاحبها.

ومن تزكى بفعل الطاعات، وترك المعاصى: فإنما يتزكى لنفسه حيث إن ثواب صلاحه وطهارته يعود إليه.

وإلى الله المصير الذى يلقى فيه كل إنسان جزاء ما قدم.

* * *

وبعد أن اتضح من يستفيد بإنذار الرسول ومن لا يستفيد : تأتى بعض المقارنات بينهما؛ عسى أن يفيق المعاندون.

يقول تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾

[الآيات ١٩ – ٢٢]

أى : لا تستوى هذه الأضداد مع بعضها البعض.

وكذلك: لا يستوى الكافر مع المؤمن أبداً.

إن الله يسمع الحق ويهدى إليه من يشاء من عباده.

ولم يرد أن يسمع هؤلاء سمع هداية، فهم كالموتى فى القبور.

وما أنت يا محمد بمسمع من فى القبور.

فلا تبتئس من أجلهم، ولا تحزن لعدم استجابتهم؛ فليس عليك هداهم.

* * *

{ إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ }
[الآيات ٢٣ – ٢٦]

نعم ..
ما أنت إلا نذير لهم، عليك البلاغ فقط، وعلى الله الهداية، ومنه الإضلال.
إنا أرسلناك بالحق وهو دلائل الهداية بشيراً بمن آمن ونذيراً لمن كفر وعاند.
و لست وحدك ..!! فما من أمة قبلك إلا خلا سلف فيها نذير لهم.
وإن يكذبوك فى هذا الحق، ويعاندوا دعوتك : فلست أيضاً وحدك..!!
فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم؛ حيث جاءتهم رسلهم هؤلاء بالبينات المعجزات وبالزبر كصحف إبراهيم وبالكتاب المنير وهو التوراة والانجيل:
فكفروا دون علة تمنعهم من الإيمان، أو حجة يتمسكون بها.
فأخذت الذين كفروا هؤلاء بعقابى لهم، ونكالى بهم، فـــ تأمل كيف كان نكيرى، بهم وعقابى لهم ..!!
لذلك : فاصبر على تكذيب قومك، فإن عذابى ينتظرهم.

* * *

هذا ..
وبعد أن لفت الله النظر إلى ما يؤدى إلى الخشية منه سبحانه، من خلال ما فعل بالمكذبين ..!!
يلفت النظر – كذلك – إلى مظاهر قدرته فى هذا الكون، ليؤدى ذلك إلى الخشية منه سبحانه، من خلال التعريف بعظمته.
فيقول :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ }
[الآيتان ٢٧ ، ٢٨]

يعنى : ألم تر ألم تعلم أيها المخاطب أن الله بقدرته فعل هذه الأشياء، التى يدلك عليها لتؤمن به.
وهى :

أولاً : أنزل من السماء أى : السحاب ماءً وذلك بقدرته تعالى فأخرجنا به ثمرات عديدة مختلفاً ألوانها وأنواعها، وطعومها.

ثانياً : و خلق من الجبال جدد أى : طرق، وشرائح بيض وحمر مختلف ألوانها كذلك و منها غرابيب سود أى : ذات ألوان قاتمة سوداء.

ثالثاً : و خلق من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك وأحجامه، وأشكاله.

كل ذلك: دلائل على قدرة الله وعظمته.

وكل ذلك: داع إلى حسن عبادة الله، وخشيته.

ولا يدرك ذلك إلا العلماء.

حقاً إنما يخشى اللهَ حق الخشية من عباده كلهم العلماءُ الذين يدركون ذلك، ويعرفون عظمة الله تعالى.

إن الله عزيز يعاقب العصاة والمعاندين غفور للطائعين، المصدقين، الخاشعين.

* * *

ولما بين ربنا عز وجل : العلماء بالله، وخشيتهم له ٠٠!!

ذكر العالمين بكتاب الله، العاملين به.

فقال :

{ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ }

[الآيتان ٢٩ ، ٣٠]

يلاحظ ابتداءً :

أن قوله إنما يخشى الله إشارة إلى عمل القلب.

وأن قوله إن الذين يتلون كتاب الله إشارة إلى عمل اللسان.

وأن قوله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم إشارة إلى عمل الجوارح.

ومن امتلك هذه الثلاثة : فقد سلك الطريق الحق لخشية الله، وتعظيمه.

ومعنى الآية :

إن الذين يتلون كتاب الله وهو القرآن، ويداومون على ذلك وأقاموا الصلاة وحافظوا عليها وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية وفى كل حال.

وهم بذلك يرجون تجارة لن تبور لن تهلك، وتضيع، ويضيع نفعها.

هؤلاء: ليوفيهم الله أجورهم ثواب أعمالهم.

و كذلك يزيدهم فوق أجورهم، ثواباً من فضله لا يخطر لهم على بال.

حقاً ٠٠ إنه سبحانه غفور لذنوبهم شكور لطاعتهم.

* * *

ولما بين ربنا وحدانيته سبحانه، ودلل عليها بالدلائل العديدة من الأنفس والآفاق.
ذكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ..
فقال :

{ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ }
[الآية ٣١]

والذى أوحينا إليك يا محمد من الكتاب أى القرآن هو الحق من ربك مصدقاً لما بين يديه أى لما سبقه من الكتب: يشهد لها أنها من عند الله، وذلك بالطبع قبل تحريفها، كما تشهد هى له، بالتنويه عليه، وأنه منزل من رب العالمين.
إن الله بعباده لخبير بصير أى : عالم بالبواطن والظواهر.

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى عن القرآن الكريم :

{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ }
[الآية ٣٢]

ثم أورثنا هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك، وهو القرآن، لهؤلاء الذين اصطفيناهم واخترناهم من عبادنا فى هذه الأمة.
وقد صنف هؤلاء الذين أورثهم كتابة على النحو التالى :

الصنف الأول : الظالم لنفسه فمنهم ظالم لنفسه وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

الصنف الثانى : المقتصد ومنهم مقتصد وهو : الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

الصنف الثالث : السابق بالخيرات ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات، الذى يضم إلى العمل، التعليم والإرشاد إلى العمل.

ذلك التوريث للكتاب: هو الفضل الكبير من الله تعالى.

* * *

هؤلاء الأصناف الثلاثة، لهم:

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ }
[الآيات ٣٣ – ٣٥]

جنات عدن أى : إقامة يدخلونها أى المؤمنون بأصنافهم كلها ..

فالظالمون لأنفسهم : يمحصون، ثم يدخلون.

والمقتصدون : يحاسبون حساباً يسيراً، ثم يدخلون.

والسابقون بالخيرات : يدخلون بغير حساب.

ثم يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً.

هذا حليهم وزينتهم ..!!

ولباسهم فيها حرير ينعمون به فى الجنة، بعد أن امتنعوا عنه طاعة لربهم فى الدنيا.

وقالوا بعد دخولهم: الحمد لله رب العالمين.

الذى أذهب عنا الحزن من هموم الدنيا والآخرة إن ربنا عز وجل لغفور للسيئات وإن كثرت شكور للطاعات وإن قلت.

الذى أحلنا كذلك دار المقامة من فضله لا من أعمالنا لا يمسنا فيها نصب تعب ولا يمسنا فيها لغوب إعياء من كثرة التعب.

* * *

هذا .. حال السعداء.

وأما الأشقياء : فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالى :

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ }

[الآيتان ٣٦ ، ٣٧]

أى : والين كفروا لهم نار جهنم يدخلونها.

لا يقضى عليهم فيها بموت ثان فيموتوا فيستريحون.

ولا يخفف عنهم وهم فيها من عذابها فينالهم بعض الراحة.

كذلك نجزى بهذا الجزاء: كل كفور كذب بالحق.

وهم فى وضعهم هذا: يصطرخون يصرخون بشدة فيها..!!

يقولون: ربنا أخرجنا من النار، وأعدنا إلى الدنيا نعمل فيها عملاً صالحاً يرضيك عنا غير الذى كنا نعمل.

فيكون الجواب عليهم :

أو لم نعمركم عمراً، بمقدار ما يتذكر فيه من أحب أن يتذكر ويتعظ..!!؟

و بالفعل جاءكم النذير يذكر ويعظكم، فلم تقبلوا تذكيره، ولم تعملوا بنصحه ووعظه..!!؟

فذوقوا العذاب..!!

فما للظالمين من نصير يعينهم ويبعد عنهم العذاب.

* * *

{ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً }

[الايتان ٣٨ ، ٣٩]

يعنى : إن الله عالم غيب السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما.

حيث إنه سبحانه عليم بذات الصدور وما تكنه وتنطوى عليه.
وسوف يجازى أصحابها بما يستحقون.

* * *

نعم ..
هو سبحانه الذى جعلكم يا من تقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل خلائف فى الأرض ومكنكم فيها قبل ذلك: فكفرتم.
فمن كفر فعليه بالطبع وبال كفره.
ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً.
ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا خساراً.

* * *

ثم يقرر الله التوحيد، ويبطل الشرك .. بقوله :

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً }
[الآية ٤٠]

يعنى : قل لهم أرأيتم أى : أخبرونى، عن شركائكم آلهتكم الذين تدعون تعبدون من دون الله.
ثم أرونى مظاهر قدرتهم ..
أولاً : ماذا خلقوا من الأرض..؟
فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!
ثانياً : أم لهم شرك مع الله فى خلق السموات..؟
فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!
ثالثاً : أم أتيناهم كتاباً من عند الله يثبت شركتهم لله فهم على بينة منه وبرهان يشهد لهم بذلك..؟ فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!

لا هذا ، ولا ذاك، ولا ذاك.
بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً بأهوائهم وآرائهم إلا غروراً وباطلاً؛ فهم بذلك فى ضلال حينما يعبدونهم ٠٠!!

* * *

ولما بين المولى القدير أنه لا خلق للأصنام، ولا قدرة لها على ذلك: بين أن الله عز وجل هو القدير وحده.
فقال :

{ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً }
[الآية ٤١]

يعنى : إن الله سبحانه يمسك السموات والأرض بقدرته، ويمنعهما أن أن تزولا وتتحركا من مكانهما.
ولئن افترضنا أنهما زالتا من مكانهما هذا : ما أمسكهما من أحد غيره.
يا سبحان الله..!!
إنه كان حليماً غفوراً يكفر عباده ويعصونه، وهو يحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة، أو إسقاط السماء عليهم، وينتظر توبتهم؛ ليغفر لهم.

* * *

وبهذا : بين الله إنكارهم لوحدانية الله عز وجل وقدرته.
كما كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأنكروا رسالته، وبالغوا فى هذا الإنكار.
يقول عز من قائل :

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً }
[الآية ٤٢]

يعنى : وأقسموا بالله مؤكدين أيمانهم هذه ٠٠

قائلين لئن جاءهم نذير من الله: ليؤمنن به، ويتبعونه، وليكونن أهدى من إحدى الأمم المستقيمة.
فلما جاءهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وهو نذير لهم : ما زادهم مجيئه إلا نفوراً وتباعدا عن الحق، وعناداً له.

* * *

وما كان هذا الموقف منهم، إلا :

{ اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }
[الاية ٤٣]

أى : عاندوا محمداً، وكذبوا رسالته، ونفروا منه، وابتعدوا عنه.
استكباراً منهم فى الأرض عن اتباع آيات الله.
ومكر السئ كذلك ..
أى :
رغبة المكر السئ بالناس فى منعهم وصدهم عن هذه الدعوة، واتباع صاحبها.
فهل يظنون أنهم ناجون من أخطار ما يفعلون ..؟
كلا ..
ولا يحيق وينزل ضرر المكر السئ إلا بأهله وأصحابه.
وسينزل بهم لا محالة ..!!
ألآ يؤمنون، ويكفون عن مكرهم هذا، فهو أفضل لهم ..؟
ماذا ينتظرون ..؟
فهل ينتظرون إلا سنة الأولين الذين كان يأتيهم الرسول، فيكذبونه، فيهلكهم الله ..؟
على أية حال: سنتنا لا تتغير ولا تتبدل، وسنهلكهم.
فلن تجد لسنة الله تبديلاً بغيرها ..!!
ولن تجد لسنة الله تحويلاً عنهم، دون أن تهلكهم.

* * *

{ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً }

[الآية ٤٤، ٤٥]

يعنى : أ قعدوا ولم يسيروا خلال سفرياتهم وتحركاتهم فى الأرض لمصالحهم فينظروا إلى آثار السابقين، فيعرفوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم لما كذبوا..؟

خاصة : و أنهم كانوا أشد منهم قوة وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً ..

ومع ذلك : أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وما كان الله ليعجزه ويمنعه عن عقابهم، وإهلاكهم من شئ فى السماوات ولا فى الأرض.

لذلك : هو سبحانه يمهلهم ولا يهملهم.

يا عظمة الله ..!!

إنه عز وجل كان عليماً بهم وبغيرهم قديراً عليهم وعلى غيرهم.

ومع ذلك: لا يعاجل بالعقوبة.

* * *

حقاً ..

يعنى : ولو يؤاخذ الله الناس ويعاقبهم بما كسبوا من المعاصى والذنوب: لأهلكهم جميعاً، وما ترك بذلك على ظهرها أى الأرض من دابة .

ولكن يؤخرهم سبحانه، ويمهلهم؛ عسى أن يتوبوا إلى أجل مسمى وهو يوم موتهم.

فإذا جاء أجلهم وماتوا: جعل القبر روضة من رياض الجنة للمؤمن، وحفرة من حفر النار للكافر.

ثم بعثهم، ونعَّم الصالحين، وعذب الفاسدين.

وليس ذلك على الله بعزيز ..!!

فإن الله كان بعباده بصيراً لا تخفى عليه أحوالهم ولا أمورهم.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

يس

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة : مكية .
وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى :

{ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ }
[الآيات ١ – ٥]

يس * والقرآن الحكيم أى : المحكم، ذو الحكمة؛ لأنه من الله الحكيم سبحانه وتعالى.
هذا قسم من الله عز وجل : يؤكد به للمكذبين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
وجوابه : إنك يا محمد لمن المرسلين من الله تعالى ، إلى الدنيا كلها.
وأنت على صراط مستقيم وهو الإسلام، الذى هو المنهج القويم، والشرع المستقيم.
وهذا الصراط المستقيم الذى جئت به، والذى أنت عليه : تنزيل منزل عليك من العزيز الرحيم بعباده المؤمنين.

* * *

وقد نزل عليك ..

{ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ }
[الآية ٦]

أى : لتنذر به قوماً أى كل قوم ، في كل عصر.

وبالذات : العرب، الذين ما أنذر آباؤهم من قبل.
ولذلك : فهم غافلون عن آيات الله، بعيدون عن هديه.

* * *

ذات يوم أيها الأحباب : حلف أبو جهل ليضربن رأس محمد بالحجر ؛ فلما رآه، رفع يده بالحجر ليضربه ..
وهنا : غلت يداه إلى عنقه، والتصق الحجر بيده.
ونزل قوله تعالى :

{ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ }
[الايات ٧ – ١٠]

لقد حق القول أى : وجب عليهم، وهو لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين [السجدة : ١٣].
على أكثرهم فهم لا يؤمنون حيث علم الله تعالى أزلاً ، أنهم يصرون على الكفر حتى مماتهم .
ولذلك : وجب عليهم العذاب.
ومن هذا يفهم : أن المؤمنين ، هم الأقلية.
وأما هذه الأكثرية التى اختارت الكفر، ورضيته، وأصرت عليه: فيقول عنها رب العزة إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً ربطت فيها أيديهم فهى أى : الأيدى إلى الأذقان مرفوعة، مشلولة الحركة ..
وبذلك : فهم مقمحون عاجزون عن أى تصرف.
هذا من جهة.
و من جهة أخرى : جعلنا من بين أيديهم أى أمامهم سداً يمنعهم من الحق ومن خلفهم سداً .
وبذلك : أغشيناهم أعميناهم عن الحق فهم لا يبصرون.
و على هذا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم : لا ينفعهم الإنذار، ولا يؤمنون حيث أضلهم الله عن الهدى، وقيدهم، وأعماهم عنه.

* * *

ولكن هناك فريق آخر : ينفع الإنذار معه ٠٠
يقول عنه المولى الكريم :

{ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ }
[الآية ١١]

إنما تنذر الإنذار النافع من اجتمع له أمران :
الأول : اتبع الذكر أى : القرآن؛ حيث خضع له، وعمل به.
الثانى : وخشى الرحمن بالغيب أى : أطاع الله فى جميع أموره، وخاف معصيته فى خلوته.
من اجتمع له هذين الوصفين ٠٠
فبشره من ربه بمغفرة لذنوبه وأجر كريم لطاعاته.

* * *

ثم يذكر ربنا عز وجل : بعض ما يثير الخشية منه، ويبعث عليها .
فيقول :

{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ }
[الآية ١٢]

يعنى : إنا نحن نحيي بقدرتنا الموتى يوم القيامة.
ونكتب وقد كتبنا ما قدموا من أعمال حسنة، أو سيئة.
وآثارهم كذلك التى تركوها من خلفهم حسنة كانت : مثل علم علموه، أو صدقة جارية، أو مسجد بنوه، أو عمل صالح أتقنوه، أو كانت سيئة : مثل ٠٠ فاحشة أشاعوها، أو بدعة نشروها، أو ظلم اقترفوه.
و بصفة عامة : كل شئ أحصيناه وجمعناه، وسجلناه فى إمام مبين وهو اللوح المحفوظ.
وبهذا : لا يغيب ما عملوه عنا، ولا يصعب عقابهم علينا.

* * *

ولأن الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون : غير معروفين إلا لله سبحانه وتعالى ٠٠!!

فإن الأمل فى إيمان الباقين : باق لم يغلق بابه.
ولذلك : يقول ربنا لمحمد صلى الله عليه وسلم :

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ }
[الآيتان ١٣ ، ١٤]

يعنى : واضرب يا محمد لقومك مثلاً أى : قصة أصحاب القرية.
وذلك : إذْ جاءها المرسلون لدعوة أهلها للإيمان .
واذكر لهم إذْ أرسلنا إليهم من أهل القرية .
هؤلاء المرسلين اثنين.
فلم يستجب لدعوتهما .
فعززنا وقوينا هذين الاثنين بثالث أرسلناه معهما إلى أهل هذه القرية.
فقالوا جميعاً ، أى الثلاثة لأهل القرية إنا إليكم مرسلون من ربكم الذى خلقكم: ندعوكم إلى طاعته، والإيمان به.

* * *

ماذا فعل أهل هذه القرية ، بعد زيادة هذا الثالث ؟..

{ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ }
[الاية ١٥]

أى : قالوا لهم :
أولاً : ما أنتم إلا بشر مثلنا ولا ميزة لكم علينا، حتى تكونوا رسلاً إلينا.
ثانياً : وما أنزل الرحمن من شئ مما تقولونه، من توحيده، وطاعته، وعبادته.
ثالثاً : إن أنتم إلا تكذبون علينا.

* * *

وأجابتهم الرسل ..

{ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }
[الآيتان ١٦ ، ١٧]

يعنى : قالوا لهم..
نعم : نحن بشر، وربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون منه، وإنا لا نكذب عليكم.
و لذلك ما علينا إلا البلاغ المبين الواضح لهذه الدعوة ومبادئها، وعلى الله الهداية.

* * *

وبهذا انتهت حجة المكذبين.
وكان عليهم أن يسكتوا، بل أن يؤمنوا ..
ولكنهم : غرتهم قوتهم، وبهرهم سلطانهم.
حيث :

{ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية ١٨]

أى : قالوا للمرسلين ..
أولاً : إنا تطيرنا بكم أى : تشاءمنا بكم، وبوجودكم بيننا، وبدعوتكم لنا، فاسكتوا، وابتعدوا عنا.
ثانياً : لئن لم تنتهوا عن دعوتكم إلينا لنرجمنكم بالحجارة حتى الموت، كراهة لكم، ورفضاً لدعوتكم وليمسنكم منا عذاب أليم.

* * *

ولم تخف الرسل من تهديدهم٠٠!!
ولم يسكتوا عن دعوتهم٠٠!!
حيث :

{ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ }
[الآية ١٩]

يعنى : قالوا لهم :
أولاً : طائركم معكم أى : سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم.
ثانياً : أئن ذكرتم بالهدى، ودعيتم للإسلام تشائمتم؟
ثالثاً : لا تشاؤم منا، ولا قبول منكم للدعوة بل أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم.

* * *

فى هذه الأثناء، وخلال احتدام النقاش بين المكذبين والرسل : حدث أمر طيب عجيب.
يحكيه ربنا بقوله سبحانه :

{ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ }
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

يعنى : وجاء إليهم من أقصى المدينة رجل يسعى يسير بجد وسرعة، ووصل إليهم، وعرف ما دار بينهم.
وتوجه إلى قومه قال يا قوم اتبعوا المرسلين الذين جاؤكم بالهدى.
يا قوم اتبعوا من لا يسألكم أجراً على هذه الدعوة، وإبلاغ هذه الرسالة وهم فى ذاتهم، وفى دعوتهم مهتدون صالحون، صادقون، لا يكذبون.

* * *

وكأن أصحاب القرية استغربوا موقفه، واستنكروا كلامه، وساءلوه : هل آمنت معهم ٠٠ ؟
فقال :

{ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآية ٢٢]

أى : رد عليهم قائلاً لهم وما لى لا أومِن وأعبد الذى فطرنى يعنى : خلقنى ٠٠؟
و فى ذات الوقت : أنتم إليه ترجعون فيجازيكم على موقفكم هذا.

* * *

ولما وجدوا اقتناعه بما جاء به المرسلون ٠٠!!
كأنهم حاولوا إعادته إلى الكفر معهم ٠٠
فقال لهم :

{ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ }
[الآيات ٢٣ – ٢٥]

يعنى : أ أعود إلى الكفر بعد أن هدانى ربى وآمنت، وأتخذ من دونه أى : غير ربى آلهة لا تملك شيئاً ٠٠ ؟
بحيث إن يردن الرحمن بضر أى : بمكروه؛ لأنه النافع الضار .
لا تغنى عنى وتبعد شفاعتهم لى، لو كان من هذا الضر شيئاً ولو يسيراً .
كما أنهم لا ينقذونى مما يحدث لى من مكروه.
إنى لو فعلت ما تريدون إذاً أكون مثلكم فى ضلال عن الهدى مبين واضح.
وهنا : بدأ القوم يضربونه ضرباً يريدون به قتله.
فما تخاذل، وما تراجع ٠٠

بل قالها مدوية فى وجوههم، دامغة لظلمهم :
إنى آمنت بربكم وربى، ولن يفتنى عنه عذابكم فاسمعون إن كنتم تعقلون، وآمنوا بما آمنت به، وهو ما يدعوكم إليه المرسلون.

* * *

ثم قتلوه ٠٠!!
فكافأه الله عز وجل بالجنة ٠٠!!

{ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ }
[الآية ٢٦]

فدخلها، فهو يرزق فيها ٠٠ واذهب الله عنه هموم الدنيا، وغمومها، وقلقها، وتعبها.
فلما رأى هذا الثواب :

{ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ }
[الآية ٢٧]

يا ألله ٠٠ !!
هذا هو حرص الدعاة على هداية الناس يا ليت قومى يعلمون الحق، ويؤمنون به، حتى يغفر الله لهم ذنوبهم، ويكرمهم برضوانه، ودخول جنته.

* * *

وهكذا انتهت قصة أصحاب هذه القرية.

* * *

انتهى اللقاء السابق بنهاية قصة أصحاب القرية مع المرسلين، والرجل الذي جاء إليهم من أقصا المدينة يسعى، لإرشادهم إلى الخير، فقتلوه.يقول تعالى تعقيباً على هذه القصة.

{ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ }
[الآيات ٢٨ – ٣٠]

يعنى : وما أنزلنا على قومه المكذبين من بعده أى : من بعد قتلهم له من جند من السماء لإهلاكهم وما كنا منزلين هؤلاء الجند.
فأمْر إهلاكهم كان أيسر من ذلك إن كانت هلكتهم إلا صيحة واحدة من جبريل عليهم فإذا هم خامدون ميتون جميعاً فى لحظة واحدة.
وهكذا : هلكوا..!!
يا حسرة على العباد هؤلاء وأمثالهم الذين ما يأتيهم من رسول يدعوهم إلى الخير، ويدلهم عليه إلا كانوا له يكذبون، وبه يستهزؤن.

* * *

وهذا التحسر : فيه تعريض بكفر المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين ضُرب لهم مثل أصحاب القرية هؤلاء ..
ثم يعود الخطاب المباشر لهم فى قوله تعالى :

{ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ }
[الآيتان ٣١ ، ٣٢]

أى : ألم يروا ويعلموا كم أهلكنا كثيراً قبلهم من أهل القرون السابقة، ويتعظوا بهم، وبما حدث لهم ..! ؟
خاصة :
وأنهم إليهم لا يرجعون.

أيضاً : وإن كل منهم لما جميع لا استثناء لأحد لدينا محضرون للحساب يوم القيامة، والجزاء على أعمالهم ..!!

* * *

نعم ..
نهلكهم .. بقدرتنا.
ونبعثهم للحساب .. بقدرتنا.
وهذا دليل لهم على ذلك :

{ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ }
[الآيات ٣٣ – ٣٥]

يعنى : وآية ودليل لهم على وحدانية الله، وقدرته، وإرساله الرسل إليهم وهى الأرض الميتة اليابسة ..
وذلك من عدة وجوه :
الأول : أحييناها من هذا الموت، بالماء وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج الحج : ٥].
الثانى : وأخرجنا منها بعد نزول الماء عليها حباً كالقمح وغيره فمنه يأكلون.
الثالث : وجعلنا فيها جنات بساتين من نخيل وأعناب.
الرابع : وفجرنا فيها من العيون الماء، الذى يسقى الزرع ليأكلوا من ثمره.
كل هذا من فضل الله .
وما عملته أيديهم ولا صنعته عقولهم.
أفلا يشكرون فيؤمنون بالله، ويوحدونه، ويتبعون رسوله؟

* * *

سبحان الله ..!!
نعم ..

{ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٣٦]

يعنى : سبحان الله، وتنزه عما يقولون فى حقه، ويشركون معه غيره ؛ إذ هو الذى خلق الأزواج الأصناف كلها سواء كانت مما تنبت الأرض من الزرع والثمار، أو من أنفسهم أى : الذكور والإناث أيضاً ومما لا يعلمون مما لم يطلعهم الله عليها، ولم يتوصلوا إليها.

* * *

وهذا ٠٠ دليل آخر على :
وحدانية الله، وإرساله الرسل، وقدرته على بعثهم للحساب.

{ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }
[الآيات ٣٧ – ٤٠]

و هذه آية لهم ، كذلك ٠٠!!
وهى آية مكونة من آيات على الوجه التالى:
أولاً : الليل حيث نسلخ منه النهار وتنزعه عنه؛ فيذهب ضوؤه فإذا هم مظلمون.
ثانياً : والشمس حيث تجرى بقدرة الله وإرادته لمستقر لها تستقر فيه عند انتهاء أمر الدنيا.
ويلاحظ : أن ذلك الجرى لها، هو تقدير دقيق من العزيز العليم لا من أحد سواه، ولا يدعى ذلك أحد سواه.
ثالثاً : والقمر حيث قدرناه أى قدرنا مسيره منازل يسير فيها حتى إذا كان آخرها عاد مظلماً كالعرجون وهو جريد النخل القديم إذا قدم واصفر وتقوّس.
رابعاً : وهذا من بدائع قدرة الله وصنعه؛ حيث إنه لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وهذا من تدبير الله وكل واحد منهم يدور فى فلك خاص به، وكلهم فى فلك السماء يدورن، ويسبحون فى هذا الفراغ الواسع الكبير، دون توقف، أو كلل، أو ملل.
أفلا يفهمون هذه الآيات ٠٠ فيؤمنون بالله، ويوحدونه، ويتبعون رسوله ٠٠؟

* * *

وهذا : دليل ثالث.

{ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ }
[الايات ٤١ – ٤٤]

وآية لهم تدل على : وحدانية الله، وإرساله محمداً صلى الله عليه وسلم، وتدل على قدرته سبحانه.
وهذه الآية مكونة مما يلى :
أولاً : أنا حملنا ذريتهم أى : ذرية آدم فى الفلك وهى : سفينة نوح عليه السلام المشحون المملوء.
ثانياً : وخلقنا لهم من مثله أى : مثل الفلك ما يركبون من السفن، والإبل، والدواب، وجميع وسائل المواصلات.
ثالثاً : ونجيناهم من الغرق .
و لذلك إن نشأ نغرقهم فى البحر فلا صريخ مغيث لهم ينتشلهم منه ولا هم ينقذون وينجون من هذا الغرق إلا رحمة منا لهم ومتاعاً بالحياة إلى حين موتهم.

* * *

ومع وضوح هذه الأدلة : فهم يعاندون ..!!

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الاية ٤٥]

إذا قيل لهم اتقوا غضب ربكم وعذابه فى الدنيا والآخرة ؛ لعلكم ترحمون وتنجون من هذا العذاب : رفضوا، وعاندوا.

* * *

كذلك ..

{ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ }
[الآية ٤٦]

حتى هذه الآيات الدالة على : وحدانية الله، وصدق الرسول، وقدرة المولى حينما تعرض عليهم : كانوا عنها وعن الإفادة منها، والإيمان بسببها معرضين رافضين، معاندين.

* * *

أيضاً ..

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٤٧]

يعنى : إذا طلب منهم الإنفاق فى وجوه الخير مما رزقكم الله.
قال هؤلاء الذين كفروا مستهزئين رافضين : أنطعم من أفقره الله، ولو يشاء الله إطعامه أطعمه هو، دون حاجة إلينا.
ثم يقولون : إن أنتم بهذه الدعوة لنا للإنفاق إلا فى ضلال مبين.

* * *

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الاية ٤٨]

يعنى : يقولون متى هذا الوعد بالعذاب الذى تعدوننا به ٠٠ ؟
فأتونا بهذا العذاب إن كنتم صادقين ، أى إن كان دينكم هذا صحيح٠٠!!

{ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ }
[الاية ٤٩]

أى : ما ينتظرون إلا الصيحة الأولى ، أى النفخة الأولى ، تأخذهم وبعضهم يخاصم بعضاً فى معاملاتهم.

{ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ }
[الآية ٥٠]

يعنى : لا يستطيعون أن يوصوا بشئ من أمورهم ، ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم .
ويرى ابن كثير : أن هذه هى نفخة الفزع ، ثم تكون نفخة الصعق ، ثم تكون نفخة البعث .
والأرجح : أنها نفخة الفزع ، وهى النفخة الأولى.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ }
[الآية ٥١]

ثم بين سبحانه وتعالى ما بعد النفخة الأولى : أى نفخ فيه مرة أخرى ، وهى النفخة الثانية .
والأجداث : هى القبور.
ولكن كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين ، هما الإحياء والأماتة ٠٠؟
نقول لا مؤثر غير الله ، والنفخة مجرد علامة .
ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام .
والنسلان : هو الشئ السريع.

{ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ }
[الآية ٥٢]

قال الكفار لما بعثوا ، لأن قوله ونفخ فى الصور يدل على أنهم بعثوا.
والمرقد هو المضجع .
قال ابن كثير وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم.
فإذا قالوا من بعثنا من مرقدنا ٠٠ ؟
أجاب المسلمون قائلين : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

{ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ }
[الآية ٥٣]

نعم ٠٠ ما هى إلا صيحة واحدة : فإذا الجميع بين أيدينا خاضع خاشع أحضر إجبارياً، وصار واقفاً ينتظر الحساب.

* * *

ثم يكون فى هذا اليوم ما يكون، مما تنخلع له القلوب، وتشيب منه الولدان. لكن على قاعدة واضحة، فى هذا الحساب.
يسجلها العادل سبحانه فى قوله :

{ فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية ٥٤]

لا ظلم فى هذا اليوم، لا تهمة لبرئ، ولا عقاب بغير ذنب، ولا تهاون مع مسئ ، حيث يجازى الكل بما عمل ٠٠ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.
نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

ثم يخبر ربنا عن أهل الجنة، جعلنا الله وإياكم منها ٠٠!!
فقال :

{ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ }
[الآيات ٥٥ – ٥٨]

يالرحمة الله بعباده ٠٠!!
يخبر الكريم عن أهل الجنة، ونعيمهم فى آيات يتعبد بها وتتلى إلى يوم القيامة ٠٠!! ؟
إنه غاية التشويق، والتحبيب فيما يوصل إلى ذلك.
ألا وهو طاعة الله تعالى ٠٠!!
نعم ٠٠
يكون أصحاب الجنة، وهم عباد الله المؤمنون الصالحون، يوم القيامة : فى نعيم يشغلهم عن غيرهم؛ حيث يكونون هم وزوجاتهم الصالحات فى ظلال أشجار الجنة ، يسعدون بما يكون لهم فيها، كل ما يشتهون ينالونه، ويحصلون عليه دون مجهود أو معاناة.
ثم يكون لهم أكمل الأشياء وأتمها وأعظمها : حيث يتجلى لهم ربهم عز وجل ، وينعم عليهم بالسلام، الذى غاية المنى.
نعم ٠٠
يقال لهم : سلام من رب رحيم.

* * *

وأما الآخرون ٠٠
أعاذنا الله منهم، ومن شرهم، وضررهم وصحبتهم ٠٠!!
وهم الكافرون ٠٠

فيقال لهم :

{ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ }
[الآية ٥٩]

ابتعدوا أيها المجرمون عن المؤمنين، فلستم منهم، ولا هم منكم.
ابتعدوا عنهم ، فسنذيقكم اليوم العذاب الأليم، الذى كنتم به تكذبون.

*** * *ويمتثل الكافرون ٠٠!!**
وينعزلون عن المؤمنين ، وهم فى حسرة وألم ٠٠!!
فيقول لهم العزيز الحكيم :

{ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ }
[الآيات ٦٠ – ٦٢]

يقول لهم ربنا عز وجل تبكيتاً وتقريعاً : ألم أعهد إليكم وآمركم وأنتم فى الدنيا على ألسنة رسلى، وفى كتبى، بشيئين :
الأول : ألا تعبدوا الشيطان بطاعته فيما يوسوس لكم ويزينه من المعاصى، وقد حذرتكم منه وقلت لكم، إنه لكم عدو مبين.
الثانى : وأن اعبدونى وحدى، وأطيعونى، واتبعوا رسلى .
وقلت لكم موجهاً ومرغباً فى الطاعة : هذا صراط طريق إلى سعادتكم وفوزكم ونجاتكم فى الدنيا والآخرة مستقيم لا انحراف فيه ولا اعوجاج.
ومع هذا العهد، وهذا التبين، وهذا الترغيب فى الطاعة : أضل الشيطان وأغوى وأفسد منكم جبلاً خلقاً كثيراً فعصَوْنى.
أفلم تكونوا تعقلون فتميزون الصواب من الخطأ، والهدى من الضلال ٠٠؟

* * *

على أية حال :

{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }
[الآيتان ٦٣ ، ٦٤]

نعم ..
يقال لهم : تحسيراً، وتبكيتاً، ونكاية لهم ..!!
هذه هى جهنم التى حذرتكم منها الرسل، والتي كنتم توعدون بها: بسبب معاصيكم وكفركم .
الآن اصلوها أى : ادخلوها، فهى اليوم سكنكم وإقامتكم .
وذلك: جزاءً لكم بما كنتم تكفرون.

* * *

وهنا ..
ينكرون ..!!
ويقولون : ما كفرنا ..!!
ويحلفون : ما كنا مشركين ..!!
فيقول رب العزة :

{ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }
[الآية ٦٥]

يعنى : فى هذا الموقف نختم على أفواههم التى يجادلون بها، ونفضح أمرهم، ونكشف سترهم، وتكلمنا أيديهم بدل ألسنتهم وتشهد عليهم أرجلهم شهادة حق بما كانوا يكسبون.

* * *

فيقول ربنا عز وجل :

{ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ }
[الآيات ٦٦ – ٦٨]

يقول ربنا سبحانه وتعالى : نحن قادرون على هؤلاء ، وهم يعيشون على إنعامنا عليهم، وإحساننا إليهم ٠٠ ومع ذلك : يكفرون ٠٠!!

ولو نشاء لطمسنا بقدرتنا على أعينهم فأعميناهم، وسلبنا منهم نعمة البصر ، فإذا أرادوا السير كعادتهم فاستبقوا الصراط منعهم هذا العمى .

فكيف يبصرون حينئذ ٠٠ ؟

طبعاً لا يستطيعون ٠٠!!

و كذلك لو نشاء لمسخناهم بقدرتنا على مكانتهم أى : وهم فى أماكنهم، وجعلناهم قردة وخنازير، وسلبنا منهم نعمة الخلق الحسن ٠٠

فإذا أرادوا الذهاب والمجئ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون.

و على كل :

من نعمره ونجعله يعيش زمناً طويلاً ننكسه فى الخلق أى: نجعله بعد القوة ضعيفاً، وبعد الشباب هرماً.

أفلا يعقلون كل هذا، ويتدبرون فيه ؛ فيعرفون قدرة الله، فيؤمنون ولا يكفرون ٠٠؟

* * *

لقد بلغهم محمد صلى الله عليه وسلم كل هذا، ودعاهم إلى الإيمان، وتلى عليهم القرآن، الذى هو من عندنا، والذى ليس بشعر كما يردّدُون.

{ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَياً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ }
[الآيتان ٦٩ ، ٧٠]

نعم ..
القرآن كلام الله تعالى، وهو الحق، وليس بالشعر، ومحمد بلَّغه، وهو ليس بشاعر وما علمناه الشعر أصلاً لتتهمونه بذلك وما ينبغى له أن يكون شاعراً .
وكذلك : ما يصح أن يكون القرآن شعراً ..!!
إن هو إلا ذكر من الله وقرآن مبين يتلى ويتعبد بتلاوته، ويبين المنهج السوى والطريق المستقيم ، لمن أراد طاعة الله، ونوال رضاه.
وكذلك لينذر النبى صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن، ويخوف من كان قلبه حياً يعقل؛ فيستفيد الهداية والفلاح.
و أيضاً يحق القول وتلزم الحجة، ويجب العذاب على الكافرين المعاندين.

* * *

ثم تعود آيات السورة الكريمة للتأكيد والتدليل على وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته ..
فتقول :

{ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ }
[الآيات ٧١ – ٧٣]

يعنى : أ عمى هؤلاء ولم يروا بعيونهم، ويعلموا بعقولهم أنا خلقنا وحدنا لهم مما عملت أيدينا دون شريك أو مساعد أنعاماً هى الإبل والبقر والغنم ..! ؟
ويدخل فى ذلك : كل ما أنعم الله به على الإنسان إلى يوم القيامة.
وقد بين الله سبحانه وجوه الإنعام فى هذه الأنعام فقال :
أولاً : فهم لها مالكون .
حيث إنه لو خلقها سبحانه ولم يملكها الإنسان : ما كان ينتفع بها أحد ..!!
ثانياً : وذللناها لهم أى : سخرناها وطوعناها لهم .
حيث إنها لو كانت أبية عصية : ما كان ينتفع بها أحد ..!!
ولذلك يقول عز وجل فمنها ركوبهم ومنها يأكلون.
ثالثاً : ولهم فيها منافع غير ما ذكر ومشارب.
ثم يقول ربنا تبارك وتعالى : أفلا يشكرون صاحب هذه النعم ، بالإيمان بوحدانيته، وقدرته، ويتبعون رسله ..؟

* * *

يا سبحان الله ٠٠!!
إنهم بدل أن يؤمنوا : كفروا.

{ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ }
[الآيتان ٧٤ ، ٧٥]

إنهم اتخذوا آلهة من دون الله؛ أملاً فى نصرها لهم، ومساعدتها إياهم ، إذا نزل بهم ضر، أو حدث لهم مكروه ٠٠
أبداً ٠٠ أبداً : هذا لا يكون، ولن يكون.
هذه الآلهة : لا تستطيع، ولا تنفع ، ولا تضر.
والعجيب ٠٠ !!
أن هؤلاء الكفار : يعطون الولاء الكامل، والجندية الحقة لهذه الآلهة العاجزة التى صنعوها لأنفسهم وهم لهم جند محضرون على أتم استعداد لخدمتها.
مع أن الواجب عليهم : أن يعطوا هذا الولاء، وهذه الجندية الكاملة، والطاعة التامة ٠٠ لله رب العالمين.
وألا يقولوا على الله : إلا الحق.
وألا يقولوا على النبى صلى الله عليه وسلم : إلا أنه نبى ٠٠

{ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ }
[الآية ٧٦]

فلا يسوءك ويحزنك يا محمد كفرهم بالله، وتكذيبهم لك، وعنادهم معك؛ حيث إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون وسنجازيهم بما يستحقون.

* * *

ولما كان الدليل السابق على وحدانية الله ٠٠ من دلائل الآفاق ٠٠!!
ذكر بعده من دلائل الأنفس ٠٠ ما تقدمه هذه الآيات :

{ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }
[الآيتان ٧٧ ، ٧٨]

يعنى : أ جهل ولم ير ولم يعلم الإنسان الذى ينكر وحدانية الله، وينكر البعث أنا خلقناه وحدنا بقدرتنا من نطفة ضعيفة مهينة ٠٠ فإذا هو بعد هذا الخلق، وهذه الرعاية ، وهذا الإنعام خصيم مبين فى عدواته لربه، بإنكاره وحدانيته، وعدم اتباعه لرسله، وانقياده لشرعه٠٠ ؟
و من خصومته ، أنه ضرب لنا مثلاً ونسى خلقه حيث أتى أحدهم بعظم بالٍ للنبى صلى الله عليه وسلم، وفتَّته بيده .
وقال من يحى العظام هذه وهى رميم بالية ٠٠ ؟
أتراه الله يا محمد ٠٠؟
ونزلت هذه الآيات.
وهى باقية إلى يوم القيامة حجة على كل من يكفر بالله تعالى، وينكر البعث.

* * *

ولذلك يقول ربنا للنبى صلى الله عليه وسلم، وكل حامل لرايته، ومبلغ لدعوته :

{ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآيات ٧٩ – ٨٣]

أى : قل لهؤلاء المنكرين يحييها الله سبحانه وتعالى ، ويبعثها يوم القيامة .
فهو سبحانه الذى أنشأها من العدم أول مرة .
ومن قدر على البدء : قدر على الإعادة وهو بكل خلق خلقه وأنشأه عليم به، وقادر على إعادته.
واسمعوا هذه الأدلة على قدرته سبحانه :
أولاً : هو الذى جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون.
ثانياً : هو الذى خلق السموات والأرض باعترافكم ولئن سألتم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم [الزخرف : ٩].
وعلى هذا ..
أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم أى يعيدهم كما بدأهم ..؟
بلى إنه قادر وهو الخلاق العليم سبحانه وتعالى.
ثالثاً : هو الذى يقول للشئ كن فيكون فوراً إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له فقط كن فيكون.
رابعاً : هو الذى بيده ملكوت كل شئ، ولا ملك لغيره فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ فهو صاحب الأمر والنهى، والحول والطول.
وإليه سوف ترجعون أيها المعاندون، مع جميع الخلائق يوم البعث، وتجازون على أعمالكم وعنادكم وكفركم.
فآمنوا إن كنتم تعقلون ..!!.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى سورة مكية.
وموضوعها الرئيسى : هو الحديث عن وحدانية الله والتعريف به سبحانه، وتنزيهه .
والقضايا المتصلة بهذا الموضوع.
وهى : تبدأ بقول الله تبارك وتعالى :

{ وَالصَّافَّاتِ صَفّاً * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ }
[الآيات ١ – ٤]

هذا : قسم من الله تعالى على وحدانيتة عز وجل.
وهو قسم بالملائكة.
ولله أن يقسم بما شاء ..
وأما غيره : فلا يحق له أن يقسم ويحلف إلا بالله تعالى.
والمعنى : و الملائكة الصافات أنفسها فى الصلاة صفاً.
فالزاجرات عما نهى الله عنه زجراً.
فالتاليات كلام الله ذكراً.
وجواب هذا القسم : إن إلهكم لواحد.

* * *

هنا الإله الواحد .. هو :

{ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ }
[الآية ٥]

نعم ٠٠

هو رب السموات والأرض وما فيهما، ومن فيهما وما بينهما من جميع المخلوقات.

و هو كذلك رب المشارق والمغارب.

لا رب سواه، ولا خالق إلاه، سبحانه وتعالى.

* * *

وبعد القسم : على هذه الوحدانية.

وبعد التعريف : بهذه الربوبنية العامة.

يكون التعريف على بعض مظاهر قدرته فى فعله عز وجل لنا، وعنايته بنا ٠٠

حيث يقول عز وجل :

{ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٨ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ }

[الايات ٦ – ١٠]

يعنى : إنا زينا السماء الدنيا القريبة من الناس بزينة الكواكب أى : بضوئها، أو بها .

و حفظناها حفظاً من كل شيطان مارد يعنى : عات متمرد، إذا أراد أن يسترق السمع.

ثم وصف ربنا هؤلاء الشياطين ، بثلاث صفات :

الأولى : أنهم لا يسمعون إلى من فى الملأ الأعلى وهم الملائكة.

الثانية : أنهم يقذفون بالشهب من كل جانب فتجعلهم دحوراً أى : مطرودين ممنوعين مما يريدون.

الثالثة : لهم فى الآخرة عذاب واصب دائم لا ينقطع.

ثم يقول ربنا : إلا من خطف منهم الخطفة ٠٠ أى سمع الكلمة من الملائكة، فأخذها بسرعة فأتبعه شهاب ثاقب فأحرقه؛ لأنه تعدى حدوده، وخالف أوامر الله.

* * *

ثم يأمر ربنا سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم : أن يسأل هؤلاء المعاندين ٠٠ سؤال تقرير، يصل من جوابهم عليه إلى إلزامهم بالإيمان باليوم الآخر.

حيث يقول له :

{ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ }
[الآية ١١]

أى : فاستفتهم اسألهم أهم أشد أقوى وأصعب خلقاً أم من خلقنا من السموات والأرض وما بينهما ٠٠؟
يعنى : من خلق الأشق – فى عرفكم – قادر على خلق الأهون.
وعلى ذلك : فإعادتكم وبعثكم ٠٠ أمر هيّن يسير.
حيث إنا خلقناهم ابتداءً من طين لازب ضعيف، لاصق باليد.
لذلك : فنحن قادرون على بعثهم، وحسابهم.
والعجيب : أنه مع وضوح ذلك ، يكذبون.

* * *

يقول سبحانه وتعالى :

{ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ }
[الآيات ١٢ – ١٧]

يعنى : أنت تعجب يا محمد من إنكارهم للبعث الواضح لهم بأدلتهم الكثيرة القوية و هم فى ذات الوقت يسخرون من دعوتك لهم، وكلامك معهم.
و هؤلاء إذا ذكروا ووعظوا بما حدث للسابقين لا يذكرون ولا يتعظون.
و حتى إذا رأوا آية كونية، أو عقلية، دالة على صدقك يستسخرون أى يبالغون فى السخرية والاستهزاء.
هذا فعلهم ٠٠
و أما قولهم ٠٠
فقد قالوا إن هذا الذى تقوله وتخبرنا به من البعث إلا سحر مبين واضح، لا شك فيه.
ثم قالوا إنكاراً :أئذا متنا ودفنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا بعد ذلك لمبعوثون للحساب أو آباؤنا الأولون أيضاً ٠٠؟
هذا كلام لا نصدقه ولا نؤمن به٠٠!!

* * *

يا محمد ..

{ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ }
[الآية ١٨]

أى : قل لهم نعم تبعثون وأنتم داخرون صاغرون ذليلون ، تحت قدرة الله الواحد سبحانه وتعالى.

* * *

ثم يخبر رب العزة عن يوم البعث هذا ..
فيقول :

{ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ }
[الآية ١٩]

يعنى : ليس البعث بعسير .. !!
فأمره زجرة صيحة واحدة فقط : فإذا الخلائق كلها، وهم معهم ينظرون إلى ما قدموا من أعمالهم.

* * *

{ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ }
[الآية ٢٠]

أى : و حينما عاينوا العذاب قالوا متحسرين يا ويلنا هذا يوم الدين يوم الجزاء ، الذى سنعاقب فيه.

* * *

وهنا يقال لهم :

{ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ }
[الآية ٢١]

هذا يوم البعث، وهو يوم الفصل بين أهل الحق وأهل الباطل الذى كنتم به تكذبون الرسل، فتكفرون بالله.

* * *

ويصدر الأمر الإلهى بخصوصهم ٠٠
في قوله تعالى :

{ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ }
[الآيات ٢٢ – ٢٤]

أى : اجمعوا، واحشروا الذين ظلموا من أماكن بعثهم إلى الموقف العظيم، كذلك وأزواجهم أى : أشباههم، وقرناءهم من الشياطين، ونساءهم، الذين كانوا يكفرون معهم، و ثالثا ما كانوا يعبدون من دون الله من الأصنام وغيرها.
وبعد حشرهم : فاهدوهم فأرشدوهم إلى صراط الجحيم وهو طريق النار.
و قبل دخولهم النار : قفوهم احبسوهم ليسألوا ويحاسبوا؛ حيث إنهم مسئولون عما اقترفوه.

* * *

وينفذ الأمر الإلهى ٠٠!!
ويحشر الذين ظلموا وأزواجهم، وما كانوا يعبدون ٠٠!!
ويحاسبون ٠٠!!
ويقال لهم تهكماً بهم؛ وإذلالاً لهم :

{ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ }
[الآية ٢٥]

أى : لِمَ لَمْ ينصر بعضكم بعضاً، ويدافع بعضكم عن بعض فى هذا الموقف الرهيب ٠٠؟
فيكون جواب الحال :

{ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ }
[الآية ٢٦]

يعنى : منقادون لأمر الله، لا يخالفونه، ولا يحيدون عنه، ولا يفرون منه، ولا يملكون فيه دفاعاً.

* * *

يقول الحق سبحانه :

{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ }
[الآيات ٢٧ – ٣٢]

و فى هذا الموقف العظيم، وعن هذا الاستسلام الأليم أقبل بعضهم على بعض يتساءلون أى : يتخاصمون، ويلقى كل فريق منهم باللوم على الآخر.

وهذه صورة من هذا التلاوم :

قالوا أى : الاتباع والمقلدون والمطيعون لأهل الكفر والظلم ، لكبارهم: إنكم كنتم تأتونا عن اليمين من حيث نصدقكم ، فتهونون لنا أمر الدين، وتنفروننا عن الإيمان، وتشجعوننا على الكفر معكم.

وأجاب زعماء الكفر، ورؤساء الظلم، وقالوا لهم : بل أى ليس الأمر كم قلتم ٠٠

إنما الحقيقة : إنكم لم تكونوا مؤمنين باختياركم ورغبتكم وما كان لنا عليكم من سلطان نقهركم به، ونلزمكم بالكفر معه بل كنتم أنتم قوماً طاغين باختياركم ورغبتكم؛ لذلك أطعتمونا، ورفضتم إجابة الرسل، والإيمان بالله.

ثم يقولون :

وعلى كل حال : لقد كفرنا جميعاً فحق علينا قول ربنا لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين [السجدة : ١٣] .

لذلك إنا لذائقون هذا العذاب لا محالة فـــ إذا كنا أغويناكم وضللناكم إنا كنا مثلكم غاوين.

* * *

يقول تعالى مقرراً ما يستحقون، ومبيناً سبب ما هم فيه.

بقوله :

{ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ }

[الآيات ٣٣ - ٣٦]

يعنى : فإنهم جميعاً ، رؤساء الكفر وأتباعهم يومئذ فى العذاب مشتركون لا فرق بين كبير وصغير.

إنا كذلك نفعل بالمجرمين ونعذبهم ؛ عدلاً منا، على كفرهم وعصيانهم.

والسبب : إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله أى آمنوا أنه لا إله إلا الله وحده، المستحق للعبادة والطاعة، فآمنوا به، وأطيعوه، واعبده : يستكبرون ولا يؤمنون.

و أكثر من هذا : يقولون أئنا لتاركونا آلهتنا التى نعبدها لـــ قول شاعر مجنون وهو محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠؟

* * *

ويرد عليهم ربنا عز وجل قائلاً :

{ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ }
[الآيات ٣٧ – ٤٠]

أى : ليس محمد بشاعر، ولا مجنون بل هو رسولنا جاء بالحق من عندنا وصدق المرسلين فيما أخبروا به عن الله سبحانه وتعالى.
وإنكم بكفركم به، وعنادكم له : لذائقوا العذاب الأليم فى نار جهنم.
و اعلموا أنكم ما تجزون هذا العذاب إلا بسبب ما كنتم تعملون .
كما أنه لا ينجوا من هذا العذاب إلا عباد الله المخلصين الذين آمنوا به، واتبعوا رسله، وعملوا بشرعه.

* * *

ثم يخبر ربنا تبارك وتعالى عن جزاء عباد الله المخلصين هؤلاء ، بعد بيانه جزاء المستكبرين ٠٠ فيقول :

{ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ }
[الآيات ٤١ – ٤٩]

يعنى : أولئك الذين آمنوا، واتبعوا رسله، وعملوا بشرعه، وأخلصوا لله، حتى صاروا مخلصين ٠٠!!
لهم عند ربهم.
أولاً : الرزق ٠٠
يقول تعالى رزق معلوم ينتعمون به، ويتلذذون ، وهذا الرزق عبارة عن فواكه.

ثانياً : التكريم ٠٠

يقول تعالى وهو مكرمون معززون، مرفهون فى جنات النعيم الذى لا بؤس فيه ولا كدر معه أبداً.

ثالثاً : السعادة ٠٠

يقول تعالى على سرر متقابلين وجوههم إلى بعضهم البعض، يتسامرون، ويأتنسون.

رابعاً : الرفاهية ٠٠

يقول تعالى يطاف عليهم بكأس من معين أى : بخمر من أنهار الجنة بيضاء لا يشوبها لون بشع كخمر الدنيا لذة للشاربين طعمها طيب، وريحها طيب ، ولونها طيب لا فيها غول للعقول يذهبها ولا هم عنها ينزفون.

خامساً : الحور العين ٠٠

يقول تعالى وعندهم قاصرات الطرف العفيفات عين الجميلات، واسعات العيون كأنهن بيض مكنون مصون لا تمسه الأيدى، لنفاسته.

هؤلاء هم أهل الجنة ٠٠

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ٠٠

إنه سبحانه ولى ذلك، والقادر عليه.

* * *

هذا ٠٠

وكما يقبل أهل النار – كما استمعنا منذ قليل – على بعضهم البعض يتساءلون ٠٠!!

يقبل – أيضاً – أهل الجنة على بعضهم البعض يتساءلون ٠٠!!

ولكن من باب السعادة، وذكر الله، وشكره سبحانه.

يقول المولى سبحانه :

{ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

[الآيات ٥٠ – ٦٠]

يعنى : فأقبل بعضهم أى : أهل الجنة على بعض يتساءلون يتسامرون، وهم فى مجالس السعادة.

قال قائل منهم لجلسائه إنى كان لى عندما كنا فى الدنيا قرين صاحب من المشركين يقول لى أئنك لمن المصدقين بيوم الدين، والبعث، والحساب والجنة والنار ٠٠؟

كما أنه كان يقول : أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أنبعث ونحاسب٠٠!!

ثم يسخر ويقول : لو كان هذا أئنا لمدينون إذاً ٠٠؟
ثم إن هذا المؤمن الذى يحدث أصحابه بهذا الحديث قال لهم هل أنتم مطلعون معى إلى النار ، لأريكم ذلك القرين، الذى أحدثكم عنه.
فيجيبونه، ويطلعون معه ٠٠
فاطلع المسلم إلى قرينه الكافر الذى فى النار فرآه فى سواء وسط الجحيم ٠٠
فلما رآه : قال له تالله إن كدت لتردين لقد كنت ستهلكنى فى النار معك لو أطعتك ولولا نعمة ربي علىَّ بالهداية وعصمته لى بالإسلام لكنت من المتبعين لك المحضرين معك فى هذا العذاب.
ثم يقول له تهكماً بأقواله القديمة الكافرة : ألم تكن تقول أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ولا بعث ولا حساب وما نحن بمعذبين؟
ولا يكون من الكافر جواب.
ولذا يلتفت المؤمن إلى أصحابه بعد أن رأوا منظر الكافر وهو فى العذاب ويقول لهم :
إن هذا الذى نحن فيه والحمد لله : لهو الفوز العظيم.

* * *

لذا يقول الرحمن الرحيم ، فى كلام يتلى ويتعبد به، ويعمل بموجبه إلى يوم القيامة :

{ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ }
[الآية ٦١]

أى : لمثل هذا الفوز ، فليعمل العاملون بشرع الله.

* * *

ثم يقول ربنا سبحانه ، فى سؤال لا يحتاج إلى إجابة :

{ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ }
[الآية ٦٢]

يعنى : أ خبرونى ذلك الذى فيه عباد الله المخلصين ، من جنات النعيم خير نزلاً أم شجرة الزقوم التى فى جهنم ٠٠؟
ولأن الجواب واضح ٠٠!!
لذا : لا يكون جواب.

* * *

وكأن سائلاً يقول : ما شجرة الزقوم هذه ٠٠؟

فيكون الجواب :

{ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ }
[بالآيات ٦٣ – ٦٧]

أى : هى شجرة تنبت فى أصل الجحيم فى جهنم طلعها ثمرها كأنه رؤس الشياطين قبيح المنظر، فظيع الهيئة، طعمه بغيض.
ومع ذلك : فإنهم لآكلون منها بسبب جوعهم فمالئون منها البطون إكراهاً لهم وتعذيباً، حتى يعطشون.
ثم إن لهم عليها إذا عطشوا لشوباً مشروباً مخلوطاً من صديد وماء حار، يقطع أمعاءهم، ويشوى وجوههم ؛ لأنه من حميم.

* * *

{ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ }
[الآية ٦٨]

فهم :
من عذاب إلى عذاب .
ومن دركات إلى دركات .
ومن تنكيل بهم إلى تنكيل.
نعوذ بالله من ذلك وأهله.

* * *

ويبين الله عز وجل السبب الذى جعلهم فى هذا العذاب المقيم.
فيقول :

{ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ }
[الآيتان ٦٩ ، ٧٠]

أى : إنهم ألفوا وجدوا آباءهم ضالين فلم ينكروا عليهم ضلالهم، بل اتبعوهم، وتمسكوا بباطلهم، ودافعوا عنه فهم على آثارهم وخطاهم وسلوكهم يهرعون يسرعون فى التقليد لهم.

* * *

هذا ..

{ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ }
[الآيات ٧١ – ٧٤]

يعنى : ليسوا هم وحدهم أهل الضلال ؛ فلا تحزن من أجلهم ٠٠
ولقد ضل قبلهم أى : قبل مشركى هذه الأمة أكثر الأولين السابقين من الأمم.
ولقد أرسلنا فيهم بآياتنا لهم منذرين يخوفونهم من عذاب الله على كفرهم وعصيانهم، كما أرسلناك إلى هؤلاء ٠٠
فما آمنوا، كما لم يؤمن بك المعاندون من هؤلاء ٠٠
فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ونهايتهم السيئة، لما عصوا وعاندوا: فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون [العنكبوت : ٤٠].
وهكذا : أهلكهم الله ٠٠
إلا عباد الله المخلصين الذين آمنوا، وأطاعوا، وأخلصوا لله، وأخلصهم الله ٠٠
فهؤلاء نجاهم، وأنعم عليهم، ورضى عنهم.

* * *

إخوة الإيمان والإسلام ٠٠
لما قال ربنا عز وجل ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذرين.
وكان هذا – كما هو واضح – على سبيل الإجمال ٠٠!!
أتبع ذلك بشئ من التفصيل عن أخبار هؤلاء الأولين ، مع الذين أرسلوا إليهم منذرين.
حيث يقول عز من قائل :

{ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ }
[الآيات ٧٥ – ٨٢]

هذه واحدة من سير الأولين : مع واحد من أولى العزم المنذرين.
وهى قصة نوح عليه السلام .
كما تعرضها سورة الصافات.
يقول تعالى :
ولقد نادانا دعانا نوح بعد أن استفزع كل مجهوده فى دعوة قومه للإيمان، ولم يستجيبوا ٠٠
حيث قال في النهاية :رب إنى مغلوب فانتصر [القمر : ١٠] .

فأجبناه، ونصرناه .
فلنعم المجيبون نحن لدعاء المضطرين.
و كانت إجابتنا لنوح عليه السلام ٠٠ على الوجه التالى :
أولاً : نجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو الأذى من قومه.
ثانياً : وجعلنا ذريته فقط هم الباقين على وجه الأرض بعد الطوفان.
ثالثاً : وتركنا عليه فى الآخرين من الأمم سلام على نوح فى العالمين.
وهذا الإنعام عليه، والإحسان إليه وفق سنتنا ٠٠
حيث إنا كذلك نجزى كل المحسنين.
وقد أنعمنا بهذا الجزاء على نوح كذلك ٠٠
حيث إنه من عبادنا المؤمنين الموحدين، المصدقين.
رابعاً : ثم أغرقنا الآخرين الذين كذبوه، وعاندوه، وحاربوه.

* * *

والمراد من ذكر القصة : تطييب خاطر النبى صلى الله عليه وسلم، وتثبيت فؤاده ٠٠
وكأن ربى عز وجل يقول له :
فاصبر يا محمد على أذى قومك وتكذيبهم لك.
فسأهلكهم.
وسأنصرك عليهم.
وستعم دعوتك الآفاق.

* * *

ثم يقص الله عز وجل على نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، قصة أخرى : من قصص إخوانه المرسلين.
وهى : قصة إبراهيم عليه السلام.
فيقول :

{ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }
[الآيتان ٨٣ ، ٨٤]

أى : وإن من شيعته يعنى من شيعة نوح عليه السلام، الذين اتبعوه فى أصول الدين، ونشر دعوة التوحيد لإبراهيم عليه السلام.
إذ حيث جاء ربه بقلب خال من الشرك سليم من آفات القلوب، مخلص لله عز وجل.

* * *

وهذا بعض من قصته :

{ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات ٨٥ – ٨٧]

يعنى : حينما قال لقومه لما رآهم يعبدون الأصنام ماذا أى ما هذا الذى تعبدون من الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، أى : كيف تعبدونها ..؟
أتريدون عبادة آلهة كاذبة ..؟
فما ظنكم فى هذه الحالة برب العالمين أن يفعل بكم جزاء هذا الانحراف ..؟

* * *

وكرر إبراهيم عليه السلام دعوته لقومه مراراً ..
فلم يستجيبوا له ..
ففكر طويلاً .. ماذا يفعل فى أمرهم ..؟

{ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ }
[الآية ٨٨]

أى : نظر نظرة فاحصة فى علم النجوم الذى كانوا يؤمنون به، ويعتقدونه، ويستعملونه ؛ ليوهمهم أنه على طريقتهم، وليس بعيداً عنهم، ولا معادياً لهم، حتى إذا ما حدثهم عن وحدانية الله صدقوه، وإذا ما دعاهم إلى الإيمان أجابوه.

ووصل إلى قرار ..!!

* * *

وأراد القوم الخروج فى يوم عيد.

وأرادوه أن يذهب معهم .

{ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ }

[الآية ٨٩]

أى : قال لهم إنى سقيم مريض لا أستطيع الخروج معكم، فدعونى هنا، وكان بالفعل سقيماً من عنادهم، متعباً من كفرهم.

وتركه القوم.

* * *

وخرجوا إلى عيدهم ولهوهم ..!!

{ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ }

[الآية ٩٠]

وتحقق مراده : فتولوا عنه وتركوه .

وخرجوا إلى عيدهم مدبرين أى : معرضين عنه، وعن اهتمامهم بخروجه معهم.

* * *

{ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ }
[الآيات ٩١ – ٩٣]

فراغ أى : ذهب سريعاً، وهو فى سرية تامة إلى آلهتهم من الأصنام فقال لها استهزاءً وسخرية ألا تأكلون من هذه الأطعمة التى تركها القوم بين أيديكم ..!! ؟

أى : لم لا تأكلون ..؟

وطبعاً .. لم تنطق الأصنام ..!!

فقال استهزاءً : لم لا تنطقون ..؟

فراغ مال عليهم وبدأ فيهم ضرباً باليمين حتى حطمهم إلا كبيراً لهم تركه ؛ لعل قومه إليه يرجعون بالسؤال، عمن حطم هذه الأصنام.

* * *

وعاد القوم من عيدهم .

وفزعوا مما رأوا من تحطيم أصنامهم ..!!

{ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ }
[الآية ٩٤]

يعنى : فأقبلوا إليه إلى إبراهيم يزفون يسرعون بالإتهام حيث قالوا : نحن نعبدها، وأنت تكسرها ..؟

* * *

وعالنهم بالحقيقة ٠٠
حيث :

{ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }
[الآيتان ٩٥ ، ٩٦]

يا قوم : أين عقولكم ؟
أتعبدون ما تنحتون بأيديكم من الأصنام ٠٠ ؟
والله عز وجل هو الذى خلقكم وما تعملون وهو الذى ينفع وهو الذى يضر، وهو الأولى بعبادتكم ٠٠ !!
فاعبدوه، واتركوا هذه الآلهة الكاذبة .

* * *

ولم يجد القوم عندهم جواباً ٠٠ لما قال ٠٠
لذا ٠٠ لجؤا إلى ما يفعله كل الطغاة مع الدعاة.

{ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ }
[الآية ٩٧]

وبالفعل : أوقدوا النيران، وألقوا فيها بإبراهيم عليه السلام ؛ عقاباً له على ما فعل، وليتخلصوا منه، ومن دعوته لهم، وحربه لآلهتهم.
ولكن : هل يتخلى الله عز وجل عن أوليائه ٠٠؟
أبداً أبداً ٠٠

{ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ }
[الآية ٩٨]

نعم ..
أرادوا أمراً، وأراد الله غيره .
وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ..
إذ قال الله تعالى للنار : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم [الأنبياء : ٦٩] ولم تحرق آلة الحرق إبراهيم عليه السلام .
فجعلناهم الأسفلين..!!

* * *

وبالرغم من هذه الآية البينة التى نصر الله بها إبراهيم على قومه : لم يؤمن هؤلاء الناس بدعوة إبراهيم عليه السلام ، وظلوا على كفرهم، وعبادة أصنامهم ..!!
وتركهم إبراهيم ، وهاجر من بينهم ..!!

{ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآيتان ٩٩ ، ١٠٠]

أى : وقال إبراهيم إنى ذاهب مهاجر من ديار الكفر هذه إلى حيث أراد ربى فإنه سيهدين إلى ما فيه صلاح أمرى ودينى.
ثم دعا ربه قائلاً رب هب لى من الصالحين أى : هب لى ولداً صالحاً، يكون عوضاً لى عن الأهل والعشيرة، يؤازرنى فى الدعوة، ويبلغ معى الرسالة.

* * *

وأجاب الله دعاءه ..

{ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ }
[الآية ١٠١]

بشره الله تبارك وتعالى : بثلاثة أشياء.
أولاً : بولد من الذكور.
ثانياً : يبلغ سن الرشد.
ثالثاً : يكون حليماً.

* * *

ورزق الغلام .
وكبر الغلام ..

{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ }
[الآية ١٠٢]

وترعرع الغلام، ووصل إلى السن الذى يساعد فيه أباه، ويسعى معه فى أموره ..
ورأى إبراهيم عليه السلام رؤيا فى منامه ..!!
ولأن رؤيا الأنبياء حق : فقد حدث بها ولده.
قال إبراهيم لولده يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ولا أدرى ماذا أفعل فانظر معى، وقل لى ماذا ترى أن نفعل ..؟
ولم يخف الغلام، ولم يبك الغلام، ولم يجادل الغلام ، بل قال على الفور يا أبت افعل ما تؤمر.
الله .. الله ..!!!
لقد عرف الغلام أن هذه الرؤيا هى أمر الله، ومع أمر الله ينبغى أن يقال سمعنا وأطعنا.
وليكون الأمر هيناً على أبيه أيضاً : قال لوالده ستجدنى إن شاء الله خلال ذبحك لى تنفيذاً لأمر الله من الصابرين أى : فافعل، ولا تحمل من أمرى هما.

* * *

وخضع إبراهيم، وولده –عليهما السلام – لأمر الله .
وبدآ فى التنفيذ ..!!

{ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ }
[الاية ١٠٣]

أى : فلما أسلما أمرهما لله، وخضعا لمشيئته، ورضيا بحكمه وتله للجبين يعنى أرقد إبراهيم ولده على جبينه ليذبحه، وأمر السكين على رقبته : تحقق المراد من أمر الله.
ولم تعمل السكين عملها ، بمانع من القدرة الإلهية.

* * *

يقول تعالى :

{ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }
[الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥]

ونادى المولى سبحانه إبراهيم عليه السلام ، قائلاً : يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا التى أريناك إياها، وحققت المطلوب، وأطعت ربك .
وعلى هذا : سنجزيك جزاءً حسناً؛ حيث إنا كذلك نجزى المحسنين وأنت من المحسنين.

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ }
[الآية ١٠٦]

إن هذا الذى رآه إبراهيم من ذبح ولده لهو البلاء الاختبار الصعب المبين الكاشف لمعادن المطيعين.
وقد نجح فيه إبراهيم عليه السلام وولده.

* * *

وكانت النتيجة ..
هى هذه الإنعامات الإلهية :
يقول تعالى :

{ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ }
[الآيات ١٠٧ – ١١٣]

يعنى : لما أطاع إبراهيم عليه السلام ربه ، فى رؤياه ذبح ولده ..!!
أنعم الله عليه بهذه الأمور :
الأول : فداء ولده وفديناه بذبح عظيم أى : فديناه من هذا الذبح بذبح عظيم أى : بكبش ضخم الجثة، وقد صار سنة حتى اليوم.
الثانى : السلام على إبراهيم إلى يوم الدين وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم.
الثالث : وصفه بالإحسان كذلك نجزى المحسنين وقد جازيناه جزاءً حسناً؛ لأنه من المحسنين.
الرابع : وصفه بالإيمان إنه من عبادنا المؤمنين المصدقين بكل ما نوحيه إليهم، ونأمرهم به.

الخامس : بشارته بولد آخر وبشرناه بإسحق وهو ولده الثانى.
السادس : جعل هذا الولد نبياً من الصالحين.
السابع : إلقاء البركة عليهما وباركنا عليه وعلى إسحق.
الثامن : بشارته بأن يكون لإسحق ذرية و جعلنا من ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين.

* * *

وهكذا : يكون إنعام الله تبارك وتعالى على عباده الصالحين.

* * *

ثم يقص الله عز وجل على نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، قصة ثالثة : من قصص إخوانه المرسلين.
وهى : قصة موسى وهارون عليهما السلام.
فيقول بإيجاز شديد، ذاكراً نعم الله عليهما :

{ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيات ١١٤ – ١٢٢]

يعنى : ولقد مننا أنعمنا على موسى وهارون.
أولاً : بالنبوة والرسالة.
ثانياً : ونجيناهما وقومهما بنى إسرائيل من الكرب العظيم الذى كانوا يعيشون فيه تحت سلطان فرعون وقومه.
ثالثاً : ونصرناهم موسى وهارون وقومهما ، على فرعون وقومه فكانوا هم الغالبين.
رابعاً : وآتيناهما الكتاب وهو التوراة المستبين البليغ البيان ، فيما اشتمل عليه من الأحكام والحدود.
خامساً : وهديناهما الصراط المستقيم أى : الطريق المستقيم فى الأقوال والأفعال.
سادساً : وتركنا عليهما فى الآخرين * سلام على موسى وهارون.
سابعاً : وصفهما بالإحسان إنا كذلك المحسنين وقد جازيناهما جزاءً حسناً؛ لأنهما من المحسنين.
ثامناً : وصفناهما بالإيمان إنهما من عبادنا المؤمنين المصدقين بكل ما نوحيه إليهما، ونأمرهما به.

* * *

وهكذا : يكون إنعام الله تبارك وتعالى على عباده الصالحين.

* * *

ثم يقص الله عز وجل على نبينا عليه الصلاة والسلام ، قصة رابعة : من قصص إخوانه من المرسلين.
وهى : قصة إلياس عليه السلام ..
فيقول :

{ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ }
[الآيات ١٢٣ – ١٢٦]

أى : و أيضاً إن إلياس وهو نبى من بنى إسرائيل لمن المرسلين الذين دعوا إلى توحيد الله.
وهذه قصته :
إذ قال لقومه بنى إسرائيل : ألا تتقون الله، وتخافونه ؟
أين عقولكم يا قوم ..؟
أتدعون أتعبدون بعلاً وهو صنم كان بالشام وتذرون أى : وتتركون أحسن الخالقين سبحانه، وهو الله ، فلا تعبدونه .. ؟
اعلموا يا قوم : أن الذى تتركونه هو الله ربكم ورب آبائكم الأولين الذى خلقكم وخلقهم، ورزقهم ويرزقكم.
فآمنوا به، واعبدوه.

* * *

ماذا فعلوا ..؟

يقول الحق سبحانه :

{ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ }
[الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨]

يعنى : فكذبوه ولم يؤمنوا بدعوته، ولم يعبدوا الله، بل ظلوا يعبدون بعلهم ٠٠!!
وعلى هذا :
فإنهم لمحضرون للعذاب يوم الحساب.
للعلم : قليل منهم لا يعذبون ٠٠
وهم الذين آمنوا، ووحدوا والله، وأخلصوا فى عبادته ٠٠
نعم ٠٠ إلا عباد الله المخلصينفإنهم لا يعذبون ، بل يكرمون .

* * *

وأما إلياس : فقد أنعمنا عليه .

{ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيات ١٢٩ – ١٣٢]

نعم ٠٠
وتركنا عليه فى الآخرين إلى يوم القيامة ثناءً جميلاً؛ حيث يقال سلام على إلياسين.
ووصفناه بالإحسان إنا كذلك نجزى المحسنين.
ووصفناه بالإيمان إنه من عبادنا المؤمنين.

* * *

وهكذا يكون الإنعام الإلهى على عباده الصالحين.

* * *

ثم يقص الله عز وجل على نبينا عليه الصلاة والسلام ، قصة خامسة : من قصص إخوانه من المرسلين.
وهى : قصة لوط عليه السلام ٠٠
فيقول :

{ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ }
[الآيات ١٣٣ – ١٣٨]

و أيضاً إن لوطاً عليه السلام لمن المرسلين الذين دعوا إلى توحيد الله.
وهذه قصته : بإيجاز شديد.
إذ نجيناه وأهله أجمعين من الهلاك الذى حل بهم ، نتيجة اقترافهم الفاحشة التى ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وهى إتيان الذكور دون النساء.
إلا عجوزاً بقيت فى الغابرين وهلكت معهم، كما هكلوا.
ثم دمرنا الآخرين عقاباً لهم.
ثم يقول ربنا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم مذكراً وواعظاً لهم :
وإنكم لتمرون عليهم أى على بلادهم المدمَّرة، وآثارهم الشاهدة بالهلاك مصبحين وبالليل أى : صباحاً ومساءً، وترونهم.
أفلا تعقلون فتتعظون ؛ فتؤمنون ٠٠!!

* * *

ثم يقص الله عز وجل على نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، قصة سادسة من قصص إخوانه من المرسلين.
وهى : قصة يونس عليه السلام.
فيقول :

{ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ }
[الآيات ١٣٩ – ١٤٢]

و كذلك إن يونس عليه السلام لمن المرسلين الذى دعوا إلى التوحيد.
وهذه قصته : بإيجاز ..
إذ أبق هرب إلى الفلك المشحون المملوء.
وبينما السفينة تسير فى البحر : هاجت الريح، وعلا الموج، وكادت تغرق بمن فيها ؛ لثقلها.
وأرادوا تخفيف حمل السفينة : فاقترحوا أن يلقوا أحدهم .
واقترعوا من يكون ..؟
فساهم يونس مع الجميع فى هذا الاقتراع : فكان من المدحضين أى : الذين وقعت عليهم القرعة.
فألقوه فى البحر ..!!
فالتقمه الحوت وابتلعه فى بطنه.
وهو مليم أى : ويونس ملام لذهابه إلى البحر، وركوبه السفينة ، دون إذن ربه، عندما غضب من قومه ، وتركهم.

* * *

يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }
[الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤]

فلولا أنه كان من المسبحين الذاكرين الله كثيراً للبث فى بطنه أى : بطن الحوت إلى يوم يبعثون أى : إلى يوم القيامة ..
يعنى : لهلك فى بطن الحوت.
ولكن : أدركته عناية الله.

* * *

يقول تعالى :

{ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }
[الآيات ١٤٥ – ١٤٨]

يعنى : فأخرجناه من بطن الحوت، ونجيناه من الهلاك .
نعم .. فنبذناه ألقيناه بالعراء فى المكان الخالى، الذى لا ماء فيه ولا نبات وهو سقيم عليل مما أصابه من الحبس فى بطن الحوت وأنبتنا عليه بقدرتنا شجرة من يقطين من قرع، يأكل منه، ويعيش عليه وأرسلناه برسالتنا إلى مائة ألف أو يزيدون يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وعبادته!!
فآمنوا به وبما أرسل به إليهم .
فمتعناهم إلى حين أى : إلى حين انقضاء آجالهم.

* * *

وهنا: يقول رب العزة لمحمد ﷺ...
مرة أخرىٰ...

{ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠)}
[الآيتان ١٤٩، ١٥٠]

فاستفتهم أي: فاسألهم علىٰ سبيل الإنكار ارلك البنات ولهم البنون.. ؟
كيف ينسبون إلىٰ الله ما لا يحبونه لأنفسهم..؟ أم أننا خلقنا الملإكة إناثا كما يزعمون وهم شاهدون حاضرون عملية الخلق هذه..؟

* * *

ثم يرد المولىٰ عليهم هذه المزاعم.. فيقول سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧)﴾
[الآيات ١٥١–١٥٧]

يعني: لقد كذبوا، حينما جعلوا الملائكة بنات، وجعلوهم – كذلك – بنات الله، وبلغ من (إفكهم)أي: من كذبهم أنهم جعلوا لله سبحانه الولد.
(وإنهم لكاذبون) في كل هذا.
هل اصطفى الله واختار البنات علىٰ البنين..؟
يا لهم من مخبولين كاذبين..!!
يقول تعالىٰ لهم: (ما لكم) ما الذي أصابكم.. ؟
(كيف تحكمون) هذا الحكم الفاسد..؟
(أفلا تذكرون) فتعرفون أنه سبحانه منزه عن الولد..؟
(أم لكم) أي: عندكم (سلطن مبين) دليل واضح علىٰ أن لله ولدا..؟
إن كان عندكم دليل علىٰ ذلك: (فأتو بكتابكم) الذي فيه هذا الدليل (إن كنتم صادقين) فيما تقولون..!!

* * *

ويقول عز من قائل:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾

[الآيات ١٥٨–١٦٠]

يعني: (و) بما قاله هؤلاء المشركون، فقد (جعلوا بينه) سبحانه (وبين الجنه) وهي الملائكة (نسبا) وهذا: واضح البطلان.
(ولقد علمت الجنة) نفسها (إنهم) أي: هؤلاء المشركين الكاذبين (لمحضرون) في العذاب يوم القيامة؛ بسبب هذه الأقوال والمعتقدات الفاسدة.
ثم نزه المولىٰ عز وجل ونفسه عن أقوالهم هذه .. فقال: (سبحان الله عما يصفون) المولى به، من الشريك والولد.
(إلا عباد الله المخلصين) فإنهم ينزهونه سبحانه، ولا يصفونه إلا بما هو أهله عز وجل.

* * *

وبعد أن ذكر الله عز وجل الدلائل علىٰ بطلان ما يقوله الكفار في حق الله تعالىٰ: يبين أنهم لا يُفْتِنون ويقنعون أحدًا بما هم عليه، إلا من كتب الله عليه الشقاء، وأراد له الضلال.
حيث يقول سبحانه:

{فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)}
[الايات ١٦١-١٦٣]

وما تعبدون﴾∃أي: ﴿فإنكم ﴾ أيها المشركون ﴿ ﴾ أي بمضلين عن الحق، ومبعدين عن الإيمان ﴿إلا/من دون الله: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين من ﴾ قد سبق عليه في علم الله أنه ﴿هو صال الجحيم ﴾ أي: من أهل النار، الذين يصلون عذابها.
يعني: لا تغتروا بما تشعرون به من القدرة علىٰ إغوائكم أتباعكم.

* * *

هذا.. وأما الملائكة الذين قلتم عنهم ما قلتم، ونسبتم إليهم ما ليس فيهم..!!
فهم يقولون:

{ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)}
[الآيات ١٦٤-١٦٦]

وصف الملائكة أنفسهم بثلاث صفات في هذه الآيات: إذ قالوا: (وما) أحد (منا) وهو موصوف بما يلي:
أولًا: (له مقام) في العبادة والخضوع لله تعالىٰ(معلوم) لا يتجاوزه، ولا يتعداه.
ثانيا: (وإنا لنحن الصافون) أنفسنا حول العرش عبودية لله.
ثالثًا:(وإنا لنحن المسبحون)بحمد الله، المنزهون له عز وجل عما يليق بذاته.
يعني: لا صلة لنا بما يقوله المشركون عنا، بل نبرأ منهم، ومما نسبوه لنا، ونسبونا إليه.

* * *

هذا هو: واقع الأمر.. وهذه هي: قضية التوحيد واضحة.
والعجيب: أن المشركين هؤلاء، كانوا قبل بعثة محمد (ص)، كما يحكى عنهم ربنا سبحانه. إذ يقول:

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾
[الآيات ١٦٧-١٧٠]

أي:(أى كانوا ليقولون) قبل أن يبعث إليهم محمد (ص): (لو ان عندنا ذكرا)أى : كتابًا(من) كتب(الأولين) مثل: التوراة، أو الإنجيل، لآمنا بالله، و (لكنا) بهديه، وما فيه (عباد الله المخلصين)
وهم كاذبون في ذلك..!!
إذّ لما جاءهم الكتاب، وهو القرآن: (فكفروا به) وكذبوا محمدًا، وحاربوه.
(فسوف يعلمون)نتيجة كفرهم به، وتكذيبهم لمن جاء به، وهو محمد (ص)!!

* * *

هذه هى خاتمة قصص الصافات.
ثم تبدأ السورة : فى الحديث المباشر مع كفار هذه الأمة .

* * *

على كل حال : فمع وضوح الحق، وظهور دلائله ، فإن المعركة بينه وبين الباطل ، مستمرة إلى يوم القيامة.
ولا ينبغي : أن يضعف أهل الحق، أو يتسرب الشك إلى قلوبهم .
خاصة: وأن النصر حليفهم.
يقول العلي القدير:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾
[الآيات ١٧١-١٧٣]

يعني: (ولقد سبقت كلمتنا) ووعدنا (لعبادنا المرسلين) .
وهي :(إنهم لهم المنصورون) على أعدائهم في الدنيا وفي الآخرة.
(و) كذلك سبقت كلمتنا ووعدنا في اللوح المحفوظ .

وهى : (إن جندنا) الحاملين لراية دعوتنا، المبلغين لرسالتنا، المدافعين عن بلادنا وعبادنا(لهم الغالبون) أعداءهم، في كل عصر و مصر .

* * *

لذلك..

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ }
[بالآيتان ١٧٤ ، ١٧٥]

(فتول عنهم) أي: فأعرض عنهم يا محمد، واصبر على أذاهم (حتى حين) إلى مدة يسيرة.
(وأبصرهم) وانتظر ما سوف ينزل بهم، ويحدث لهم ،(فسوف يبصرون) فسوف يرون ما لا يرضيهم ، من الهوان والعذاب؛ جزاء عنادهم وتكذبيهم.

* * *

ماذا تقول..؟
إنهم ينكرون هذا العذاب ، ويستعجلونه استهزاءً..؟

{ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) }
[الآيات ١٧٦-١٧٩]

(أو) ينكرون، وبـــ (بعذابنا) الذي تخوفهم به يستهزؤن، و (يستعجلون) وقوعه ..!!
دعهم يستهزؤن..!!
(فإذا) وقع بهم، و (نزل بساحتهم) بديارهم هذا العذاب :
(فساء صباح المنذرين) الذين دعوتهم إلى الإيمان، وخوفتهم هذا العذاب، ولم يؤمنوا.

(و) أما أنت : فــ (تول عنهم) اتركهم، وأعرض عنهم، ولا عليك منهم (وأبصر) انتظر ما يحدث لهم من العذاب (فسوف يبصرون) منه ، ويعانون أشد صنوفه وأنواعه.

* * *

ثم تختم السورة بهذه الخاتمة الشريفة..

{ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) }

[الآيات ١٨٠-١٨٢]

عن على بن أبي طالب كرم الله وجهه قال:
من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة: فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه (سبحان ربك رب العزة عما يصفون* وسلام على المرسلين* والحمد لله رب العالمين)

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

ص

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ص: سورة مكية.
وهي: تعرض لهلاك الطغاة، وإعزاز الله تعالى لعباده المرسلين، ورحمته بهم، ونصرته لهم.
وتبدأ بقوله عز وجل:

{ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ }
[الآية : ١]

ص: حرف من حروف العربية، جاء به المولى هكذا على غير المألوف من كلام العرب؛ ليلفت أنظارهم ويجذب اهتمامهم فيسمعوا ما بعده؛ فتلزمهم الحجة.
والقرآن ذي الذكر ذي الشرف، والمكانة العالية، التي يرتفع إليها، ويعلو بها من آمن به، وعمل بما فيه.
وهو قسم جوابه متعلق بقضية التوحيد.
والمعنى: والقرآن ذي الذكر.. إن الإله واحد، وليس كما يزعم الكافرون من تعدد الآلهة.

* * *

وعلى هذا: فما الذي دفعهم إلى هذا التعدد للآلهة..؟
يقول عز قوله:

{ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ }
[الآية : ٢]

أي: أن سبب موقفهم هذا.. هو العناد والخلاف لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

ألا يخافون نتيجة هذا الكفر والعناد..؟

{ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّ لاَتَ حِينَ مَنَاصٍ }
[الآية : ٣]

خاصة: وقد أهلكنا من قبلهم من قرن أي: قروناً كثيرة كفروا وعاندوا، نزل بهم العذاب فنادوا واستغاثوا، وطلبوا الخلاص.. لكن بعد فوات الأوان ولات حين مناص

* * *

والذين عاندوا وخالفوا النبي صلى الله عليه وسلم: كفروا..

{ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ }
[الآيات : ٤-٧]

وعجبوا واستبعدوا أن جاءهم بالدعوة إلى التوحيد منذر رسول منهم وليس من الملائكة، وقالوا عليه هذا ساحر كذاب
ثم قالوا: أجعل الآلهة الكثيرة إلهاً واحداً هو الذي يدعوا إليه، إن هذا الذي يقوله شيءٌ عجاب لم نسمع به من قبل.
وهو أمر عجيب..!!
ولم يقولوا ذلك فقط: بل انطلق الملأ الكبار والسادة منهم يقولون للعامة وبقية الناس أن امشوا استمروا واصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم ولا تطيعوا محمدا في هذا التوحيد الذي يدعوكم إليه.

حيث إن هذا الذي يدعونا إليه: لشيء يراد به أن يجعلنا أتباعاً له، حتى يترأس علينا.
ثم إننا ما سمعنا بهذا الذي يقوله في الملة الآخرة وهي النصرانية........
إن هذا بالقطع إلا اختلاق وكذب.

{ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ }
[الآيات : ٨-١١]

ثم ظهر حسدهم وسبب عنادهم إذ قالوا:
أأنزل عليه الذكر من بيننا يعني: لم ينزل عليه هنا الشرف من بيننا..؟
لم لم يكن على واحد منا..؟

* * *

وهكذا.. أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
ويرد الله عز وجل عليهم..!!
نعم.. يرد الله عز وجل عليهم إنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.. من ثلاث جهات:
الأولى: أنهم في شك.. والمقام مقام تصديق بل هم في شك من ذكري وهو القرآن، وذلك بسبب الحسد، ولكنهم سوف يصدقون لما يذوقوا عذاب ولكن بعد فوات الأوان.
الثانية: أنهم لا يملكون خزائن رحمة الله أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب فيوزعون النبوة على من يشاءون، حسب هواهم.؟
الثالثة: أنهم لا يملكون السماوات والأرض وما بينهما أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما..؟
إن كان لهم هذا الملك: فليرتقوا في الأسباب والوسائل الموصلة إلى السماء، ليأتوا بالوحي وينزلوه على من شاءوا غير محمد.
إنهم لا يستطيعون، حيث إنهم جند ما حقير هنالك في عالم السماوات والأرض مهزوم من الأحزاب المهزومين.
إذن.. فليؤمنوا، وليتبعوا محمدا..

* * *

وإلا.. فقد:

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ }
[الآيات : ١٢-١٤]

نعم.. كذب هؤلاء رسلهم..
فماذا حدث لهم..؟
يقول تعالى فحق عقاب أي: فوجب عقابهم.
وقد عوقبوا.

* * *

فماذا تنتظرون..؟
يقول سبحانه:

{ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ }
[الآيتان : ١٥،١٦]

أي: ما ينتظر هؤلاء إلا صيحة واحدة وهي نفخة الفزع، قبل يوم القيامة ما لها من فواق ليس لها من رجوع. والعجيب.. أنهم يقولون استهزاءً: ربنا عجل لنا في الدنيا قطنا أي نصيبنا الذي يخصنا من العذاب قبل يوم الحساب

* * *

لذلك.. يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر عليهم: فيقول له:

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾
[الآيات : ١٧ – ٢٠]

يعني: اصبر يا محمد على أذى قومك لك، وعلى ما يقولون في حقك من التكذيب لك.
واذكر لكي تستطيع الصبر بما تستفيد من العبر والدروس: إخوانك من الأنبياء السابقين وما حدث لهم.
وتذكر السورة تسعة من الأنبياء: ثلاثة منهم على سبيل التفصيل، وستة على سبيل الإجمال.
وهذه هي القصة الأولى..
قصة داود عليه السلام.
واذكر عبدنا داود الذي اكتمل له من صفات السعادة في الدنيا والآخرة عشرا.
الأولى: أن الله أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتأسى به في الصبر على طاعة الله.
الثانية: وصفه بالعبودية عبدنا وفي هذا غاية التشريف.
الثالثة: وصفه بالقوة على طاعة الله والبعد عن المعاصي ذا الأيد أي: القوة
الرابعة: وصفه بأنه رجاع إلى الله وإلى طاعته في أموره كلها إنه أواب
الخامسة: سخر الله الجبال معه يسبحن إنا سخرنا الجبال معه يسبحن العشي والإشراق
السادسة: حشر الله له الطير، تجتمع إليه إذا أراد.
السابعة: كل واحد من الجبال والطير له أواب ترجع معه التسبيح لله تعالى.
الثامنة: قوينا ملكه وشددنا ملكه
التاسعة: آتيناه الحكمة
العاشرة: وآتيناه أيضا فصل الخطاب حيث جعلناه قادراً على التعبير عن كل ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال؛ بحيث لا يختلط شيء بشيء، ولا ينفصل كل مقام عن المقام الآخر.

* * *

وبعد هذا الثناء العظيم، والمدح الإلهي الحميم لداود عليه السلام: يذكر الله تعالى تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين.
إذ يقول سبحانه:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾

[الآيتان : ٢١،٢٢]

وهل أتاك..؟
وهذا: أسلوب تشويق لسماع ما بعده.
ومعناه: وهل علمت نبأ أي خبر الخصم المتخاصمين إذ تسوروا المحراب إذّ صعدوا على سور المسجد لما منعوا من الباب إذ حينما دخلوا على داود عليه السلام.
فــ لما رآهم أمامه، وقد دخلوا بهذه الطريقة فزع منهم
فما رأوا فزعه منهم.. قالوا له لا تخف فنحن خصمان بغى بعضنا على بعض جئنا إليك لتفصل بيننا..
فاسمع منا، و احكم بيننا بالحق ولا تشطط ولا تجر على أحد منا بأن تظلم أو تتجاوز الحق واهدنا بحكمك وحكمتك إلى سواء الصراط
وسمع منهم داود عليه السلام.

* * *

وقال أحد المتخاصمين:

{ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ }
[الآية : ٢٣]

هذه هي القضية.
إن هذا الذي معي: هو أخي صديقي أو زميلي له من الأغنام تسع وتسعون نعجة ولي أنا نعجة واحدة فقط.
ومع ذلك: فــ قد قال لي أكفلنيها اجعلها لي وعزني في الخطاب وألح علي، وطلب ذلك مني بشدة.
فاحكم بيننا.

* * *

وعلى الفور: حكم داود عليه السلام.

{ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ }
[الآية : ٢٤]

قال داود عليه السلام لمن قال له ذلك، وقبل أن يسمع من الآخر: لقد ظلمك بسؤال ضم نعجتك الوحيدة إلى نعاجه الكثيرة

وهو حكم صحيح.

ثم قال:

وإن كثيراً من الخلطاء عادة ليبغي بعضهم على بعض كما حدث من صاحب هذه النعاج الكثيرة.

ولا ينجوا من هذا البغي إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم

وبعد أن أصدر عليه السلام هذا الحكم: اكتشف أنه -والله أعلم- قد تسرع فيه؛ حيث حكم لأحد الطرفين قبل أن يسمع من الآخر

و بهذا..

ظن أي: عرف داود أنما فتناه اختبرناه، وامتحنا حكمته التي آتيناها له. وأيقن أنه قد أخطأ في تسرعه هذا، مع أن الحكم صحيح.

فاستغفر ربه أي: سأله المغفرة من هذا الخطأ الذي لا يليق منه، وهو هذا التسرع بالحكم، قبل سماع جميع الخصوم.

وخر راكعاً أي: ساجداً لله على وجهه؛ خضوعاً وإذعانا، واعترافاً بالتقصير، وطلباً للعفو والعفوان.

وأناب أي: رجع إلى الله بالتوبة.

* * *

ملحوظة هامة.. أيها الكرام: ما ينقل في بعض كتب التفسير حول فتنة داود عليه السلام خلاف ما ذكرناه، هو من الإسرائيليات، التي دخلت إلى تفسير كتاب الله تعالى عن طريق النقل عن علماء أهل الكتاب، ولا أساس لها من الصحة.

لذا: وجب التنبيه؛ ليحذر منها من يقرأ في كتب التفسير.

* * *

على كل حال..
لما استغفر داود عليه السلام ربه، وخر راكعاً، وأناب.
قال تعالى:

{ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ }
[الآية : ٢٥]

أي: فغفرنا له ذلك أي: تسرعة في الحكم.
وإن له من الفضل عندنا في الدنيا لزلفى زيادة خير و في الآخرة حسن مآب وهي الجنة.

* * *

وبعد تمام الكلام على هذه الواقعة التي تدل على دقة داود عليه السلام، وعلى حكمته، واعترافه بمخالفة الأولى، ومسارعته إلى الله في التوبة.
يكون الإنعام الإلهي بتفويض خلافة الأرض إليه.
يقول سبحانه:

{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ }
[الآية : ٢٦]

يخاطب الله في هذه الآية الكريمة نبيه داود عليه السلام، ويلقي إليه دروساً وتعاليم، هي له عليه السلام، ولكل من ولاه الله عز وجل شأناً من شئون الآخرين.
يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض أي: جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء، الذين قاموا بالحق، ونصروه، وحكموا به، وعملوا بمقتضاه.
لذلك:

فاحكم بين الناس بعد أن تسمع منهم جيداً، وتبصر الأمر واضحاً بالحق أي: بالعدل.
ولا تتبع الهوى في سماعك للخصوم، أو في قضائك لهم، وحكمك فيهم؛ فيضلك الهوى عن سبيل الله أي: شرعة، ودينه، وعدله:
فإن الذين: يحكمون بين الناس بغير الحق، ويتبعون الهوى: نسوا يوم الحساب، وهؤلاء يضلون -بالضرورة- عن سبيل الله.
فلا تكن منهم.
حيث إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب

* * *

وهل يظن أحد أن يوم الحساب هذا غير آت..؟!
كلا..

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ }
[الآية : ٢٧]

نعم..
يوم الحساب كائن وواقع لا محالة؛ وإلا فيكون الخلق كله عبث في عبث.
و نحن ما خلقنا السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، وما بينهما من الخلق باطلا أي: عبثا.
بل خلقنا كل هذا الخلق ليعبدوا، ويوحدوا، ثم نجمعهم يوم القيامة؛ فنثيب المطيع، ونعذب الكافر.
وأما الخلق للعبث، فــ ذلك ظن الذين كفروا إذ يرون إنه لا بعث ولا حساب، بل هي أرحام تدفع، وقبور تبلع.
فويل للذين كفروا يوم بعثهم من النار التي تنتظرهم.

* * *

وهذا: هو العدل، ألّا نسوي بين المصلح والمفسد.

{ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }

[الآية : ٢٨]

يعني: أم نسوي بين المطيع والعاصي، فـ نجعل الذين آمنوا بربهم وعملوا الصالحات التي يطيعون بها ربهم، ويصلحون بها البلاد، ويسعدون بها العباد كالمفسدين في الأرض..؟

إن هذا لا ينبغي ولا يصح أبدا.

أم نسوي -أيضاً- بين المصلح والمفسد، فـ نجعل المتقين المؤمنين كالفجار الكافرين..؟

إن هذا -كذلك- لا ينبغي، ولا يصح أبدا.

* * *

لذلك: لابد من البعث، والحساب.

حتى يتميز الذين آمنوا وعملوا الصالحات من المفسدين في الأرض.

وحتى يدخل المتقون الجنة، ويساق الفجار إلى النار.

* * *

أيها الأحبة في الله..

أتذكرون -أعزكم الله- أن المولى سبحانه.. قال للنبي صلى الله عليه وسلم، منذ آيات قلائل:

أولاً: فاصبر على ما يقولون ليصبر على أذى المشركين.

وثانياً: واذكر عبدنا داود ليستفيد من دروس قصته.

نعم..

بالقطع: تذكرون ذلك.

وهنا: يقول له ثالثاً..

{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ }

[الآية : ٢٩]

يعني: وهذا كتاب أنزلناه إليك وهو القرآن مبارك لا تفارقه البركة، التي تنال كل من عمل به.
أنزلناه إليك ليدبروا آياته وينظرون في معانيها، ويعملوا بتعاليمها وليتذكر ويتعظ بها أولوا الألباب أي: أصحاب العقول.

* * *

وتنتهي قصة داود عليه السلام.. لتبدأ قصة أخرى.
وهي قصة سيدنا سليمان عليه السلام.

يقول ربنا عز وجل:

{ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ }
[الآية : ٣٠]

أي: نعم العبد سليمان؛ حيث إنه أواب رجاع إلى الله، مثل أبيه في صفات الكمال، وكذلك جعلناه عليه السلام نبيا.

* * *

ثم يذكر الله عز وجل ما يدل على أن سليمان أواب إلى الله تعالى.
فيقول:

{ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ }
[الآيات ٣١-٣٣]

اذكر يا محمد إذّ وقت أن عرض الخيل عليه أي على سليمان بالعشي يعني: بعد الظهر وهذه الخيل: الصافنات التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرجل الرابعة الجياد السريعة إذا سارت.
وقد شغله هذا الاستعراض عن الصلاة، حتى غابت شمس هذا اليوم..!!
وأدرك سليمان ذلك: فندم، وتاب إلى الله عز وجل.
وقال نادماً إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي أي: عن الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب أي: وحجبها الليل.
وأراد أن يزيح ما شغله من النعم عن طاعة المنعم من طريقه: فقال لأتباعه: ردوها أي ردوا الخيل علي فأحضروها له مرة ثانية.
فطفق أي: فأخذ يمسح بالسيف مسحا أي يضرب بسيفه بالسوق منها والأعناق أي: يذبحها ويقطعها؛ لأنها شغلته عن الصلاة.
ويلاحظ: أنه لم يتلفها؛ لأن الخيل كانت مأكولة اللحم في شريعته.

* * *

ولأن سليمان عليه السلام شغله استعراض الخيل عن ذكر الله، حتى فاتته صلاة العصر: فقد ابتلاه الله عقاباً لذلك بما تذكره هذه الآية الكريمة..

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ }
[الآية : ٣٤]

يعني: ولقد فتنا أي: اختبرنا سليمان؛ حينما قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة من نسائي، وكل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فلم تلد إلا واحدة، جاءت بشق رجل، أي: بولد مشوه.
يقول النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله.. لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون.
وهذا معنى قوله تعالى وألقينا على كرسيه جسدا أي: مريضا، لا نفع فيه.
وانتبه سليمان عليه السلام إلى هذا الاختبار..!!
ثم أناب رجع إلى ربه مستغفراً تائبا.

* * *

ثم..

{ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ }
[الآية : ٣٥]

استغفر سليمان عليه السلام ربه، أدباً مع الله عز وجل، وتقدمة لسؤال الفضل من الله قائلاً رب اغفر لي ثم طلب الهبة من ربه قائلاً وهب لي وحدي حتى يكون معجزة لي ملكاً لا ينبغي ولا يكون لأحد من بعدي أن يسلبه مني.
إنك إن تغفر لي، وتهب لي ذلك: فــ أنت الوهاب صاحب الفضل والعطاء.

* * *

وأجابه ربه، وحقق له سؤله.
إذ قال:

{ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ }
[الآيات : ٣٦-٣٨]

أي: فسخرنا له الريح بحيث جعلناها تحت تصرفه تجري بأمره إذا أمرها رخاءً لينة، إلى حيث أصاب أراد لها.
و كذلك: سخرنا له الشياطين تعمل بأمره.
منهم: كل بناء يبني له الأبنية الشاهقة القوية المتينة.
ومنهم: كل غواص يغوص في البحار، ليستخرج اللؤلؤ وغيره.
و منهم: آخرين غير هؤلاء مقرنين مقيدين في الأصفاد وهي القيود، وهؤلاء هم متمردوا الجن، ومن عصاه منهم.

* * *

ثم قلنا له:

{ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }
[الآية : ٣٩]

هذا عطاؤنا لك يا سليمان من الملك والمال والسلطان فامنن أي: أعط منه ما شئت لمن شئت أو أمسك ما شئت عمن شئت، فلك حرية التصرف في العطاء والمنع منه بغير حساب عليك منا في هذا أو ذاك.

* * *

ثم تنتهي قصة سليمان عليه السلام بالاشارة إلى منزلته عند الله يوم القيامة..
إذ يقول رب العزة:

{ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ }
[الآية : ٤٠]

وإن له أي: لسليمان عندنا فضلاً منا وتكرمة له لزلفى قربى وحسن مآب أي: ومرجع حسن، ومرد كريم، في الجنة.

* * *

وتبدأ القصة الثالثة، التي يذكر الله بها محمداً صلى الله عليه وسلم.
وهي قصة أيوب عليه السلام.
يقول سبحانه:

{ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ }
[الآية : ٤١]

واذكر يا محمد، ولتستفد الأمة: عبدنا أيوب عليه السلام..
إذْ نادى ربه أي: دعاه، قائلاً أني مسني الشيطان بنصب بتعب ومشقة وضرر وعذاب من الألم النفسي والبدني.

* * *

واستجاب له ربه.. وقال له:

{ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ }
[الآية : ٤٢]

اركض برجلك يعني: اضرب برجلك الأرض.
فضرب الأرض برجله، فنبعت عين ماء منها.
فقال له ربه..
هذا الماء مغتسل بارد تغتسل فيه وشراب تشرب منه.
فاغتسل، وشرب؛ فبرأ وشفى من مرضه بإذن الله.

* * *

{ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ }
[الآية : ٤٣]

يقول تعالى و بعد شفائه: وهبنا له أهله الذين ماتوا من قبل؛ حيث أحييناهم له، و رزقناه مثلهم معهم كل ذلك رحمة منا له؛ جزاء صبره على طاعة الله.

وليكون ذلك ذكرى ودرساً في الصبر على قضاء الله، وسعة فضله سبحانه لأولى الألباب الذين يوفقهم الله للإفادة من هذه الدروس والعبر.

* * *

كما أنعمنا عليه حينما حلف ذات يوم ليضربن امرأته مائة ضربة لأمر غضب عليها فيه.
بأن قلنا له، ليبرَّ في يمينه، دون إيذائها:

{ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ }
[الآية : ٤٤]

يعني: خذ أمسك بيدك ضغثاً حزمة من نبات صغير هش فاضرب به زوجتك، فتكون قد بررت يمينك بضربها ولا تحنث فيه.
وقد قلنا له ذلك..
حيث إنا وجدناه صابرا على البلاء، راضياً بالقضاء.
ثم أثنى الله عليه بهذه الصفة، التي يشترك فيها الأنبياء، والتي يلفت المولى إليها نظر الحبيب صلى الله عليه وسلم.
إذ قال على أيوب: نعم العبد إنه أواب رجاع إلى الله.

* * *

ومن هنا: تظهر أهمية التوبة من الذنب، والرجوع إلى الصواب، وعدم الإصرار على الخطأ ولو كان يسيرا.

* * *

أيها الأحباب في الله.
تعالوا بنا إلى ساحة هؤلاء الأنبياء العظام الذين يذكر الله بهم حبيبه صلى الله عليه وسلم.

حيث يقول له:

{ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ }
[الآيات : ٤٥–٤٧]

أي: واذكر يا محمد عبادنا هؤلاء أولي الأيدي أصحاب القوة في العقيدة والأبصار والبصيرة في الدين.
إنا أخلصناهم لنا بــ صفة خالصة لا شائبة فيها، هي ذكرى الدار الآخرة، التفكير فيها، والاستعداد لها.
وإنهم أيضاً عندنا لمن المصطفين المختارين الأخيار فهم خيار من خيار.

* * *

ثم يقول له أيضاً..

{ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ }
[الآية : ٤٨]

أي: واذكر أيضاً إسماعيل واليسع وذا الكفل واعتبر بهم، ولتستفد أمتك من دروسهم وحياتهم.
وكل واحد منهم من الأخيار

* * *

وفي نهاية ذكر هؤلاء المختارين، والتذكير بهم: يقول ربنا عز وجل:

{ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ }

[الآيات : ٤٩–٥٤]

هذا الذي ذكرناه: ذكر للتذكير والاعتبار، والإفادة منه.
وإن للمتقين عند ربهم لحسن مآب أي: حسن مرجع.
ثم فسر المولى حسن المآب هذا.. بقوله:
جنات عدن مفتحة لهم الأبواب*متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب*وعندهم قاصرات الطرف أتراب
ويقال لهم:
هذا ما توعدون من ربكم أيها المتقون ليوم الحساب
فاطمئنوا..
إن هذا لرزقنا لكم في الجنة ما له من نفاد ماله انتهاء، ولا انقضاء.
اللهم إنا نسألك أن تجعلنا معهم بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

* * *

وبعد أن ذكر الله، وذكَّر بحال السعداء من الأنبياء، وعباد الله المتقين.
يذكر هنا، ويذكِّر سبحانه، بحال الأشقياء الكافرين.
فيقول تعالى:

{ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ }
[الآية : ٥٥]

أي: هذا الذي ذكرناه سابقاً هو جزاء عباد الله المؤمنين.
وإن للطاغين الخارجين عن طاعة الله، المفسدين في البلاد، الظالمين للعباد، عندنا لشر مآب لسوء منقلب ومرجع.

* * *

ثم بين ربنا عز وجل هذا المنقلب السيئ.. بقوله سبحانه:

{ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ }
[الآيات : ٥٦-٥٨]

يعني: مرجعهم إلى جهنم هي مقرهم يصلونها يدخلونها فبئس المهاد فراشهم، وبئس الدخول دخولهم.
ويقال لهم هذا ماء قد اشتدت حرارته، وهذا ماء قد اشتدت برودته فليذوقوه إنه حميم وغساق و شراب، وطعام آخر من شكله وعلى مثاله أزواج فيه الشيء وضده؛ نكاية بهم، وتعذيباً لهم.

* * *

ثم يزج بفريق آخر من أهل النار، يدخل عليهم.
ويقال:

{ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ }
[الآية : ٥٩]

أي: هذا فريق مقتحم معكم في النار.
وهنا يجيب رؤساء الكفر قائلين: لا مرحباً بهم ولا نريد اليوم رؤيتهم إنهم صالوا أي: داخلون النار معنا.

* * *

وعند ما يسمع الأتباع هذا الترحيب السيئ بهم من الذين كانوا يقودونهم في الدنيا.

{ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ }

[الآيتان : ٦٠،٦١]

يعني: يردون على الرؤساء قائلين بل أنتم الأحق بان يقال لكم لا مرحباً بكم حيث إنكم أنتم الذين قدمتموه أي: هذا العذاب لنا حيث أغويتمونا وأغريتمونا على الكفر.
وهذا قرارنا وقراركم فبئس القرار الذي نحن وأنتم فيه.
ثم قالوا دعاءً على من أغروهم بالكفر، وأوقعوهم في العذاب ربنا من قدم لنا أسباب هذا العذاب فزده عذاباً ضعفا أي: مضاعفاً في النار

* * *

ثم يتذكر أهل النار ــ وهم في خصوماتهم هذه ــ فريق المؤمنين.

{ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ }
[الآيتان : ٦٢،٦٣]

وقالوا أي: أهل النار، لبعضهم البعض ما لنا لا نرى معنا رجالاً كنا نعدهم في الدنيا من الأشرار الذين يخالفوننا..؟
يا ترى..
أتخذناهم سخريا وكانوا أهل فضل، لا يستحقون أن نسخر بهم..؟
أم أنهم معنا في النار، وقد زاغت عنهم الأبصار فلا نراهم؟
وهذا: من باب التحسر على حالهم، والندم الذي لا يفيد على كفرهم.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل..
يا محمد..

{ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ }
[الآية : ٦٤]

أي: إن ذلك الذي أخبرناك به، وأوحيناه إليك لحق لا شك فيه، وهو لون من تخاصم أهل النار مع بعضهم البعض.
وقد أخبرناك به؛ لتحذره أمتك.
نسأل الله تبارك وتعالى النجاة من هذا المصير.
إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

أيها الأحبة في الله..
بدأت السورة الكريمة بالحديث: عن القرآن، وعن التوحيد، وعن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.
وقد أمره ربه عز وجل: بالصبر، والذكر....
وقدم له طائفة من إخوانه الأنبياء، الذين صبروا، وتذكروا، وأنذروا..
وهنا: يأمره بالبلاغ، وإعلان رسالته، رضي المنذَرون، أو رفضوا.
إذّ يقول له:

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ }
[الآيتان ٦٥،٦٦]

قل وأعلن للدنيا كلها هاتين القضيتين:
الأولى: إنك رسول الله إنما أنا منذر
الثانية: أن الإله واحد وما من إله لهذا الكون، وما فيه ومن فيه إلا الله الواحد القهار لكل شيء، والذي هو رب السماوات والأرض وما بينهما والمالك لكل شيء العزيز الذي لا يقهر الغفار لذنوب من تاب وآمن به ورجع إليه.

* * *

يا محمد..

{ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }
[الآيات : ٦٧–٧٠]

أي: قل وأعلن للدنيا كلها..
أن هذا الذي قلت، من أنك رسول الله، وأن الإله واحد لا شريك له: هو نبأ عظيم خبر جليل الشأن، رفيع القدر، لا يعرض عنه إلا غافل.
و أنتم أيها المشركون عنه معرضون
وبالتالي: فأنتم غافلون، عن ما فيه نفعكم، وإنقاذكم من عذاب الله.
يا قوم.. أنا أخبركم عن الملأ الأعلى، وهذا من دلائل نبوتي.
علماً بأنه ما كان لي من علم سابق بالملأ الأعلى إذ يختصمون
يا قوم إن يوحى إلي أي: ما يوحى إلي إلا أنما أنا نذير لكم من عذاب الله مبين واضح، لا أخفى عنكم شيئاً.

* * *

واسمعوا بعض أخبار الملأ الأعلى، التي أوحيت إلي، وما كان لي بها من سابق علم قبل هذا الوحي..
يقول لي ربي عز شأنه..

{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }
[الآيتان : ٧١، ٧٢]

يعني: اذكر لهم إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين وهو آدم عليه السلام.
فإذا سويته وأتممت خلقه ونفخت فيه من روحي ودبت فيه الحياة: فقعوا له كلكم ساجدين سجود تحية، وتعظيم لله.

* * *

وتمت تسويته، ونفخت فيه الروح..

{ فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ * إلاَّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ }
[الآيتان : ٧٣،٧٤]

أي: فسجد الملائكة كلهم أجمعون على الفور؛ طاعة لأمر الله إلا إبليس الذي كان معهم وشمله الأمر، مع أنه لم يكن منهم، فقد استكبر ورفض أن يسجد لآدم.
وبذلك: عصى إبليس ربه وكان من الكافرين

* * *

وساءله ربه عن هذا السلوك..

{ قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ }
[الآية : ٧٥]

على أية حال: أي: ما الذي منعك يا إبليس من طاعة أمري.. أهو الكبر، أم الغرور..؟
كلاهم ذميم.
ومع أيٍّ منهما: فقد خرجت عن طاعتي، وامتثال أمري..!!

* * *

وأجاب اللعين..

{ قَالَ أنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ }

[الآية : ٧٦]

قال إبليس متبجحاً أنا خير منه ولذلك لم أسجد له.
وفاته: أن الآمر له بالسجود، هو من خلقه، كما ينطق بها هو..
إذّ يقول خلقتني

* * *

ولهذا العصيان والتكبر، ولهذه المخالفة والمجادلة: طرده المولى من رحمته.

{ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ }
[الآيتان : ٧٧،٧٨]

قال له ربنا عز وجل فاخرج فوراً منها أي: من الجنة فإنك رجيم مطرود مرجوم.
وإن عليك أيضاً لعنتي إلى يوم الدين يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

* * *

وأدرك إبليس حجم الكارثة، التي نزلت به.
ودفعه خبثه إلى محاولة الالتفاف حولها.

{ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }
[الآية : ٧٩]

يعني: أمهلني، وأخرني، ولا تمتني.. إلى يوم بعث الخلائق.
وحدد اللعين الإمهال إلى يوم البعث: لأنه لا موت بعد البعث.

وبذلك: فقد أراد الهروب من الموت نهائياً.

* * *

ولكن: رد الله عليه مكره..

{ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ }
[الآيتان ٨٠، ٨١]

أي: قال له ربنا عز وجل فإنك كما طلبت من المنظرين الذين أمهلهم، ولا أميتهم.
ولكن: لا إلى يوم البعث كما طلبت، بل إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم النفخة الأولى، التي يموت عندها الخلائق جميعاً، وتموت أنت معهم، وتبعث، وتحاسب، وتخلد في النار أيها اللعين.

* * *

وخاب أمل إبليس، وبطل مكره..
وهنا..

{ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }
[الآيتان : ٨٢، ٨٣]

أقسم اللعين بعزة الله، قائلاً لأغوينهم أي: عباد الله أجمعين بالكفر، والمعاصي، وسيطيعونني إلا عبادك منهم المخلصين الذين أغويهم، ولا يطيعونني؛ لأنهم يخافونك، ويحتمون بك، ويلجأون إليك، ويستعيذون بك مني.

* * *

ويصدر الحق حكمه العادل..

{ قَالَ فَالحَقَّ وَالحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنهُمْ أَجْمَعِينَ }
[الآيتان : ٨٤،٨٥]

أي: قال ربنا عز وجل فالحق أنا والحق هو ما أقول وأنا أقول لأملأن جهنم منك ومن ذريتك وممن تبعك منهم أي: من الذين تغويهم ويتبعونك أجمعين

* * *

يقول النبي صلى الله عليه وسلم.. هذا ما أوحي إلى، وهو ما أخبركم به.
وما كان لي من علم به قبل أن يوحى إلي به.
فأنا رسول الله: أدعوكم إلى توحيد الله، وعبادته.

* * *

يقول المولى عز وجل.. يا محمد.

{ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ }
[الآيات : ٨٦-٨٨]

قل لهم..
أولاً: ما أسألكم عليه أي: إنذاري لكم من أجر آخذه منكم.
ثانياً: و أنتم تعرفوني جيداً، وتعرفون أنه ما أنا من المتكلفين الذين يدعون ما ليس فيهم، ولا لهم.
ثالثاً: إن هو أي القرآن إلا ذكر وتذكرة للعالمين فكونوا أولى الناس بحمله، والتشرف به، وتبليغه.
رابعاً: و على أية حال لتعلمن نبأه خبره، وما فيه من الوعد والوعيد، والبعث والنشور بعد حين أي: يوم القيامة.
ولكن بعد فوات الأوان.
فآمنوا.. إن كنتم تعقلون.!!!

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تتحدث عن القرآن الكريم، وكونه منزلاً من عند الله تعالى.
كما تتحدث عن منزل هذا القرآن، وهو الله عز وجل.
وتتحدث ثالثاً: عن ضرورة عبادة الله والإخلاص له.
وهذا: هو غرضها العام، الذي تدور حوله موضوعاتها العديدة.
والسورة: تبدأ بقوله تعالى:

{ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }
[الآية : ١]

تنزيل الكتاب أي: القرآن من الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وتدبيره، وشرعه.

* * *

ثم بين ربنا عز وجل ما في هذا القرآن.. بقوله:

{ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ }
[الآية :٢]

يعني: أن ما في هذا القرآن.. هو الحق الخالص.

لذلك: فاعبد الله وفق ما جاء فيه وأمر به، وكن مخلصاً له الدين أي: فاعبده وحده لا شريك له.

* * *

{ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ }
[الآية : ٣]

ألا إن الحقيقة: أنه لله وحده الدين الخالصة أي: العبادة الصادقة، الخالصة من كل رياء، وهي التي يؤديها المؤمنون.
و أما الذين اتخذوا من دونه من غيره أولياء آلهة لهم: فإنهم يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله وما نتخذهم إلا زلفى تقرباً ليشفعوا لنا عند الله في كشف الضر وجلب النفع، في الدنيا.
يقول ربنا سبحانه:
إن الله يحكم بينهم أي: بين المؤمنين والكافرين، يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون حيث كان الكافرون ينكرون الحق الذي ينادي به المؤمنون، ويحاربونهم بسببه.
على أية حال: إن الله عز وجل لا يهدي للحق من هو كاذب كفار

* * *

إنهم يقولون: إن لله ولدا..
لقد: كذبوا، وكفروا.
حيث إنه:

{ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }
[الآية : ٤]

نعم..
لو أراد الله أن يتخذ ولدا ولو جاز عليه ذلك، كما تظنون: لأصطفى هو واختار بنفسه مما يخلق ما يشاء لا الذي تشاؤن أنتم وتختارون.
فضلاً عن أنه منزه عن الولد والشريك سبحانه هو الله الواحد القهار الذي كل شيء عبد لديه، فقير إليه.

* * *

هو سبحانه الذي:

{ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ }
[الآية : ٥]

أي: خلق السماوات والأرض بالحق وأنزل الكتاب بالحق، وهو القادر على بعث خلقه وحسابهم، ومجازاتهم.
فهو الذي يكور الليل على النهار يلفه حوله بقدرته ويكور النهار على الليل
وهو الذي سخر الشمس والقمر كل يجري في مسار لا يتخطاه، وذلك مستمر لأجل مسمى عنده، وهو يوم القيامة.
ألا إن ذلكم هو الله العزيز الغالب، الذي لا يقهر الغفار لمن تاب وآمن وأناب إلى ربه.

* * *

وكذلك: هو سبحانه الذي:

{ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }
[الآية : ٦]

أي: أنه عز وجل..
خلقكم مع اختلاف أجناسكم، وألوانكم، وألسنكم من نفس واحدة هي آدم عليه السلام.
ثم جعل منها أي: من نفس آدم زوجها وهي حواء.
وأنزل لكم أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج تنتفعون بها.
وهو يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فطور نطفة، وطور علقة، وطور مضغة، وهكذا في ظلمات ثلاث وهي: ظلمات البطن، والرحم، والمشيمة.
ذلكم القادر على كل ذلك..
هو الله ربكم الذي له الملك كله وله الحمد كله.
لا إله إلا هو يستحق العبادة.
فأنى تصرفون فكيف تصرفون عن عبادته، مع وضوح كل ذلك لكم.

* * *

على كل حال:

{ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }
[الآية : ٧]

يعني: إن تكفروا بهذا الإله الواحد القادر العظيم فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، وعن عبادتكم.
و في ذات الوقت لا يرضى لعباده الكفر ولا يأمر به، وإن كان يريده؛ حيث لا يقع في ملكه إلا ما يريد.
هذا..
وإن تشكروا بالإيمان، والعمل الصالح، والعبادة يرضه لكم ويزدكم عليه من فضله.
و في ذات الوقت لا تزر وازرة وزر أخرى أي: لا يعاقب أحد بذنب أحد غيره.
ثم..
ثم في النهاية إلى ربكم مرجعكم يوم القيامة فينبؤكم بما كنتم تعملون من خير أو شر، ويجازيكم عليه.
حيث إنه عليم بذات الصدور

* * *

هذا...

وبعد أن تقرر واتضح: أن المستحق للشكر وحده.. هو الله سبحانه وتعالى..!!

وأن هذا الشكر لصالح الإنسان..!!

وأن كل نفس عن نفسها فقط تحاسب!!

بين ربنا عز وجل: طبيعة الكافر، وأنه يوحد في الضراء، ويكفر في الرخاء.

حيث يقول:

{ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ }

[الآية : ٨]

وإذا مس أصاب الإنسان الكافر ضر بلاء أو شدة:

دعا ربه وحده منيباً راجعاً إليه تاركاً دعوة الأصنام التي يعبدها لعلمه بعدم نفعها.

ثم إذا ذهب عنه الضر، و خوله أعطاه ربه نعمة منه أي من الله: نسي ما كان يدعو إليه من قبل بل أكثر من هذا النسيان..

وجعل لله أندادا شركاء ليضل نفسه، وغيره عن سبيله أي: عن سبيل الله، وهو الإسلام.

قل يا محمد لهذا الكافر وأمثاله: مهدداً ومخوفاً.

تمتع بكفرك وما يدعوك إليه من المعاصي قليلاً أي: في الدنيا، وهي قصيرة.

إنك من أصحاب النار

* * *

ثم يبين ربنا عقب ذلك طبيعة الموحدين في الضراء والسراء، الذين لا رجوع لهم إلا إلى الله، ولا اعتماد لهم إلا على فضله سبحانه.

إذ يقول جلت حكمته:

{ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ }

[الآية : ٩]

يعني: أيهما خير.؟
الذي هو قانت لربه، خاضع له، قائم بوظائف الطاعات آناء الليل ساجداً وقائما يعبد ربه سبحانه.
وهو في ذات الوقت: يحذر الآخرة وعذابها، فيستعد بالعمل الصالح لها ويرجو رحمة ربه جنته ورضوانه..
أو الكافر الذي جعل لله أندادا ليضل عن سبيله..؟
قل يا محمد..
هل يستوي الذين يعملون فيؤمنون، ويطيعون والذين لا يعلمون فيكفرون..؟
إنما يتذكر ويتعظ، ويعرف هذا الفرق: أولوا الألباب

* * *

ولما أتضح الفرق: بين المؤمن والكافر..
وانتفت المساواة: بين من يعلم ويعمل، وبين من لا يعلم ولا يعمل..
أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم: أن يخاطب المؤمنين.
قائلاً له:

{ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ }

[الآية : ١٠]

أي: قل لهم.. ربكم يقول لكم يا عباد الذين آمنوا أطالبكم بشيئين:
الأول : تقوى الله اتقوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.
وهذا إحسان: وعندي للذين أحسنوا في الدنيا بالطاعة حسنة في الآخرة، وهي الجنة.
الثاني: إن لم تتمكنوا من الإحسان في أرضكم.. فهاجروا منها إلى غيرها وأرض الله واسعة واصبروا على مفارقة الأوطان إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب

* * *

ثم يأمر ربنا عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر..
الأمر الأول:

{ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ }
[الآية : ١١]

يعني: أخبرهم.. أنك مأمور بالعبادة، والإخلاص فيها.

* * *

والأمر الثاني:

{ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ }
[الآية : ١٢]

يعني: أخبرهم.. أنك مأمور أن تكون: أول من أطاع، وانقاد لله، وأسلم.

* * *

والأمر الثالث:

{ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآية :١٣]

يعني: أخبرهم.. أنك تخاف من عذاب الله يوم القيامة؛ إذا كان منك معصية.

*   *   *

والأمر الرابع:

{ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي }
[الآية :١٤]

يعني: أخبرهم.. أنك امتثلت لأمر الله، وعبدته، وأخلصت له الدين، على أبلغ وجه وأكده.
وذلك: إظهاراً لشدة تمسكك بالإسلام، وقطعاً لأطماعهم الفارغة، في صرفك عن دين الله.

*   *   *

أيها الأحبة.. إذا كان هذا مع حبيب الله..!!
فكيف الحال معنا، وهل فهمنا المطلوب منا..؟
اللهم أعنا على عبادتك والإخلاص لك فيها.. يا رب العالمين.

*   *   *

هذا..
ولما بلغ البيان لوجوب رعاية توحيد الله، وضرورة عبادته الغاية القصوى: هدد ربنا وتوعد غير الموحدين، وبين عاقبتهم..
قائلاً:

{ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ }
[الآيتان : ١٥ ، ١٦]

يعني: أنتم أيها الكافرون أعرف بأنفسكم فاعبدوا ما شئتم عبادته من دونه سبحانه.. فالوزر عليكم، وأنتم الخاسرون..!!
قل يا محمد لهم إن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم بإهلاكها في النار، وخسروا كذلك أهليهم.
وذلك: يوم القيامة لأنهم ضلوا وأضلوا أهليهم؛ فصاروا جميعاً إلى النار.
وهذا حقيقة: هو الخسران ألا ذلك هو الخسران المبين
ثم بين هذا الخسران: فقال عز وجل لهم من فوقهم ظلل أي طبقات من النار ومن تحتهم كذلك ظلل أي: فراش ومهاد.
ذلك العذاب المذكور يخوف الله به عباده المؤمنين..!!
يا عباد فاتقون ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

* * *

ولما ذكر ربنا الخاسرين، وهم الذين يعبدون غير الله، وهددهم: ذكر الفائزين، وهم الذين يعبدونه سبحانه، وبشرهم.
فقال:

{ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ }
[الآيتان : ١٧،١٨]

يعني: و أما الذين اجتنبوا أي: ابتعدوا عن الطاغوت وهو كل ما يعبد من دون الله، ورفضوا وترفعوا أن يعبدوها و إلى جانب ذلك: أنابوا رجعوا إلى الله
هؤلاء:

لهم البشرى الحسنة من الملائكة، وذلك: عند الموت، وفي القبر، ويوم البعث، تقول لهم ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون [فصلت ٣٠]
وعلى ذلك:
فبشر عباد الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله.
فهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الموصوفون بهذه الصفات: هنيئاً لهم؛ حيث إنهم الذين هداهم الله إلى الحق والصواب في الدنيا والآخرة.
وأولئك حقيقة هم أولوا الألباب الفطر النقية، والعقول الذكية.

* * *

وبعد هذا التفصيل عن أهل الجنة وأهل النار: يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم، الذي كان يحرص أشد الحرص على إيمان قومه..

{ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَن فِي النَّارِ }
[الآية : ١٩]

يعني: أفمن حق وجب عليه كلمة العذاب وأنه يدخل النار؛ لأنه من أهل الضلال أفأنت تستطيع أن تنقذه؟
لا.. إنك لا تنقذ من في النار لأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهديه فلا مضل له.
فقر عيناً، وأهدأ بالاً..
فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وليس عليك إلا البلاغ فقط.

* * *

ثم يخبر ربنا عن عباده السعداء، وما أعد لهم؛ تشويقاً للمؤمنين، وحثاً على الطاعة، ونوال الرضوان.

{ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ }
[الآية : ٢٠]

أي: لكن عباد الذين اتقوا ربهم ووصفوا بما سبق ذكره..
لهم عندنا، ومن فضلنا غرف من فوقها غرف منازل رفيعة، فوقها منازل أرفع.
وهذه الغرف: مبنية بإحكام، وزخرفة، تسر العين، وتسعد الخاطر.
وهذه الغرف كذلك: تجري من تحتها الأنهار إمتاعاً، وإسعاداً لأهلها.
ذلك: وعد الله لعباده المتقين.
ووعده واقع لا محالة، وصدق الله لا يخلف الله الميعاد

* * *

وأعلم أيها المؤمن أن ما ذكر من نعيم الله في الجنة: باق، لا يزول، ولا يتحول، بخلاف نعيم الدنيا وزخرفها، فهو سريع الزوال، شديد التحول.
ولا ينبغي تضييع الباقي بسبب الفاني.

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ }
[الآية : ٢١]

ألم تر أيها الإنسان أن الله سبحانه.
بقدرته أنزل من السماء ماءً
فسلكه فأدخله، وجعله بقدرته ينابيع في جوف الأرض ثم بقدرته يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ذابلا.
ثم يجعله بقدرته حطاما هشاً متكسرا.
إن في ذلك الذي يحدث بقدرة الله لِحطام الدنيا: لذكرى لأولى الألباب تدفعهم للاعتبار، وطاعة الله، وعدم الانشغال بالدنيا، وتضييع الآخرة.

* * *

ولما حبب ربنا تبارك وتعالى في الإقبال على الطاعة، وعدم الانشغال بمتاع الدنيا الزائل..

بين أن ذلك لا يكون: إلا إذا شرح الله الصدور، ونور بفضله القلوب.
فقال عز قوله:

{ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }
[الآية : ٢٢]

يعني: أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى فهو على نور من ربه كمن طبع على قلبه، فلم يهتد لقسوته..؟
أبدا.. أبدا.
فويل للقاسية قلوبهم لأنها لا تلين من ذكر الله
أولئك قساة القلوب في ضلال عن الهدى والحق والنور مبين

* * *

واعلموا أيها الأحبة في الله: أن طريق الهداية والنور والسعادة..
هو القرآن..
يقول سبحانه:

{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }
[الآية : ٢٣]

الله عز وجل نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. القرآن العظيم.
وقد وصفه هنا: بصفات أربع..
الأولى: أحسن الحديث فلا حديث أفضل ولا أعلى ولا أنفع منه.
الثانية: كتاباً متشابها أي: يشبه بعضه بعضا في الصدق والبيان، والحكمة، والإيجاز.
الثالثة: مثاني أي: يثني ويكرر، دون ملل منه، أو صرف عنه، كما يحتوي على الأمور الثنائية، مثل: الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد...إلخ.
الرابعة: تقشعر ترعد منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين تطمئن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أي: عند ذكر وعده بالحسنى.
ذلك الكتاب، وهو القرآن: هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، الذين شرح الله صدورهم أولاً لقبول الهداية.

و أما من يضلل الله ولا يشرح صدره: يجعل قلبه مظلماً قاسياً، منافياً لقبول الهداية فما له بعد ذلك من هاد يهديه.

* * *

هذا الضلال، وعدم الهداية: جزاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في الدنيا.
وأما في الآخرة: فلهم سوء العذاب.
خبروني بربكم..

{ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }
[الآيات : ٢٤-٢٦]

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن منعم في الجنة يوم القيامة..؟
أبداً.. لا يستويان.!!
وقيل لهم من خزنة النار ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون من المعاصي والآثام.
هذا.. في الآخرة:
وقد كذب الذين من قبلهم بالرسل، ولم يؤمنوا فأتاهم العذاب في الدنيا من حيث لا يشعرون ومن جهة لا تخطر ببالهم.
فأذاقهم الله بهذا الشكل الخزي في الحياة الدنيا أولا.
ولعذاب في الآخرة ثانياً: أكبر من عذاب الدنيا.
إنهم لو كانوا يعلمون ويصدقون: ما كفروا، وما عذبوا.

* * *

وبعد هذا البيان الشافي والقول الوافي: في توضيح طريق الهداية، والدعوة إليه، وبيان الضلال والتخويف منه.
يقول تعالى مقرراً ما سبق:

{ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

[الآيتان : ٢٧، ٢٨]

نعم..
ولقد ضربنا بيناً للناس في آيات هذا القرآن العظيم من كل مثل ما يفيدهم لعلهم يتذكرون فيؤمنون، فيفوزون.
وجعلناه:
أولاً: قرآنا مجموعاً، متعبداً به، تلاوة وعملاً إلي يوم القيامة.
ثانياً: عربياً من جنس كلامهم، أعجز البلغاء والفصحاء عن أن يأتوا بمثله، مع أنه عربي.
ثالثاً: غير ذي عوج فهو بريء من النقص أو الخلل.
وكان كذلك: لعلهم يتقون الله؛ فيمتثلون أوامره، ويجتنبون محارمه.

* * *

ولما خوف الله عز وجل الكفار من العذاب: بين بعد هذا التخويف فساد مذهبهم بأوضح بيان، وهو ضرب المثل.
حيث قال:

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية : ٢٩]

أي: ضرب الله مثلا
للمشرك رجلاً فيه أي: يملكه شركاء عديدون، وهم متشاكسون كل واحد يريد مصلحته منه.
وللمؤمن رجلاً سلما أي: خالصا لرجل واحد.
هل يستويان مثلا؟
أبداً: لا يستويان..!!
وعلى ذلك: لا يستوي المشرك، الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده.
الحمد لله الذي اختار لعباده الهداية، وأمرهم بها، وأرشدهم إليها، ولكنهم مع ذلك ينحرفون..
حقاً.. بل أكثرهم لا يعلمون

* * *

على أية حال:

{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ }
[الآيتان : ٣٠،٣١]

إنك ميت وإنهم ميتون يعني: ستموت ويموتون..!!
ثم إنكم بعد البعث يوم القيامة: تجتمعون عند ربكم وتختصمون
حيث تثبت أنك قد بلغت، ويعتذرون هم بما لا فائدة منه.

* * *

ثم يصف رب العزة الفريقين، وجزاء كل منهما..
فيقول عن أهل الباطل:

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ }
[الآية : ٣٢]

أي: فمن أظلم من هذا الذي كذب على الله ورد الصدق وكذب بالصدق إذ جاءه..؟
حيث جمع هذا الظالم بين القول والفعل؛ إذ كذب على الله، وكذب رسوله. هؤلاء: جزاؤهم.. هو الخلود في جهنم.
أليس في جهنم مثوى إقامة دائمة للكافرين..؟
بلى.. لهم جهنم مقاما، والخلود فيها جزاءً.

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى عن أهل الحق:

{ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآيات ٣٣-٣٥]

و أما الذي جاء بالصدق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به كذلك: أولئك فقط هم المتقون هؤلاء: جزاؤهم.. أن لهم ما يشاؤن عند ربهم حيث يأمنون من الفزع الأكبر، وأهوال يوم القيامة، وتكفير السيئات، ودخول الجنة.
و ذلك جزاء المحسنين
وكان هذا الجزاء:
أولاً: ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا
ثانياً: ويجزيهم بأحسن الذي كانوا يعملون

* * *

أيها الأحبة في الله.. مما نشاهده، وجرت به العادة: أن أهل الباطل يُخَوِّفون أهل الحق، ويهددونهم، ويلحقون بهم كثيراً من صور الإيذاء.
وقد حسم الله هذا الموضوع..
إذّ بين: أنه عالم بكل شيء، وأنه لا يقع في ملكه عز وجل إلا ما يريد، وأن ذلك الابتلاء لحكم تقضيها مشيئته سبحانه.
إذّ يقول:

{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ }
[الآيتان : ٣٦ ، ٣٧]

بلى..
الله عز وجل كاف عبده المؤمن، الذي توكل عليه، واحتمى بجناحه.
ويخوفونك يا محمد، أو يا كل مؤمن بالذين من دونه أي يخوفونك بغير الله؛ لأنهم أنكروا، أو تناسوا إحاطته سبحانه بهم، وقدرته عليهم.
فلا تهتم: فالله معك في الدنيا وفي الآخرة.
وهم: قد ضلوا عن الحق.

ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فماله من مضل
إنّ الأمر كله بيد الله عز وجل.
أليس الله بعزيز غالب على أمره ذي انتقام من أعدائه، وأعداء أوليائه..؟
بلى.. وألف بلى.

* * *

والعجيب.. أن هؤلاء الضالين، الذين ينكرون، ويتناسون إحاطة الله بهم، وقدرته عليهم.
يقول عنهم ربنا:

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }
[الآية : ٣٨]

يعني: ولئن سألتهم أي: هؤلاء الذين يخوفونك بغير الله، قائلاً لهم من خلق السماوات والأرض..؟
ليقولن الله لوضوح البرهان على أنه وحده الخالق.
قل لهم إذن متسائلاً، ومنكراً..
ما تدعون أي ما تعبدون من دون الله هؤلاء، ماذا يستطيعون..؟
أولاً: إن أرادني الله بضر ووقع على هل هن كاشفات ضره هذا عني..؟
ثانياً: أو أرادني برحمة بخير، ووصل إلى هل هن ممسكات رحمته هذه عني..؟
إنها ـــ أبدا ـــ لا تستطيع هذا، ولا ذاك.
إذن..
قل حسبي الله هو يكفني، ويدفع عني ما تخوفونني به، ويثبتني إن نزل بي منه شيء، ويأجرني عليه.
لذلك: عليه وحده يتوكل المتوكلون

* * *

ثم يأمر ربنا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يفاصلهم مهدداً لهم.

{ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }
[الآيتان : ٣٩،٤٠]

قل لهم اعملوا ما شئتم إني عامل بما هداني إليه ربي.
وعلى كل حال: فسوف تعلمون يوم القيامة من يأتيه وهو أنتم عذاب يخزيه ويهينه أمام جميع الخلائق ويحل عليه في جهنم عذاب مقيم أبدي خالد.

* * *

ومع أن رب العزة يقول له ذلك..!!
ومع أنه أيضاً يقول للكفار ذلك..!!
فقد كان صلى الله عليه وسلم يتحرق شوقاً لإيمانهم، ويتوجع ألماً لكفرهم.
ولذلك.. يخفف عنه المولى، فيقول له:

{ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ }
[الآية :٤١]

يعني: لا تتألم يا محمد لإصرارهم على الكفر؛ حيث إنا أنزلنا عليك الكتاب القرآن للناس كلهم بالحق الواضح، الذي ينفعهم، ويهديهم.
فمن اهتدى به، منهم أو من غيرهم: فلنفسه كل الخير.
ومن ضل عن هذا الحق: فإنما يضل عليها ويجلب الشر لها.
وما أنت عليهم بوكيل تلزمهم بالإيمان، أو تحاسبهم على عدم إيمانهم..
بل أنت مبلغ ومنذر فقط.
وقد بلغت وأنذرت.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل: أن أرواح الناس جميعاً في قبضته.
وبذلك: فهو قدير عليهم، لا يفرون منه، ولا يمتنعون من قدرته.
إذ يقول:

{ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآية : ٤٢]

هذه آية من الآيات الدالة على عظيم قدرة الله تعالى.
ومعناها..
أن الله عز وجل يتوفى الأنفس أي: يقبض الأرواح عن الأبدان، بأن يقطع تعلقها بها وتصرفها فيها.
إما ظاهراً وباطناً، وذلك حين موتها
أو ظاهراً لا باطناً، وذلك في النوم، وهي التي لم تمت في منامها
وبعد ذلك:
فيمسك روح التي قضى عليها الموت ولا يردها إلى البدن.
ويرسل الروح الأخرى إلى بدنها، عند اليقظة؛ لتظل حية إلى أجل مسمى وهو الوقت المضروب لنهاية حياتها.
وبذلك: تفيد الآية الكريمة..
أن الله سبحانه هو المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه لا غيره، هو الذي يتوفى الأنفس، الوفاة الكبرى والصغرى.
إن في ذلك التصرف الإلهي لآيات دالة على قدرته وعلمه وإحاطته لقوم يتفكرون فيعتبرون، فيؤمنون، ويزدادون إيماناً على إيمانهم.
ولكن: هؤلاء لم يتفكروا.!!

* * *

إنهم يعبدون غير الله..!!
ويقولون: نحن نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله.
لذلك يقول المولى عز وجل:

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ }
[الآية : ٤٣]

يستنكر المولى عليهم، ويقول أم اتخذوا من دون الله شفعاء لهم..؟
قل لهم: أ تتخذونهم شفعاء، حتى ولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون شيئاً كذلك..؟
كيف يكون هذا..؟

* * *

أعلمهم بوضوح، و..

{ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآية : ٤٤]

أي: قل لهم.. لله وحده الشفاعة يأذن بها لمن يشاء، وليس بتحديدكم واختياركم أنتم.
ولذلك: فاعبدوه وحده، إن أردتم الفلاح والنجاة..!!
خاصة: وأنه..
أولاً: له ملك السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، وكذلك ما بينهما.
ثانياً: ثم إليه ترجعون في يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازيكم بما تستحقون.

* * *

هؤلاء الذين يشركون مع الله غيره..!!
ويتخذون بقلة عقولهم الأصنام لهم شفعاء..!!
فسدت فطرتهم، وانحرفت عقولهم.
إقرأ لتعرف ذلك.. قوله تعالى:

{ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }
[الآية : ٤٥]

إنه موقف غريب عجيب..
إذا ذكر الله سبحانه وحده أمام هؤلاء المشركين: اشمأزت عبست وقبضت قلوب الذين كفروا هؤلاء.
والسبب: أنهم لا يؤمنون بالآخرة
و أما إذا ذكر الذين يعبدونهم من دونه سبحانه: إذا هم في فرح وسرور يستبشرون

* * *

لذلك: يأمر الله رسوله أن يعلن الحق واضحاً..

{ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[الآية : ٤٦]

قل يا محمد، مفوضاً الأمر لله..
اللهم..!!
يا فاطر السماوات والأرض
يا عالم الغيب والشهادة
أنت وحدك تحكم وتقضي وتفصل بين عبادك في الدنيا، وكذلك يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون
افصل واحكم بيني وبينهم.. يا أعدل الحاكمين.

* * *

وما دام الفصل والحكم النهائي: يكون يوم القيامة..
فإن المولى يحدثنا عن موقف هؤلاء الكافرين في يوم القيامة..

فيقول:

{ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }
[الآيتان : ٤٧، ٤٨]

أي: ولو أن للذين ظلموا ملكية ما في الأرض جميعا و كذلك مثله معه في حوزتهم: لافتدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي ينزل بهم يوم القيامة

و أيضاً: بدا ظهر لهم أيضاً من عذاب الله ونكاله بهم ما لم يكونوا يحتسبون أو يخطر ببالهم.

وبدا لهم ثانياً سيئات ما كسبوا بعد أن كانت خافية عليهم، وعوقبوا عليها.

وحاق بهم وأحاط بهم من كل جهة- ثالثاً- جزاء ما كانوا به يستهزؤن في الدنيا، من أمر الإيمان، والمؤمنين.

* * *

وإذا كان هذا الموقف للكافرين في يوم القيامة..

فاستمع معي- أعزك الله- إلى موقف آخر من مواقفهم.

ولكن.. في الدنيا هذه المرة.

{ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ }
[الآيات : ٤٩-٥١]

فإذا مس هذا الإنسان الكافر ضر أو وقع في شدة؛ تضرع إلينا، و دعانا لنكشف عنه ضره، ونرفع هذه الشدة.

وهذا اعتراف عملي منه.. أن النفع والنعم من الله وحده.

ثم إذا خولناه أعطيناه نعمة منا تفضيلاً عليه: تنكر للمنعم، و قال إنما أوتيته أي: هذا الفضل على علم عندي أي: تعلمي وجهدي واستحقاقي، وليس تفضلاً من أحد.

ويكون الرد عليه من المولى سبحانه:

إذ يقول له:

بل هي فتنة واختبار لك، لنرى: أتشكر، أم تكفر.

ولكن أكثرهم أي: أكثر الناس مثلك لا يعلمون أنها اختبار لهم.

ولذلك: يقولون مثل ما تقول.

وبالفعل..

قد قالها الذين من قبلهم مثل قارون..

إذ قال: إنما أوتيته على علم عندي.

فماذا حدث لهم إذّ قالوها..؟

أولاً: فما أغنى عنهم في الدنيا، ولا منع عنهم الموت ما كانوا يكسبون

ثانياً: فأصابهم في الآخرة جزاء سيئات ما كسبوا

وعلى هذا: فلينتبه هؤلاء.

حيث يقول تعالى:

والذين ظلموا من هؤلاء كذلك: سيصيبهم جزاء سيئات ما كسبوا و في ذات الوقت ما هم بمعجزين بفارين وهاربين من عذاب الله.

* * *

يا سبحان الله..!!

{ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }
[الآية : ٥٢]

يعني: أ غفل، وجهل هؤلاء الذين يقولون إنما أوتيته على علم عندي ولم يعلموا أن الله وحده هو الذي يبسط الرزق يوسعه لمن يشاء ويقدر أي: يضيقه على من يشاء..؟!

على أية حال:

إن في ذلك البسط والقبض للرزق لآيات وعبر لقوم يؤمنون فيدركونها، ويعتبرون بها.

وأما الكافرون: فهم عمى القلوب عن دلالاتها.

* * *

ولما شدد الله على الكفار، وذكر ما أعد لهم من العذاب: ذكر بعد ذلك ما في إحسانه سبحانه وتعالى من غفران الذنوب؛ إذا آمن العبد، ورجع إلى الله تعالى وأناب.
حيث يقول:

{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ }
[الآيات : ٥٣-٥٥]

يقول بعض الصالحين: هذه أرجى آية لرحمة الله في القرآن.
وهي كذلك: عامة في كل كافر يتوب، وفي كل مؤمن عاص يتوب.
ومعناها..
قل يا محمد للناس جميعا: ربكم يقول يا عباد الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر، أو بارتكاب المعاصي والغلو فيها.
هذه توصياتي لكم:
أولاً: لا تقنطوا لا تيأسوا من رحمة الله
حيث إن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب، بما فيها الكفر لمن آمن..
حيث إنه سبحانه هو الغفور الذي يستر عظائم الذنوب الرحيم الذي يكشف فظائع الكروب.
ثانياً: وأنيبوا توبوا، وارجعوا إلى ربكم وتخلصوا من كفركم، ومن معاصيكم؛ إيماناً به، وطاعة له.
ثالثاً: وأسلموا له أي: استسلموا له، وانقادوا لشرعه، وآمنوا بقدره.
ثم خوفهم ليستجيبوا؛ إذ قال: افعلوا ذلك من قبل أن يأتيكم العذاب وينزل بكم العقاب ثم لا تنصرون إن لم تتوبوا.
رابعاً: واتبعوا بعد توبتكم، وإسلام وجوهكم لله أحسن ما أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن.
وذلك من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون

* * *

يا أيها الناس.. بادروا بذلك: قبل

{ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }
[الآيات : ٥٦–٥٨]

يعني: بادروا بالإيمان أيها الكفار، وبادروا بالتوبة من المعاصي أيها المؤمنون..
وذلك: من قبل أن تقول نفس من النفوس العاصية.
يا حسرتي يا ندامتي على ما فرطت وأهملت في جنب الله أي: طاعته.
خاصة: وإن كنت أي وإني كنت لمن الساخرين بدينه، وشرعه.
أو تقول نفس كذلك: لو أن الله هداني بالإيمان، أو الطاعة.. لكنت في هذا الوقت من المتقين عذابه، الناجين من غضبه سبحانه.
أو تقول نفس كذلك: حين ترى العذاب يوم القيامة، وينزل بها.. لو أن لي كرة رجعة إلى الدنيا؛ لآمنت، وأطعت ربي فأكون من المحسنين المكرمين في هذا اليوم.
ولكن: هيهات هيهات..!!
إنه لا يفيد ندم وقتها، ولا تحسر، ولا أماني.
لذلك: فالتوبة الآن، والعمل الصالح الآن.
رزقني الله وإياكم: الهداية، والإخلاص، والتوبة النصوح.

* * *

إذ يقال لهذا الذي يعلن الندم، ويبدي الحسرة، ويصرخ بالأماني..

{ بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ }
[الآية : ٥٩]

أي: لا نجاة لك اليوم؛ إذ قد جاءتك آياتي وبينت لك الهداية من الغواية فكذبت بها واستكبرت عليها وكنت من الكافرين

* * *

وبعد هذا الرد على العصاة والكفرة، أصحاب الأماني الكاذبة..
يعرض علينا ربنا الحال يوم القيامة؛ لنتدارك أمرنا، ونسارع بالتوبة، ونكون من المتقين.
حيث يقول سبحانه:

{ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }
[الآيتان : ٦٠، ٦١]

ويوم القيامة يختلف حال الكافرين العصاة، عن المؤمنين المتقين..
حيث ترى الذين كذبوا على الله وكفروا به وجوههم مسودة بسبب ما ادعوه ونسبوه كذباً إليه سبحانه.
ولا غرابة في هذا..!!
أليس في جهنم مثوى وإقامة وعذاباً للمتكبرين هؤلاء..؟
بلى، وألف بلى.
و في ذات الوقت: ينجي الله الذين اتقوا ربهم بمفازتهم أي: بمكان فوزهم في الجنة؛ حيث لا يمسهم السوء وهو العذاب ولا هم يحزنون أبدا.

* * *

ولما أطال الله عز وجل الحديث حول وعد الله الطائعين بالخير، ووعيد العصاة بالعذاب: بين أنه سبحانه الخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء.
قائلاً:

{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }
[الآيتان : ٦٢، ٦٣]

أي: هو الله خالق كل شيء والمتصرف فيه وهو لهذا على كل شيء وكيل أي: حفيظ، ومراقب.

لذلك: له وحده مقاليد أي: مفاتيح السماوات والأرض
ومن هنا.. فهو سبحانه: مالك أمرهما، وأمر من فيهما، يثيب من يشاء، ويعذب من يشاء.
وعلى هذا.. فالأمر له وحده والذين كفروا بآيات الله التي أنزلها على رسوله أولئك هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

* * *

ومع ذلك: فقد دعوا النبي صلى الله عليه وسلم لتعظيم آلهتهم، وعبادتها..!!
وقد أمره ربه أن يرد عليهم.. قائلاً له:

{ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ }
[الآية : ٦٤]

قل لهم أفغير الله القوي القادر، الواحد الأحد تأمروني وتطلبون مني أن أعبد بعد هذا البيان الشافي الوافي أيها الجاهلون بتوحيد الله..؟
إن هذا.. لا يكون أبداً، أبدا.

* * *

ثم يقول ربنا للمصطفى صلى الله عليه وسلم.

{ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ }
[الآيتان ٦٥،٦٦]

و الله لقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك فيما أوحي إليك، وفيما أوحي إليهم لئن أشركت من باب الافتراض: لترتب على ذلك الافتراض.. ما يلي..
أولاً: ليحبطن عملك الصالح، الذي عملته قبل هذا الشرك المفترض.
ثانياً: ولتكونن من الخاسرين في الدنيا، وفي الآخرة.
لهذا.. لا تطعهم فيما أمروك به، وساوَموك عليه من عبادة غير الله..
بل الله وحده فاعبد وأطع وكن من الشاكرين لنعمه عليك.

* * *

وأما هؤلاء المشركين.. فإنهم لو عرفوا الله حق المعرفة: لما عبدوا غيره..
حقا..

{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية : ٦٧]

أي: وما عرفوا الله حق معرفته، وما عظموه حق تعظيمه، وإلا ما عبدوا غيره، وما دعوك- كذلك- إلى عبادة غيره.
و من عظمته سبحانه:
أن الأرض جميعاً في قبضته وملكه وتصرفه يوم القيامة و أن السماوات كذلك مطويات ومجموعات بيمينه أي: بقدرته.
سبحانه وتعالى عما يشركون

* * *

ثم يعرض الله- بعد ذلك- مشهداً من مشاهد يوم القيامة.
إذ يقول:

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ }

[الآيات : ٦٨–٧٠]

نعم..

في يوم القيامة: تحدث هذه الأشياء، التي يحكيها المولى بلفظ الماضي، نظراً لتحقق وقوعها.

وهي:

أولاً: ونفخ في الصور وهي نفخة الفزع.

ثانياً: فصعق مات من الفزع من في السماوات ومن في الأرض من الخلائق كلهم إلا من شاء الله من الملائكة، والحور العين، والزبانية، وغيرهم.

ثالثاً: ثم نفخ فيه أي: في الصور، نفخة أخرى وهي نفخة البعث.

رابعاً: فإذا هم أي: الخلائق التي ماتت قيام أحياء ينظرون أمر الله فيهم.

خامساً: وأشرقت أي أضاءت الأرض بنور ربها

سادساً: ووضع الكتاب أي: كتاب أعمال الخلائق، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

سابعاً: وجيء بالنبيين ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة، وإجابة أقوامهم لهم والشهداء وهم الأمة الوسط المذكورة في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسط لتكونوا شهداء على الناس [البقرة ١٤٣]

ثامناً: وقضي بينهم أي: بين العباد بالحق وهو: العدل وهم لا يظلمون شيئاً.

تاسعاً: ووفيت كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر وهو سبحانه أعلم بما يفعلون من غير تسجيل كتاب، ولا شهادة شاهد.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل، الشيء العاشر.. وهو:

كيف يفعل– في يوم القيامة هذا– بالكافرين..؟

فيقول:

{ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ }

[الآيتان : ٧١،٧٢]

يعني: وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا أي: أفواجاً أفواجا.
حتى إذا جاؤها ووصلوا إليها: فتحت أبوابها لاستقبالهم شر استقبال.
وقال لهم خزنتها الذين هم: غلاظ، شداد؛ تقريعاً لهم وتوبيخاً ألم يأتكم رسل منكم من جنسكم، تعرفونهم يتلون عليكم آيات ربكم أي: وحيه المنزل عليهم، لهدايتكم وينذرونكم ويخوفونكم لقاء يومكم هذا وما يحدث لكم فيه..؟
قالوا أي الكافرون لخزنة جهنم: بلى جاؤنا، وتلوا علينا آيات ربنا؛ فما اهتدينا، ولا انتفعنا بها.
ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ونحن منهم.
وهنا..
قيل لهم ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها لا خروج لكم منها، وهي داركم ومثواكم فبئس مثوى المتكبرين الكافرين مثواكم.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل كذلك، الشيء الحادي عشر، وهو:
كيف يفعل- في يوم القيامة أيضاً- بالمتقين..؟
فيقول:

[وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ }

[الآيتان : ٧٣، ٧٤]

يعني: وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا أي: أفواجاً أفواجا.
حتى إذا جاؤها ووصلوا إليها و فرحوا بها فتحت أبوابها لاستقبالهم أحسن استقبال.
وقال لهم خزنتها سلام عليكم من ربكم ومنا، طبتم من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا.
لذلك: فادخلوها خالدين فيها، لا خروج لكم منها، ولا موت لكم فيها.
وقالوا حينئذ الحمد لله صدقنا وعده لنا في الدنيا بحسن المصير في الآخرة وأرثنا الأرض أي: أرض الجنة هذه نتبوأ من الجنة حيث نشاء
فنعم أجر العاملين المتقين.. أجرنا.

* * *

هذا..
ولما بين المولى أن دار ثواب المتقين: هي الجنة..!!
بين بعده الشيء الثاني عشر..
وهو أن دار ثواب الملائكة: هي جوانب العرش وأطرافه.
فقال:

{ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية : ٧٥]

يعني: وترى يا محمد الملائكة القائمين بجميع ما عليهم من الحقوق حافين من حول جوانب العرش يسبحون بحمد ربهم
و هكذا: قضى بينهم أي بين جميع الخلائق بالحق فيدخل المؤمنون الجنة، ويدخل الكافرون النار.
وقيل الحمد لله رب العالمين

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة: مكية

وهي تعالج: قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوى والتكذيب، قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين الطغاة المتجبرين.

وتسمى كذلك: بسورة "المؤمن"، وسورة "الطول"

وهي تبدأ بقوله تعالى:

{ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ }

[الآيات ١-٣]

حم * تنزيل هذا الكتاب أي: القرآن من الله سبحانه وتعالى.

الموصوف بهذه الصفات:

الأولى: العزيز في ملكه، وفي حكمه.

الثانية: العليم بخلقه، من صدق منهم ومن كذب.

الثالثة: غافر الذنب للمؤمنين.

الرابعة: قابل التوب من جميع العائدين إلى ربهم.

الخامسة: شديد العقاب لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله وبغى.

السادسة: ذي الطول صاحب الإنعام الواسع.

السابعة: لا إله إلا هو يستحق أن يعبد؛ إذّ لا نظير له في ذاته، وأسمائه، وصفاته.

الثامنة: إليه المصير أي: المرجع، فيجازي كل واحد بعمله.

* * *

هذا هو الله سبحانه وتعالى.
ومع ذلك: يجادل في آياته ودلائل قدرته كثيرون.
ولكن...!!

{ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ }
[الآية ٤]

ما يجادل ويعارض في آيات الله المذكورة في القرآن، والمثبوتة في الأكوان، والدالة على توحيد الله، وقدرته؛ لإنكارها، وإخفاء الحق فيها: إلا الذين كفروا بالله ورسله واليوم الآخر.
وأما الجدال لإيضاح الحق فيها، وحل مشاكلها، ورد الزيغ عنها: فهو من أعظم الجهاد في سبيل الله.
وعلى هذا ...
فلا يغررك ويخدعك تقلب الذين كفروا في البلاد وتمتعهم بخيراتها، وتقلبهم ــ أحياناً ــ على أهل الحق، سياسياً وعسكرياً.
حيث إن عاقبة أمرهم: إلى العذاب في الدنيا والآخرة.
وما هم فيه: متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد [آل عمران ١٩٧]

* * *

تقول: كيف ذلك، ونحن نراهم يتقلبون في البلاد، ويظلمون العباد، دون أن يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر..؟
استمع معي ــ أخي المؤمن ــ إلى هذه الآيات؛ لتعرف الجواب.

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ }
[الآيتان ٥ ، ٦]

أي ليس الكفار الطغاة الذين تراهم يجادلون في آيات الله والذين يتقلبون في البلاد: هم أول من فعل ذلك.

إذ كذبت قبلهم قوم نوح نوحاً عليه السلام و كذب الأحزاب من بعدهم رسلهم.
و ثانياً همت كل أمة من هذه الأمم برسولهم ليأخذوه فيقتلوه.
و ثالثاً جادلوا بالباطل عناداً ليدحضوا يزيلوا ويبطلوا به أي: بالباطل الحق الذي جاءت به الرسل من عند الله.
أتدرون أيها الكرام... ماذا حدث لهم...؟
يقول العزيز الحكيم ....
فأخذتهم أي: فأهلكتُهم بسبب أفعالهم هذه.
فـ انظر وتأمل، وبلّغ قومك كيف كان عقاب الذي نزل بهؤلاء، وشدته وألمه حين نزل بهم؟
ثم يقول ربنا عز وجل مهدداً مكذبي هذه الأمة:
وكذلك أي: ومثل هذا العقاب، الذي نزل بمكذبي الأمم السابقة.
حققت كلمة ربك بالعذاب على الذين كفروا هؤلاء.
وثبت أنهم أصحاب النار

* * *

هذا ...
ولما بين ربنا أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة للمؤمنين: عقب عليه بما يبين أن هناك من أشرف الخلاق من يظهر المحبة للمؤمنين، وهم الملائكة.
فقال:

{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }
[الآيات ٧-٩]

يعني: إن كان هؤلاء الكفار يبالغون في عداوتك ... فلا تلتفت إليهم، ولا تهتم بهم؛ فإن حملة العرش معك ينصرونك.
وهم الملائكة الذين يحملون العرش والذين من حوله.
وهؤلاء: يقومون بثلاثة أشياء:
الأول: يسبحون بحمد ربهم

الثاني: ويؤمنون به سبحانه، ويصدقون بوحدانيته.

الثالث: ويستغفرون للذين آمنوا بربهم مثلهم.

قائلين ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً أي: وسعت رحمتك كل شيء، ووسع علمك كل شيء.

لذلك: نضرع إليك أن تحقق دعاءنا التالي:

أولاً: فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك أي: دينك وشريعتك.

ثانياً: وقهم عذاب الجحيم بأن تهديهم إلى الإيمان، وتلزمهم الاستقامة، وتتم عليهم نعمتك بالغفران لذنوبهم.

ثالثاً: ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم مجتمعين مع بعضهم البعض؛ لتكمل سعادتهم.

حيث إنك أنت العزيز القادر على كل شيء الحكيم في شرعه وقدره.

رابعاً: وقهم السيئات أي: جزاءها، بأن تهديهم إلى عمل الصالحات في الدنيا، وتعفو عنهم في الآخرة ومن تق السيئات يومئذ أي: يوم القيامة فقد رحمته برحمتك الواسعة.

وذلك أي وقايتهم من جزاء السيئات، ورحمتهم: هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.

* * *

هذا هو موقف الملائكة مع المؤمنين: يوم القيامة.

وأما موقفهم مع الذين يجادلون في آيات الله.

فيوضحه قوله المولى سبحانه:

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ}

[الآية ١٠]

يعني: إن الذين كفروا يدخلون النار يوم القيامة، ويمقتون ــ أي يبغضون ــ أنفسهم ويحتقرونها.

وفي هذه الحالة: ينادون من خزنة النار، الذين يقولون لهم لمقت الله لكم أكبر من مقتكم أنفسكم

وذلك: إذ كنتم تدعون في الدنيا إلى الإيمان فتكفرون وتعاندون، ولا تستجيبون.

* * *

وبذلك: عرفوا أن الذي كانوا عليه في الدنيا، وضع فاسد.

ولهذا: يتمنون الرجوع إلى الدنيا؛ لعمل الصالحات.

حيث ...

{ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ }
[الآية ١١]

أي قالوا مقرين بالبعث والحساب:
ربنا أمتنا اثنتين الأولى: موته العدم، والثانية موته انتهاء الأجل في الدنيا. وأحييتنا اثنتين الأولى: عند الولادة في الدنيا، والثانية: عند البعث في يوم القيامة.
وعرفنا بالتالي: قُدرتك.
فاعترفنا لك الآن بذنوبنا وتبنا عنها.
فهل إلى خروج لنا من النار، والعودة إلى الدنيا للإيمان وعمل الصالحات من سبيل أي: طريق، أو وسيلة؟

* * *

فيكون الجواب على توسلهم ....

{ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ }
[الآية ١٢]

ذلكم الذي أنتم فيه، ولا سبيل لكم إلى الخروج منه
بـــ سبب أنه:
كنتم في الدنيا إذا دعي الله للإيمان به، والعبادة لهوحده: كفرتم ..!!
و أما إن يشرك به غيره: تؤمنوا .. !!
فالحكم عليكم بالعذاب إذا: لله العلي الكبير

* * *

{ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }
[١٣، ١٤]

يعني: هو الله الذي ..
أولاً: يريكم آياته الدالة على توحيده.
و ثانياً: ينزل لكم من السماء رزقاً بالمطر.
وهذا: يدعوا إلى الإيمان به، ويذكر بتوحيده وقدرته.
و لكن ما يتذكر ويتعظ، ويؤمن إلا من ينيب إلى ربه، ويرجع عن الشرك معه، والكفر به.
لذلك:
فادعوه أعبدوه مخلصين له الدين حتى ولو كره عبادتكم له وإخلاصكم في عبادتكم الكافرون.

* * *

كما أنه سبحانه:

{ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ }
[الآية ١٥]

الصفة الثالثة: أنه سبحانه رفيع الدرجات لعباده في الدنيا والآخرة.
الرابعة: أنه عز وجل ذو العرش أي: صاحب العرش، وخالقه.
الخامسة: أنه تبارك وتعالى يلقي الروح أي: الوحي الذي تحيا به القلوب من أمره بأمره على من يشاء سبحانه من عباده المرسلين لينذر الله بهذا الوحي وما فيه يوم التلاق يوم القيامة.

* * *

ولما ذكر ربنا سبحانه وتعالى أن يوم التلاق أي تلاق أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم: صفة من صفات يوم القيامة: عدد من صفات هذا اليوم أيضاً، ما يلي.

{ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }
[الآيتان ١٦، ١٧]

نعم .. يوم التلاق صفة من صفات يوم القيامة.
وصفة أخرى له: أنه يوم البروز يوم هم بارزون حيث تبرز الخلائق من قبورها، وتنكشف سرائرهم وأبدانهم، وتبرز كذلك أعمالهم.
وصفة ثالثة: أنه لا يخفى على الله منهم شيء بعد أن كانوا يظنون وهم في الدنيا أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون.
وصفة رابعة: أنه لا ملك في هذا اليوم إلا لله.
حيث يقال: لمن الملك اليوم؟ أي يوم القيامة...
فيكون الجواب: لله الواحد القهار.
وصفة خامسة: أنه يوم الجزاء اليوم تجزى كل نفس جزاء ما كسبت من خير أو شر، عملته في الدنيا.
وصفة سادسة: أنه لا ظلم اليوم لأحد في نوال ما يستحق من عقاب أو ثواب.
ثم يبين ربنا عز وجل أن هذا الذي يستحقونه: يصل إليهم سريعاً؛ حيث يقول إن الله سريع الحساب

* * *

ويقول المولى للنبي صلى الله عليه وسلم: خوف قومك بيوم القيامة، عسى أن يتعظوا، فيؤمنوا ... !!
وذكر له طائفة أخرى من أوصاف هذا اليوم ..
فقال:

{ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }
[الآيات ١٨ — ٢٠]

و أنذرهم يعني: وخوفهم يا محمد بيوم القيامة..
الذي من أوصافه أيضاً:
الصفة السابعة: أنه يوم الآزفة أي: يوم المجازاة القريبة.
الصفة الثامنة: أنه فيها... تكون القلوب لدى الحناجر من الخوف كاظمين ساكنين.
الصفة التاسعة: أنه... ليس للظالمين من حميم محب ولا شفيع يشفع لهم، فـــ يطاع.
ثم...
ثم يعرفنا ربنا تبارك وتعالى على ذاته؛ بما يربى الهيبة في نفوسنا..
فيقول:
يعلم سبحانه خائنة الأعين وهو ما تسترقه العيون من النظر المحرم.
و يعلم كذلك ما تخفي الصدور أي: ما تكنه القلوب، ولا تفصح عنه.
و هو الله الذي يقضي بين الخلائق بالحق أي: بالعدل.
هذا هو الله الواحد ...
و أما الذين يدعون أي يعبدون آلهة من دونه: فآلهتهم هذه عاجزة لا يقضون لا يحكمون بشيء لأنهم لا يملكون شيئاً.
حقاً: إن الله هو السميع البصير
فهل يتعظ الكافرون .. ؟
وهل يؤمنون .. ؟

* * *

وبعد أن خوف الله الكفار بما يحدث في الآخرة: خوفهم بما يحدث في الدنيا للطغاة من أمثالهم..
فقال:

{ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

[الآيتان ٢١، ٢٢]

يعني: أ غفل هؤلاء المعاندون للإسلام ولم يسيروا في الأرض ويعرفوا أحوال أهلها فينظروا ويعتبروا كيف كان عاقبة ونهاية وجزاء الذين كانوا من قبلهم من الطغاة أمثالهم، الذين كانوا هم أشد منهم قوة في أجسادهم، وأعظم منهم آثاراً في الأرض بمصانعم وقصورهم..؟

والعاقل ــ كما يقولون ــ من اعتبر بغيره..!!

ولكن: ماذا حدث للطغاة من قبلهم حتى يعتبروا به..؟

يقول القوي العزيز فأخذهم الله وأهلكهم بذنوبهم ..!!

و مع قوتهم ما كان لهم من الله أي: من عذابه من واق لهم، يمنع عنهم هذا العذاب.

وذلك العذاب بــ سبب أنه كانت تأتيهم رسلهم من الله بالبينات والآيات المعجزات؛ ليؤمنوا بالله ويتبعوا رسله.

فكفروا بها، وعاندوا الرسل، وحاربوهم، كما فعلتم وتفعلون أيها الكفار.

فأخذهم الله بعذابه وأهلكهم.

حيث إنه سبحانه قوي شديد العقاب

فخافوه .. وآمنوا إن كنتم عقلاء.

* * *

ثم...

بعد هذا البيان الموجز المجمل لإهلاك الله للمكذبين: يقص سبحانه قصة من قصص السابقين...

الذين كانوا أشد قوة وآثاراً...

ويبين عز وجل... كيف كذبوا رسل الله، وكيف كان عقابهم شديداً؟

وهذه القصة...

هي قصة الطاغية فرعون.

يقول تعالى:

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ }
[الآيتان ٢٣، ٢٤]

ولقد أرسلنا رسولنا موسى بآياتنا أي: معجزاتنا التسع وسلطان مبين وهي دليل واضح على: وحدانيتنا وقدرتنا.

وذلك إلى فرعون ملك من ملوك مصر وهامان وزيره، وأكثر من كان يساعده من الوزراء في عداء موسى عليه السلام وقارون وكان من أغنى الناس وأكثرهم مالاً.

فماذا قالوا لموسى حينما دعاهم إلى الإيمان بالله .. ؟

يقول سبحانه فقالوا له: أنت ساحر كذاب عناداً إله، وخوفاً من أن يؤمن الناس به.

* * *

هذا...
ولم يسكتوا عند هذا الحد، بل انتقلوا من القول إلى الفعل.
يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ }
[الآية ٢٥]

يعني فلما جاءهم موسى بالحق من عندنا يدعوهم إلى الإيمان بالله: لم يقولوا له وعليه ساحر كذاب فقط..!!
بل قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه لإذلالهم، وإجبارهم على عدم الإيمان بموسى ومتابعته واستحيوا نساءهم لخدمتنا.
ومع وقوع هذا الأذى فعلاً بمن آمن بموسى: إلا أن الله عز وجل يقول وما كيد الكافرين فرعون وأمثاله إلا في ضلال أي في ضياع.
وذلك: لأن الله لا يحقق غرض الكافرين.
بل يثيب بحسن الجزاء هؤلاء المؤمنين المعذبين، وينصر رسله رغم أنف المعاندين.

* * *

ولم يكتف الطاغية بإصدار هذا القرار القاسي، وتنفيذه فقط.
بل زاد عليه:

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ }
[الآية ٢٦]

وقال فرعون.

للذين يرون أن ما نزل بموسى وقومه من العذاب: كاف في ردع موسى.
وللذين يرون أن أمر موسى: هين.
وللذين يريدون بقاء موسى: ليشغل فرعون عن فسادهم.
قال لهؤلاء وغيرهم ممن يعارضون فكرة قتل موسى: ذروني اتركوني أقتل موسى لنستريح من أمره نهائياً.
ثم قال مستهزءاً وليدع لنا ربه الذي يؤمن به، ويدعو لعبادته؛ ليخلصه منا.
والذي يدعوني لقتله: خوفي عليكم منه.
حيث إني أخاف أن يبدل دينكم الذي أنتم عليه..!!
أو أن يفسد دنياكم، ويظهر في الأرض الفساد..!!
ويلاحظ: أن هذا الكلام.. هو أسلوب الطغاة في مواجهة الدعاة إلى الله، في كل العصور.

* * *

ولما وصل موسى هذا التهديد، وعلم به: ماذا فعل .. ؟
يقول المولى:

{ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ }
[الآية ٢٧]

لم يفعل موسى شيئاً..
إلا أنه: لجأ لمولاه، واحتمى به، من ظلم فرعون وتهديده.
وقال موسى لقومه إني عذت بربي وربكم من كل متكبر ظالم قاسي القلب لا يؤمن بيوم الحساب فيخاف الله.
فاستعيذوا به في الأزمات، والجئوا إليه في الملمات؛ يصونكم عن كل البليات .. !!

* * *

أيها الأحبة في الله .. !!

رأينا .. كيف أن موسى عليه السلام: ما فعل شيئاً إلا أنه فوض الأمر لله، واعتمد في دفع الأذى من فرعون على الله وحده..!!
ومن فعل ذلك: قيَّض الله له من يدافع عنه..
خاصة إذا بذل كل ما في وسعه، وأخلص لله في أمره.
لذلك: قيَّض الله لموسى من دافع عنه أعظم دفاع، وحاول تسكين الفتنه بكل وسائل الإقناع.
يقول ربنا سبحانه وتعالى:

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ }
[الآية ٢٨]

يعني: وقال لفرعون والطغاة معه رجل مؤمن بالله، وباليوم الآخر، وبموسى ورسالته، وهو من آل فرعون ولكنه يكتم إيمانه عنهم.
قال لهم .. أتقتلون رجلاً كل تهمته أن يقول أي: أنه يقول ربي الله .. ؟
يعني: لا تقتلوه.
خاصة: و أنه قد جاءكم بالبينات الواضحات من ربكم والدلائل القاطعات على توحيد الله.
و أيضاً:
إن يك كاذباً فيما جاء به: فعليه ضرر كذبه وحده، لا عليكم
وإن يك صادقاً فيما دعاكم إليه، ورفضتموه: يصبكم بعض الذي ولم يقل كل الذي يعدكم به من العذاب؛ جدارة لهم.
حيث إن الله لا يهدي من هو مسرف في أمره كذاب في قوله.

* * *

وبعد أن أقام الدلائل على عدم صحة قتل موسى: خوف القوم من قتله...
حيث قال:

{ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ }

[الآية ٢٩]

أي: قال هذا الرجل المؤمن لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ملككم في ارض مصر واضح، شأنكم في الدنيا كلها عال، وسلطانكم نافذ.
فثبتوا هذا: بالإيمان بالله، وإتباع رسله، والإيمان باليوم الآخر، وحافظوا على هذه النعمة.
ثم أدخل نفسه معهم؛ إذ قال:
وإلا .. فمن ينصرنا من بأس الله عذابه إن جاءنا ونزل بنا، بسبب كفرنا، وقتلنا لموسى، وإيذائنا لعباد الله..!!؟
وهنا...
أدرك فرعون خطورة هذا الصوت، الذي يبدو منه أن صاحبه، يؤمن بموسى، ويؤيد دعوته.
لذا قال فرعون في حزم وشدة، للناس كلهم؛ رداً على صاحب هذا الصوت: ما أريكم وأشير عليكم، وأحب لكم أن تروه إلا ما أرى من قتل موسى، وجميع القرارات الصادرة في هذا الشأن.
و لذلك ما أهديكم بهذا الرأي إلا سبيل الرشاد أي: الصواب.

* * *

ولم يسكت هذا الرجل المؤمن الشجاع، بل رد على فرعون ..
يقول تعالى:

{ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ }
[الآيتان ٣٠، ٣١]

نعم ... خوفهم من الهلاك في الدنيا يا قوم إني أخاف عليكم أن يحدث لكم مثل يوم الأحزاب.
ثم فسر ذلك بقوله: مثل جزاء دأب أي عادة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم في تكذيب رسلهم، واستمرارهم على الكفر، حيث عذبهم الله وأهلكهم في الدنيا.
وما الله يريد ظلماً للعباد فيعاقب بغير ذنب، أو يترك الظالم بغير انتقام.

* * *

ثم خوفهم كذلك من العذاب في الآخرة؛ إذ قال لهم:

{ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }
[الآيتان ٣٢، ٣٣]

يعني: ويا قوم إني أخاف عليكم إن كفرتم بالله، وكذبتم رسله، وقتلتم موسى، عذاب يوم التناد وهو يوم القيامة، الذي يتنادى فيه أهل الجنة وأهل النار، كل منهم يقول للآخر: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً [الأعراف٤٤]
ثم بين تصرفهم في هذا اليوم... فقال:
يوم تولون مدبرين منصرفين عن موقف الحساب إلى النار وعذابها ما لكم من عذاب الله سبحانه من عاصم يمنعه عنكم، أو يخففه عليكم.
و ذلك مؤكد؛ حيث إنه من يضلل الله عن الهدى والحق فما له من هاد أي: مرشد سواه سبحانه.

* * *

ثم أكد ضلالهم عن الهداية، وذلك بتذكيرهم: بظلمهم وإيذائهم للأنبياء من قبل.
إذ قال لهم:

{ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ }
[الآية ٣٤]

أي: ولقد جاءكم يا أهل مصر يوسف نبي الله من قبل يدعوكم إلى الإيمان بالله بالبينات ومعه الدلائل الواضحة على صدقه.
فما زلتم أي: أجدادكم،وأنتم من بعدهم في شك مما جاءكم به وعدم تصديق له،وإيمان به، طيلة حياته عليه السلام.

حتى إذا هلك أي مات: قلتم من عند أنفسكم، وتلبية لشهواتكم ورغباتكم لن يبعث الله إلينا من بعده رسولاً من عنده.
وهكذا: ضللتم بإسرافكم في الكفر، وعدم تصديقكم للأنبياء.
وكذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب.

* * *

ثم بين هذا المؤمن.. السبب الذي جعلهم: يسرفون، ويشكون، ويضلون...
فقال:

{ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ }
[الآية ٣٥]

الذين يضلهم الله: هم الذين يجادلون في إبطال آيات الله معجزاته، ودلائل توحيده.
وذلك بغير سلطان ودليل سليم أتاهم من الله.
وهذا عمل: بغيض، ممقوت، محتقر.
بل كبر مقتا عند الله تعالى و كذلك عند الذين آمنوا
وأهله: مبغضون، ممقوتون، مكروهون، محتقرون.
وقد طبع الله على قلوبهم بالكفر.
وكذلك يطبع الله بالضلال على كل قلب متكبر جبار

* * *

ولأن فرعون صاحب قلب متكبر جبار ..!!
ولأن الله سبحانه طبع على قلبه بالضلال .. !!
فلم يتأثر بأقوال هذا المؤمن الناصح الأمين، بل زاد عتوا وعناداً وضلالاً..

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ }

[الآيتان ٣٦، ٣٧]

وقال فرعون رداً على كلام المؤمن، وخداعاً لعامة الناس: يا هامان وهو الذي كان يعاونه في الضلال، ويساعده عليه ابن لي صرحاً بناءً عالياً شاهقاً لعلي أصعد عليه، وأبلغ الأسباب أي: الطرق والمداخل.

ثم وضح فقال: أسباب السماوات.

ولكن: لماذا هذا البناء..؟

ولماذا الوصول إلى طرق السماوات ومداخلها..؟

يقول عليه لعنه الله:

فأطلع وأنظر إلى إله موسى الذي يدعيه، ويدعو إلى عبادته.

وإني لأظنه أي: موسى كاذباً فيما يقول..!!

وأن الحق الواقع: أنه ليس هناك من إليه غيري.

يقول تعالى:

وكذلك وبهذا المنطق زين لفرعون سوء عمله وقوله.

و كانت النتيجة: أنه صد ومنع عن السبيل أي: سبيل الهدى والحق والرشاد.

وأما بالنسبة لتهديده لموسى، وتمويهه على العامة، وخداعه لنفسه، وكيده المستمر.. فيقول تعالى عنه عظة لأمثاله:

وما كيد فرعون إلا في تباب في ضياع، وخسران، وليس له أيه قيمة أو وزن.

* * *

وهنا ..

أعلن هذا المؤمن عن هويته، وجاهر بعقيدته، وواجه فرعون في طغيانه....

يقول رب العزة:

{ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ }

[الآية ٣٨]

دعاهم إلى الإيمان على سبيل الإجمال يا قوم اتبعون وأعملوا بنصيحتي في الإيمان، لا تقليداً، ولكن بالدليل الواضح القوى على وحدانيته الله، وقدرته: أهدكم سبيل الرشاد إلى مرضاة الله، والنجاة من عذابه، وليس كما كذب فرعون وقال وما أهديكم إلا سبيل الرشاد

* * *

ثم قال مبيناً لهم حقارة الدنيا، وعظمة الآخرة، بقوله لهم:

{ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ }

[الآيتان ٣٩، ٤٠]

وهنا: يرغبهم في الإيمان بشيء من التفصيل.

يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا التي شغلتم بها، وصرفتكم عن الإيمان: ما هي إلا متاع زائل، سرعان ما ينتهي ويفنى.

وإن الآخرة هي دار القرار التي لا خروج منها، ولا زوال عنها.

فهي إما إقامة في النعيم خالدة، أو إقامة في الجحيم أبدية.

ثم أرشد إلى ما يؤدي إلى النعيم الدائم ... فقال:

من عمل سيئة فلا يجزى إلا سيئة مثلها عدلاً من الله تعالى.

ومن عمل صالحاً ولو واحداً من ذكر أو أنثى من الناس وهو مؤمن وهذا هو الشرط فأولئك يدخلون الجنة فضلاً من الله تعالى يرزقون فيها من صنوف النعيم بغير حساب

وبعد أن رغبهم في هذا الإيمان: يبدو أنهم قاوموه، وطالبوه بالعودة إلى ما هم فيه من الكفر. ولذلك: قال لهم:

{ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ }

[الآيات ٤١ – ٤٣]

يناقشهم هنا تفصيلاً، ويعرض دينه عليهم بكل وضوح، ويقارن لهم بين دعوته ودعوتهم.
حيث يقول:
ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة عن طريق عبادة الله وحده، والإيمان برسله، واليوم الآخر وتدعونني أنتم إلى النار؟
حيث تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم
وذلك: يؤدي إلى عذاب الله ودخول النار.
وأنا في ذات الوقت أدعوكم إلى العزيز القوي العظيم الغفار لذنوب عباده، الذين يتوبون إليه..!!
لا جرم أي حقا لا كذب فيه أنما تدعونني إليه أن أعبده معكم: ليس له إجابة دعوة أحد في الدنيا إن دعاه ولا في الآخرة أيضاً.
وأعلموا ... أن مردنا وعودتنا جميعاً إلى الله فيجازى كل واحد بعمله ... فتوبوا إليه، وآمنوا به.
وأعلموا أيضاً ... أن المسرفين الكافرين هم أصحاب النار خالدين فيها..
فلا تسرفوا، وتوبوا إلى الله، وآمنوا به.

* * *

ويبدو ــ أيها الكرام ــ أنهم أنكروا عليه ما يقول، ولم يسكتوا عن مقاومتهم له، ودعوتهم إياه إلى الكفر بالله.
لذلك حذرهم قائلاً:

{ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }
[الآية ٤٤]

أي: فستذكرون ما أقول لكم وأدعوكم الآن إليه، وأحذركم من مخالفته، عند نزول العذاب بكم، وتندمون حين لا ينفع الندم.
وقد بلغت، وأنذرت، وأعذرت... قدر طاقتي
و الآن أفوض أمري بعد ذلك البلاغ إليكم، والنصح لكم إلى الله الذي أتوكل عليه، واستعين به.
و ــ في ذات الوقت ــ أقاطعكم، وابتعد عنكم.
إن الله بصير بالعباد يهدي من يستحق الهداية، ويضل من وجبت عليه الضلالة، وليس عليَّ من أمركم بعد ذلك شيء.

* * *

ولما قال لهم ذلك: هموا بقتله، فهرب منهم.

{ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }
[الآيتان ٤٥، ٤٦]

أي: فوقاه الله ونجاه من سيئات ما مكروا في تهديدهم له وحاق نزل بآل فرعون سوء العذاب
وكان سوء العذاب هذا.. عبارة عن: ثلاثة أشياء.
الأول: الإغراق في الماء حتى الموت.
الثاني: النار يعرضون عليها بعد الموت، وهم في القبر غدوا وعشيا طيلة أيام الدنيا، حتى يوم القيامة.
الثالث: ويم تقوم الساعة يقال أدخلوا آل فرعون أشد العذاب

* * *

ثم يدخل فرعون وحاشيته وأتباعه إلى جهنم: فيتخاصمون وهم فيها.
ويقص الله علينا طرفاً من خصوماتهم هذه...
فيقول:

{ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ }
[الآيتان ٤٧، ٤٨]

و أذكر أيها الإنسان واعتبر إذ حين يتحاجون ويتخاصمون وهم في النار مع بعضهم البعض.
فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا وتزعموا عليهم: إنا كنا لكم في الدنيا، وفي الدين تبعاً أي تابعين لكم ومطيعين فيما دعوتمونا إليه ... !!

فهل أنتم اليوم مغنون دافعون عنا نصيبا أي: جزءاً من عذاب النار .. ؟
قال الذين استكبروا جواباً لهم، وردًا لسؤالهم: إنا كما ترون كل نحن وأنتم فيها لا فرق بيننا وبينكم، لا نحمل عنكم، ولا تحملون عنا من عذابها شيئاً.
حيث إن الله قد حكم وقضى وفصل بين العباد فأدخل المؤمنين الجنة، وأدخلنا نحن الكافرين النار، وأعطانا ما نستحق من عذابها.

* * *

عند هذا ــ أيها الأحبة في الله، أعاذنا الله وإياكم وجميع المسلمين ــ يحصل اليأس للكافرين من النجاة من هذا العذاب ..!!
فيتجهون إلى الملائكة .. خزنه النار ..
يقول سبحانه:

{ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ }
[الآية ٤٩]

أي: وقال الكافرون الذين في النار كلهم لخزنة جهنم الموكلين بعذاب من فيها ادعوا ربكم المحسن إليكم بعدم إيلامكم بهذه النار يخفف عنا يوماً أي: قدر يوم من أيام الدنيا من هذا العذاب الذي نعانيه.
وهنا .. تجيبهم خزنه النار، وترد عليهم ...

{ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ }
[الآية ٥٠]

قالوا لهم ... أي: الملائكة أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات الدالة على وحدانية الله، وضرورة عبادته ... فلم تؤمنوا ..!!؟
قالوا أي الكفار لخزنة النار: بلى أي جاؤنا، ودعونا إلى الإيمان، ولم نؤمن، حيث كذبناهم.
قالوا أي الملائكة لهم: إذن فادعوا أنتم ربكم أن يخفف عنكم، فإنا لا نشفع لكم، ولا نسأل ربنا التخفيف بكم.

و على كل حال: ما دعاء الكافرين إلا في ضلال وضياع؛ حيث لا يُسمع منهم، ولا يستجاب لهم.

* * *

ويبين الله عز وجل أن هذا العذاب للكافرين، في الدنيا، وفي القبر، وفي يوم القيامة: إنما هو نصرة للمؤمنين.
حيث يقول سبحانه:

{ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }
[الآيتان ٥١، ٥٢]

يعني: إنا بعزتنا، وقدرتنا لننصر رسلنا والذين آمنوا بإعلاء كلمتهم، ورفعة شأنهم، وإهلاك عدوهم في الحياة الدنيا كما نصرنا موسى ومؤمن آل فرعون، وأغرقنا فرعون.
و كذلك يوم يقوم الأشهاد في يوم القيامة، وهم الأنبياء والحفظة؛ فيشهد الأنبياء على الكفار بالتكذيب، ويشهد الحفظة على بني آدم بما عملوا، ويجازَى المؤمنون خيرا بما قدموا.

* * *

ولما يبين ربنا سبحانه وتعالى ... أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة:
ذكر نوعاً من أنواع النصرة الإلهية لهم في الدنيا...
فقال:

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ }
[الآيتان ٥٣، ٥٤]

ولقد آتينا موسى عليه السلام الهدى وهو ما جاء به، من الدين، والتوراة، والشرائع.

و كذلك أورثنا بني إسرائيل المؤمنين به الكتاب وهو التوراة، الذي جعلناه هدى وذكرى لأولي الألباب الذين اتبعوه، وآمنوا به، وجعلناهم ورّاثا لدين الله ودعوته.
وفي هذا: نصر لهم واضح.

* * *

وبعد أن بين المولى عز وجل .. أنه سبحانه ينصر رسله والمؤمنين، في الدنيا والآخرة .. !!
وبعد أن ضرب المثال على ذلك بموسى عليه السلام .. !!
خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم..
قائلاً:

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ }
[الآية ٥٥]

أمره ربه سبحانه بثلاثة أمور...
الأول: فاصبر على أذى قومك، كما صبر موسى على الأذى إن وعد الله بنصر أوليائه، ــ وأنت منهم ــ على الأعداء حق لا يتخلف.
الثاني: واستغفر لذنبك رفعاً لدرجاتك، وليصير فعلك هذا سنة للمؤمنين.
الثالث: وسبح بحمد ربك نزهه سبحانه عمالا يليق به، واحمده على نعمه بالعشي والإبكار أي: في كل وقت وحين.

* * *

أيها الأحبة في الله ... !!
أتذكرون أعزكم الله .. أن المولى عز وجل، بين قبل ذلك أن الكافرين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم .. !!
وأنه كبر جدالهم هذا مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا .. !!
وهنا .. يبين سبحانه السبب الذي يدفعهم إلى هذا الجدال ..
فيقول:

{ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }
[الآية ٥٦]

يعني: ما يدفعهم إلى ذلك.. سوى الكبر الذي في صدورهم، والحسد الذي ينهش قلوبهم، والرغبة في العلو عليك.
وكل هذا التمني الفاسد: ما هم ببالغيه ولا واصلين إليه.
لذلك فاستعذ بالله من كيدهم، وكيد كل من يجادل، والتجئ إليه سبحانه، وتوكل عليه وحده.
إنه هو السميع لما تقول ويقولون البصير بما تفعل ويفعلون.
لذلك .. فهو ناصرك عليهم، وعاصمك من شرورهم.

* * *

ويضرب الله مثالاً على جدالهم في آيات الله بغير سلطان .. !!
فيقول:

{ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية ٥٧]

وتوضيح ذلك..
أنهم ينكرون بعث الله للعباد بعد موتهم.
مع أنهم يعترفون .. أن الله عز وجل، هو خالق السموات والأرض .. !!
كما يعترفون .. أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .. !!
لذلك .. كان بالضرورة: خالق الأكبر قادر على خلق الأصغر.
وبالتالي: فهو سبحانه قادر على إعادة وبعث من خلقه أولاً، بعد موته، وهو الإنسان.
ومع وضوح ذلك: فأكثر الناس لا يعلمون؛ فينكرون، فيكفرون.

* * *

ولما بين تعالى: كيف يكون الجدال في آيات الله المقرون بالكبر والحسد؟
وكذلك: كيف يكون الجدال بالحجة والبرهان .. ؟
نبه تعالى على الفرق بين الجدالين..
بذكر هذا المثال:

{ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ المُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ }
[الآية ٥٨]

أي: لا يستوي هذا وذاك.
كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، مع البصير الذي يرى ما ينتهي إليه بصره.
وكما لا يستوي ــ كذلك ــ المؤمنون الأبرار مع الكفرة الفجار.
حقاً .. قليلاً ما تتذكرون أيها الناس، وتتعظون..!!

* * *

ولما تقدر بالدليل.. إمكانية وجود يوم القيامة: عقب عليه ربنا سبحانه بأن أخبر عن وقوعها ، ودخولها في حيِّز الوجود...
فقال:

{ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }
[الآية ٥٩]

يعني: إن الساعة وهي يوم القيامة والبعث لآتيه وواقعة لا ريب لا شك فيها ولا في وقوعها.
ولكن أكثر الناس وهم الذين ينكرون البعث لا يؤمنون بها.

* * *

وهكذا..
فإن لقيامة: حق وصدق.
ولا ينتفع الإنسان فيها إلا بالطاعة .. !!
ولما كان أشرف الطاعات، التي ينبغي أن يشتغل بها الإنسان، هي: الدعاء.
فقد أرشد المولى عباده

{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }
[الآية ٦٠]

أي: وقال ربكم فضلاً منه ورحمة أدعوني واسألوني ما شئتم استجب لكم وأحققه كما تطلبون بقدرتي.
ودعاؤكم لي عبادة، ودعاؤكم لي توحيد..
لذلك: إن الذين يستكبرون عن عبادتي ودعائي، وتوحيدي: كافرون وسيدخلون جهنم يعذبون فيها داخرين أي صاغرين، محتقرين.

* * *

هذا ..
ولما أمر الله عباده بالاشتغال بالدعاء، ووعدهم بالإجابة: بين بالدليل وجوده، وقدرته، وتفرده سبحانه.
وذلك بدلائل عشر:
فقال:

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }
[الآيات ٦١-٦٣]

في هذه الآيات: دليلان من دلائل الآفاق.
وهما: خلق الليل والنهار.

والمعنى: هو الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وتستريحون من عناء أعمالكم و جعل النهار مبصرا مضيئاً؛ لتتمكنوا فيه من أداء أعمالكم وأغراضكم.
إن الله بهذا: لذوا فضل على الناس كلهم.
ولكن أكثر الناس وهم الكفار لا يشكرون الله على هذه النعمة، ولا يعترفون بهذا الدليل.
على أية حال: ذلكم الخالق.. هو الله ربكم خالق كل شيء في الوجود لا إله إلا هو الذي يستطيع أن يقوم بذلك.
فأنى تؤفكون ومن أي جهة تصرفون عن الإيمان به، وعبادته .. أيها الكافرون..؟
كذلك كما ضل هؤلاء عن الحق، وصرفوا عن عبادة الله: يؤفك الذين كانوا من قبلهم أيضاً بآيات الله الدالة على وجوده، ووحدانيته، وقدرته يجحدون بها، وينكرون لها.

* * *

أيضاً..
هو:

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيتان ٦٤، ٦٥]

وفي هذه الآيات كذلك: خمسة أدلة، على وجود الله وقدرته.
دليلان منها: من دلائل الآفاق، وهما الأرض والسماء.
وثلاثة منها: من دلائل الأنفس، وهي تصوير الخلق، وتحسين صورتهم، والجود عليهم بالطيبات من الرزق.
والمعنى: هو الله الذي جعل لكم الأرض قراراً تستقرون عليها، وتتصرفون فيها، وتتمتعون بها، دون أن تميد بكم، أو تضطرب وتهتز، في سكونها، أو في حركتها المنتظمة.
و رابعاً جعل السماء بناءً محكماً، كأنها القبة، من غير عمد ولا حوامل، وزينها بالكواكب.
و خامساً صوركم على هذا النحو البديع المتفرد.
و سادساً فأحسن صوركم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.
وذلك: من أجل نعم الله على عباده، ومن أقوى الأدلة على وجوده سبحانه.
و سابعاً رزقكم من الطيبات في المآكل والمشارب.
وبذلك .. فهو خالق: الدار، والسكان، والأرزاق.
ذلكم هو الله الواحد الأحد، القوي القادر، خالق كل شيء فتبارك الله رب العالمين
هو سبحانه الحي وليس كما تعبدون من الأموات، كالأصنام.

لا إله إلا هو المتفرد بالألوهية.
لذلك.. فادعوه اعبدوه مخلصين له الدين أي الطاعة، مع التوحيد الخالص، قائلين الحمد لله رب العالمين لتجمعوا بين العبادة والشكر.

* * *

ولما عرض الله هذه الأدلة السبعة على وجوده وقدرته: أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرد على الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، وينكرون البعث..
يقول عز وجل:

{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآية ٦٦]

أي: قل لهم إني نهيت من ربي أن أعبد الذين تدعون تعبدون من دون الله كالأصنام، وغيرها.
وذلك لما جاءني البينات وهي دلائل التوحيد والقدرة من ربي والتي تعرفونها، ولكن تكفرون.
و أيضاً أمرت أن أسلم أمري، وأنقاد طوعاً لله رب العالمين
فانتهوا عما تعبدون من دون الله، وأسلموا أمركم له سبحانه، وآمنوا به...
إن كنتم تعقلون..!!

* * *

ثم يكمل ربنا تبارك وتعالى الأدلة على وجوده وقدرته..
فيقول:

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }
[الآيتان ٦٧، ٦٨]

وفي هذه الآيات ... ثلاثة أدلة ــ وهي باقي العشرة ــ من أدلة الأنفس..

وهي:

الخلق من تراب.

وتطورات الجنين، وكذلك الإخراج من البطون.

ثم الإحياء والإماتة.

والمعنى: هو الله الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه

وهذا هو الدليل الثامن .. الذي يدل على وجود الله، والذي لا يستطيعه سواه، سبحانه وتعالى..

ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً لا تعرفون شيئاً ثم لتبلغوا أشدكم وهو سن الأربعين ثم لتكنوا شيوخاً بعد بلوغ الرشد.

وهذا هو الدليل التاسع.. الذي يدل على وجود الله، والذي لا يستطيعه سواه، سبحانه وتعالى.

ومنكم من يتوفى يموت من قبل أي من قبل بلوغ الرشد، أو بلوغ الشيخوخة، ومنكم من يتوفى عند الأشد، ومنكم من يتوفى عند الشيخوخة.

و ذلك: لتبلغوا حتى تصلوا أجلاً مسمى وهو يوم القيامة.

ولعلكم تعقلون ما في هذا الدليل من الوضوح؛ فتعتبروا به، وتؤمنوا..!!

وهذا هو الدليل العاشر.. الذي يدل على وجود الله، الذي لا يستطيعه أحد سواه، سبحانه وتعالى.

حقاً: هو الله الذي يحي ويميت المتفرد بذلك فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون

ومن كان هذا شأنه: يجب الخضوع له، والتسليم له، والإيمان به، وإفراده بالعبادة..!!

* * *

أيها الأحبة في الله..!!

لقد سبق الحديث عن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم...

في المرة الأولى.. يبين ربنا: أن الله والمؤمنين يمقتونهم.

وفي المرة الثانية.. يبين سبحانه: أن الذي يدفعهم لذلك هو الكبر والحقد.

وفي المرة الثالثة.. وهي التي سنستمع إليها الآن: يبين المولى أنهم يكذبون كل الرسل، وكل الرسالات..

فيقول:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }
[الآيتان ٦٩، ٧٠]

يعني: ألم تر وتتعجب إلى الذين يجادلون في آيات الله الدالة على توحيده أني كيف يصرفون عن الإيمان .. ؟
لا تتعجب من حالهم .. إنهم هم الذين كذبوا بالكتاب وهو القرآن وبما أرسلنا به رسلنا من الهدى والرشاد.
هؤلاء .. لن نتركهم من عقابنا لهم على كفرهم.
فسوف يعلمون ما يحل بهم من عذاب؛ عقوبة لهم على تكذيبهم..!!

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل: هذا العذاب الذي ينزل بهم.
فيقول:

﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾
[الآيات ٧١-٧٦]

نعم .. سوف يعلمون نتيجة تكذيبهم إذ وقت أن تكون الأغلال وهي: القيود
في أعناقهم وكذلك السلاسل يسحبون بها في الحميم وهي جنهم.
ثم في النار يسجرون أي: يوقدون، ويصيرون حطباً لها.
ثم قيل لهم من خزنه جهنم، على جهة الاستهزاء بهم، والتبكيت لهم أين ما كنتم تشركون مع الله، وما كنتم تعبدونه من دون الله..؟
قالوا في الجواب على هذا السؤال:
ضلوا عنا غابوا عن عيوننا فلا نراهم، وذهبوا فلا نفع منهم.
ثم ينتبهون..!!
فيكذبون على عادتهم في الدنيا، فيقولون: لا بل لم نكن ندعوا ونعبد من قبل شيئاً..!!
وهكذا: ضلوا في الدنيا والآخرة.
كذلك يضل الله الكافرين عن طريق الهداية؛ لاختيارهم الضلال.. !!
ثم يقال لهم .. ايضاً:
ذلكم العذاب بما كنتم تفرحون في الأرض مع كفركم بزينتها، والانشغال بها، بغير الحق الذي بينه الله تعالى، وحدد معالمه وبما كنتم تمرحون فيها أيضاً بظلم أهلها، والإفساد فيها.
ويقال لهم .. ثالثاً:

ادخلوا أبواب جهنم للعذاب خالدين فيها فلا خروج منها، ولا موت لكم فيها.
أقيموا فيها .. فهي محل إقامتكم ومثواكم فبئس مثوى المتكبرين مثواكم..!!

* * *

وبعد هذا البيان الإلهي لكل ما يتعلق بالذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم وهم الذين آذوا النبي صلى الله عليه وسلم وعاندوه .. !!!
يقول له ربه عز وجل:

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ }
[الآية ٧٧]

يعني: فاصبر في دعوتك لهم، وعلى إذائهم لك إن وعد الله بعذاب الكافرين المعاندين حق وسوف ينزل بهم لا محالة.
فإما نرينك في حياتك بعض الذي نعدهم به من هذا العذاب..!!
أو نتوفينك قبل أن نعذبهم في الدنيا: فإلينا في هذه الحال يرجعون ويعذبون.

* * *

لهذا .. فاصبر، وتأس بمن قبلك من الأنبياء.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُـــلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ }
[الآية ٧٨]

أي: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أقوامهم، فدعوهم إلى الإيمان، فكذبوهم، وآذوهم؛ فصبروا.
منهم أي: من هؤلاء الرسل من قصصنا عليك أي: ذكرنا لك أخبارهم وقصصهم في القرآن، وهم خمسة وعشرون رسولاً.
ومنهم من لم نقصص عليك فيه من أخبارهم شيء: هم كثير.
وما كان لرسول منهم أن يأتي بآية معجزة يراها قومه إلا بإذن الله وأنت كذلك في هذا الأمر.
فإذا جاء أمر الله بعذاب هؤلاء الكفار قضى بالحق بين الرسل ومكذبيهم، ووقع العذاب بهؤلاء المكذبين.
وخسر هنالك المبطلون الكافرون، المعاندون الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم

* * *

ثم يُذَكِّر ربنا تبارك وتعالى هؤلاء المكذبين ببعض نعمه عليهم .. فيقول:

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ }
[الآيات ٧٩-٨١]

يعني: هو الله صاحب النعم الكثيرة..
هو الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها البعض و البعض الآخر منها تأكلون
ولكم كذلك فيها منافع أخرى.
ولتبلغوا وتحققوا عليها حاجة أيةً حاجة في صدوركم تتمنونها أو تَسْتَجِدّ لكم.
وعليها وعلى الفلك أي: السفن في البحر تحملون من مكان إلى مكان.
و فوق هذا كله يريكم سبحانه آياته الكثيرة، في الآفاق والأنفس، الدالة على وحدانيته، وقدرته.
خبروني بربكم .. فأي آيات الله من هذه تنكرون ولا تستدلون بها على هذا الإله الواحد القادر الحكيم..؟
فآمنوا خيراً لكم.

* * *

ثم يذكرهم بمن كان قبلهم، وفعل مثل فعلهم..
إذ يقول:

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ }

[الايات ٨٢–٨٥]

يعن: أفلم يسيروا في الأرض خلال أسفارهم فينظروا ويعرفوا كيف كان عاقبة نهاية الذين كفروا من قبلهم والذين كانوا أكثر منهم عدداً وأشد منهم قوة وأبقى آثاراً وبنايات في الأرض..؟

فــ لما كذب هؤلاء وكفروا ما أغنى عنهم عندما نزل بهم العذاب ما كانوا يكسبون ويملكون من القوة والغنى والآثار..!!

ذلك أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات المعجزات الظاهرات، والآيات الدالة على وحدانية الله: اغتروا، وفرحوا بما عندهم من العلم بأمور الدنيا، وتكبروا على الإيمان بالله، واستهزؤا بالعذاب الذي يوعدون به.

وهنا..

نزل بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون

والعجيب .. !!

أنهم لما رأوا بأسنا عذابنا، وهو ينزل بهم: قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين في الدنيا.

ولكن.. فات الآوان.

فلم يك ينفعهم إيمانهم في هذا الوقت لما رأوا بأسنا ينزل بهم..!!

إنما كان ينفعهم إيمانهم هذا لو كان في الدنيا؛ حيث هم الآن في دار الجزاء.

انظر سنة الله هذه، وهي التي قد خلت سبقت في عباده وهي أنه لا إيمان بعد نزول العذاب، ولا توبة بعد غرغرة الموت.

و بذلك خسر هنالك في هذه اللحظة، كما هم خاسرون دائماً الكافرون.

فهلا آمنتم أيها المعاندون المكذبون الآن.. حتى لا يكون موقفكم كموقفهم، ومصيركم كمصيرهم..؟

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي

رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية
تبدأ بقوله تعالى:

{ حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ }
[الآيات ١-٥]

حم هذا تنزيل من الرحمن الرحيم فآمنوا به، والتزموا بتشريعاته.
وهو كتاب كريم فصلت آياته ووضحت غاية التوضيح: لهؤلاء الذين نزل عليهم، والذين يأتون من بعدهم، لا لبس فيه ولا غموض.
وكان قرآناً عربياً بلسان عربي فصيح، نزل بأفضل اللغات، وأقواها أداءً وأعظمها بياناً، وأكثرها تلاؤماً مع لسان البشر.
وذلك لقوم يعقلون ما فيه، فيؤمنون به، ويعملون بأحكامه، وينتفعون بكنوزه.
وكان كذلك بشيراً للمؤمنين بالخير والنعيم نذيراً للمعارضين المعاندين بالعذاب الأليم.
هذا عن القرآن...
فماذا عن موقف الناس منه .. ؟
يقول تعالى:
فآمن به قليل منهم، وأعرض أكثرهم عنه، ولم يؤمنوا به.
ثم يبين ربنا: موقف هذه الكثرة التي تؤمن.
وذلك في النقاط التالية:
أولاً: فهم لا يسمعون له بالمرة.
وإن سمعوا: فهو سماع بلا قبول..!!
ثانياً: وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم، حينما قرأه عليهم قلوبنا في أكفة أغطية مما تدعونا إليه من الإيمان بالله، وتوحيده، وعبادته.
ثالثاً: وقالوا له كذلك وفي آذاننا وقر أي: صمم، فلا نسمع ما جئتنا به، ودعوتنا له.

رابعاً: قالوا له صلى الله عليه وسلم ومن بيننا وبينك حجاب فلا يصل إلينا شيء مما تقول، ولا نستجيب لشيء مما تدعونا إليه.
خامساً: فاعمل على طريقتك ولدعوتك كما تحب إننا أيضاً عاملون على طريقتنا، ولما نحن فيه، ولن نتبعك.
وهكذا: أغلقوا كل منافذ الإجابة عندهم؛ عناداً منهم، واستكباراً.

* * *

لذلك.. يقول ربنا تبارك وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم:

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }
[الآيات ٦–٨]

أي: قل لهم...
أولاً: إنما أنا بشر مثلكم ولست من جنس مخالف لجنسكم؛ حتى تقفوا مني هذا الموقف.
كذلك يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهو وحي، وليس من عندي؛ حتى تقفوا من دعوتي لكم إلى الإيمان هذا الموقف.
لذلك:
فاستقيموا إليه أي: إلى هذا الإله الواحد، بالإيمان والطاعة.
واستغفروه مما أنتم فيه من الكفر، وسوء العمل: يغفر لكم.
ثانياً: بين لهم جزاء من لا يستجيب ومن يستجيب.
و قل لهم ويل للمشركين بالله الذين لا يؤمنون به، ولا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة كذلك هم كافرون
وقل أيضاً إن الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون لا منقوص ولا مقطوع. وأيضاً..

{ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }
[الآيات ٩–١٢]

قل لهم:
أئنكم لتكفرون بمن هذه قدرته، وهذه حكمته .. ؟
وهو الذي خلق الأرض سبحانه في يومين فقط؛ تعليما للتأنّي.
ولو أراد أن يخلقها في لحظة: لفعل.
وتجعلون له أنداداً وشركاء، تعبدونهم من دون الله.
ذلك رب العالمين الذي لا يستحق الربوبية والعبادة سواه
هو سبحانه: الذي خلق الأرض في يومين، وأخبر أنه أتي فيها بثلاثة أنواع من الفعل البديع، والصنع العجيب.
الأول: وجعل فيها جبالاً رواسي من فوقها.
الثاني: وبارك فيها حيث خلق فيها كل ما يحتاج إليه الإنسان.
الثالث: وقدر فيها أقواتها من الأرزاق، والمياه والمعادن، الخ..
وبذلك: صار خلق الأرض، وهذه الأنواع في تمام أربعة أيام من أيام الله، التي لا يدري سواه عز وجل مقدارها.
سواءً لا تزيد ولا تنقص للسائلين الذين يريدون المعرفة.
ثم استوى ربنا سبحانه إلى السماء وهي دخان
فقال لها وللأرض معاً ائتينا استجيبا لأمري طوعاً أو كرهاً إظهاراً لكمال القدرة.
قالتا أي: السماء والأرض، لله تعالى أتينا طائعين
ففضاهن أي: صيرهن، وجعلهن سبع سماوات في يومين.
وبذلك: صارت أيام خلق الكون ستة أيام.
وأخبر تعالى: أنه أتى فيها بأمرين من الفعل البديع والصنع العجيب.
الأول: وأوحى في كل سماء أمرها أي: خلق فيها خلقاً من الملائكة، وأمرهم بطاعته وعبادته سبحانه.
الثاني: وزينا السماء الدنيا بمصابيح وهي الكواكب المنيرة لأهل الأرض و حفظناها حفظاً من الشياطين بالشهب.
ذلك كله: من الخلق العظيم، والتدبير الحكيم..!!
هو تقدير وفعل العزيز كامل القدرة، الذي لا يغلبه أحد العليم كامل العلم، المحيط بكل شيء.
وليس هذا بغريب.. فإن تلك الأعمال، لا تكون إلا: بقدرة كاملة، وعلم محيط.

* * *

هذه آياتنا: نعرضها عليهم..!!
وهذه دلائل قدرتنا: نوضحها لهم..!!

{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ }

[الآيتان ١٣، ١٤]

أي: فإن أعرضوا عن الاستجابة لك، ولم يؤمنوا .. !!

فقل لهم: لقد أنذرتكم خوفتكم من نتيجة كفركم وتكذيبكم لي وعنادكم.. أن تنزل بكم صاعقة تهلككم مثل صاعقة عاد وثمود التي أهلكتهم، ومن على شاكلتهم.

وذلك إذ أي: حينما جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم من كل جانب، واستعملوا معهم كل حيلة؛ ليحملوهم على الإيمان، وقالوا لهم ألا تعبدوا إلا الله وحده.

فما كان من هؤلاء المعاندين .. إلا أن قالوا لرسلهم: لو شاء ربنا إرسال رسل إلينا لأنزل ملائكة من عنده يدعوننا إلى ما يريد منا، وليس أنتم.

لذلك: فإنا بما أرسلتم به حسب دعواكم كافرين بكم، وبما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده.

* * *

أتدرون ما حدث لهؤلاء المكذبين، من أمثالكم .. ؟

اسمعوا أولاً .. ما يقوله القادر العزيز، بالنسبة لعاد، قوم هود عليه السلام.

{ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ }

[الآيتان ١٥، ١٦]

أي: فأما عاد وموقفهم من رسولهم؛ فـــ هو:

أولاً: أنهم استكبروا في الأرض وبغوا، وعاثوا فيها فساداً، وأكثروا فيها ظلماً للعباد، وتكبروا على الخضوع لله رب العالمين.

ثانياً: وقالوا لما خوفهم هود عليه السلام من غضب الله وعذابه لكفرهم من أشد منا قوة حتى يعذبنا..؟

يا سبحان الله...!!

أ عموا ولم يروا ويعلموا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم، وعلى إهلاكهم؟

ثالثاً: وكانوا بآياتنا معجزاتنا مع رسلنا، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يجحدون يعرفون أنها حق، ولكنهم لتكبرهم وعنادهم .. ينكرونها، ولا يؤمنون..!!

ونتيجة لموقفهم هذا..
فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا باردة، شديدة الصوت، شديدة السرعة، بلا مطر في أيام نحسات مشئومات عليهم.
وقد سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً * فترى القوم فيها صرعى كأنهم
أعجاز نخل خاوية [الحاقة ٧]
يقول تعالى: وكان ذلك لنذيقهم عذاب الخزي والذل في الحياة الدنيا.
هذا...
ولعذاب الآخرة لهم: أخزى وأكثر إذلالاً وهم لا ينصرون ساعتها من أحد، ولا من آلهتهم التي لا تملك شيئاً، والتي كانوا يعبدونها.

* * *

ثم...
اسمعوا ثانياً.. ما يقوله القادر العزيز بالنسبة لثمود، قوم صالح عليه السلام.

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }
[الآية ١٧]

أي: وأما ثمود وموقفهم من رسولهم، فـــ هو:
أننا هديناهم أرشدناهم إلى طريق الهداية، وعرفناهم طريق الخير وطريق الشر..!!
فاستحبوا العمى وهو الكفر على الهدى وهو الإيمان.
فماذا كانت نتيجة هذا الموقف ... ؟
يقول العزيز الغالب: فأخذتهم صاعقة العذاب الهون.
وهي: الصيحة والرجفة، التي فيها الذل، والهوان.
وذلك: بما كانوا يكسبون ويفترون من تكذيب، وعناد، وآثام.

* * *

وهكذا: أهلكنا المعاندين، المكذبين، من قوم عاد وقوم ثمود..

{ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }
[الآية ١٨]

يعني: ونجينا من هذا العذاب الذين آمنوا بالله من الأمتين و وهم الذين كانوا يتقون ويبتعدون عن الأعمال التي يأتي بها، ويكفر بسببها، قوم عاد وقوم ثمود.

* * *

هذا ... أيها المكذبون: ما يحدث في الدنيا؛ فاحذروه، وآمنوا.

* * *

ثم ينذرهم ويخوفهم ربنا بما يحدث في الآخرة كذلك...
فيقول عز من قائل:

{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }
[الآيات ١٩-٢١]

يعني: و اذكر للكفار المعاندين لك بعض أحوالهم في يوم القيامة يوم يحشر أعداء الله من الأولين والآخرين إلى النار ليعذبوا فيها..!!
فهم يوزعون تجمعهم الزبانية وتسوقهم، وتحبسهم إلى أن يتكامل عددهم جميعاً.
حتى إذا ما جاؤها وعاينوها، وصاروا بحضرتها، وسئلوا عن أعمالهم السيئة، وأنكروا أنهم فعلوها..!!
شهد عليهم سمعهم وأبصرهم وجلودهم بما كانوا يعملون من هذه الأعمال التي أنكروها.

وقالوا لجلودهم هذه، التي احتوت سمعهم وأبصارهم؛ استنكاراً لشهادتهم هذه: لمَ شهدتم علينا وأنتم منا، وكنا تقترف المعاصي للذتكم، وكنتم تساعدوننا على ارتكابها..؟

وكيف نطقتم وأنتم لا تتكلمون..؟

وهنا..

قالوا أي: جلودهم أنطقنا الله القادر الذي أنطق كل شيء إذا أراد نطقه.

وكيف تتعجبون من إنطاقه لنا..؟

وهو الذي خلقكم أول مرة وهي أصعب...!!

و كان ينبغي عليكم أن تعرفوا أنكم إليه ترجعون فيحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل: سبب غفلتهم وجهلهم بأن أعضاءهم سوف تشهد عليهم.

فيقول لهم:

{ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ }

[الآيتان ٢٢، ٢٣]

أي: وما كنتم تسترون عند ارتكابكم المعاصي؛ خوفاً من أن يشهد عليكم بما فعلتم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم لأنكم لا تؤمنون بالبعث.

ولكن لكفركم بوحدانية الله، وقدرته، وإحاطة علمه بكل شيء: ظننتم عند عدم استتاركم من هذه الأعضاء، أثناء ارتكاب الفواحش أن الله لا يعلم كثيراً ممَّا تعملون

وذلكم ظنكم الخاطئ القبيح الذي ظننتم بربكم أرداكم أي: أهلككم.

فأصبحتم من الخاسرين المعذبين في نار جهنم.

* * *

ويكون حالهم إلى أسوإ الأحوال..

{ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ }
[الآية ٢٤]

يعني فإن يصبروا على العذاب: لا ينفعهم الصبر في التخفيف منه، أو التعود عليه، أو الخروج منه فالنار مثوى لهم وإقامة أبدية.

وإن يستعتبوا ويطلبوا الصفح والرضا،والعودة إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحاً: فما هم من المعتدين الذين يجاب طلبهم، ويتحقق رجاؤهم.

* * *

وبعد ذكر هذا التهديد والوعيد بالعذاب لهم في الدنيا والآخرة...

يوضح المولى: السبب الذي أوقعهم في هذا الكفر، وساعدهم على هذا العناد.

فيقول سبحانه:

{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ }
[الآيتان ٢٥، ٢٦]

وقيَّضنا أي: هيئنا لهم قرناء يلازمونهم، ويقترنون معهم، في تصرفاتهم وسلوكياتهم، من الإنس والجن.

فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وإتباع الشهوات.

وزينوا لهم كذلك ما خلفهم من أمر العاقبة، وأنه لا بعث ولا حساب ولا عذاب.

و بذلك: حق عليهم القول بالعذاب في جملة أمم قد خلت سبقت من قبلهم أي: من قبل كفار هذه الأمة من الجن والإنس.

حقاً.. إنهم كل الكفار السابقين واللاحقين، بسبب ذلك كانوا خاسرين

ولأن كفار هذه الأمة يعملون علم اليقين، أن القرآن كامل في معانيه، ومبانيه، وأحكامه، وتشريعاته، وأن كل من سمعه بتدبر ودون عناد آمن به: فقد قالوا لبعضهم البعض لا تسمعوا لهذا القرآن وتشاغلوا عنه والغوا فيه لئلا يسمعه غيركم؛ فيتأثر به، ويؤمن بما جاء فيه، وبما يدعو إليه.

* * *

ولهذا ..
هددهم الله قائلاً:

{ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآية ٢٧]

أي فلنذيقن هؤلاء الذين كفروا ووقفوا من القرآن هذا الموقف وظلموا على كفرهم حتى ماتوا: عذاباً شديداً.
وهذا: ذوق للعذاب، فما بالهم بنفس العذاب..؟
إنه أشد وأنكى..!!
ولنجزينهم كذلك أسوأ الذين كانوا يعملون أقبح جزاء.

* * *

{ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }
[الآية ٢٨]

يعني: ذلك الجزاء الأسوأ: هو جزاء أعداء الله وهم الذين كفروا، وطغوا في الأرض، وبغوا، وأكثروا فيها الفساد.
ثم يفسر ربنا هذا الجزاء ويوضحه..
فيقول:
هو النار وما أسوأها من جزاء.
وليس هذا فقط..
بل لهم فيها دار الخلد أي: الإقامة الأبدية، فلا خروج منها، ولا موت فيها.
جزاءً لهم بما كانوا بآياتنا الدالة على التوحيد والقدرة، والبعث والحساب، في القرآن الكريم يجحدون يعرفون صحتها، وينكرون الإيمان بها، والإذعا ن لها.

* * *

وعند وقوع هذا الجزاء: يكون هذا التصرف العجيب.
فلنقرأ سوياً..

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ }
[الآية ٢٩]

وقال الذين كفروا إذا دخلوا النار ربنا أرنا الآن الذين أضلانا عن الهدى، وأبعدانا عن الإيمان، وأوقعانا في الكفر من شياطين الجن والإنس
حتى نجعلها تحت أقدامنا انتقاماً منها، وليكونا معنا من الأسفلين في النار وعذابها، كما جعلانا معها من الأسفلين؛ بالكفر في الدنيا.
وهذا كلام لا يفيد، وأمنيات لا تتحقق.

* * *

أيها الأحبة في الله..
بعد هذا الجولة الطويلة: مع الكفار، ومواقفهم،وعذابهم..!!
تعالوا معنا إلى: ساحات الرضا والبشريات، للمؤمنين والمؤمنات.
جعلنا الله وإياكم منهم..
إنه تعالى ولي ذلك والقادر عليه.
يقول الكريم:

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ }

[الآيات ٣٠-٣٢]

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على التوحيد، وطاعة الله، والتوبة إليه من الذنوب والمعاصي، وأخلصوا العمل له سبحانه، طيلة حياتهم حتى الموت: تتنزل عليهم الملائكة في هذا الأوقات..

الأول: في حياتهم عندما يعرض لهم ما يكدر صفوفهم.

الثاني: عند الموت، ومعالجة سكراته.

الثالث: في القبر، وظلمته، ووحشته.

الرابع: عند البعث يوم القيامة.

ولكن: بم تتنزل عليهم..؟

تتنزل عليهم: بما يدفع عنهم الخوف والحزن، وتبشرهم، قائلة لهم.

ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون بها من ربكم.

وكأن المؤمنين يقولون لهم: من أنتم..؟

فيقولون لهم: نحن الملائكة أولياؤكم وأحباؤكم من الذين كنا في الحياة الدنيا نحفظكم بأمر الله.

و نحن في الآخرة كذلك نكون معكم: نؤنس الوحشة منكم في القبور وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.

ولكم فضلاً من الله فيها أي في هذه الجنات: جميع ما تشتهي أنفسكم له، وتقر أعينكم به.

ولكم فيها كذلك: كل ما تدَّعون.

أي مهما طلبتم: وجدتم.

نزلاً ضيافة، وفضلاً من رب غفور لذنوبكم رحيم بكم.

* * *

ثم يقول ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسلم:

إذا كان الكفار قد أعرضوا عن الإيمان وقالوا قلوبنا في أكنه مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب .. !!

كما قالوا لبعضهم البعض لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون..!!

فلا تتوقف أنت عن دعوتهم إلى الإيمان بالله؛ فإنه أحسن شيء...

{ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

[الآية ٣٣]

ومن أحسن قولاً أي: لا أحد أحسن قولا وفعلاً من هذا الذي:
أولاً: دعا عباد الله إلى توحيد الله وعبادته.
ثانياً: وعمل صالحاً يرضى الله، ويسعد العباد، ويصلح البلاد.
ثالثاً: وقال متفاخراً، فرحاً، متباهياً إني من المسلمين.

* * *

وإذا كان هذا الحسن في العلاقة بين العبد وربه ..
فإن الله عز وجل يبين الحسن في العلاقة بين العبد وأخيه الإنسان.
إذ يقول:

{ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }
[الآية ٣٤]

نعم...
ولا يمكن أن تستوي الحسنة ولا السيئة مع بعضهما البعض؛ حيث إن الحسنة جزاؤها حسن، والسيئة جزاؤها سيء.
لذلك: ادفع السيئة بالتي هي أحسن كالغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو.
فإذا الذي بينك وبينه عداوة إذا فعلت معه ذلك: كأنه لك ولي حميم وهو الصافي في مودته.
وإذا كان هذا في أمر الدعوة: فهو في كل الأمور مطلوب.

* * *

وممارسة ذلك: أمر صعب.
لذلك يقول ربنا عز وجل:

{ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }
[الآية ٣٥]

وما يلقاها أي: وما يقبل هذه الوصية، ويعمل بها إلا الذين صبروا لأنها تشق على النفوس.
وما يلقاها كذلك إلا ذو حظ عظيم أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة.
يقول الإمام ابن كثير:
"فإذا فعل المؤمن ذلك: عصمه الله من الشيطان، وخضع له عدوه من بني الإنسان، وأصبح كأنه ولي حميم".

* * *

وإذا كان هذا علاج عداوة الإنسان..!!
فماذا عن علاج عداوة الشيطان..؟
يقول تعالى:

{ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الآية ٣٦]

أيها الأحبة: عداوة الشيطان نزغ: أي وسوسة بالمعصية، وتزيين لارتكابها.
و لذلك إما ينزغنك أيها المؤمن من الشيطان نزغ بالمعصية: فاستعذ بالله من شره، ووسوسته، ولا تطعه.
إنه سبحانه السميع لاستعاذتك العليم بصدق رغبتك في الطاعة، والبعد عن المعصية التي يزينها لك الشيطان، القادر على صرف شره عنك.

* * *

هذا...
ولما بين ربنا تبارك وتعالى أن أحسن الأقوال والأفعال، هي: الدعوة إلى الله..!!
بين أنها تكون: بذكر آياته، الدالة على وجوده، وتوحيده، وقدرته، وعظمته..

فقال:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ }
[الآيتان ٣٧، ٣٨]

يعني: قل لهم..
ومن آياته الفلكية الدالة على وحدانيته، وقدرته: هذه الأربعة.
وهي:
الليل والنهار والشمس والقمر.
فآمنوا بالله، ووحدوه، واعبدوه، واخضعوا له واسجدوا، ولا تسجدوا للشمس ولا القمر فهما مخلوقان من خلق الله واسجدوا لله وحده الذي خلقهن.
إن كنتم إياه تعبدون حسب زعمكم: فهذا هو الطريق الصحيح لعبادته.
فإن استكبروا عن الإيمان بالله، والسجود له: فلا عليك، فالذين عند ربك وهم الملائكة يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون من ذلك، بل يسعدون.

* * *

أيضاً.. قل لهم هذه الآية الأرضية.

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٣٩]

أي: ومن آياته الدالة على وحدانيته، وقدرته: أنك ترى الأرض خاشعة هامدة، قاحطة، لا نبات فيها..!!

فإذا أنزلنا بقدرتنا عليها الماء ارتوت، واهتزت تحركت بالنبات وربت انتفخت، وأخرجت جميع الألوان الزروع والثمار.
أتدري من الذي أحياها بعد موتها هذا..؟
إن الذي أحياها هو الله القادر.
إنه سبحانه لمحي الموتى بعد موتهم؛ للبعث والحساب، والجزاء.
حقاً: إنه على كل شيء قدير

* * *

ثم يهدد ربنا عز وجل من يجادل في هذه الآيات البينات، الدالة على توحيده، سبحانه، وقدرته، ويحاول إلقاء الشبهات حولها.
فيقول:

{ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية ٤٠]

إن الذين يلحدون في آياتنا وينحرفون بها عن الحق إلى الباطل، ولا يؤمنون بسببها لا يخفون علينا فنحن أعلم بهم، وسنعذبهم أشد العذاب في نار جهنم.
خبروني بربكم..!!
أفمن يلقى في النار بسبب ذلك أمن يؤمن بالله، ويتبع رسله، ويعمل بشرعة فيأتي آمنا يوم القيامة.. أيهما خير..؟
على أية حال....
أعملوا ما شئتم من خير أو شر؛ فستجزون عليه، بما تستحقون.
إنه سبحانه بما تعملون كله بصير لا يخفى عليه شيء منه.

* * *

ثم يهددهم أيضاً ... فيقول:

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ }
[الآية ٤١]

يعني: إن هؤلاء الذين كفروا بالذكر وهو القرآن لما جاءهم من الله، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: يجازون بكفرهم أشد الجزاء.
و بخاصة: حيث إنه لكتاب عزيز منيع الجناب، لا يستطيع أحد معارضته.

* * *

ثم زاد المولى وصف هذا الكتاب .. فقال:

{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }
[الآية ٤٢]

أي: هو كتاب كامل صادق لا يأتيه الباطل أياً كان هذا الباطل من بين يديه إذّ لم تكذبه الكتب المتقدمه ولا من خلفه حيث لا كتاب بعده يكذبه كذلك.
وما ذلك إلا لأنه تنزيل من حكيم حميد.

* * *

يا محمد ..

{ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٤٣]

يعني: ما يقال لك من التكذيب، والاستهزاء إلا مثل ما قد قيل للرسل من قبلك تكذيباً لهم، واستهزاءً بهم.
فاصبر كما صبروا، وواصل دعوتك كما واصلوا..!!
ومع ذلك:
إن ربك لذوا مغفرة لمن ندم منهم، وتاب، وأناب إلى الله، وآمن به، واتبعك وذو عقاب أليم لمن استمر على كفره، وعاندك، وظل على تكذيبه لك، حتى مات.

* * *

ولما ذكر ــ سبحانه ــ عنادهم وكفرهم وتعنتهم مع فصاحة القرآن وبلاغته، وهو بلغتهم .. !!
بين أنهم سيعاندون حتى لو نزل بغير لغتهم.
إذ قال عز جاهه:

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أعْجَمِياً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ }
[الآية ٤٤]

ولو جعلناه أي: ولو أنزلناه قرآناً أعجمياً بغير لغتهم لقالوا تعنتاً أ قرآن أعجمي و مخاطب عربي..؟
كيف يكون ذلك..؟
وكيف نفهمه..؟
قل لهم: هو أي القرآن للذين آمنوا هدى يرشدهم إلى الحق والخير وشفاء لما في الصدور.
و هو: لــ الذين لا يؤمنون بالله، وبالقرآن، في آذانهم وقر ثقل وصمم وهو عليهم عمى ظلمة وشُبَه.
أولئك الكافرون، حينما يدعون إلى الإيمان: كأنهم ينادون من مكان بعيد حيث إنهم في آذانهم وقر، بسببه لا يسمعون سماع هداية، ولا ينتفعون حتى بما يسمعون لو سمعوا..!!

* * *

هذا ..
وإنزال القرآن عليك: ليس بدعا ...!
فهو سنة الله مع الرسل من قبلك ..

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }
[الآية ٤٥]

ولقد آتينا موسى الكتاب وهو التوراة، كما آتيناك القرآن: فاختلف فيه أي في التوراة، بالتصديق والتكذيب، كما اختلف في القرآن كذلك.
لذلك: فاصبر كما صبر أولوا العز من الرسل
هذا ..
ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب عن أمتك يا محمد إلى يوم القيامة لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، وعجل لهم العذاب في الدنيا.
بل لهم موعد يعذبون فيه..!!
وإنهم مع ذلك: لفي شك منه من الموعد، ومن صدق القرآن مريب.

* * *

لذلك:

لذلك:

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ }
[الآية ٤٦]

صدق الله العظيم، وبلغ رسوله الأمين، ونحن على ذلك من الشاهدين الشاكرين.

* * *

وكأن سائلاً يقول : متى يكون ذلك اليوم ؟
فيكون الجواب عليه.

{ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ* وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ
[الآيتان ٤٧ ، ٤٨]

يعنى : علم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله.
لذلك : ينبغى على من سئل عنه أن يرد إليه وحده سبحانه علم الساعة.
وكما أن العلم بها ليس إلا عند الله فكذلك : العلم بالحوادث المستقبلية كلها عند الله وحده
وهذان مثالان على ذلك :
الأول وما تخرج من ثمرات من أكمامها أى : أوعيتها التى تغطيها، قبل أن تنضج إلا بعلمه سبحانه.
الثانى وما تحمل من أنثى ولا تضع حملها إلا بعلمه كذلك.
ويعود المولى عز وجل إلى تهديد المشركين الذين استنكروا يوم القيامة، وبعث الخلائق للحساب فيقول :
ويوم القيامة يناديهم ربهم، قائلاً لهم على رؤس الأشهاد أين شركائى الذين كنتم تزعمونهم فى الدنيا ؟
قالوا آذناك أى : علمت يا ربنا من قلوبنا الآن أنا لا نشهد بنفس الشهادة الباطلة، وما منا من شهيد يشهد اليوم أن لك شريكاً.
و أيضاً ضل عنهم وذهب ولم ينفعهم ما كانوا يدعون أى : يعبدون من قبل.
وظنوا يعنى : وأيقنوا أنه ما لهم من محيص أى : مهرب من عذاب الله.

* * *

وبهذا تغير خطهم عما كان قبلاً
وهكذا الإنسان فى جميع الأوقات : متبدل الأحوال إن أحسن فخير: انتعش انتفخ، وإن أحسن بشر : انكمش وذبل.
حقاً :

{ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ }

[الآيتان ٤٩ ، ٥٠]

نعم : لا يسأم ولا يمل الإنسان من دعاء الخير وطلبه من ربه.

وإن مسه نزل به الشر من البلاء، أو الفقر، وخلافه :

فـــ هو يؤوس من الخير قنوط من رحمة الله.

هذا اليائس القانط لو عاودته النعمة ولئن أذقناه رحمة أى نعمة منا من بعد ضراء مسته.

ليكون منه ثلاثة أقوال عجيبة، فاسدة.

أولها : ليقولن هذا الخير إلى استحقه بمجهودى، أوتيته على علم عندى، ولن يزول عنى، وسيبقى لى ولأولادى من بعدى.

ثانيها : وما أظن الساعة قائمة أى تقوم وذلك لرغبته الشديدة فى الدنيا، وما فيها، وكفرنا بالساعة ووقوعها.

ثالثها : ولئن رجعت إلى ربى لو كان هناك بعث كما يقولون إن لى عنده للحسنى كما أحسن إلى فى هذه الحياة الدنيا.

والحقيقة : أن الأمر ليس كما يظن.

فهو : لم تأته النعمة إلا بفضل الله، والساعة قائمة وآتية لا محالة، وسيرجع إلى ربه.

و عندها لننبئن الذين كفروا بما عملوا من الذنوب والمعاصى.

و أيضاً لنذيقنهم من عذاب غليظ.

* * *

وإذا كان ما ذكر هو أقواله الفاسدة : فاستمع إلى أفعاله.

يقول المولى :

{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ }

[الآية ٥١]

أى : عندما ينعم الله عليه يعرض عن تعظيم أمر الله، وشكر نعمته، ويتكبر ويتعالى على خلق الله كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى [العلق : ٦،٧].
وإذا مسه الشر ونزل به البلاء : أقبل على الله، وصار ذو دعاء عريض، وابتهال طويل.

* * *

يا محمد

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }
[الآية ٥٢]

يا محمد

قل لهؤلاء المعاندين المكذبين، المعرضين عن القرآن، والإيمان به :
أرأيتم يعنى : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله وليس من عندى كما تزعمون ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد عن الحق مثلكم ؟
حقيقة : إنه ليس أضل منكم فى هذه الحالة ؟

* * *

ومع ذلك :

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
[الآية ٥٣]

أى : سنريهم ونظهر لهم آياتنا الدالة على وحدانيتنا فى الآفاق الخارجية المحيطة بهم وفى أنفسهم الداخلية حتى يتبين لهم أنه أى القرآن هو الحق المنزل من الله، وكل ما فيه، وما أخبر عنه كذلك من البعث والحشر والحساب والجنة والنار حق.

ثم يوبخهم رب العزة على كفرهم وترددهم هذا فيقول أو لم يكف بربك عز وجل أنه على كل شئ شهيد وبكل شئ عالم ومحيط ؟

وقد أخبر الله أن القرآن حق، وأنه من عنده !!

فما لهم لا يؤمنون ٠٠؟

* * *

{ أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ }
[الآية ٥٤]

حقاً إنهم فى مرية أى شك من لقاء ربهم سبحانه؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولهذا : لا يتفكرون ولا يستعدون لهذا اللقاء.

ثم هددهم بما يبعث الهيبة فى نفوسهم حيث يقول إلا أنه عز وجل بكل شئ محيط علماً وقدرة، وسيجازيهم بما يستحقون.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى : سورة مكية.
تركز بشكل واضح على قضية الوحى والرسالة.
وتوضح – بجانب الأهداف المكية – ملامح القيادة الرشيدة التى تتبع هذا الوحى، ومنهج هذه الرسالة ، لتقود بعدل هذه الأمة، التى هى خير أمة أخرجت للناس.
وهى : تبدأ بقوله تبارك وتعالى :

{ حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }
[الآيات : ١ – ٥]

كذلك أى : مثل الإيحاء بـــ "حم عسق" يوحى إليك بالقرآن، و قد أوحى إلى كل الأنبياء الذين من قبلك.
ولكن : من هذا الموحى ؟
إنه الله عز وجل، الموصوف بهذه الصفات :
الأولى : العزيز فى ملكه، الغالب بقدرته.
الثانية : الحكيم فى صنعه، وأقواله ، وأفعاله.
الثالثة : المالك لكل شئ له ما فى السموات وما فى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً.
الرابعة : وهو العلى المتعالى عن مشابهة الممكنات والحوادث.
الخامسة : العظيم القادر، القاهر بالاستعلاء وكمال الإلهية.
السادسة : له الهيبة تكاد السموات من علو شأن الله وهيبته يتفطرن يتشقق من فوقهن أى : بعضها فوق بعض.
السابعة : له الحمد والملائكة يسبحون بحمد ربهم لماله عز وجل من الجلال والكبرياء ويستغفرون بأمر ربهم لمن فى الأرض من المؤمنين.
ألا حقاً إن الله الموصوف بهذه الصفات، الذى يوحى إليك هو كذلك : الغفور لأوليائه.
وهذه : هي الصفة الثامنة .
الصفة التاسعة : الرحيم بهم، والذى وسعت رحمته كل شئ، سبحانه وتعالى.

* * *

هذا : هو الله الذى يستحق أن يعبد وحده، وأن لا يعبد سواه.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ }
[الآية : ٦]

أى والذين اتخذوا من دونه سبحانه أولياء آلهة لهم وعبدوهم : لست مكلفاً بإجبارهم على الإيمان.
الله وحده حفيظ عليهم رقيب على أقوالهم وأفعالهم ، وسيجازيهم عليها.
وما أنت عليهم بوكيل إنما أنت نذير لهم فقط.

* * *

وبعد أن بين الله عز وجل أنه أوحى إلى الأنبياء من قبله ، يقول له :

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِياً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ }
[الآية : ٧]

وكذلك يعنى : وكما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك يا محمد.
وكان وحينا لك قرآنا عربياً بلسان قومك.
وذلك : لتنذر وتخوف أهل أم القرى ومن حولها من البلاد، الأقرب، فالأبعد، ثم الأبعد، حتى تصل دعوتك للدنيا كلها.
ولكن : بماذا تنذر، وتخوف ..؟
الجواب :
ولتنذر يوم الجمع أى : تنذر بعذاب يوم الجمع للخلائق، وهو يوم القيامة.
وهو يوم لا ريب فيه ولا فى وقوعه.
وساعتها : يكون الناس فريق منهم فى الجنة وفريق آخر منهم فى السعير كل على حسب إيمانه وعمله ؛ حيث إنهم مختلفون فى الإيمان بالله، والاستعداد للقائه سبحانه.

* * *

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }
[الآية : ٨]

نعم ولو شاء الله لجعلهم جميعاً أمة واحدة مهتدين، أو ضالين ولكن لم يشأ ذلك ؛ لحكمه يعلمها هو سبحانه، ولله الحكمة البالغة فى كل شئ.
وبهذا
يدخل من يشاء فى الإسلام، ويجعله فى رحمته ويدخله جنته.
والظالمون الذين اتخذوا من دونه أولياء : يضلهم عن الهدى، ويدخلهم النار .
وساعتها ما لهم من ولى يشفع لهم ولا نصير يدافع عنهم.

* * *

ثم ينكر ربنا عز وجل على هؤلاء الظالمين اتخاذهم أولياء من دونه ٠٠
فيقول :

{ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية : ٩]

يعنى : إن أرادوا اتخاذ ولىّ حقاً !! ؟
فليس هناك سوى الله عز وجل.
حيث هو الولى بحق، ولا ينبغى أن تكون العبادة إلا له وحده.
وهو سبحانه الذى يحى الموتى ولا يفعل ذلك سواه.
وهو الذى على كل شئ قدير وليس ذلك لأحد غيره سبحانه.

* * *

أيها الأحبة فى الله !!

فهمنا الآن : أن هناك فريقين يختلفان
ومن المعلوم : أنه لابد عند كل خلاف من حاكم وحُكم !!
والحاكم بالطبع : هو الله، ولا حكم إلا منه.
لذلك يقول تعالى :

{ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }
[الآية : ١٠]

يعنى وما اخلفتم فيه من أى شئ وأى أمر من الأمور : فحكمه إلى الله وحده، أى : بكتابه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، يفضل فيه الفصل الحق، ويحكم فيه الحكم العدل.
قل لهم يا محمد
ذلكم الحاكم العادل
أولاً : هو الله الذى لا إله سواه.
ثانياً : وهو ربى الذى لا رب سواه.
ثالثاً : عليه توكلت فى دفع الأعداء، وطلب كل خير.
رابعاً : وإليه أنيب أرجع فى كل المهمات، استخارة، واستعانة، وتوبة واستغفاراً.

* * *

وهو :

{ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآيتان : ١١ ، ١٢]

يعنى : ذلكم الله فاطر خالق السموات والأرض وما بينهما، وما فيهما، ومن فيهما، ولا يقدر على ذلك غيره.
سادساً : جعل خلق لكم من أنفسكم من جنسكم؛ تفضلاً عليكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة [الروم : ٢١].
يذرؤكم يكثركم، ويزيد من أعدادكم فيه فى هذا التزاوج ، ولا يقدر على ذلك سواه، ولا يعلم الحكمة من ذلك إلا هو سبحانه.
سابعاً : ليس كمثله أى : كهو، أو كذاته، شئ سبحانه وتعالى.
ثامناً : وهو السميع لجميع الموجودات.

تاسعاً : وهو البصير بجميع الموجودات.
عاشراً : له وحده سبحانه مقاليد مفاتيح السموات والأرض فهو المالك والحافظ لأمرهما، ومن فيهما.
حادى عشر : يبسط عز وجل الرزق ويوسعه لمن يشاء من عباده ويقدر يضيق ويفقر من يشاء كذلك من عباده.
ثانى عشر : إنه جل جلاله بكل شئ من التوسعة والتضييق عليم فهو يعطى من يشاء بعلم، ويمنع عمن يشاء بعلم، سبحانه وتعالى جل شأنه.

* * *

هذا الإله العظيم هو الذى :

{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ }
[الآية : ١٣]

نعم إن ما شرع الله لكم يا أمة محمد من الدين هو ما شرع، ووصى به نوحاً و هو نفسه الذى أوحينا إليك يا محمد و هو ما شرعنا وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام.
هذا الذى شرعه الله من الدين هو ..
أن أقيموا الدين أى : دين الإسلام
يعني : عدلوا أركانه، وواظبوا على العمل بأحكامه، وحافظوا من أن يقع فيه زيغ.
و كذلك لا تتفرقوا فيه ولا تختلفوا حول عقائده، وتعاليمه، وأحكامه؛ حيث إن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب.
لذلك كبر وعظم على المشركين وشق عليهم ما تدعوهم إليه من إقامة الإسلام، والوحدة فيه وبه.
على أية حال :
الله عز وجل يجتبى ويصطفى إليه لتوحيده، وعبادته من يشاء.
و كذلك يهدى إليه أى إلى طاعته من ينيب ويميل إليه سبحانه.

* * *

ولكن
إذا كان الله عز وجل قد أمر الأنبياء والأمم بالأخذ بالدين المتفق عليه، وهو إسلام الوجه لله !!
فلماذا نجد الناس والأمم متفرقين، كما هو مشاهد فى دنيا الناس ؟
الجواب من الله تعالى :

{ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ }
[الآية : ١٤]

يعنى : هذا التفرق ليس لعدم وضوح الحق، أو قصور فى تبليغه لهم، ولكن بغياً بينهم أى : حسداً، وطلباً للرياسة، وإعراضا عن الحق.

ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير الجزاء إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة : لقضى بينهم بتعذيب الكافرين منهم فى الدنيا.

هذا

وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم أى من بعد جيل الخلاف الأول، وهم اليهود والنصارى : لفى شك منه أى من الإسلام مريب.

* * *

وابتعاداً عن هذا التفرق، وإنقاذاً للأمة من هذا الاختلاف يأمر الله النبى صلى الله عليه وسلم، وهو القدوة بقوله :

{ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }
[الآية : ١٥]

فلذلك التفرق والخلاف الذى وقع فيه الآخرون عليك بالآتى :

أولاً : فادع الناس لهذا الدين، والإيمان به، والعمل بتشريعاته، والاجتماع عليه.

ثانياً : واستقم أنت عليه، قدوة لهم كما أمرت من ربك.

ثالثاً : ولا تتبع أهواءهم الباطلة، التى بسببها اختلفوا.

رابعاً : وقل للدنيا كلها آمنت وصدقت بما أنزل الله من كتاب أى : بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، لا نفرق بينهم.

خامساً : و قل أمرت من ربى لأعدل بينكم فى الحكم.

سادساً : وقل الله ربنا وربكم كلنا عبيده، ولا إله يعبد بحق سواه.

سابعاً : وقل لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وكل مؤاخذ بعمله.

ثامناً : وقل لهؤلاء المعاندين لا حجة بيننا وبينكم لأن الحق أصبح واضحاً، ولا حاجة إلى جدال حوله.

تاسعاً : وقل الله يجمع بيننا يوم القيامة للحساب.

عاشراً : و قل إليه المصير أى : المرجع؛ فيفصل بيننا، وينتقكم منكم.

قالوا : ليس لهذه الآية نظير فى القرآن إلا آية الكرسى، من حيث اشتمالها عشر جمل مستقلات، كل واحدة منفصلة عن أختها، وهى حكم برأسها.

* * *

هذا
ولأن الدعوة الصافية إلى الله تعالى : تلقى الاستجابة ٠٠!!
ولأن الكافرين سيحاولون صد المؤمنين عن هذه الاستجابة ٠٠!!
فقد قال تعالى :

{ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ }
[الآية : ١٦]

أى : والذين يحاجون يجادلون المؤمنين فى دين الله، وهو دعوة الإسلام؛ ليصدوهم سلوك طريق الهدى، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم
هؤلاء :
حجتهم جدالهم، وعللهم، ومناقشاتهم باطلة عند ربهم ولا وزن لها.
وعليهم فى ذات الوقت غضب من الله، بسبب كفرهم، وجدالهم بالباطل، وصدهم الناس عن الهدى.
و أيضاً لهم عذاب شديد يوم القيامة.

* * *

ولما تقرر هذا التحذير من الجدال فى دين الله بالباطل، والعمل على صد الناس عن الإسلام !!
خوف الله من يفعل ذلك بعذاب يوم القيامة.
فقال :

{ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ }
[الآية : ١٧]

الله عز وجل هو الذى أنزل الكتاب جنس الكتاب، أى : كل الكتب على الأنبياء بالحق الذى شرعه لعباده، وفرضه عليهم، وبين فيه مصالحهم فى الدنيا والآخرة.
و كذلك هو الذى أنزل الميزان ليسود العدل، وينال كل واحد ما يستحق.
وما يدريك بوقت الساعة إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الذى يعلم وحده وقت قيامها.
على أية حال لعل مجئ الساعة قريب.
لهذا وبعد أن أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بشرعه فاعملوا بالكتاب والعدل، قبل أن تقوم الساعة، ويفاجئكم يوم حسابكم، ووزن أعمالكم.

* * *

ولكن !!

ومع هذا التحذير !!

فهناك من يستعجل عذاب يوم القيامة استهزاءً وكفراً وعناداً.

نعم

{ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ }

[الآية : ١٨]

أى : يستعجل بها الذين كفروا، وهم الذين لا يؤمنون بها ويقولون مستهزئين : "متى هذا الوعد إن كنتم صادقين".

و أما الذين آمنوا بالله، وباليوم الآخر فهم مؤمنون بها، ومشفقون خائفون منها أى : من عذابها، ولا يستعجلونها.

و ما ذلك منهم إلا لأنهم يعلمون أنها الحق.

حقاً .. حقاً .. ألا إن الذين يمارون يجادلون فى وجودها، وينكرون وقوعها لفى ضلال عن الحق بعيد.

* * *

لذلك : على الإنسان أن يعمل للآخرة، وأن لا يعمل للدنيا فقط معرضاً عن الآخرة؛ ظناً منه أنه بذلك يحصل رزقاً، أو اعتقاداً منه أن العمل للآخرة يمنع أو يقلل رزقاً.

فالرزق مضمون، والعمل للآخرة غير مضمون.

يقول تعالى :

{ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ }

[الآيتان : ١٩ ، ٢٠]

الله تبارك وتعالى لطيف بعباده يوصل لهم المنافع، ويدفع عنهم البلاء.

ومن مظاهر لطفه أنه يرزق من يشاء فيوسع على هذا، ويضيق على ذاك؛ حسب علمه بمصالح عباده، وبما هو أنفع لهم.

وهو القوى القادر على كل شئ العزيز الذى لا يعجزه شئ.

لذلك :

من كان يريد حرث الآخرة أى ثوابها ويعمل لها نزد له فى ثواب حرثه أى : عمله، حيث نجازيه على الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله.

ومن كان يريد حرث الدنيا أى : من كان عمله للدنيا فقط، ولم يؤمن بالآخرة نؤته منها ما قسم له فقط، لا ما يريده هو.

و قد خسر، حيث ما له فى الآخرة وثوابها من نصيب ينفعه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم [الشعراء : ٨٨،٨٩].

* * *

وبعد أن بين الله عز وجل ميزة كتابه الذى فيه شرعه، وضرورة العمل به، وخطورة الانحراف عنه !!

يناقش ربنا سبحانه وتعالى قضية اتباع شرع غير شرعه، فيقول :

{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

[الآية : ٢١]

يعنى : أيقبلون ما شرع الله من الدين أم لهم آلهة شركاء لله، فيما يزعمون شرعوا لهم من الدين الفاسد ديناً آخر وهو ما لم يأذن به الله ويشرعه لعباده كالشرك، وإنكار البعث ..؟

لقد ساروا وراء أهوائهم، واتبعوا ضلالاً.

ولولا كملة الوعد، بأن الفصل والجزاء يكون فى يوم القيامية لقضى بينهم ونزل بهم العذاب الآن وإن الظالمين لهم عذاب أليم وذلك حين تقوم الساعة

{ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ }

[الآيتان : ٢٢ ، ٢٣]

أى : وترى الظالمين الذين كفروا مشفقين خائفين مما كسبوا من جزاء عملهم السئ، وهو العذاب وهو واقع بهم لا محالة.

و أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم آمنون مطمئنون فى روضات الجنات وهى أطيب بقاعها وأماكنها لهم ما يشاؤن عند ربهم.

ذلك الجزاء الطيب للمؤمنين هو الفضل الكبيرمن الله سبحانه وتعالى وذلك الجزاء الطيب للمؤمنين هو الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويؤكد لهم أنه واصل لهم.

وبعد هذا التوضيح :

قل للمكذبين المعاندين لا أسألكم عليه أى : على هذا الإسلام الذى أدعوكم إليه، وهو الموصل إلى هذا الفضل الكبير أجراً أتقاضاه منكم.

ولكنى أسألكم حسن الاستماع، والتقبل والمودة فى القربى.

ومن يقترف حسنة خالصة لله نزد له فيها حسناً أى : نضاعف له أجرها وثوابها.

حيث إن الله غفور لمن أساء وتاب شكور لمن أطاع.

* * *

ثم يناقش ربنا سبحانه وتعالى قضية اتهام المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بالكذب على الله.

فيقول :

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

[الآية : ٢٤]

يعنى : أيصدقونك فيما أنزل من القرآن أم يقولون عليك إنه افترى واختلق على الله كذباً فيما يتلوه علينا، ويخبرنا به على أنه أوحى به إليه.

لو كان الأمر كما يدعون !!

فإن يشأ الله يختم على قلبك فينسيك القرآن ويقطع عنك الوحى.

ولكنه لم يفعل !!

وبالتالى : فأنت صادق.

وعلى كل حال : دعهم يقولون ويمح الله الباطل كله، ومنه افتراءهم عليك ويحق الحق ويظهر الإسلام بكلماته التى أنزلها ووعد بها فى كتابه.
حيث إنه سبحانه عليم بذات الصدور وما تكنه الضمائر.

* * *

وبعد أن برأ المولى رسوله صلى الله عليه وسلم من هذا القول الشنيع، الذى يستحق قائله العقاب ندب إلى التوبة فقال :

{ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ }

[الآية : ٢٥]

يعنى : توبوا إلى الله، وكفوا عن الكذب عليه، ومحاربة رسوله، وإيذاء أتباعه يغفر لكم.
و اعلموا أنه هو الذى يقبل التوبة عن عباده إذا تابوا إليه، وأقلعوا عن خطاياهم، وأصلحوا أمورهم ويعفو عن السيئات التى وقع فيها المرء، قبل توبته عنها.
ويعلم ما تفعلون فيجازى من يشاء، ويتجاوز عمن يشاء، بحكمة منه سبحانه وتعالى وإتقان.

* * *

ولما ندب الله إلى التوبة : بين الذين يستجيبون والذين لا يستجيبون فقال :

{ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ }
[الآية : ٢٦]

أى : ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات لديهم فيما دعاهم إليه، ويطيعونه فيما أمرهم به.
و لذلك يزيدهم من فضله فوق ما طلبوا، وما يستحقون.
و أما الكافرون فلا يستجيبون، ولهم عذاب شديد.

* * *

أيها الأحبة فى الله تعالى !!

لما كان من المعلوم أن الله سبحانه يجيب دعاء المؤمنين، ويقبل التوبة عنهم، ويعفو عن سيئاتهم !!

فلماذا نرى المؤمن قد يكون فى شدة وبلية، أو فقر ومجاعة، ثم يدعو ولا يشاهد أثر الإجابة ؟

الجواب :

{ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ }

[الآيتان : ٢٧ ، ٢٨]

حقاً ولو بسط الله الرزق لعباده جميعاً، وأغناهم لبغوا فى الأرض على بعضهم البعض، وظلموا، وتكبروا.

ولكن يعلم سبحانه أحوالهم، وما يصلحهم لذلك ينزل لهم الرزق بقدر حسب ما يشاء وتقضيه حكمته عز وجل.

حيث إنه بعباده خبير بصير.

وفى الحديث القدسى "إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لفسد حاله، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لفسد حاله" وفى رواية : "لأفسدت عليه دينه".

وهو سبحانه الذى ينزل الغيث المطر للناس، وقت حاجتهم إليه من بعد ما قنطوا يئسوا من نزوله إليهم.

وذلك : لحكمة يعلمها هو عز وجل.

و هو سبحانه الذى ينشر رحمته الواسعة على جميع خلقه.

و هو سبحانه الولى المحسن للمؤمنين الحميد المحمود الذى يحمده أهل طاعته.

وكل ذلك : يدل على قدرته سبحانه، وعلمه، وحكمته.

* * *

ثم يذكر ربنا تبارك وتعالى آيات تدل على ألوهيته ووحدانيته فيقول :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }

[الآيات : ٢٩ – ٣١]

أى : ومن آياته الكثيرة، الدالة على ألوهيته، ووحدانيته، وقدرته، وحكمته خلق السموات والأرض على هذا النحو الفريد البديع.
و كذلك خلق ما بث نشر وفرق فيهما من دابة على اختلاف أنواع الدواب وأحجامها وأشكالها إلخ.
و أيضاً هو سبحانه وحده على جمعهم فى يوم الحشر إذا يشاء قدير.
هذا و اعلموا
أولاً : أنه ما أصابكم فى الدنيا من مصيبة مكروه، أو شدة، أو بلية، أو فقر، أو مرض إلخ فيما كسبت أيديكم من الذنوب، وهذا تكفير له.
ثانياً : و أنه سبحانه وتعالى يعفوا عن كثيرمن ذنوبكم، فلا يؤاخذكم به.
ولذلك قيل هذه أرجى آية فى القرآن لأن الله عز وجل لا يجمع على عبده بين عقوبتين، ولا يعاقب على ما سبق وأن عفى عنه.
ولما بشر المؤمنين وطمأنهم
ينظر فيها خوف الكافرين وخوفهم فقال :
وما أنتم يا مشركون بمعجزين بهاربين فى الأرض من عذاب الله وما لكم من دون الله من ولى يدافع عنكم ولا نصير يدفع عنكم ويمنع عذاب الله عندما ينزل بكم.

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى كذلك :

{ وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ }
[الآيات : ٣٢– ٣٤]

ومن آياته الكثيرة أيضاً : هذه الجوار السفن، التى تسير فى البحر كالأعلام كالجبال ..!!
ثم ..
إن يشأ سبحانه، وله المشيئة العليا، والأمر النافذ يسكن الريح يوقف الريح عن تسيير هذه السفن أسكنها، وأوقفها فيظللن فى مكانهن،واقفان رواكد ثوابت على ظهره أى : ظهر الماء.
إن فى ذلك لآيات لكل صبار على بلائه شكور على نعمائه.
وعلى هذا : ينبغى أن يكون حال المؤمن على البلاء من الصابرين، ومع النعماء من الشاكرين.
أو
إن يشأ سبحانه، وله المشيئة العليا، والأمر النافذ يهيج الريح، فتعصف بالسفن، ويوبقهن يهلكهن غرقاً بما كسبوا أى : أصحابها من الذنوب.
و هو سبحانه الذى يعفوا عن كثير من ذنوب عباده فلا يجازى ويؤاخذ عليها.

* * *

ثم يقول تعالى مهدداً من لا يعتبر بآياته سبحانه :

{ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ }
[الآية : ٣٥]

أى : و ينبغى أن يعلم الذين يجادلون فى آياتنا هذه وغيرها، ولا يعتبرون بها فيؤمنون أنه ما لهم من محيص ومهرب من عذاب الله، بسب جدالهم هذا، وكفرهم الناتج عنه، أو كفرهم وجدالهم الناتج عنه.

* * *

وبعد أن ذكر ربنا تبارك وتعالى من دلائل التوحيد ما ذكر أتبع ذلك بتحقير ما يصرف عن الاعتبار والإفادة من هذه الدلائل، وهو الانبهار والانشغال التام بمتاع الدنيا.
فقال :

{ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }
[الآية : ٣٦]

يعنى : ينبغى أن لا يصرفكم شئ عن توحيد الله، وعبادة، وبخاصة ما كان من أمر الدنيا.
وإلا فـ إن ما أوتيتم أى : ما آتاكم الله من شئ قليل أو كثير فـ هو من متاع الحياة الدنيا الزائل، الذى لا ينبغى الاغترار به عن توحيد الله، ولا الانشغال به عن عبادة الله.
و أما ما عند الله من الثواب والنعيم فهو خير من متاع الدنيا وأبقى منه؛ لأنه أبدى غير زائل ولا منته.
ولكن لمن هذا النعيم والثواب الأبدى، الذى عند الله تعالى ؟
وهنا يكون الجواب الواضح بتحديد صفات جماعة المسلمين، وبالميزان الذى تتعرف به عليهم، وتتخلق معهم بأخلاقياته.
فمن هم ؟
إنهم الذين يقول عنهم ربهم وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون
حيث حدد المولى عز وجل من صفاتهم ما يلى :

الصفة الأولى : أنهم آمنوا بربهم، واتبعوا نبيهم، والتزموا بشريعتهم.
الصفة الثانية : أنهم وعلى ربهم وحده يتوكلون ويعتمدون فى كل أمورهم.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل :

{ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ }
[الآية : ٣٧]

وفى هذه الآية الكريمة نجد من صفاتهم :
الصفة الثالثة : أنهم يجتنبون يبتعدون عن كبائر الإثم كالبدع واختلاق الشبهات والفواحش وهى ناتج القوة الشهوانية.
الصفه الرابعة : أنهم إذا ما غضبوا لأنفسهم، أو فى أمر دنيوى هم يغفرون يتسامحون، ولا يؤاخذون.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل :

{ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }
[الآية : ٣٨]

وفى هذه الآية الكريمة : نجد كذلك من صفاتهم :
الصفة الخامسة : أنهم استجابوا لربهم فاتبعوا رسله، وأطاعوا أوامره، واجتنبوا زواجره، واجتمعوا على دينهم، ولم يتفرقوا فيه.
الصفة السادسة : أنهم أقاموا الصلاة داوموا عليهم، وحافظوا على إتمامها فى مواقيتها وأركانها وهيئاتها.

الصفة السابعة : أنهم أمرهم شورى بينهم لا ينفردون برأى، بل يجتمعون عليه، وما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم.
وفى الحديث الذى رواه الإمام الترمذى "إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاؤكم وأمركم شورى بينكم فظهر الارض خير لكم من باطنها وإن كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاؤكم، وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظاهرها"
الصفة الثامنة : أنهم مما رزقناهم أى : رزقهم الله ينفقون فى طاعة الله.

* * *

ثم يقول ربنا عز وجل :

{ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ }
[الآية : ٣٩]

وفى هذه الآية الكريمة نجد من صافتهم ما يلى :
الصفة التاسعة : أنهم إذا أصابهم البغى ووقع عليهم الظلم هم ينتصرون ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين، ولا بالذليلين.

* * *

ثم يقول سبحانه وتعالى :

{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ }
[الآيات : ٤٠ – ٤٣]

فى هذه الآية الكريمة نجد من صفات الجماعة المسلمة أخيراً :

الصفة العاشرة : أنهم إذا انتصروا ممن ظلمهم كان انتصارهم جزاء سيئةٍ سيئة مثلها فقط من غير زيادة عليها، وإلا صار ظالماً.

وينبغى أن يكون ملحوظاً أن هذا الانتصار وإن كان مشروعاً لهم فهو مشفوع بأمرين :

الأول : شرط المماثلة.

الثانى : أن العفو عند القدرة أولى.

ولذلك : يحث ربنا عز وجل على العفو عند القدرة على الانتصار، بل على الصفح أيضاً إذّ يقول فمن عفا وأصلح فأجره على الله وهو وعد بالخير، لا يقاس عليه شئ فى التعظيم.

حيث إنه سبحانه لا يحب الظالمين ابتداءً، ولا فى رد العدوان عن أنفسهم.

ولكن ..

يلاحظ جيداً أنه من انتصر بعد ظلمه وفق هذه الشروط ما عليهم من سبيل فى المؤاخذة، أو العقاب، لأن هذا حقهم.

إنما السبيل فى المؤاخذة والعقاب على الذين يظلمون الناس ويعتدون عليهم، أو يسلبون حقوقهم، أو ينتهكون حرماتهم، أو يبغون فى الأرض بغير الحق ويتكبرون فيها ويفسدون.

نعم أولئك لهم من الله عذاب أليم فى يوم القيامة.

وفى النهاية : يذكر ربنا بالصبر على الأذى، والصفح والعفوان فيقول ولمن صبر على الأذى، بشرط أن لا يكون فى ذلك الصبر تشجيع للمعتدى بزيادة الاعتداء وغفروستر السيئة إنصبره ذلك وغفرانه هذا لمن عزائم الأمور التى ندب الشارع إليها، وأثاب عظيماً عليها.

* * *

هذه صفات الجماعة المسلمة !!

من عرفها، وتحلى بها، وحافظ عليها فقد هداه الله

ومن تجاهلها، أو لم يؤمن بها فقد أضله الله

..حقا

{ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ }

[الآيات : ٤٤ – ٤٦]

يعنى : ومن يضلل الله من الناس، عن هذه الصفات، ومن ثَمَّ لا يتحلى بها، فما له من ولى يتولى أموره من بعده أى : من بعد إضلال الله له، وهو من الظالمين.
ثم يصور الله عز وجل حال هؤلاء الظالمين، الذين أضلهم الله فيقول :
وترى الظالمين هؤلاء فى يوم القيامة لما رأوا العذاب وتأكدوا من صدق تهديد الله لهم فى الدنيا به يقولون هل إلى مرد عودوا بى الدنيا؛ لنعمل صالحاً من سبيل.
ولا يكون لهم جواب، ولا إجابة.
وتراهم بعد ذلك يعرضون عليها أى : النار خاشعين منكسرين من الذل الذى هم فيه ينظرون إليها من طرف خفى ضعيف، يسترقون النظر إليها، فيفزعون، فيحولون بصرهم عنها، ثم يعودون فينظرون من الخوف.
و هنا قال الذين آمنوا لهم لقد خسرتم كل شئ، حيث إن الخاسرين حقيقة : هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وأنتم كذلك من الخاسرين الظالمين.
ذوقوا إذن عذاب ظلمكم وكفركم ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم.
و ساعتها ما كان لهم أى : ليس لهم من أولياء محببين ينصرونهم ويدافعون عنهم من دون الله الذى أمر بعذابهم.
من يضلل الله فما له من سبيل للنجاة من عذاب الله.

* * *

وبعد أن وعد ربنا وأوعد بين المقصود، وطالب به قائلاً :

{ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ }
[الآية : ٤٧]

استجيبوا لربكم فى كل ما دعاكم إليه من قبل أن يأتى يوم القيامة.
حيث لا مرد له من الله أى لا يدفع عنكم عذابه أحد.
وكذلك ما لكم من ملجأ مهرب، تهربون إليه من هذا العذاب يومئذ.
و ثالثاً ما لكم من نكير أى : لا تستطيعون إنكار شئ مما فعلتموه.

* * *

ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى للبشير النذير صلى الله عليه وسلم.

{ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ }
[الآية : ٤٨]

فإن أعرضوا يا محمد عن الاستجابة لما دعوتهم إليه، طاعته لله، فلا عليك، ولا تغنم فما أرسلناك عليهم حفيظاً تحفظ أعمالهم، وتوفق سلوكهم، وتلزمهم بما طالبتهم به إن عليك إلا البلاغ للرسالة إليهم، فقط.
واعلم أن نعم الدنيا، التى شغلتهم وصرفتهم عن الإيمان بالنسبة لما أعده الله لعباده الصالحين فى جنات النعيم كالقطرة بالنسبة إلى البحر، ولذلك سمى نعم الدنيا ذوقاً فقال :
وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة نعمة كالغنى والصحة وخلافه : فرح بها وطغى بسببها.
وإن تصبهم سيئة من : فقر، أو مرض، وخلافه، وذلك بما قدمت أيديهم واكتسبته من المعاصى فإن الإنسان كفور ينسى النعمة، ويذكر النقمة، ويكفر فى الرخاء وفى البلاء، إلا إذا قاوم طبعه، وهذب نفسه، وأدبها بشرع الله.

* * *

وينبغى أن لا تغره النعمة فكل النعم من الله، وكل الكون ملك لله، فعلى العاقل أن يجعلها وسائل لطاعة الله.
يقول تعالى :

{ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ]
[الآيتان : ٤٩ ، ٥٠]

نعم لله ملك السموات والأرض وما فيهن، ومن فيهن، وهو سبحانه المتصرف، وهو المعطى وهو المانع.
فينبغى أن لا يغتر الإنسان بما يصل إليه حيث إنه من الله ومن ملك الله، ومن عطاء الله.
وهو سبحانه؛ الذى يخلق ما يشاء فى هذا الكون كله.
ثم ذكر من أحوال تصرف الخالق فى ملكه : أنه يخص البعض من الناس بالإناث، والبعض بالذكور، والبعض بالذكور والإناث معاً، والبعض يجعله محروماً من الكل.
فقال يهب لمن يشاء من عباده بحكمته إناثاً هبة منه تعالى، وإنعاماً على عبده.
ويهب لمن يشاء منهم الأولاد الذكور.

أو يزوجهم يعنى يهبه من الصنفين ذكراناً وإناثاً.

ويجعل من يشاء منهم عقيماً لا يولد له.

إنه سبحانه عليم بمن يستحق هذا أو ذاك قدير على ما يشاء، لا راد لإرادته، ولا معقب لحكمه، ولا شئ فوق حكمته.

*** * * وبعد أن بين المولى كمال علمه، وقدرته، وحكمته اتبعه بيان إنعامه على أنبيائه بوحيه وكلامه فقال :**

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾
[الآية : ٥١]

وما كان وما صح لبشر أبداً أن يكلمه الله سبحانه إلا على أحد ثلاثة أوجه :

الأول : وحياً أى : إلهاماً؛ وقذفاً فى القلب كما أوحى الله إلى أم موسى عليه السلام، أو مناماً كما أوحى إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده.

الثانى : أو من وراء حجاب بأن يسمع كلام ربه، دون أن يبصر شيئاً، كما حدث مع موسى عليه السلام عند طور سيناء.

الثالث : أو يرسل رسولاً من الملائكة فيوحى هذا الملك إلى النبى أو الرسول بإذنه أى : بأمر الله ما يشاء الله من الوحى.

حيث إنه سبحانه على حكيم.

* * *

ولما بين الله عز وجل على هذا النحو أقسام الوحى : قال لحبيبه :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾
[الآيتان : ٥٢ ، ٥٣]

وكذلك ومثل الوحى الذى أوحيناه إلى الرسل من قبلك أوحينا إليك يا محمد روحاً من أمرنا وهو القرآن.

ما كنت تدرى وتعرف قبل هذا الوحى بالقرآن إليك ما الكتاب ولا تدرى ما الإيمان أيضاً.

ولكن جعلناه أى : القرآن بوحينا لك إياه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا الذين سبق علم الله فيهم أنهم يستحقون الهداية.

وإنك يا محمد لتهدى لتدعو إلى صراط مستقيم وهو صراط الله الذى هو الإسلام.

وهذا الصراط المستقيم، الذى هو الإسلام هو من الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ومن فيهما، وما بينهما، خلقاً وملكاً وتصرفاً.

ألا فانتبهوا، وآمنوا، إنه إلى الله وحده تصير الأمور وترجع إليه كلها، فيفصل فى شأنها، ويعذب العاصى، ويثيب المطيع.

* * *

وبهذا، وعلى هذا النحو : عالجت السورة قضية الوحى، منذ البنوات الأولى ٠٠

لتقرر : وحدة ، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق.

ولتعلن : القيادة فى الجديده للبشرية، ممثلة فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وفى الجماعة المؤمنة بهذه الرسالة.

ولتكمل : إلى هذه الجماعة المؤمنة أمانة القيادة إلى الصراط المستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض.

ولتبين : خصائص هذه الجماعة المؤمنة، وطابعها المميز، الذى تصلح به للقيادة، وتحمل به هذه الأمانة، التى تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق العظيم العجيب، وهو الوحى.

* * *

جعلنا الله وإياكم وجميع المسلمين من أهل طاعته، ورضوانه.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه : سورة مكية.
تعرض جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب.
وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالج آثار هذه المصاعب فى النفوس المؤمنة.
وتقرر : حقائق الإسلام وقيمه مكان الخرافات التى كانت راسخة فى العقول إذ ذاك، والتى ما يزال الكثير منها باق بعض العقول إلى اليوم.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ حـم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
[الآيات : ١ – ٣]

يقسم الله تعالى بـــ حم * والكتاب المبين الذى هو القرآن، المبين الواضح، الذى نزل بلغة القوم الذى أرسل خاتم الأنبياء منهم.
وجواب القسم إنا جعلناه قرآناً عربياً بلغة العرب، فصيحاً بليغاً.
ولكن لماذا هذا القسم والتأكيد ..؟
حتى يهتمون به، ويقبلون عليه، ويفهمون ما فيه، ويعملون بشرعه وتعاليمه لعلكم تعقلون فتؤمنون.

* * *

ثم بين شأن هذا الكتاب، وعلو منزلته
فقال :

{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ }
[الآية : ٤]

وإنه أى القرآن الكريم موجود، ومحفوظ فى أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ.

وقد وصف الله تبارك وتعالى اللوح المحفوظ بهذين الوصفين، وهما :
الأول : أم الكتاب أصل جميع الكتب.
الثانى : لدينا أى : عندنا.
ثم وصف ربنا تبارك وتعالى القرآن بوصفين كذلك وهما :
الأول : لعلى أى : عال عن وجوه الفساد والبطلان، كما أنه عال على جميع الكتب؛ بسبب أنه هو المعجزة، وأنه باق إلى يوم القيامة.
الثانى : حكيم أى : محكم فى أبواب البلاغة والفصاحة، ومنافع العباد، فى الدنيا والآخرة.

* * *

وبعد أن بين المولى شرف القرآن فى الملأ الأعلى لينبه بذلك أهل الأرض على علو منزلته.
قال :

{ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ }
[الآية : ٥]

يعنى : أفنضرب عنكم إنزال الذكر صفحاً وهو القرآن إعراضاً عنكم؛ لأنكم كنتم قوماً مسرفين فى الجهالة والعناد والتكذيب ؟
إنه : من لطفنا لم نفعل ذلك بل أنزلناه، ودعونا المولى إلى الإيمان به، ليهتدى من قدر الله له الهداية، وتقوم الحجة على من كتب الله عليه الشقاوة.

* * *

ثم خفف الله على نبيه من آلام تكذيبهم له، وصبره على تحمل أذاهم بقوله :

{ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ }
[الآيات : ٦ — ٨]

أى : وكم وكثيراً أرسلنا من نبى فى الأولين السابقين، كما أرسلناك إلى هؤلاء، تدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله.
و العجيب أن هؤلاء الأولين ما يأتيهم من نبى يدعوهم إلى توحيد الله كما تدعو أنت هؤلاء إلا كانوا به يستهزئون ويكذبون، كما يستهزئ بك ويكذبك هؤلاء.
فماذا فعلنا بالمكذبين السابقين ؟
فأهلكنا السابقين، وهم أشد منهم أى من قومك بطشاً وقوة.
و قد مضى وسبق فى هذا الكتاب ذكر الكثير من مثل هؤلاء الأولين المكذبين، وألوان عذابهم وإهلاكهم.

* * *

هذا
وتبدأ آيات السورة الكريمة فى مناقشة عقائد مكذبى هذه الأمة، وتقيم الحجة عليهم، وتكشف العلل الحقيقية لمواقفهم الخاطئة، وتهدمها
وهذا موقف من مواقفهم فى عقيدتهم الفاسدة.
يقول تعالى :

{ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ }
[الآية : ٩]

يعنى : هم مقرون بأن خالق السموات والأرض هو الله.
ومع ذلك فهم لا يوحدونه، بل يعبدون معه غيره، كما أنهم لا يقرون بقدرته على البعث.

* * *

ويرد الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق ذكر أوصافه التى يعرفونها فيقول :

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ }
[الآيات : ١٠ – ١٤]

وهذه الأوصاف المذكورة للمولى هى :
الصفة الأولى : أنه خالق السموات والأرض، وأنتم مقرون بذلك.
الصفة الثانية : أنه هو العزيز الغالب، الذى له كمال القدرة.
الصفة الثالثة : أنه هو العليم المحيط علمه بكل شئ، فله إذاً كمال العلم.
الصفة الرابعة : أنه هو الذى جعل لكم الأرض مهداً ليتم الانتفاع بها.
الصفة الخامسة : أنه هو جعل لكم فيها سبلاً ليسهل لكم التنقل بين أرجائها.
الصفة السادسة : أنه هو الذى نزل من السماء ماءً وهذا الماء بقدر يقدره الله تعالى وفق حكمته، وهذا المقدار الذى ينزل فأنشرنا أحيينا به بلدة ميتاً بالنبات بعد أن كانت ميتة وخالية منه، وبهذا الأحياء تستدلون على أنكم كذلك تخرجون من القبور، وتبعثون.
الصفة السابعة : أنه هو الذى خلق الأزواج كلها وكل ما سوى الله خلقه الله سبحانه وتعالى.
الصفة الثامنة : أنه هو الذى جعل لكم من الفلك السفن والأنعام ما تركبون عليه.

ولتستقروا بقدرته وإنعامه على ظهوره ثم تذكروا بقلوبكم نعمة ربكم عليكم إذا استويتم عليه.
وتقولوا بألسنتكم وقلوبكم؛ شكراً لربكم سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين أى : مطيعين وإنا إلى ربنا لمنقلبون صائرون.

* * *

وهذا موقف آخر من مواقفهم فى عقيدتهم الفاسدة.
يقول رب العزة :

{ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ }
[الآيات : ١٥ – ١٨]

يعنى : هم قد جعلوا له سبحانه من عباده جزءاً.
حيث قالوا : الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له سبحانه، وبعضاً منه، كما يكون الولد جزءاً لوالده.

* * *

ويرد الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق طبيعة الإنسان فيقول:
إن الإنسان لكفور مبين واضح الجحود والنكران للنعمة؛ حيث نسب لله الولد.
ثم يفصل فى هذا الرد فيقول مستهزءاً بهم.
أم بل يدعون أنه سبحانه اتخذ مما يخلق بنات.
أهذا يعقل ؟
أنه اتخذ لنفسه البنات وأصفاكم وخصكم بالبنين.
فقد أعطوا الله الأقل فى نظرهم.
حيث إنه إذا بشر أحدهم بالأنثى ولدت له ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ويتوارى من القوم خجلاً من سوء ما بشر به.
أهذا يعقل ؟
أو من ينشأ فى الحلية هل من يتربى فى الزينة وهو فى الخصام غير مبين وهن البنات، كالرجال فيما يرون ؟
أنهم جمعوا أنواعاً من الكفر
كفر طبيعتهم.
وكفر نسبتهم الولد إلى الله.
وكفر جعلهم ما لله فى المقام الأدنى، حيث أعطوه ما يعتبرونه الأقل.
وكفر جعلهم أنفسهم فى المقام الأعلى، حيث جعلوا لأنفسهم ما يعتبرونه الأفضل.
وكفر جعلهم الملائكة : بنات الله.

* * *

وهذا موقف ثالث : من مواقف عقيدتهم الفاسدة.
يقول تعالى :

{ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ }
[الآية : ١٩]

يعنى : هم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً قالوا : "الملائكة بنات الله".

* * *

ويرد الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق عدم علمهم بالغيب فيقول مستنكراً مستهزءاً.
أ هم شهدوا خلقهم حتى يكونوا قد عرفوا المشاهدة أنهم إناث ..؟
أبداً لم يشاهدوا خلقهم؛ لأن ذلك من عالم الغيب الذى لا يعرفه، ولا يطلع عليه إلا الله.
على أية حال :
ستكتب شهادتهم هذه أن الملائكة إناث، فى صحائف أعمالهم، وديوان سيئاتهم.
ويسألون عنها يوم القيامة سؤال حساب وعذاب.

* * *

وهذا موقف رابع من مواقف عقيدتهم الفاسدة.
يقول تعالى :

{ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ }
[الايات : ٢٠ – ٢٢]

يعنى : هم عبدوا الملائكة، وتعللوا بمشيئة الله وقالوا لو شاء الرحمن أن نترك عبادتهم ما عبدناهم ولكنه شاء ذلك، ولا راد لمشيئته.

* * *

ويرد الله عليهم ببيان فساد عقيدتهم عن طريق عدم معرفتهم قبل عبادتهم أن هذه بمشيئة الله، وأن ذلك محض اختيارهم وانحرافهم إذ يقول سبحانه :

ما لهم بذلك أى : بهذه المشيئة من علم حتى يتعللوا بها فى انحرافهم.

ولكن الحقيقة إن هم إلا يخرصون يتقولون على الله تعالى ويكذبون.

أم هل آتيناهم كتاباً فيه بيان مشيئة الله من قبله أى : من قبل كفرهم هذا، وعبادتهم للملائكة فهم به أى : بهذا الكتاب، وهذا العلم مستمسكون وملتزمون؟

كلا لم نؤتهم كتاباً بذلك، ولا علم لهم.

بل الحقيقة : أنهم قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة على دين وإنا على آثارهم أى : وراءهم مهتدون بهم، فيما نفعل، وفيما نعبد.

* * *

هؤلاء : قومك يا محمد !!

وهذه : هى عقائدهم الفاسدة !!

وهذا : تقليدهم لآبائهم فى العناد والتكذيب.

فلا تحزن، ولا تغتم

{ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ }
[الآية : ٢٣]

وكذلك الحال ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير وهم كثير، كما أرسلناك إلى أهل مكة تبدأ بهم دعوتك إلا قال مترفوها أى : المترفون فى قرى الأنبياء هذه، كما قال قومك إنا وجدنا آباءنا على أمة دين وإنا سنظل على آثارهم أى : على ما كانوا عليه مقتدون بهم فيه.

* * *

{ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ }
[الآية : ٢٤]

أى : قاللهم نبيهم أو لو جئتكممن الدين والشرع بالهدىلكم مما وجدتم عليه آباءكممن عقيدة فاسدة أتتبعوننى ؟ .

قالواله في تبجح وعناد إنا بما أرسلتم بهكلكم كافرونلا نؤمن به ؟ و لا نتبعكم .

فماذا كانت النتيجة لهذا التكذيب والعناد ؟

{ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }
[الآية : ٢٥]

يعني : فانتقمنا منهملتكذبيهم وعنادهم ، حيث أهلكناهم فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[العنكبوت : ٤٠].
فانظرأيها العاقل كيف كان عاقبة المكذبينواعتبر حتى لا تكون مثل هؤلاء الهالكين .

هذا
ولأن التقليد أمر فاسد، ويؤدى إلى الهلاك يجب التحرر منه، والبعد عنه؛ ليكون الإنسان حراً فى فكره، مستخدماً لعقله، مستفيداً بآيات ربه، ودلائل هدايته.
وهذا هو نموذج واقعى حى لهذا الإنسان المتحرر من التقليد، المعتمد على البرهان والدليل.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }
[الآيات :٢٦ – ٢٨]

و اذكر للمقلدين إذ قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام تقليداً إننى براء أى : برئ مما تعبدون من هذه الأصنام إلا أننى أعبد الله الذى فطرنى وحده سبحانه فإنه وحده هو الذى سيهدين إلى كل خير، ويثبتنى عليه.
و قد جعلها الله عز وجل أى : كلمة التوحيد كلمة باقية فى عقبه أى : ذرية إبراهيم، يعملون بها، ويدعون لها لعل من شرد منـــهم عنها يرجعون إليها.

* * *

وكان المفروض أن يعود إليها هؤلاء المكذبون، الذين هم من ذرية إبراهيم، ولكنهم بعد بهم العهد، وكثرت عندهم النعم وقد اغتروا بالنعمة، ونسوا المنعم، وعادوا إلى التقليد.
يقول تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم

{ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ }
[الآيتان : ٢٩ ، ٣٠]

بل أكثر من جعل كلمة التوحيد باقية فيهم متعت هؤلاء وآباءهم بطول العمر، وكثرة النعم ليعرفوا ربهم، ويوحدوه، ويعبدوه حتى جاءهم الحق وهو القرآن ورسول مبين مظهراً لهم الأحكام والتعاليم والتشريعات النافعة فى الدنيا والآخرة.
و لكنهم لما جاءهم الحق مع رسول مبين قالوا هذا سحر سحرنا به محمد وإنا به كافرون مهما فعل، ومهما دعا ووضح.

* * *

وأضافوا إلى مواقفهم السابقة، وأقوالهم الفاسدة موقفاً كله حقد وعناد.
يقول تبارك وتعالى :

{ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }
[الآية : ٣١]

أى : وقالوا معترضين على الله عز وجل لولا نزل هذا القرآن على رجل غير محمد من القريتين مكة والطائف عظيم بدلاً من هذا اليتيم ٠
وهذا عناد، وتكذيب، وتعليل لكفرهم.
والعجيب : أنها – تقريباً – نفس حجة المعاندين لأصحاب الدعوات.

* * *

وقد رد الله عليهم اعتراضهم هذا بقوله.

{ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }
[الآية : ٣٢]

عجيب أمر هؤلاء الناس المعترضين !!
أهم الذين يقسمون ويوزعون رحمة ربك وهى النبوة.
أبداً لا.
يجب أن يعلموا جيداً.
أننا نحن الذين جعلنا النبوة فى أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً.

وأننا نحن الذين قسمنا بينهم معيشتهم وأرزاقهم، التى يغترون بها، ويترفعون على نبينا، صلى الله عليه وسلم، ويعاندونه، ويكذبونه، ويكفرون بدعوته.
و أننا نحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض بالغنى والصحة والجاه درجات.
وذلك ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً أى : يسخره ويستأجره فى العمل لديه؛ حتى تتم الأعمال، وتسير أمور الحياة.
و أننا الذين جعلنا رحمة ربك وهى النبوة، والدين الذى يدعو إليه هذا النبى، وما يوصل إليه من الجنة خير مما يجمعون من حطام الدنيا، ويغتروا به، ويترفعوا ويعاندوا ويكفروا بسببه.
إنهم لو علموا ذلك !!
ما قالوا ما قالوه.
ولا وقفوا من النبى صلى الله عليه وسلم هذا الموقف الذى وقفوه.

* * *

أيها الأحبة
هذه الدنيا التى غرتهم
وهذا الحطام الذى بهرهم، وجعلهم يعاندون
تافه فى نفسه، حقير عند الله.
لذلك : يقول المولى سبحانه وتعالى :

{ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ }
[الآيات : ٣٣ – ٣٥]

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة فى الكفر، بسبب فهم خاطئ، وهو أن عطاءنا النعم للكافرين دليل على محبتنا لهم لجعلنا لحقارة الدنيا عندنا لمن يكفر بالرحمن
لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج مصاعد أيضاً من فضة عليها يظهرون يصعدون.
و لجعلنا كذلك لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً جمع سرير، من فضة كذلك عليها يتكئون.
و كل ذلك زخرفاً زينة من زينة الحياة الدنيا.
وقد دلت الآية على أن مما يفتن بعض المسلمين عن دينهم والعياذ بالله رؤيتهم للكافرين فى النعيم، والرخاء الاقتصادى؛ بما يؤدى بهم إلى الظن بأن الإسلام سبب التأخر، والارتماء فى أحضان هؤلاء الكفار وأنظمتهم طريق للغنى والتقدم.
لذلك يرد الله عليهم هذا الفهم الخاطئ، صيانة لهم عنه، وعن مضاره فيقول :
وإن كل ذلك الذى تراه أيها المؤمن لمَّا ما هو إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية، ولا قيمة له مع الكفر.
و أما الآخرة، وثوابها فهو عند ربك يدخره للمتقين ولهم فقط، لا يشاركهم فيه أحد.

* * *

هذه تنبيهاتنا
وهذه وصايانا
وهذا ذكرنا وتذكيرنا

{ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ }
[الآيات : ٣٦ – ٣٩]

ومن يعش يتعامى ويتغافل عن ذكر الرحمن وهو القرآن نقيض نضم له شيطاناً ونسلطه عليه فهو له قرين دائم الصحبة، يحمله فى الدنيا على المعاصى، ويدخل معه النار يوم القيامة، ما دام بعيداً عن ذكر الله.
وإنهم أى : الشياطين ليصدونهم أى قرناءهم من الإنس عن السبيل إلى الهدى.
و الغريب أنهم أى الإنس المتغافلون يحسبون أنهم وهم فى ضلالهم هذا مهتدون مثل باقى الناس، بل قد يظنون أنهم أهدى من كثير من الناس !!
ويظل الحال هكذا
حتى إذا جاءنا هذا الغافل يوم القيامة، وعرف ضلال ما كان فيه، وسوء ما كان يفعله، وفساد ما كان يعتقده.
التفت إلى قرينه الذى حمله على المعاصى فى الدنيا، وقال له متحسراً يا ليت بينى وبينك كان فى الدنيا بعد المشرقين.
ثم قال له ما أسوأك فبئس القرين أنت.
وهنا يقول ربنا عز وجل لهؤلاء العصاة الغافلين المتغافلين فى الدنيا عن ذكر الرحمن : ولن ينفعكم اليوم ندمكم، ولا تحسركم على كفركم وظلمكم إذ ظلمتم.
على أية حال :
إنكم وقرناءكم فى العذاب مشتركون.
وهذه نهاية أصدقاء السوء فى الدنيا والآخرة.

* * *

كان الكفار أيها الأحبة فى الله كلما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم للإيمان ازدادوا عناداً وكفراً.
لذلك وصفهم الله بعد العشى فى عيونهم، والتغافل فى قلوبهم بالصمم والعمى.
حيث قال مهدئاً لحبيبه، ومخففاً عنه ألمه لكفرهم.

{ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ }
[الآيات : ٤٠ – ٤٢]

أفأنت تسمع الصم رغماً عنهم أو تهدى العمى الذين لا بصيرة عندهم، و كل من كان هكذا فى ضلال مبين واضح تهديه إلى الإيمان.

أبداً لا.
لذلك : لا تتألم لعدم إيمانهم.
وسوف نعذبهم.
فإما نذهبن بك وتموت، قبل تعذيبهم فإنا منهم منتقمون فى الآخرة، وسترى هذا.
وإما نرينك فى حياتك الذين وعدناهم به من العذاب.
وفى الحالين
فإنا عليهم وعلى عذابهم مقتدرون.

* * *

وبعد هذه التهدئة : يأمره ربه بما يأتى قائلاً :

{ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ }
[الآيات : ٤٣ – ٤٥]

تفيد هذه الآية الكريمة أن الله أمر حبيبه بثلاثة أشياء.
الأول : فاستمسك بالذى أوحى إليك وهو القرآن، واجعله منهاج حياتك وحياة أمتك، ولا تهمل فيه، ولا تستبدل به غيره، حيث إنك به على صراط مستقيم.
الثانى : حافظوا عليه، واعملوا به، وأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، ولا تفرطوا فيه، ولا تبتعدوا عنه وإنه لذكر شرف وسبب رفعة وعلو قدر لك ولقومك لو عملوا به.
وسوف تسألون عن القيام بحقه.
الثالث : واسأل من أرسلناك من قبلك من رسلنا بالنظر فى دعوتهم؛ ليعلم قومك خطأ موقفهم أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون حتى يعلم هؤلاء أنه لا يستحق التوحيد، والإخلاص، والعبادة إلا الله وحده.
فيؤمنون، ويوحدون، ويعبدون !!

* * *

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ }
[الآيات : ٤٦ – ٥٠]

يعني: ﴿ولقد ارسلنا موسى﴾ قبل محمد غ نبيًّا بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ يدعوهم إلىٰ الله ﴿فقال﴾ لهم ﴿إنى!∃﴾ ﴾ إليكم.∃#رسول رب العالمين
فطلبوا منه الآيات الدالة علىٰ صدقه.

﴾ معجزاتنا/فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا ∃ ﴿ الدالة علىٰ صدقه ونبوته(إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ ويستهزؤن بها.
وصرنا نريهم الآيات، ليؤمنوا.
وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ من هذه الآيات∃ ﴿ ﴾ ليؤمنوا.&﴿إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
ولكنهم لم يؤمنوا.
﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.. إلخ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم إلىٰ الله، ويؤمنوا.
وَقَالُوا﴾ عندما كنا نسلط عليهم لونًا من هذا)# ﴿ العذاب يا موسىٰ ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ من إجابة دعوتك ﴾ هذه المرة ﴿لمهتدون﴾ إلىٰ الإيمان.(إننا∃﴿
﴾ في كل#فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ∃ ﴿ مرة من هذه المرات ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ في عهدهم مع موسىٰ بالإيمان إذا رفع عنهم العذاب.

* * *

{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ }

[الآيات: ٥١ – ٥٣]

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ ﴾ مصر، وأعلن ﴿فِي قَوْمِهِ ﴾ نظرته هذه لموسىٰ، الداعي إلىٰ الله.%
﴾ لهم ﴿يقوم﴾ انظروا إليّ في غناي، وإلىٰ% ﴿قال موسىٰ في فقره وفكروا، وقدروا، لتعرفوا من منا علىٰ صواب.
﴿أليس لى﴾ أنا ﴿ملك مصر﴾ كلها، أرضًا وشعبًا، وخيرات ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ أي: من تحت قصوري أنا.
وهنا: ينبغي أن ندرك أن فرعون انتزع الملك من المالك الحقيقي، وهو الله تعالىٰ لنفسه.
وسكت شعبه.
فسبهم قائلًا ﴿أ﴾ أنتم عمي ﴿فلا تبصرون﴾ هذا ﴾ تبصرون..؟&الغنىٰ الذىٰ أنا فيه ﴿أمن
وسكت شعبه، فعاب نبي الله علىٰ مرأىٰ ومسمع من الجميع قائلًا: (أنا خير﴾ لغناي ﴿هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ ضعيف، لفقره ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ في كلامه.
ثم أكد فقر موسىٰ بقوله ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ ﴾ إن كان صادقا ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾ يصير بها غنيًّا عظيمًا، فنصدقه ونتبعه؟
كما أكد ضعفه – كذلك – بقوله ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ به، يعززون موقفه، ويشهدون له؛ فينصدقه ونتبعه؟ وسكت – أيضًا – شعبه.

* * *

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) }

[الآية: ٥٤]

نعم.. لأنهم كانوا: خفاف العقول، خفاف الأوزان، لا فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ﴾.%عقول عندهم يفكرون بها، ولا وزن لهم يفكر فيه هو ﴿
ولأنهم كانوا كذلك ﴿فأطاعوه﴾ في كفره، وباطله، الذي هو عليه، وتكذيب موسىٰ ÷.

ولكن.. لماذا كانوا خفافًا؟
ولماذا أطاعوه بهذه السهولة؟
لا.. المسألة ليست بهذه السرعة، وهذه السهولة لقد أعدهم فرعون لهذا الموقف من قبل.
لقد أفسدهم، لقد أغرقهم في الشهوات، كما أنه أذلهم بالتعذيب والتخويف.
حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾.

* * *

{ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ (٥٦) }
[الآيتان: ٥٥ ، ٥٦]

فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ أغضبونا بمواقفهم هذه!∃ ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.&انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ∃﴿
وهلكوا.
﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ بذلك ﴿سَلَفاً وَمَثَلاً ﴾ يعتبر به ﴿لِّلآخِرِينَ﴾ حتىٰ لا يفعلوا مثلهم..!!

* * *

وهذا.. موقف جديد من مواقف المشركين في كفرياتهم، وعنادهم، وفساد عقيدتهم.

يقول تعالىٰ:

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ } (٥٨)
[الآيتان: ٥٧ ، ٥٨]

لما نزل قوله تعالىٰ خطابًا للمشركين

{إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} [الأنبياء: ٩٨].

قال واحد منهم لرسول الله غ: أهذا لنا وحدنا أم لكل من عبد من دون الله؟
فقال غ: هي لكم، ولآلهتكم، ولكل من عبد من دون الله.
فقال الكافر: إذا كانت النصارىٰ يعبدون عيسىٰ، وهؤلاء – كما تقول – في النار فقد رضيا نحن وآلهتنا أن نكون معهم في النار.
وفهم الكفار أنهم بهذا هزموا النبي غ بهذا الجدال ففرحوا، وارتفعت بالضحك أصواتهم وهذا هو قوله تعالىٰ:(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ ﴾ أي: من المثل ﴿يَصِدُّونَ ﴾ أي: يضحكون.
أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ∃ ﴿ وَقَالُوا ﴾ للنبى غ ﴿ هُوَ ﴾.

وقد رد الله عز وجل عليهم .
أولًا: بقوله تعالىٰ:

{ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنا مبعدون} [الأنبياء: ١٠١].

ثانيًا: بهذه الآيات التي معنا في هذه السورة.
ما ضربوه﴾ أي:∃ وفيها يقول رب العزة للحبيب : ﴿ المثل ﴿إلا جدلا﴾ فقط، وليس يطلب الحق، أو معرفته.
﴿بل هم قوم خصمون﴾ أي: بل هذه طبيعتهم، وهي الخصومة والعناد.

* * *

ثم حدثهم القوي القادر عن عيسىٰ علي السلام فقال:

{إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ } [الآيتان: ٥٩ ، ٦٠]

﴿إِنْ هُوَ ﴾ أي: عيسىٰ ﴿إِلاَّ عَبْدٌ ﴾ من أَنْعَمْنَا ﴾ بالنبوة ﴿عَلَيْهِ ﴾.∃عبادنا، وليس إلهًا بل هو عبد ﴿
﴿ وَجَعَلْنَاهُ﴾ بخلقنا له من غير أب ﴿مَثَلاً﴾ ﴾ نختبر به(واضحًا، ودليلًا بينًا علىٰ عظيم قدرتنا ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إيمانهم.
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا ﴾ بقدرتنا هذه ﴿مِنكُم ﴾ أي: بدلكم أيها المشركون المعاندون ﴿مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بعد أن نهلكهم، لفعلنا !! فهل تعتبرون، وتؤمنون؟

* * *

ثم يقول تعالىٰ عن عيسىٰ ثانيًا:

{ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) } [الآيتان: ٦١ ، ٦٢]

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: نزول عيسىٰ ÷ ﴿لَعِلْمٌ﴾ أمارة ﴿لِّلسَّاعَةِ ﴾ ودليل علىٰ قرب وقوعها.
وفي الحديث: «ينزل عيسىٰ في الأرض المقدسة، وبيده حربة، وبها يقتل الرجال، ويأتىٰ بيت المقدس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام، فيقدمه عيسىٰ÷، ويصلي خلفه علىٰ شريعة محمد غ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارىٰ إلا من آمن به».
وبعد هذا الإخبار عن يوم القيامة يقول تعالىٰ لهم ثلاثة أشياء:
بها﴾ وهي∃ الأول: ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ ﴾ أي: تشكن ﴿ الساعة، وقرب مجيئها.
الثاني: ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي: اتبعوا هداي وشرعي، ومنهجي فإن شرعي ومنهجي ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.
﴾∃# الثالث: ﴿وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ وعن الإيمان بالساعة (مبين﴾.(عنه؛ حيث ﴿إنه

* * *

ثم يقول تبارك وتعالىٰ عن عيسىٰ عليه السلام ثالثًا:

{ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ }[الآيات: ٦٣ – ٦٥]

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى﴾ لبني إسرائيل∃ يعني: ﴿ ﴾ بالمعجزات، والشرائع الواضحات ./﴿الْبَيِّنَاتِ ﴾ لهم مخبرًا بأمرين، ومطالبًا بثلاثة:% ﴿قَالَ

الخبر الأول: ﴿قَدْ جِئْتُكُم ﴾ من الله ﴾ وهي: النبوة وشرائع الإنجيل./﴿بِالْحِكْمَةِ

الخبر الثاني: ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من أمور الدين، وأوضح الصواب، وأرشدكم إلىٰ اتباعه.

وأما الأوامر فهي:

الأمر الأول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وآمنوا به.

الأمر الثاني: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما جئتكم به من شرع الله.

ثم بين لهم عبوديته لله، وأمرهم.

بالأمر الثالث: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي ﴾ لذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده.

﴿هَذَا﴾ الذي جئتكم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ# ﴿ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فلا تحيدوا عنه.

فماذا فعلوا..؟

يقول تعالىٰ: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾.

لذلك يهددهم ربنا قائلًا: ﴿فويل﴾ يوم القيامة ﴾.&﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ

* * *

ولما بيّن القوي العزيز أن نزول عيسىٰ عليه السلام من علامات الساعة هدد الكفار بها فقال:

{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) }
[الآية: ٦٦]

أي: لم لا يؤمن هؤلاء الكفار..؟

وماذا ينتظرون ليؤمنوا..؟

إنهم بموقفهم هذا، وعنادهم هذا ما ﴿يَنظُرُونَ ﴾ وكذلك ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ في لهوهم ﴿لا#﴾ مجيء ﴿السَّاعَةَ(إِلاَّ يشعرون﴾ بها.

* * *

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن بعض أحوال يوم القيامة.

فيقول:

{ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) }

﴿ الأَخِلاَّءُ ﴾ أي: الأصحاب والأصدقاء في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿ضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن الصداقة إذا كانت في الدنيا علىٰ المعصية صارت عداوة يوم القيامة.

(إل المتقين﴾ الذين كانت صحبتهم وصداقاتهم علىٰ∃# طاعة الله، وهم في الدنيا.

* * *

وكأن سائلًا يسأل ماذا يكون حال هؤلاء المتقين..؟

فيكون الجواب..

{ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) }
[الآيات: ٦٨ – ٧٣]

يقال يوم القيامة للمتقين: يعبادى﴾ أبشركم وأسعدكم بهذه الإنعامات..
﴾ من أي# الأول: (لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ شيء.
الثاني: ﴿وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ اليوم علىٰ أي شيء.
﴾/بِآيَاتِنَا∃ لأنكم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدقوا ﴿ وكانوا﴾ بها عاملين، ولنا ﴿مسلمين﴾ ولأوامرنا منقادين.)#بتشريعاتنا ﴾
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ) الثالث: ﴿ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المؤمنات ﴿تحبرون﴾ تسرون وتكرمون.
ويدخلون بالفعل الجنة، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ فيها وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ∃﴾ أواني ﴿من ذهب﴾ فيها كل شيء ﴾/﴿بِصِحَافٍ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ)الرابع: ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ لا تخرجون منها، ولا تموتون فيها.
﴾& ﴿وتلك﴾ هي ﴿الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.∃فضلًا من الله ﴿
الخامس: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ سوىٰ منها تأكلون﴾.∃الطعام والشراب ﴿

* * *

وبعد أن يحدثنا ربنا تبارك وتعالىٰ عن نعيم المتقين يعرض علىٰ مسامع الدنيا كلها – تحذيرًا منه – جزاء الكافرين.
فيقول:

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨)}
[الآيات: ٧٤ – ٧٨]

حقًا ﴿إن المجرمين﴾ الكافرين ﴿فى عذاب جهنم خالدون﴾ جزاء ما كانوا يعملون مما يغضب الله، ويفسد البلاد، ويؤذي العباد.
هذا العذاب الخالد ﴿لا يفتر﴾ أي: لا يخفف عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ يائسون، ساكتون، لا يملكون ما به عن أنفسهم يدافعون.
﴾ بكفرهم.وما ظلمناهم﴾ بهذا العذاب ﴿ولكن كانوا∃ ﴿ ﴿هم الظالمين﴾.
ونادوا﴾ من شدة العذاب ويأسهم من رحمة الله..!!)# ﴿
قالوا: ﴿يامالك﴾ وهو خازن النار ﴿ليقضى علينا ربك﴾ !!
يا ألله..!!
ألهذا الحد من العذاب يصلون؟ يتمنون الموت.
ولكن بماذا يجيبهم مالك؟
﴾ لهم ﴿إنكم ماكثون﴾ مقيمون فيه، لا خروج،% ﴿قال ولا موت، بل وعذاب دائم.
وهذا ما تستحقون..!!

﴿لقد جئناكم﴾ نحن الملائكة رسل الله، وأنا واحد ﴾.منهم ﴿بالحق﴾ وبيناه لكم، ووضحناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ لا يقبلونه، ولا يعملون به. فعودوا علىٰ أنفسكم بالندم والملامة حيث لا يفيد الندم، ولا تنفع الملامة.

* * *

وبعد هذا الوعد بالنعيم المقيم للمتقين، والوعيد بالعذاب المقيم للمجرمين..!!
ينذر ربنا عز وجل المشركين.. فيقول لهم ولأمثالهم حتىٰ يوم القيامة:

{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) }
[الآيتان: ٧٩ ، ٨٠]

﴾ في الكيد والإيذاء&أبرموا﴾ وأحكموا ﴿أمرا) هل ﴿ فإنا﴾ بقدرتنا ﴿مبرمون﴾ أمر إهلاكهم وتعذيبهم.∃للدعوة وأهلها؟ ﴿

﴾ بل ﴿يحسبون﴾ ويظنون ﴿أَنَّا لاَ نَسْمَعُ& ﴿أم سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ﴾.
لذلك يخططون ويدبرون فنون الكيد والإيذاء.
﴾ نحن نسمع سرهم ونجواهم، ولا يغيب عنا من/ ﴿بلى أمورهم شيء.
وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ كل شيء،∃ ﴿ في كتاب

* * *

ثم يأمر الله سبحانه وتعالى حبيبه غ: أن يرد عليهم أباطيلهم.
حيث يقول له: أولًا:

{قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)}
[الآيتان: ٨١ ، ٨٢]

﴾ حقًا.﴾ لهؤلاء المشركين ﴿إن كان% أي: ﴿قل ﴾.#فأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ∃﴿للرحمن ولدا﴾ كما تزعمون ﴿
ولكن ليس الأمر كذلك إذ ليس للرحمن ولد.
(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ويقولون مما لا يليق بذاته عز وجل.

* * *

ثم يقول له ثانيًا:

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣)}

[الآية: ٨٣]

يخوضوا﴾ في أباطيلهم ﴿ويلعبوا﴾)# ﴿فذرهم﴾ اتركهم ﴿ ﴾#كما يريدون ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ الَّذِي يُوعَدُونَ فسوف يعلمون ما ينتظرهم من العذاب.
ولا تأبه لأقوالهم فسيعذبهم الله.

* * *

{ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) }
[الآيات: ٨٤ – ٨٦]

﴿وهو ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي فِي السَّمَاءِ ﴾ يعبد، بل لا يستحق أن يعبد سواه.(﴾ أيضًا ﴿إله#إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ ﴾ في تدبير هذا الملكوت# ﴿وهو﴾ سبحانه ﴿الحكيم ﴿العليم﴾ بمصالح خلقه.
﴿وتبارك﴾ سبحانه، وتعاظم، وتنزه عما يقوله السّفهاء فهو الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما خلقًا وتصرفًا.
﴾ أي: وقت# (و) هو الذي ﴿عنده﴾ وحده ﴿علم الساعه القيامة، لا يعلمه سواه.
(و) هو الذى ﴿إليه ترجعون﴾ يوم القيامة؛ فيجازى كل أحد بما يستحق، فضلًا أو عدلًا.
(و) هو الذي ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي: الذين يعبدهم المشركون ﴿من دونه﴾ أي غيره سبحانه ﴿الشفعه﴾ لهم عند العذاب، كما كانوا يزعمون ويقولون في الدنيا.
نعم.. لا يملك الشفاعة عند الله يوم القيامة ﴾ أي: كلمة التوحيد، وآمن، وأطاع الله، واتبع الرسل/﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله ربهم حقًا.

* * *

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) }
[الآيات: ٨٧ – ٨٩]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ قائلًا لهم: ﴿من﴾ الذي ﴿خلقهم﴾ ؟
﴾، ومع ذلك يعبدون# سيجيبونك قائلين: خلقهم ﴿الله غيره..!!
﴿فأنى﴾ وكيف مع هذا الإقرار بأن الله هو الخالق كانوا ﴿يؤفكون﴾ أي: يصرفون عن التوحيد وعبادة الله..؟
﴿وقيله﴾ أي: وقال الرسول غ شاكيًا ﴿يَا رَبِّ ﴾ معاندون ﴿لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾.%إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ
قال رب العزة له: ﴿فأصفح عنهم﴾ أي: أعرض عنهم، واترك دعوتهم، ﴿وقل ﴾ لهم ﴿سلام﴾ ولا تخاطبوهم بسوء كما يخاطبونك، بل ادفع بالتي هي أحسن.
﴿فسوف يعلمون﴾ ويرون عذابنا في الدنيا وفي الآخرة.
وهذا تهديد من الله تعالىٰ، لكل الكافرين.
وبشارة للمؤمنين أن تعلو كلمتهم، وأن ينتشر دينهم.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي سورة : مدنية .
تبدأ بقوله عز وجل .

{ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ }
[الآيتان ١ ، ٢]

الذين كفروا اعتقادا وصدوا الناس ، ومنعوهم بسلوكهم و إمكاناتهم عن إتباع سبيل الله ودينه وهو الإسلام .
هؤلاء : أضل الله وأحبط وأضاع ثمرة ، أعمالهم الحسنة في الآخرة ، حتى وإن نالوا بعضها في الدنيا .
و أما الذين آمنوا اعتقادا وعملوا الصالحات سلوكا ،وآمنوا وثقوا بما نزل على محمد وهو القرآن وأيقنوا أنه هو الحق من ربهم وعملوا به .
هؤلاء :كفر عنهم وغفر لهم سيئاتهم التى وقعت منهم ،وأصلح لهم بالهم أي : حالهم .
ويبين ربنا السبب ..
فيقول :

{ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ }
[الآية ٣]

ذلك أى إضلال أعمال الكافرين ، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم : بـــ سبب :
أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وهو الشيطان ، فأضلهم .
وأن الذين آمنوا خالفوا الشيطان ، و اتبعوا الحق الذي جاء من ربهم وهو القرآن .
كذلك البيان :
يضرب الله للناس أمثالهم ؛ ليهتدوا.

ولما بين ربنا تبارك وتعالى ، أن الذين كفروا : أضل – عز وجل – أعمالهم .. !!
ومن المعلوم أن اعتبار الانسان ، وقيمته : تكون بالعمل الصالح .
وأن من لا عمل له : فهو همج ، لا فائدة منه ، وإعدامه خير من وجوده .
لذا : لما كان الكفار بلا عمل ، بل أعمالهم شريرة ضالة ، ضارة ، أمر ربنا بقتالهم
فقال :

{ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ* وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ }
[الآيات ٤ – ٦]

أي : فإذا لقيتم أيها المؤمنون الذين كفروا في ساحات القتال ،وهم يصدون الناس عن سبيل الله ، ويؤذون خلق الله .. فضرب الرقاب لهم منكم .
أي : فاضربوا رقابهم وأقتلوهم حتى إذا أثخنتموهم بكثرة القتل فيهم ، وسَهُلَ أسرهم ، فشدوا الوثاق يعني فأسروهم ، حتى تنتهي الحرب .
فإما منا بعد أى : بعد انتهاء الحرب منكم عليهم ، بتركهم وإطلاق حريتهم.
وإما فداء أي : تحصلون على فداء لهم بمال ، أو بتبادل أسرى من المسلمين معهم .
وذلك حتى تضع الحرب أوزارها أي : أثقالها ، وتنتهي .
ذلك هو المطلوب ، لحكم يعلمها الله .
ولو يشاء الله هزيمتهم لانتصر منهم بدون قتال .
ولكن شرع ذلك ليبلو بعضكم ببعض وينتصر الحق على الباطل .
هذا ..!!
والذين قتلوا من المؤمنين في سبيل الدفاع عن دين الله : فأجرهم عظيم على النحو التالى ..
أولا : فلن يضل ويضيع أعمالهم بل ينميها لهم ، ويأجرهم عليها.
ثانيا : سيهديهم إلى الجنة ، ليدخلوها .
ثالثا : ويصلح بالهم حيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.
رابعا: ويدخلهم الجنة عرفها طيبها وزينها وحملها لهم.
هذا ما لهم في الاخرة ..
وأما الذى في الدنيا : فيعدهم الله بالنصر والتثبيت ..
حيث يقول :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }
[الآية ٧]

يعني يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا دين الله ورسوله :ينصركم على عدوكم بشتى أنواع النصر ،ويثبت على الحق ،وعلى مبادئ الإسلام ،وفي ساحات الجهاد أقدامكم
وهذا : عن المسلمين وشهدائهم .

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ }
[الآيتان ٨ ، ٩]

و أما الذين كفروا إن كانوا أحياء بعد القتال :فتعسا لهم أي : هلاكا ينتظرهم ، وتعاسة يعيشون معها ، وخيبة أمل في أهدافهم .
وأضل أعمالهم إن قتلوا في هذه المعارك ، التى عملوها في الدنيا ، ولو كانت أعمالا جيدة ؛ حيث يدخلون النار

ذلك الجزاء : بأنهم كرهوا وحاربوا المؤمنين ، و ما أنزل الله من تشريع ومنهاج ، فأحبط الله أعمالهم وأضاع ثوابها ..
ولا غرابة في ذلك ..!! ثم يقول المولى سبحانه :

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ }
[الآيتان ١٠ ، ١١]

أ قعد هؤلاء الكافرين فلم يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار السابقين ؛ فيعرفوا كيف كان عاقبة الذين كذبوا وعاندوا من قبلهم ..؟
لقد دمر الله عليهم بلادهم وأهلكهم ، وأبادهم ، ونجى المؤمنين .
و ليعرفوا : أنه للكافرين من أهل مكة ومن غيرهم أمثالهاأيضا.
ذلك التدمير للكافرين ، و الإنجاء للمؤمنين بـــ سبب :
أن الله مولى الذين آمنوا حيث اتخذوه لهم وليا.
وأن الكافرين لا مولى لهم يمنع عنهم العذاب.

أيها الأحبة فى الله ..
روى أن الصحابة رضوان الله عليهم عندما نزلت هذه الآيات ،قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : هنيئا لك .. إلى الله غفر لك ، فماذا لنا ..؟
فنزل قوله تعالى :

{ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً }
[الآية ٥]

أى : ليدخل الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات بهذا الجهاد والثقة ، والطاعة جنات تجرى من تحتها الأنهار للإقامة خالدين فيها أبدا.
و كذلك يكفر عنهم سيئاتهم ، ويصفح عنهم فلا يعاقبهم عليها .
وكان ذلك الإدخال فى الجنة ، والتكفير للسيئات عند الله فوزا عظيما لا يعادله فوزا آخر يحصل عليه الإنسان .

* * *

ومن أدوات النصر للمؤمنين : تعذيب الله لأعدائهم .

يقول سبحانه :

{ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً }
[الآية ٦]

ويعذب الله المنافقين والمنافقات لشدة عداوتهم ، وضررهم بالمؤمنين.
ويعذب كذلك المشركين والمشركات لحربهم لله ولرسوله .
كل هؤلاء الظانين بالله ظن السوء الذين كانوا يتهمون الله فى حكمه ، ويشككون فى آياته ، ويظنون بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الهزيمة : عليهم جميعا ..
تدور دائرة السوء وهى : العذاب والهلاك .
و كذلك غضب الله عليهم .
و ثالثا لعنهم طردهم من رحمته ، وحرمهم نهائيا منها .
وهذا .. فى الدنيا .
و أما فى الآخرة ..
فقد أعد لهم جهنم فأصبحت دارهم ومصيرهم وساءت لهم دارا ومصيرا .

* * *

ثم ينبه ربنا تبارك وتعالى على قدرته من الانتقام من أعداء الإسلام ..
فيقول :

{ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }
[الآية ٧]

ولله جنود السماوات والأرض التى يدفع بها كيد أعداء الإسلام .
وكان الله عزيزا حكيما .

* * *

هذا ..
ويشرف الله حبيبه ، ويحدد له مهمته ، بقوله :

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }
[الآية ٨]

إنا أرسلناك يا محمد برسالتنا للناس جميعا .
شاهدا عليهم بالإيمان لمن آمن وبعدمه لمن يؤمن .
ونذيرا للكافرين بجهنم ، وغضب الله .

* * *

ويبين ربنا تبارك وتعالى : فائدة إرسال النبى على هذا الوجه المذكور ، بقوله :

{ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }
[الآية ٩]

أى : أرسل سبحانه وتعالى النبى هكذا ..
لتؤمنوا أيها الخلق جميعا ، وتصدقوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
وتعزروه سبحانه وتعالى .. وتعزير الله : نصرة دينه ورسوله .
وتوقروه سبحانه وتعالى .. أى : تعظموه .
وتسبحوه سبحانه وتعالى بكرة وأصيلا .

* * *

ثم تبين الآيات أن من بايع النبى صلى الله عليه وسلم صورة :فقد بايع الله حقيقة .
إذ تقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً }
[الآية ١٠]

إن الذين يبايعونك بيعة الرضوان بالحديبية إنما يبايعون الله حقيقة ؛ لأن فى ذلك مرضاة لله ، وإعزاز لدينه ، ونصرة لأهله .

هؤلاء يد الله فوق أيديهم التي بايعوا بها النبى صلى الله عليه وسلم ، يعنى هو سبحانه مطلع عليهم ، وعالم بهم ، وسيجازيهم على ذلك خيرا .
فمن نكث مبايعته لله ، ونقض العهد ، ولم يف :فإنما ينكث على نفسه والضرر لا يعود إلا عليه ، والله عز وجل غنى عنه ، وعن عباده كلهم .
و أما من أوفى بما عاهد عليه الله فى بيعته :فسوف يؤتيه المولى عز وجل أجرا عظيما وهو الجنة .

* * *

وإذا كان الحديث عن إهلاك الكافرين : فيه نوع من النصرة للمؤمنين ..!!
فإنه عز وجل يحدثنا عن نوع آخر من هذه النصرة الألوهية للمؤمنين .
حيث يقول :

{ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ }
[الآية ١٢]

إن الله ينصر أولياءه ، حيث يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .
و أما الذين كفروا : فلا يغرنكم يا مؤمنين ، ما هم فيه ؛ فإنهم يتمتعون بمتاع الدنيا أياما قلائل ويأكلون بشراهة ، غافلين عن مصيرهم ونهايتهم كما تأكل الأنعام بشراهة ، غافلة عما ينتظرها من الذبح .
و بعد هذه الحياة : تكون النار مثوى لهم أى : دار إقامة لا يخرجون منها .
ثم يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم :

{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ }
[الآية ١٣]

أي : وكم من قرية كانت هي وأهلها أشد قوة من قريتك مكة التي أخرجتك يعني أخرجك أهلها ..؟!!
إنهم كثير .. !!
وقد أهلكناهم لما كفروا وعاندوا ..فلا ناصر لهم من هذا الهلاك .
فليعتبر كفار مكة بذلك ..!!
ويبين ربنا الفرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين معانديه ..
فيقول :

{ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم }

[الآية ١٤]

أبدا والله ، لا يستويان ..!!
ليس محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي هو على بينة من ربه ودليل واضح ، وصراط مستقيم كمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، من هؤلاء الكفار واتبعوا بالتالي أهواءهم وتركوا دين الله .

وإذا كان هذا هو الفرق بين المهتدين وبين الضالين في الدنيا : فالفرق كبير بينهما في الآخرة .. اقرأ قوله تعالى.

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ }
[الآية ١٥]

هذا مثل أي : وصف الجنة التي وعد بها المتقون وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..
فيها
أنهار من ماء غير آسن ماء جار ، لا يتغير طعمه ، ولا لونه ،ولا رائحته .
و أنهار من لبن لم يتغير طعمه كما تتغير ألبان الدنيا .
و أنها من خمر ليست كخمر الدنيا ، لا تذهب عقل شاربها ، ولا كريهة في نفسها ، بل لذة للشاربين لا تعادلها لذة .
وأنهار من عسل مصفى
ولهم فيها مع ذلك :
من كل الثمرات ألوان وألوان.
ومغفرة – فوق كل هذا –من ربهم فهو سبحانه راض عنهم ، مع إحسانه إليهم .
خبروني بربكم .. !!
أهذا الجزاء الطيب والنعيم الدائم للمتقين ..كمن أي : مثل جزاء الكافر ، الذي هو خالد في النار لا يخرج منها ولا يستريح فيها أبدا و فوق ذلك سقوا ماء حميما حارا شديد الحرارة ، لا يُتحَمَّل أبدا فقطع أمعاءهم في بطونهم ..؟!!
هذا ..
ولما كان حديث السورة من أولها إلى هنا ،عن الكافرين والمؤمنين ،وجزاء كل منهما : يبدأ حديث عن صنف جديد من الناس ،لم يظهر في العهد المكي للإسلام .
وهم المنافقون .
يقول سبحانه :

{ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ }
[الآية ١٦]

أي ومن الكفار من يستمعون إليك وهم المنافقون حتى إذا خرجوا من عندك وقد سمعوا القرآن :قالوا إستهزاء وسخرية للذين أوتوا العلم من المسلمين ماذا قال آنفا أي : حاليا ، لاننا لم نفهم ما قال ..؟!!

أولئك هم الذين طبع الله على قلوبهم ، بالكفر فلا يعقلون .
و هم كذلك : الذين اتبعوا أهواءهم وخالفوا فطرتهم .

{ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ }
[الآية ١٧]

و أما الذين اهتدوا إلى الله ، وسلكوا الطريق لمرضاته :
زادهم الله ، كرما منه هدى على هداهم .
وآتاهم أي : أعانهم على تقواهموفقهم إليها .
وبعد أن اتضح الفرق بين الهدى والضلال .. !!
ماذا ينتظر الكافرون ؛ ليؤمنوا .. ؟

{ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ
[الآية ١٨]

فهل ينظرون أي : ينتظرون ، وهم الكافرون والمنافقون إلا الساعة أي : القيامة أن تأتيهم بغتة فجأة ، وهم في لهوهم غافلون عنها .. ؟
فاحذروا ، وآمنوا .
فقد جاء أشراطها أي : علاماتها ، التي تشير إلى قرب وقوعها .
فأنى لهم فكيف يتصرفون ساعتها إذا جاءتهم بغتة . ؟
وكيف تنفعهم يوم القيامة ذكراهم لها ، واعترافهم بها .. ؟
ولما قال ربنا تبارك وتعالى عن يوم القيامة :فقد جاء أشراطها ..!!
خاطب النبي صلى الله عليه وسلم – والمراد أمته – قائلا :

{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ }
[الآية ١٩]

أي: فاعلم أنه لا إله إلا الله وحده ، يأتي بالساعة .
وبالتالي :
فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات لتستن أُمَّتُكَ بذلك ، وتتعلم الاستغفار من الذنوب.
والمعني : فاثبت على التواضع ، باستغفار ذنبك ، وذنوب من على دينك .
وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، حيث كان يستغفر ربه في كل يوم مائة مرة .
هذا ..والله يعلم متقلبكمفي مصالحكم نهارا ومثواكم في مضاجعكم ليلا ، ولا يخفى عليه شئ منكم .
فاحذروه ..!!
وبعد أن ذكر الله عز وجل .
موقف المنافقين ، عند سماع القرآن بقوله ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك .

وموقف المؤمنين عند ذلك بقوله والذين اهتدوا زادهم هدى ..
وضح موقفهم جميعا من آيات الجهاد ..
فقال :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾
[الآيتان ٢٠ ، ٢١]

ويقول الذين آمنوا طلبا للجهاد ، وحبا في رفع راية الإسلام :لولاهلا نزلت سورة فيها الأمر بالقتال .. !!
فإذا أنزلت سورة محكمة واضحة لا نسخ فيها ، ولا تأويل لها وذكر فيها القتال واضحا ..!!
أتدري ماذا يفعل المنافقون .. ؟
يقول عز وجل :
رأيت المنافقين ساعتها ينظرون إليكخائفين نظر المغشي عليه من الموت.
وهذا : موقف سيء ، ما كان ينبغي منهم .
فأولى لهم من ذلك ، أن يكون موقفهم :طاعة لله ورسوله ،وقول معروف حسن لك ، بدلا من كلامهم السيئ .
على أية حال :
فإذا عزم الأمر أي : فرض القتال ، وحانت ساعته ..!!
فلو أنهم صدقوا الله وآمنوا به ، وأطاعوا لكان هذا الصدق والإيمان ، وهذه الطاعة خيرا لهم من كراهيتهم للجهاد
ثم يقول لهم ربنا ،جل شانه ، وعظم سلطانه .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾
[الآيات ٢٢ – ٢٤]

فهل عسيتم أي : لعلكم إن توليتم عن طاعة الله ، والجهاد في سبيله :أن تعودوا إلى أمور الجاهلية ، و تفسدوا في الأرض بغيا وتقطعوا أرحامكم ظلما ..!!
الذين يفعلون هذا ..
يقول المولى عنهم :
أولئك الذين لعنهم الله وطردهم من رحمته فأصمهم عن سماع الحق و
أعمى أبصارهم عن سلوك طريق الهدى.
ولا يتركهم المولى حيارى..
بل يرشدهم إلى ما يأخذ بأيديهم ، ويعيدهم إلى
الصواب .
فيقول :
أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟
أفلا يتدبرون القرآن فيعرفون طريق الهدى والفلاح .
أم أنهم أصحاب قلوب عليها أقفالها فلا تستجيب لهداية ، ولا تحب
رشادا ..؟

هؤلاء إذن : قد ارتدوا عن الإيمان ..
والله عز وجل يقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ }
[الآيتان ٢٥ ، ٢٦]

إنهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من الإسلام إلى الكفر من بعد ما تبين لهم الهدى و اتضح لهم الحق:الشيطان هو الذي سول حسن لهم هذا الكفر وأملى مد في الأماني لهم وغرهم وخدعهم .
والسبب في ذلك :أنهم قالوا للكافرين الذين كرهوا ما نزل الله وصدوا الناس عن سبيل الله سرا سنطيعكم في بعض الأمر.
وهو تثبيط الناس عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .
والله يعلم إسرارهم كما يعلم علانيتهم ، وسيجازيهم أسوا الجزاء.
هؤلاء فزعوا من القتال ، وبعدوا عن ساحات الجهاد .

{ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَن لَن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ }
[الآيات ٢٧ – ٣٠]

يعني : فكيف حالهم ، وماذا يفعلون إذا جاء أجلهم ، و وتوفتهم قبضت أرواحهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم ..!؟
ذلك التعذيب لهم ساعة الموت بأنهم اتبعوا ما أسخط الله عليهم وكرهوا رضوانه ،فأحبط أضاع وأبطل الله – بالتالي –أعمالهم فلم يقبلها منهم ، مهما كانت حسنة .
أم هل حسب هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض وفصلت أحوالهم الشنيعة :أن لن يخرج يظهر الله سبحانه وتعالى أضغانهم أحقادهم على الإسلام وأهله ..؟
إن كان ذلك : فهو فهم خاطئ ، وظن سيئ وتصور جاهل .
ولو نشاء يا محمد لأريناكهم ودللناك عليهم ..
فلعرفتهم بسيماهم بعلاماتهم ، التى تظهر على وجوههم.
ولعرفتهم كذلك في لحن القول حيث لا يستطيعون كتمان ما بأنفسهم من الحقد والكراهية للإسلام وأهله .
ثم يقول ربنا للمؤمنين بعد هذه التعرية للمنافقين :
والله يعلم أعمالكم فيجازيكم عليها بحسب قصدكم .
ثم يقول لهم كذلك :

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ }

[الآية ٣١]

ولنبلونكم بالجهاد حتى نعلم أى : نظهر المجاهدين منكم والصابرين
الصادقين في الجهاد
ونبلو كذلك اخباركم كلها ، سرها وعلانيتها .

يا أيها المؤمنون ..

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ }
[الآية ٣٢]

اعلموا أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الثلاث ...
وهي : الكفر ، والصد عن دين الله ، وعداوة الرسول صلى الله عليه وسلم .
وذلك من بعد ما تبين لهم الحق ، وعرفوا الهدى.
هؤلاء : لن يضروا دين الله شيئا بل يضرون أنفسهم وسيحبط الله
أعمالهم.
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ }
[الآية ٣٣]

يا أيها الذين آمنوا: لا تكونوا كهؤلاء
بل أطيعوا الله فامتثلوا لأوامره ، واجتنبوا نواهيه .
وأطيعوا الرسول في شخصه حيا ، وبإحياء سنته ، والعمل بها بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .
ولا تبطلوا بالنفاق والرياء ، أو الردة أعمالكم
نعم لا تبطلوا أعمالكم حيث

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ }
[الآية ٣٤]

إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل وظلوا على ذلك ولم
يتوبوا ثم ماتوا وهم كفار على هذا الحال :فلن يغفر الله لهم لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء [النساء ٤٨، ١١٦]

{ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ }
[الآية ٣٥]

فلا تهنوا وتذلوا وتدعوا عدوكم إلى السلم والمصالحة وأنتم الأعلون عليهم قوة ، والأكثر منهم عددا .
ولا تهادنوهم إلا عند الضرورة التي يقدرها الإمام
و اعلموا أن الله معكم سينصركم عليهم
و كذلك لن يتركم وينقص سبحانه أعمالكم ،بل يضاعف لكم ثوابها
يا أيها الذين آمنوا

{ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ }
[الآية ٣٦]

إنما الحياة الدنيا لا قيمة لها ، فهي لعب ولهو للمتعلق بها
فاحذروا أن تشغلكم عن طاعة الله ، و أن تفتنكم بزينتها .
و لذلك :
إن تؤمنوا بالله وتتقوا محارمه :يؤتكم فضلا منه أجوركم وثواب أعمالكم الصالحة .
ولا يسألكم أيضا : أخذ أموالكم لأنه سبحانه غني عنكم ، وعن عباده جميعا ،وما تدفعونه في الصدقات والزكاة : فنفعها لكم .
وذلك لأنه :

{ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ }
[الآية ٣٧]

يعني : إن يسألكم هذه الأموال فيحفكم أي : يفرض عليكم دفعها كلها تبخلوا بها.
وبذلك البخل يخرج ويظهر أضغانكم أي : دخائل نفوسكم من تفضيل الأموال والأولاد ،والدنيا على نصرة الدين .
أتريدون دليلا ..

{ هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ }
[الآية ٣٨]

ها أنتم الأن ، وفي كل آن تدعون من الله لتنفقوا من أموالكم في سبيل الله ونصرة الدين ..
فمنكم من يجود بماله .
ومنكم من يبخل بماله .
ومن يبخل بماله ، ولا ينفق في سبيل الله فإنما يبخل بالخير والثواب عن نفسه .
والله عز وجل الغني عن كل ما سواه .
وأنتم الفقراء دائما ، وفي كل شئ إليه سبحانه وتعالى
فلا تبخلوا بمالكم عن الإنفاق في سبيل الله .
ولا تقصروا في طاعة الله عز وجل
وإن تتولوا تعرضوا عن طاعته ، أو عن الجهاد :يستبدل سبحانه بكم قوما غيركم ، يحملون هذا الدين ، ويرفعون رأيته ، وينشرون مبادئه .
ثم لا يكونوا أمثالكم في التخلي عن نصرة الإسلام ، بل يكونون أطوع لله منكم ، وأكثر للدين نصرة ، ولأهله حماية ، وعن حرماته دفاعا .

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى : سورة مكية .
تبدأ بقوله عز وجل :

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً }
[الآيات ١-٣]

إنا فتحنا لك يا محمد .. المستقبل ، وأبواب الخير لك ، ولدعوتك ، ولأمتك بصلح الحديبية مع المشركين وجعلناهفتحا مبينا واضحا ظاهرا ؛ حيث أمن الناس الحروب ، وانتشر الإيمان .
وكان ذلك : لتصل هذه النعم .
الأولى : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر حتى ترغب أمتك فى الجهاد ، والمسارعة إلى طاعة الله .
الثانية : ويتم نعمته عليك فى الدنيا والآخرة ؛ بإعلاء دينك ، وفتح البلاد على يديك .
الثالثة : ويهديك بما يشرع لك ، وينزل عليك صراطا مستقيما لاعوج فيه ولا إنحراف .
الرابعة : وينصرك الله بالجهاد على أعدائك نصرا عزيزا لا ذل بعده.

*   *   *

ثم يبين ربنا : بعض أدوات النصر ، فيقول سبحانه وتعالى :

{ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً }
[الآية ٤]

هو سبحانه الذى أنزل السكينة وهى : الطمأنينة .. يوم صلح الحديبية فى قلوب المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وانقادوا طواعية .
وذلك ليزدادوا بهذا الاطمئنان ، والرضى بحكم الله ورسوله إيمانا مع إيمانهم أى : ثقة ويقينا مع ثقتهم .
و هكذا لله جنود السماوات والأرض التى ينصر الله بها عباده .
ومن جنوده : هذه السكينة ،التى نزلت على قلوبهم عندما أحس بعضهم بهذه نفسية عند هذه المعاهدة .

وكان الله عز وجل عليما بقلوب عباده ، وكيف يصلحها حكيما فى أقواله ، وأفعاله ، وأحكامه المبنية على علمه المحيط سبحانه !!

* * *

أيها الأحبة فى الله ..
روى أن الصحابة رضوان الله عليهم عندما نزلت هذه الآيات ،قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : هنيئا لك .. إلى الله غفر لك ، فماذا لنا ..؟
فنزل قوله تعالى :

{ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً }
[الآية ٥]

أى : ليدخل الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات بهذا الجهاد والثقة ، والطاعة جنات تجرى من تحتها الأنهار للإقامة خالدين فيها أبدا.
و كذلك يكفر عنهم سيئاتهم ، ويصفح عنهم فلا يعاقبهم عليها .
وكان ذلك الإدخال فى الجنة ، والتكفير للسيئات عند الله فوزا عظيما لا يعادله فوزا آخر يحصل عليه الإنسان .

* * *

ومن أدوات النصر للمؤمنين : تعذيب الله لأعدائهم .
يقول سبحانه :

{ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً }
[الآية ٦]

ويعذب الله المنافقين والمنافقات لشدة عداوتهم ، وضررهم بالمؤمنين.
ويعذب كذلك المشركين والمشركات لحربهم لله ولرسوله .
كل هؤلاء الظانين بالله ظن السوء الذين كانوا يتهمون الله فى حكمه ، ويشككون فى آياته ، ويظنون بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه الهزيمة : عليهم جميعا ..
تدور دائرة السوء وهى : العذاب والهلاك .
و كذلك غضب الله عليهم .
و ثالثا لعنهم طردهم من رحمته ، وحرمهم نهائيا منها .

وهذا .. فى الدنيا .
و أما فى الآخرة ..
فقد أعد لهم جهنم فأصبحت دارهم ومصيرهم وساءت لهم دارا ومصيرا .

* * *

ثم ينبه ربنا تبارك وتعالى على قدرته من الانتقام من أعداء الإسلام ..
فيقول :

{ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }
[الآية ٧]

ولله جنود السماوات والأرض التى يدفع بها كيد أعداء الإسلام .
وكان الله عزيزا حكيما .

* * *

هذا ..
ويشرف الله حبيبه ، ويحدد له مهمته ، بقوله :

{ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً }
[الآية ٨]

إنا أرسلناك يا محمد برسالتا للناس جميعا .
شاهدا عليهم بالإيمان لمن آمن وبعدمه لمن يؤمن .
ونذيرا للكافرين بجهنم ، وغضب الله .

* * *

ويبين ربنا تبارك وتعالى : فائدة إرسال النبى على هذا الوجه المذكور ، بقوله :

{ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }
[الآية ٩]

أى : أرسل سبحانه وتعالى النبى هكذا ..
لتؤمنوا أيها الخلق جميعا ، وتصدقوا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
وتعزروه سبحانه وتعالى .. وتعزير الله : نصرة دينه ورسوله .
وتوقروه سبحانه وتعالى .. أى : تعظموه .
وتسبحوه سبحانه وتعالى بكرة وأصيلا .

* * *

ثم تبين الآيات أن من بايع النبى صلى الله عليه وسلم صورة :فقد بايع الله حقيقة .
إذ تقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً }
[الآية ١٠]

إن الذين يبايعونك بيعة الرضوان بالحديبية إنما يبايعون الله حقيقة ؛ لأن فى ذلك مرضاة لله ، وإعزاز لدينه ، ونصرة لأهله .
هؤلاء يد الله فوق أيديهم التي بايعوا بها النبى صلى الله عليه وسلم ، يعنى هو سبحانه مطلع عليهم ، وعالم بهم ، وسيجازيهم على ذلك خيرا .
فمن نكث مبايعته لله ، ونقض العهد ، ولم يف :فإنما ينكث على نفسه والضرر لا يعود إلا عليه ، والله عز وجل غنى عنه ، وعن عباده كلهم .
و أما من أوفى بما عاهد عليه الله فى بيعته :فسوف يؤتيه المولى عز وجل أجرا عظيما وهو الجنة .

* * *

هذا ..
ولما ذكر الله أهل بيعة الرضوان ، وأضافهم إلى حضرة الرحمن : بين حال من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يسعد بهذه البيعة ،فقال :

{ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً }
[الآيتان ١١ ، ١٢]

يعنى : إذا رجعت يامحمد إلى المدينة سيقول لك المخلفون عنك ؛ اعتذاراشغلتنا أموالنا وأهلونا عن الذهاب معك .
ونحن مُقرون بالخطأ .. !!
لذلك فاستغفر لنا ربك ، واعف عنا ، وأقبل عذرنا .
ويكذبهم السميع العليم ، ويعلم حبيبه والدنيا كلها بكذبهم هذا ؛ حيث يقول :
هؤلاء يكذبون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم واعتذارهم نفاق ، وطلبهم الغفران نفاق ..
فلا تصدقهم .
وقل لهم ..
أولا : لقد تخلفتم خوفا من الضرر فمن يملك لكم إذن من الله شيئا إن أراد بكم نفعا؟
إنه لا أحد يملك ذلك بالطبع .
بل كان أى : وكان الله بما تعملون خبيرا يعلمه ، ويجازكم عليه .
ثم يكشف السبب الحقيقى لتخلفهم ، فيقول :
ثانيا : بل لقد ظننتم أن لن ينقلب لن يعود الرسول والمؤمنون إلى أهليهم فى المدينة أبدا حيث سيقتلهم المشركون عن آخرهم .
وهذا : ظن خاطئ ، فاسد ، سئ .
وزين ذلك من جهة الشيطان فى قلوبكم فصدقتموه ، وظننتم ظن السوء الفاسد الخاطئ هذا .
و بذلك كنتم : يعنى صرتم قوما بورا فاسدين ، خاسرين ، هالكين .

* * *

{ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً }
[الآية ١٣]

ومن لم يؤمن بالله وَصِدْق وعده ورسوله وصدق قوله ، ويخلص العمل لله فى الظاهر والباطن : فقد كفر !!..
وعلى هذا ..
فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا نارا تُسَعَّر بهم ، ويعذبون فيها .

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

هذا الأجر العظيم : لمن بايع الله ورسوله .
وهذا العذاب الأليم : لمن كذب الله ورسوله ..
وكل ذلك بقدرة الله ، ومشيئته .

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }
[الآية ١٤]

نعم ..
هو المالك سبحانه ، ولا مالك سواه ، لجميع الكون ، وما فيه ، ومن فيه .
لذلك يغفر لمن يشاء من عباده بفضله ويعذب من يشاء من عباده بعدله.
ولكن : مغفرته أوسع ، ورحمته أعم .
وكان الله وما يزال غفورا رحيما .

* * *

أيها الأحبة ..
سبق أن ذكرت الآيات الكريمة : المخلفين وأعذارهم .. !!
والآن تذكر الآيات : هؤلاء المخلفين وأكاذيبهم وأطماعهم .
فتقول :

{ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً }
[الآية ١٥]

سيقول لك المخلفون عن صلح الحديبية إذا انطلقتم إلى خيبر جهاداً فى سبيل الله ، لاخضاعها لكلمة الله ، وقد علموا أن فيها مغانم لتأخذوها بعد النصر : ذرونا اتركونا نتبعكم ونأتى معكم ، ونجاهد معكم .
وهم بذلك كاذبون ؛ حيث لا يريدون الجهاد ، بل يريدون الغنائم ، لأنهم عرفوا وعد الله بالنصر على خيبر .
كذلك يريدون أن يبدلوا كلام الله الذى جعل به غنائم خيبر لأهل الحديبية فقط .
قل لهم يا محمد :لن تتبعونا ولن تخرجوا معنا .
كذلكم قال الله هذا الحكم من قبل سؤالكم الخروج معنا .
وانتبهوا لجدالهم معكم ..
فسيقولون لكم ردا على ذلك :بل أنتم تحسدوننا ولا تريدون الخير لنا.
وليس الأمر بالطبع أمر غنائم ، ولا أمر حسد ، ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ إذّ هى عدم الفهم .
حقا .. بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا لذلك انحصرت همتهم فى الماديات فقط.

* * *

ثم يفتح الله باب التوبة لمن أراد الصلاح منهم ..
فيقول سبحانه :

{ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً }
[الآية ١٦]

قل يا محمد للمخلفين عن صلح الحديبية من الأعراب الذين قلت لهم لن تتبعونا قبل ذلك ، ويريدون التوبة : ستدعون إلى قوم أقوياء أولى بأس شديد من مشركى العرب ، الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو الموت ، تدعونهم إلى الإسلام .. فإن أبوا تقاتلونهم أو يسلمون!!
فإن تطيعوا وتنفروا لهذا الجهاد ، وتؤدوا هذه المهمة :يؤتكم الله الجنة أجرا حسنا .
وإن تتولوا وتمتنعوا عن ذلك كما توليتم من قبل يوم الحديبية :يعذبكم الله عذابا أليما .

* * *

وبمناسبة التخلف عن الجهاد وتركه : يذكر الله تعالى الأعذار المبيحة لذلك:
فيقول سبحانه :

{ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً }
[الآية ١٧]

ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج وهما من أصحاب الأعذار الدائمة .
ولا على المريض حرج دائما إن كان مرضه لا يرجى منه الشفاء ، ومدة المرض إن كان يرجى له الشفاء .
ومن يطع الله ورسوله فى الجهاد وغيره :يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا له .
ومن يتول أى : يُعرض عن الجهاد والطاعة :يعذبه الله عذابا أليما فى الدنيا بالمذلة ، وفى الآخرة بالنار .

* * *

وبعد أن بين الله تعالى : أن الذين يبايعون محمداً صلى الله عليه وسلم إنما يبايعون الله .
يبين هنا سبحانه : أنه قد رضى عنهم ..
إذ يقول :

{ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }
[الآيتان ١٨ ، ١٩]

يخبر ربنا تبارك وتعالى : أنه قد رضى عن المؤمنين الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم على الجهاد ونصرة الدين ، تحت الشجرة ، يوم الحديبية .
وهم الذين يطلق عليهم : أهل بيعة الرضوان .
حيث علم ما فى قلوبهم من الإخلاص والصدق والوفاء والسمع والطاعة.
لذلك : كافأهم رب العزة بعد هذا الرضا ، خيرا كثيرا .
ومن ذلك :
أولا : فأنزل السكينة عليهم وطمأن قلوبهم ، وثبتهم فى هذه اللحظات العصيبة .
ثانيا : وأثابهم فتحا قريبا بهذا الصلح الذى تم بينهم وبين أعدائهم ، والذى ترتب عليه ما ترتب من نشر الدعوة ، وغير ذلك من وجوه الخير .
ثالثا : ومغانم كثيرة يأخذونها مادية ومعنوية من سائر الفتوحات الإسلامية ، ابتداءً بخيبر ، ومرورا بغيرها .
وكان الله عز وجل عزيز كامل القدرة ، منيع الجناب حكيما حيث جعل هلاك أعدائه على أيدى أوليائه .

* * *

ثم يكمل الله بيان مكافأته لأهل بيعة الرضوان ، فيقول :

{ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً }
[الآية ٢٠]

فى هذه الآية الكريمة : يخاطب الله تبارك وتعالى أهل بيعة الرضوان ، بما بما كافأهم به ؛ بسبب صلح الحديبية .
فيضيف سبحانه –أيضا – ما يلى :
رابعا : وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فى المستقبل وعجل لكم مغانم هذه الغزوة .
خامسا : وكف أيدى الناس من المشركين المواجهين لكم ، واليهود الذين خلفتموهم مع عيالكم بالمدينة .
و هكذا لتكون هذه الكفة والمنع لهم عنكم ، والحماية لكم آية وعبرة للمؤمنين يعلمون بها أن الله ناصرهم ؛ فتقوى بها قلوبهم .
سادسا : ويهديكم بسبب طاعتكم لله ، وانقيادكم لرسوله ، وبيعتكم الصادقة صراطا مستقيما .

* * *

سابعا :

{ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً }
[الآية ٢١]

يعنى : و لكم مغانم أى مكاسب أخرى غير ما سبق ذكره لم تقدروا وتحصلوا عليها حتى الآن ..!!
وهى : بشارة بالانتصارات الإسلامية المستقبلية ، التى قد أحاط الله بها علما وقدرة.
وكان الله عز وجل على كل شئ قديرا .

* * *

ثم يشد الله من أذّر المسلمين ، ويقوى من عزيمتهم ؛ حيث يوضح لهم لونا من قدرته ، وسنة من سننه .
إذ يقول :

{ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً }
[الآية ٢٢]

و أعلموا أنه لو قاتلكم الذين كفروا يا أهل بيعة الرضوان : لنصركم الله عليهم ، و لولوا الأدبار هروبا منكم ثم لا يجدون وليا لهم من دون الله يدفع عنهم ما ينزل بهم ولا نصيرا يقف معهم .

* * *

نعم ..
كان نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين :

{ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }
[الآية ٢٣]

حقا .. هذه سنة الله فى خلقه : أنه ما تقابل الكفر والإيمان فى موقعة فاصلة ، إلا نصر الله الإيمان وأهله ، على الكفر وأهله .

* * *

وصدق الله ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار.

{ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً }
[الآية ٢٤]

يعنى : و لذلك هو سبحانه الذى كف ومنع أيديهم أى : الكفار عنكم ، وكف أيديكم عنهم يوم بيعة الرضوان ببطن مكة أى : فى الحديبية .
وذلك من بعد أن أظفركم وسلطكم واقدركم عليهم.
وكان الله بما تعملون بصيرا حيث جعل هذا الصلح خيرا للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

* * *

وهذا الكف والمنع للقتال : ليس لأنهم صلحوا أو انتهى النزاع معهم ، بل إنهم :

{ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }
[الآية ٢٥]

أى : لا يغرنكم هذا الصلح ، أو يغير طبيعة الكفار فى نظركم .
فهم كما هم ..!!
نعم ..
هم الذين كفروا بالله تعالى ، وحاربوا رسوله .
و هم الذين صدوكم ومنعوكم عن دخول المسجد الحراملأداء العمرة و منعوا الهدى حالة كونه معكوفا أى : محبوسا ، على ذمة الذبح عند الحرم أن يبلغ محله ليتم ذبحه .
وهذا : من بغيهم وعنادهم .
فلا تأمنوهم ، ولا تغتروا بالصلح معهم .
هذا ..

ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يقيمون بينهم ، ويخفون إسلامهم لم تعلموهم ولو حاربتم لكان الاحتمال أن تطئوهم أى : تقتلونهم مع من تقتلون من الكفار فتصيبكم منهم أى : من قتلهم معرة أى : إثم بغير علم منكم بهذا الذنب .

أى : لولا هؤلاء .. !!

لما كف الله أيديكم عنهم فى هذا اليوم .

وكان ذلك الكف والمنع : ليدخل الله فى رحمته منهم باعتناق الإسلام من يشاء .

ولو أن هؤلاء المؤمنين الذين يقيمون بين الكفار ، ويخفون إيمانهم تزيلوا تميزوا وعرفوا لكم ؛ لتتلافوهم :لعذبنا الذين كفروا منهمأى : من أهل مكة عذابا أليما بتسليطنا لكم عليهم .

{ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً }

[الآية ٢٦]

نعم ..

إنهم صدوكم عن المسجد الحرام وزيارته إذ أى وقت أن جعل الذين كفروا من أهل مكة فى قلوبهم الحمية الأنفة والكبرياء ؛ حيث لم يعترفوا له صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، ولم يقرُّوا بالتوحيد ، وحالوا بينه وبين البيت الحرام.

وتلك هى حمية الجاهليةالكافرة .

فأنزل الله فى هذه الظروف والأجواء المشحونة سكينة على رسوله وعلى المؤمنين فلم يقابلوا حميتهم بإنفعال أهوج ، أو تصرف غير عاقل ، بل أتموا الصلح ، على أن يعودوا فى العالم التالى لزيارة البيت .

وألزمهم ربهم بتوفيقه كلمة التقوىوهى كلمة التوحيد ، فتصرفوا على هديها ، وتحت ظلالها .

وكانوا دون غيرهم أحق بها وأولى و هم كذلك أهلها الجديرون بها بتوفيق الله لهم .

وكان الله بكل شئ عليما حيث يجرى الأمور حسب علمه سبحانه وحكمته.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه : أنه والمؤمنون معه يدخلون المسجد الحرام ، محلقين رءوسهم مقصرين .

دون تحديد موعد تحقق هذه الرؤيا .

وفهم الناس : أن ذلك يكون فى عامهم هذا .

ولكنه : لم يحدث .

حيث كان الصلح فى الحديبية بين المسلمين والمشركين : على أن يعود المسلمون لأداء العمرة فى عامهم المقبل .

ورضى المؤمنون .

ولكن المنافقين جعلوها فتنة .

وقالوا : ما دخلنا ، وما حلقنا ، أى : كذبوا رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم.

ولأن الرؤيا الأنبياء حق .. فقد كذبهم الله .

وقال :

{ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً }
[الآية ٢٧]

يعنى :
لقد صدق الله تبارك وتعالى رسوله فى الرؤيا التى رآها بالحق ولم يَكْذِبْه .
ثم أكد سبحانه ذلك بقوله للمؤمنين لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين فى دخولكم محلقين رءوسكم ومقصرين .
أى : منكم المحلق لشعره كاملا ، ومنكم المقصر .
لا تخافون شيئا خلال استقراركم بمكة ، وأدائكم مناسككم .
وهكذا يكون .
فعلم الله من الخير والمصلحة فى صرفكم عن مكة هذا العام ، وتحقق ذلك فى المستقبل مالم تعملوا أنتم ؛ حيث كان الله بكل شيئا عليما.
فــ مثلا :جعل الله عز وجل من دون ذلك الدخول أى : قبل تحقق هذه الرؤيا فتحا قريبا وهو هذا الصلح ، الذى كان فتحا للدعوة ، وانطلاقا فى نشرها .

* * *

ثم أكد الله عز وجل تصديق هذه الرؤيا .. بقوله :

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً }
[الآية ٢٨]

نعم ..
هو سبحانه الذى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى
وهو : العلم النافع ، والعمل الصالح ودين الحقوهو الإسلام .
وذلك ليظهره أى : يظهر الله دين الحق ، بواسطة رسوله على الدين كله أى : الأديان كلها ، وعلى أهلها كذلك .
وكفى بالله شهيدا أنه صلى الله عليه وسلم ، مرسل من ربه بالهدى ودين الحق .

* * *

نعم .. إنه :

{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }
[الآية ٢٩]

نعم ..
إنه محمد الموصوف بأنه رسول الله .
و أما وصف أصحابه المؤمنين الذين معه فهم :
أولا : أشداء على الكفار يعادونهم ، ولا يتوددون إليهم .
ثانيا : رحماء بينهم يحبون بعضهم بعضا ، يتراحمون ، ويتعاطفون .
ثالثا : تراهم ركعا سجدا لله تعالى ، يطيعون ربهم ، ويؤدون فرائضه .
رابعا : يبتغون فضلا من الله ورضوانا مخلصين لله ، يرجون فضله ، ويطلبون رضوانه .
خامسا : سيماهم علامة صلاحهم وتقواهم لله فى وجوههم من أثر السجود والخضوع والخشوع لله رب العالمين .
ذلك المذكور مثلهم أى : وصفهم فى التوراة .
و أما مثلهم فى الإنجيل..!!
فهم :
كزرع نما وترعرع ، حتى أخرج شطأه فروعه التى تنموا على جانبيه فاستلغظ وقوى هذا الزرع فاستوى على سوقه ، وصار يعجب الزراع شكلا وحجما وثمارا .
وقد شبه الله صحابة رسول الله بذلك :ليغيظ الله بهم الكفار أعداء الحق والهدى والخير .
ثم يكون ختام السورة : بوعد إلهى باق إلى يوم القيامة ، يسعد به من كان أهلا له ..
حيث يقول سبحانه :
وعد الله الذين آمنوا وثقوا وصدقوا وعملوا الصالحات التى ترضى الله تعالى ، وتصلح البلاد ، وتسعد العباد .
منهم ومن غيرهم ممن يسير على منهاجهم .
وعدهم بماذا .. ؟
وعدهم مغفرة لذنوبهم وأجرا عظيما على حسناتهم وهو الجنة .

جعلنا الله تعالى وجميع المسلمين من هؤلاء ..
إنه ولى ذلك والقادر عليه .

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

ق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية، كان رسول الله يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة، وفي الجماعات..
وهي تبدأ بقول الله تبارك وتعالى

{ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ }
[الآيات : ١-٣]

ق حرف من حروف العربية، جيئ به للفت أنظارهم، وجذب اهتمامهم ليسمعوا القرآن، فتلزمهم الحجة.
وهو قسم أقسم الله تعالى به.
والقرآن المجيد قسم آخر.
وجواب القسم: إنه لحق، ومحمد صادق، والبعث حق.
وكان عليهم أن يؤمنوا..
بل عجبوا واستغربوا أن جاءهم منذر لهم منهم يخوفهم من عذاب الله إذا لم يؤمنوا.
فقال الكافرون لما سمعوه هذا الذي تقول شيء عجيب ما سمعناه به في آبائنا الأولين.
أ تقول إذا متنا وكنا تراباً نبعث، ونحاسب .. ؟!!
ذلك رجع بعيد كلام مستبعد، لا يصدقه عقل.

* * *

ويرد الله عز وجل عليهم .. قائلاً:

{ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ }
[الآيتان : ٤، ٥]

أي: أن البعث حق، وسنعيد أجزاءهم بعد تفرقها في التراب، أو غيره؛ حيث قد علمنا ما تنقص الأرض منهم أين صارت أجزاؤهم؟

وأين تفرقت أبدانهم .. ؟
إنه لا يغيب عنا منها شيء.
ولا يعجزنا عن جمعها شيء.
وعندنا كتاب حفيظ محفوظ فيه كل صغيرة، وكبيرة.
وهم لم يُعْمِلوا عقولهم، ولم يتريثوا في تفكيرهم.
بل كذبوا سراعاً بالحق فوراً لما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبرهم به.
لذلك:
فهم في أمر مريج مضطرب؛ حيث خرجوا عن الحق، وبعدوا عنه.

* * *

ثم يقدم ربنا تبارك وتعالى مجموعة من الأدلة، التي توضح قدرته عز وجل على البعث، وتبطل قولهم ذلك رجع بعيد.
حيث يقول:

{ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الخُرُوجُ }
[الآيات : ٦-١١]

يعني: أ غفلوا، وعموا فلم ينظروا إلى هذه الدلائل، التي تثبت لهم قدرة الله عز وجل على البعث الذي ينكرونه.
وتقدم الآية الكريمة، ثلاثة أدلة، كل دليل منها مجموعة أدلة في ذاته..
الدليل الأول: السماء فوقهم.
يقول المولى كيف بنيناها ورفعناها بغير عمد وزيناها بالكواكب والنجوم النيرات ومالها وهي على هذا النحو البديع من فروج أي: عيوب؟
الدليل الثاني: الأرض.
كيف مددناها وسعناها، وفرشناها، وكورناها وألقينا فيها بقدرتنا، الجبال رواسي لئلا تميد وتضطرب؟
و كذلك أنبتنا فيها للخلائق من كل زوج أي: صنف بهيج للنفس والعين، والأكل.
كل ذلك ..
تبصرة وذكرى من الله عز وجل لكل عبد منيب متفكر في صنع الله ومخلوقاته، يتوصل بذلك إلى الخشوع لعظمة الله وقدرته.
الدليل الثالث: الماء.
يقول تعالى: ونزلنا من السماء أي السحاب وهو ما بين السماء والأرض.
ماءً مباركاً نافعاً.
لماذا ..؟
فأنبتنا به جنات حدائق وبساتين وحب الحصيد وهي ما يحصده الناس ويدخرونه لقوتهم.

و أنبتنا به أيضاً النخل فتصير باسقات طوالاً لها طلع ثم نضيد منضود، متراكم بعضه فوق بعض لكثرته.
كل ذلك رزقاً من عندنا للعباد
و أيضاً أحيينا به أي: بهذا الماء بلدة ميتا بعد أن كانت لا نبات فيها، ولا حياة.
هل فهمتم هذه الأدلة .. ؟
إذا كنتم فهمتموها: فأعلموا أنه ..
كذلك الخروج للناس من القبور، يوم البعث، الذي تنكرونه.
فهل آمنوا ..؟

* * *

إن كذبوا .. فلا غرابة
فقد ..

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ }
[الآيات : ١٢–١٤]

نعم ... كذبت قبلهم بالبعث
قوم نوح نوحاً عليه السلام
وأصحاب بلدة الرس بنبيهم
وثمود صالحاً عليه السلام.
وعاد هوداً عليه السلام.
وفرعون موسى عليه السلام.
وإخوان لوط لوط عليه السلام.
وأصحاب الأيكة شعيباً عليه السلام.
وقوم تبع الذي أسلم باليمن، ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه.
كل هؤلاء .. كذب الرسل فيما جاؤا به، وأخبروا عنه.
فحق وعيد لهم بالعذاب؛ لتكذيبهم.
وأنتم كذلك إذا بقيتم على هذا الكفر والتكذيب.

* * *

يا أيها الذين كفروا ..
ما لكم تنكرون بالبعث .. ؟

{ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ }
[الآية : ١٥]

أفعيينا أفعجزنا بالخلق الأول فلم نقدر عليه .. ؟
إنكم لا تنكرون خلقنا لكل ما ترون ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم [الزخرف٩]
إنهم لا ينكرون الأول.
بل هم في لبس خلط وشك من خلق جديد يكون، وهو البعث.

* * *

نعم .. نحن لم نعجز عن الخلق الأول، ولن نعجز عن الخلق الثاني وهو البعث.
فقدرتنا شاملة، وعلمنا محيط.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }
[الآية : ١٦]

ولقد خلقنا الإنسان بقدرتنا ونعلم ما توسوس به له نفسه من الخير أو الشر.
ونحن بكمال علمنا وشمول قدرتنا أقرب إليه من حبل الوريد
فكيف لا نقدر على بعثه بعد موته .. ؟

* * *

ثم يبين المولى ــ أيضاً ــ كمال علمه وقدرته بقوله:

{ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }
[الآيتان : ١٧، ١٨]

اذكر أيها الإنسان إذّ يتلقى ويثبت، الملكان المتلقيان منك، وعنك، كل ما تفعل.
أحدهما عن اليمين قعيد، مترصد لك، لا يفارقك.
و الآخر عن الشمال قعيد أيضاً.
وهكذا ..
ما يلفظ الإنسان من قول إلا لديه هذين الملكين، كل واحد منهما رقيب حافظ لما يصدر منك عتيد حاضر، لا يغيب عنك، يكتبان كل شيء، حتى أنين الإنسان في مرضه، ولا يفارقانه إلا عند الجماع والغائط.

* * *

وبعد أن بين الله استبعادهم البعث .. !!
وبين أن جميع أعمالهم وأقوالهم محفوظة ..
أتبع ذلك بذكر بعض أحوالهم، التي تكون في البعث الذي له ينكرون .. فقال:

{ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ }
[الآيات : ١٩-٢١]

وجاءت ونزلت بالمرء سكرة الموت شدته بالحق الذي يعرفونه، وهو حتمية الموت.
ويقال له ذلك الموت هو ما كنت منه تحيد تهرب، ولا تحاول تذكره، ولا الاستعداد لما بعده.
و بعد ذلك:
نفخ في الصور نفخة البعث فإذا هم قيام ينظرون [الزمر ٦٨] ويكون الموقف الرهيب العصيب.
ويقال للجميع:
ذلك اليوم يوم الوعيد الذي حذر الله خلقه من غضبه عليهم فيه.
و في هذا الجو المشجون..
جاءت إلى الموقف كل نفس صاغرة، تنتظر ما ينتهي إليه حالها.
ويكون معها أي: مع كل نفس سائق ملك، يسوقها إلى المحشر وشهيد ملك، يشهد عليها بأعمالها.

* * *

ويقال لكل إنسان في هذه اللحظة.

{ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ }
[الآية : ٢٢]

أي: لقد كنت وأنت في الدنيا في غفلة من هذا النازل بك، فلم تحسن الاستعداد له.
أما اليوم فكشفنا عنك غطاءك الذي كان يلهيك عن التفكر فيما بعد الموت، وحسن العمل لهذا اليوم؛ فبصرك اليوم حديد قوي، يرى المصير، ولكن لا يستطيع أن يفعل شيئاً لتغييره، ولا لتحسينه.

* * *

ويتقدم الملك الموكل به، ويقدم الوثائق الدامغة، التي سجلت عليه.
يقول تعالى:

{ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ }
[الآية : ٢٣]

أي: وقال قرينه الملك المقترن به، الموكل بكتابه كل شيء عليه فيقول هذا ما لدي ما عندي مكتوب بالنسبة له مما قد عمله وصدر عنه عتيد حاضر، جاهز للنشر والقراءة.

* * *

فيقول الجبار على الكفار للملائكة الأخيار السائق والشهيد:

{ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ }
[الآيات : ٢٤-٢٦]

أي: ألقيا في جهنم على وجوهم كل كفار بالنعم والمنعم لأنه وصف بهذه الصفات.
أولاً: عنيدمعاند للحق، وأهله.
ثانياً: مناع للخير من الحقوق، والصدقات، وصلة الأرحام.
ثالثاً: معتد ظالم، متعد على حقوق الله، وحقوق العباد.
رابعاً: مريب متشكك في دين الله وشرعه.
خامساً: مشرك .. هو الذي جعل مع الله إلها آخر شريكاً له.

هيا..
فألقوه إذا في العذاب الشديد الذي في جهنم، وبئس المصير له.

* * *

ويلقى الكفار العنيد في العذاب الشديد.
وتكون الخصومة بين هذا الإنسان الكافر وقرينه الشيطان.
ويقول الإنسان: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني [الفرقان٢٩]، يا رب هذا أوقعني في الكفر والطغيان.
ويرد عليه الشيطان، كما في قوله تعالى:

{ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ }
[الآية : ٢٧]

ينفي الشيطان دعوى الإنس، ويتبرأ منها، ثم يقول ولكن هذا الإنسان كان باختياره، [في ضلال بعيد] عن الحق، وإتباعه.

* * *

وهنا يتدخل ربنا تبارك وتعالى:

{ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ }
[الآيتان : ٢٨، ٢٩]

لا تختصموا عندي؛ حيث لا ينفع الخصام.
خاصة وقد قدمت إليكم في كتبي، وعلى ألسنة رسلي ..
بالوعيد الذي يخوفكم العذاب على هذا الكفر والطغيان، ولكنكم، لم تستجيبوا له، ولم تنتفعوا به.
على كل حال:
ما يبدل ويغير القول بالخذلان والعذاب لأي كافر لدى أبداً.
و في ذات الوقت ما أنا بظلام للعبيد في هذا اليوم، ولا في أي يوم.

* * *

ثم يحدثنا ربنا عن نهاية الكافرين، ووضعهم حيث يقول عز وجل:

{ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ }
[الآية : ٣٠]

نعم ... يحشر الكافرون حشراً في جهنم، التي يخاطبها رب العزة قائلاً لها هل امتلأت حسب وعيدي السابق حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين [السجدة١٣] .. ؟
و تجيب ربها حيث تقول هل من مزيد يا رب على ما يملأ جوفي بمن ضقت بهم ذرعاً .. ؟

* * *

وأما المؤمنون الصالحون، جعلنا الله منهم، وحشرنا معهم.
فيقول رب العزة عنهم، مبشراً لهم:

{ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }
[الآيات : ٣١-٣٥]

وأزلفت الجنة وقربت للمتقين وصارت منهم غير بعيد ثم يقال لهم هذا الذي ترون من النعيم هو ما توعدون وما ينتظركم عند ربكم حسب وعده السابق لكم بالنعيم.
وهو كذلك ..
وهو لكل من اتصفت بهذه الصفات:
أولاً: أواب تواب إلى الله، رجاع إلى الحق.
ثانياً: حفيظ لحدود الله وشرعه، ملتزم بالعمل به.
ثالثاً: من خشي الرحمن بالغيب من خاف الله في سره وخلوته.
رابعاً: وجاء بقلب منيب وظل على ذلك حياته، حتى لقى الله تعالى يوم القيامة، بقلب سليم من أمراض القلوب.
هؤلاء يقال لهم ادخلوها بسلام وأقيموا فيها بأمان ولا تخافوا الموت أو الخروج، ذلك يوم الخلود الأبدي.
لهم بعد هذا الدخول، وفي هذه الإقامة ما يشآؤن من كل شيء فيها
و ليس هذا فقط، بل لدينا مزيد على ما يرجون، ويشتهون.

* * *

وبعد هذا التخويف الشديد لكفار هذه الأمة،وجميع الكفار بما يكون من العذاب يوم القيامة.
وكذلك .. بعد هذا التشويق بما يكون للمؤمنين فيها، وهو في ذات الوقت حسرة على الكافرين.
بعد كل هذا:
يهدد ربنا بمثل عقابه الدنيوي، الذي نزل بمن كان قبلهم .. فيقول:

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }
[الآيتان : ٣٦، ٣٧]

ألا فليرتدع الكفار، وليؤمنوا حتى لا نهلكهم وكم أهلكنا قبلهم من قرن من القرون التي كذبت الرسل كما يكذبون.
هذه القرون .. كانوا هم أشد منهم بطشاً وقوة وجبروتاً وتقدماً فنقبوا في البلاد تقلبوا فيها، وغلبوا على أهلها.
فماذا صار حالهم .. ؟
أهلكناهم.
هل وجدوا من محيص مهرب لهم .. ؟
أبداً.
وكذلك أنتم أيها الكفار لا محيص لكم من عذاب الله إن غضب عليكم.
إن في ذلك البيان لذكرى وعده لمن كان له قلب حي، يعي، ويفهم، ويستجيب أو لمن ألقى السمع أي: سمع الوحي باهتمام وهو شهيد حاضر الذهن، صافي القلب، غير جاحد، ولا معاند.

* * *

ثم يبين ربنا عز وجل قدرته على البعث الذي ينكرون، بدلالة ما يعرفون ويشاهدون.
فقال تبارك وتعالى:

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }
[الآية : ٣٨]

أي: من قدر على خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام مراحل وأطوار، ولم يصبه تعب ولا نصب .. أيعجز عن إعادة الأجساد التي خلقها أولاً؟
كلا .. وألف كلا، بل إنه عز وجل قادر، وسيعيدها، وسيحاسبها على الخير خيرا وعلى الشر بمثله.

* * *

لذلك ..

{ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ }
[الآيات : ٣٩-٤١]

أي: فاصبر يا محمد على ما يقولون لك، ويسخرون به منك، ولا تجزع، ولا تحزن.
هذا .. أولاً.
و ثانياً: سبح بحمد ربك في كل وقت قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبح كذلك وأدبار السجود عقب الصلوات أيضاً.
وثالثاً: استمع لما نوحيه إليك بخصوص يوم القيامة.
يوم يناد المناد وهو إسرافيل من مكان قريب

* * *

وذلك ..

{ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ }
[الآيتان : ٤٢، ٤٣]

نعم ... يوم ينادى المنادي يسمعون الصيحة وهي النفخة الثانية بالحق الذي كانوا ينكرون، وهو البعث.
نعم .. ذلك يوم الخروج من القبور، إلى الحساب، ومنه إلى الجنة أو النار.
حقاً: ما يقول رب العزة إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير

* * *

متى يكون هذا المصير..؟

{ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ }
[الآية : ٤٤]

يوم يخرجون من قبورهم، مسرعين إلى موقف الحساب.
ذلك حشر علينا يسير

* * *

يا محمد .. !!

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }
[الآية : ٤٥]

نحن أعلم بما يقولون في حقك، وحق دعوتك، وسنحاسبهم نحن لا أنت وما أنت عليهم بجبار أي: بمجبرهم على الإيمان، وإدخالهم فيه كراهية.
فذكر فقط بالقرآن من يخاف وعيد

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
وهي: تبدأ بقوله تعالى

{وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ }
[الآيات : ١-٦]

هذا .. قسم من الله تعالى بخمسة أشياء.
الأول: والطور وهو الجبل الذي كلم الله به موسى عليه السلام.
الثاني: وكتاب مسطور وهي الكتب المنزلة، التي سطرت، وتقرأ في رق صحيفة منشور مفتوح.
الثالث: والبيت في السماء بإزاء الكعبة المعمور بالملائكة الذين يطوفون حوله.
الرابع: والسقف وهي السماء، حيث إنها كالسقف للأرض.
المرفوع بقدرة الله، بغير عمد.
الخامس: والبحر المسجور أي: المملوء، قيل: بالماء، وهو البحر المحيط، وقيل بالنار،

* * *

وجواب هذا القسم:

{ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ }
[الآيتان : ٧، ٨]

* * *

أتدري .. متى يكون ذلك .. ؟
إنه يكون ..

{ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً }
[الآيتان : ٩، ١٠]

أي: في يوم القيامة ..
وذلك يوم تمور السماء مورا وتضطرب اضطراباً عظيماً وتسير الجبال من أماكنها سيرا سريعاً.

* * *

يومها يكون الناس فريقين.
فريق المكذبين الضالين.
وهؤلاء يقول عنهم الجبار سبحانه.

{ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآيات : ١١-١٦]

فويل وهلاك وعذاب يومئذ أي: يوم القيامة للمكذبين الضالين الذين كانوا في الدنيا هم في خوض في الباطل والكفر والتكذيب يلعبون كأنهم أطفال، لا يدركون ما ينتظرهم من عذاب.
انظر يوم القيامة .. حيث يدعون يساقون ويدفعون بقوة إلى نار جهنم دعا
ثم يقال لهم هذه هي النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون ويقال لهم كذلك توبيخاً وتفريعاً أفسحر هذا الذي ترون، كما كنتم تقولون في الدنيا أم أنتم عمي لا تبصرون كما كنتم عمي في الدنيا عن الحق لا تبصرون .. ؟
على أية حال:
أصلوها ادخلوها وانغمسوا في عذابها فاصبروا على هذا العذاب أولا تصبروا سواء عليكم الصبر وعدمه، فأنتم في العذاب لا تخرجون منه.
إنما تجزون هذا العذاب .. جزاء ما كنتم تعملون

* * *

وأما فريق المتقين المهتدين.
فيقول عنهم الرحمن الرحيم:

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ

ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ *
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ }
[الآيات : ١٧–٢٣]

نعم .. إن المتقين جعلنا الله وإياكم منهم في جنات ونعيم يعيشون، في ظلال هذه الإنعامات التالية

– إنهم فاكهين يتمتعون، ويتنعمون بما آتاهم ربهم من أفضاله عليهم.

– ووقاهم ونجاهم ربهم كذلك عذاب الجحيم فلا يصابون به، ولا يعذبون.

– ويقال لهم .. وهم في جنات النعيم كلوا واشربوا هنيئا مريئاً بما كنتم تعملون في الدنيا من طاعة الله.

– ويكونون في حالة استرخاء وراحة متكئين على سرر مصفوفة بجوار بعضها؛ إسعاداً لأهلها.

– و كذلك زوجناهم في الجنة بحور عين

– ثم يبين المولى لونا من ألوان الإنعام عليهم فيه إسعاد قلوبهم، وهو إلحاق أولادهم الصالحين بهم .. فيقول والذين آمنوا وهم المتقون واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وأدخلناهم معهم في جنات ونعيم، وإن لم يعملوا بعملهم تماماً.

– و في ذات الوقت ما ألتناهم أنقصناهم أي: الآباء من ثواب عملهم من شيء

حيث إن كل أمرئ بما كسب رهين فلا يعاقب أحد بذنب أحد.

ثم يكمل ربنا بيان إنعامه عليهم .. فيقول:

وأمددناهم زودناهم تباعاً حيث يريدون بفاكهة ولحم مما يشتهون دون أن يطلبوا.

وهم يتنازعون فيها أي: يتعاطون مع بعضهم البعض، وهم في الجنة كأساً من الشراب اللذيذ لا لغو فيها بكلام فارغ ولا تأثيم بفعل فاحش.

* * *

{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ }
[الآيات : ٢٣–٢٤]

ويطوف عليهم وهم في الجنة غلمان يخلقهم الله في الجنة، كما يخلق الحور العين .. إسعاداً لهم يخدمونهم.

هؤلاء الغلماء: يريحون البال، ويسعدون الخاطر، ويريحون النظر كأنهم لؤلؤ مكنون في أصدافه.

* * *

ثم يبين المولى لوناً آخر من ألوان نعيمهم وسرورهم .. فيقول:

{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ }
[الآيات : ٢٥–٢٨]

ي   عني: و بينما هم في هذا النعيم أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويتساءلون عن سر هذا الفضل الذي هم فيه.
قالوا أي: بعضهم لبعض لقد وصلنا إلى ما نحن فيه، حيث إنا كنا قبل ونحن في الدنيا، مقيمون في أهلنا غير مشغولين عن طاعة الله، بل كنا من غضبه وعذابه مشفقين
فمن الله علينا بكرمه لذلك ووقانا عذاب السموم في جهنم.
سبحانه كريم عظيم إنا كنا من قبل ونحن في الدنيا ندعوه ونضرع إليه .. أن يرحمنا، وأن يغفر لنا .. فاستجاب لنا، واسكننا هذا النعيم.
حقاً إنه تبارك وتعالى هو البر الرحيم.

* * *

وبعد أن أقسم الله عز وجل على: وقوع البعث، وقيام الحساب .. !!
وبيَّن أن بين انقسام الناس في يوم الحساب إلى مكذبين ومتقين .. !!
وبعد أن بين ما للمكذبين من عذاب، وما للمتقين من ثواب .. !!
يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بدوام التذكير، والصبر، والتسبيح، وهو يناقش الكفار أوهامهم.
إذ يقول سبحانه.

{ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ }
[الآية : ٢٩]

يعني: فذكر يا محمد قومك والدنيا كلها بما أنزل عليك، وكلفت بتبليغه.
فما أنت إلا نبي، وبنعمة ربك حفي.
ولست بكاهن ولا مجنون كما يقولون.
فلا تهتم بأقوالهم وافتراءاتهم عليك، وعلى ما جئت به.

* * *

ثم يبدأ المولى عز وجل في عرض أقوال الكافرين، وافتراءاتهم التي تصرفهم عن الإيمان.
وذلك: بصيغة الإنكار لها، والتفنيد لمحتواها.
ويرد لفظ أم الذي يفيد الإضراب والإبطال لكلامهم خمس عشرة مرة.

* * *

حيث يقول تبارك وتعالى ..
في المرة الأولى:

{ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ }
[الآية : ٣٠]

يعني: هم يقولون إنك شاعر، وما جئت به. ليس وحيا، بل هو شعر من صنعك.
كما أنهم يقولون: نحن نتربص وننتظر به ريب المنون حوادث الأيام، حتى ينتهي ويموت، ونستريح منه .. ؟
ويرد عليهم رب العزة .. بقوله:

{ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ }
[الآية : ٣١]

أي: قل لهم تربصوا بنا ما شئتم فإني كذلك معكم من المتربصين بكم .. عذابكم، وهلاككم.

* * *

وفي الثانية والثالثة: يعرض ربنا تبارك وتعالى واحداً من أوهامهم، ويرد عليهم..
حيث يقول:

{ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ }
[الآية : ٣٢]

يعني: هل تأمرهم عقولهم بهذا الموقف أم أن سبب ضلالهم وعنادهم .. أنهم قوم طاغون دفعهم طغيانهم إلى ذلك .. ؟
على كل: كلا الأمرين ذميم .. !!

* * *

وفي الرابعة .. يقول سبحانه:

{ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ }
[الآيتان : ٣٣، ٣٤]

يعني: هل يقول أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقوله
أي: اختلق القرآن من عند نفسه .. ؟
لا .. أبداً أبدا، إنهم لا يؤمنون ولذلك قالوا هذا الكلام..
وإلا فليأتوا هم بحديث مثله كما أتى هو به في زعمهم إن كانوا صادقين .. !!

* * *

وبعد أن رد الله عليهم، وأبطل مزاعمهم فيما يخص محمداً صلى الله عليه وسلم: يفند سبحانه أوهامهم في الإله الواحد سبحانه وتعالى وقدرته.
حيث يقول في الخامسة والسادسة والسابعة:

{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ }
[الآيتان : ٣٥، ٣٦]

يعني: هل خلقوا هكذا من غير شيء يخلقهم .. ؟
أم أنهم هم الخالقون لأنفسهم .. ؟
أم أنهم ــ كذلك خلقوا السموات والأرض .. ؟
فليجيبوا .. إن كانوا يقدرون على إدعاء ذلك.
بل الحقيقة: أنهم لا يوقنون بالله تعالى وقدرته، وإلا لآمنوا بنبيه.

* * *

ولكن .. !
ما الذي دفعهم إلى هذا الموقف .. ؟

{ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }
[الآيتان : ٣٧، ٣٨]

هل عندهم خزائن ربك فيكون الغني قد أطغاهم، ودفعهم إلى هذا الكفران..؟

أم أنهم هم المسيطرون على هذا الكون ومقاليده .. فتكون القدرة والسلطان؛ قد أطغتهم ودفعتهم إلى هذا الجحود .. ؟

أم أنهم لهم سلم إلى السماء، يصعدون عليه، ويستمعون فيه إلى كلام الملائكة، أو تلقي الوحي .. فيدعون أنهم أعلم منك يا محمد، وأنهم في غير حاجة إلى ما تبلغهم به .. ؟

إنه ..

لا هذا ..

ولا هذا ..

وإلا فليأت مستمعهم الذي يصعد إلى السماء بسلطان ودليل على كلامه مبين واضح.

* * *

ويكون الاستفهام التوبيخي الحادي عشر المبطل لكلامهم.

حيث يقول تعالى:

{ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ }

[الآية : ٣٩]

أم أنكم تدعون كذباً وزورا .. أن الله عز وجل له البنات أولاداً ولكم أنتم البنون .. ؟

* * *

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ }

[الآية : ٤٠]

هذا: هو الاستفهام الثاني عشر بـــ أم الإنكارية.

ومعناه: أم أنك يا محمد تسألهم أجراً على ما تبلغهم به من دعوتنا لهدايتهم.

فهم لذلك .. خوفاً من مغرم يدفعونه لك مثقلون وكارهون .. ؟

* * *

دعك من هذا كله .. !!
وأجبني عما يلي في الاستفهام الثالث عشر:

{ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ}
[الآية : ٤١]

هل عندهم علم الغيب وما هو مدون في اللوح المحفوظ .. ؟
لذلك: فهم يكتبون أقدار الناس، وتسيير شئون الكون.
حتى يصح لهم إنكار البعث والحساب والجزاء .. ؟

* * *

{ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ }
[الآية ٤٢]

أم أن الأمر لا هذا، ولا ذاك، وهم يريدون عناداً لك، وكيداً بك، وإهلاكاً.
على كل ..
فالذين كفرو هم المكيدون الهالكون.

* * *

ختاماً ..

{ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية : ٤٣]

هل لهم إله يؤمنون به، ويعبدونه غير الله الواحد الأحد، القادر، العظيم .. ؟
ولهذا .. يعاندون، ولا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم .. ؟
يستحيل .. أن يكون هناك إله غير الله.
سبحانه الله عما يشركون مع الله بأهوائهم.

* * *

هؤلاء .. معاندون، جاحدون .. !!
لا يؤمنون بآية، ولا يقنعون بدليل.

{ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ }
[الآية : ٤٤]

نعم .. إنه لا أمل فيهم.
وإن يروا بأعينهم كسفاً أي: جزءاً من السماء ساقطاً عليهم، عذاباً لهم .. لا يصدقون أنه عذاب، ولا يؤمنون.
بل يقولون: إنه سحاب مركوم ملئ بالمطر والماء، وسنرتوي به.
إنه قمة العناد، وغاية الكفر، والتكذيب.

* * *

لذلك .. يقول ربنا تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه سلم:

{ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }
[الآيتان : ٤٥، ٤٦]

أي: أتركهم يا محمد، ولا تأبه لهم، ولا تحزن من أجلهم .. حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون وهو يوم القيامة.
يوم لا يغني عنهم ولا ينفع كيدهم وعنادهم السابق شيئاً يستفيدون به.
ولا هم ينصرون فينجون من عذاب الله عز وجل.

* * *

وهنا ..
كأن سائلاً يسأل: هل يظلون بلا عذاب هكذا إلى يوم القيامة .. ؟

فيكون الجواب.

{ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية : ٤٧]

نعم .. و أيضاً إن للذين ظلموا بكفرهم وعنادهم، عذاباً دون أي: قبل ذلك العذاب الذي يكون في يوم القيامة.
حيث: يبتليهم الله في الدنيا بالمصائب، لعلهم يرجعون، ويؤمنون.
ولكنهم .. لا يفهمون .. !!
وفي الأثر:
يا إلهي .. كم أعصيك ولا تعاقبني .. !!
فيقول تعالى: يا عبدي .. كم أعاقبك وأنت لا تدري.
نعم..
ولكن أكثرهم لا يعلمون

* * *

وإلى هنا ..
ويكون التوجيه الكريم للحبيب صلى الله عليه وسلم:

{ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ }
[الآيتان : ٤٨، ٤٩]

نعم ..
وأصبر يا محمد لحكم ربك بإمهالهم، وبإيذائهم لك.
فإنك بأعيينا
يا ألله .. !!
إنه: إعزاز ما بعده إعزاز .. !!
وهو: تشريف ما بعده تشريف .. !!
إنه: تكريم لَمْ يحدث لأحد من البشر سوى محمد صلى الله عليه وسلم.
فإنك بأعيننا نرعاك، ونؤنسك، ونرفع قدرك.
و لذلك:
لا عليك..
سبح فقط بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه أيضاً و كذلك أدبارالنجوم
صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ: بقوله تعالى:

{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى }
[الآية : ١]

قسم عظيم خطير من الله تعالى بأمر كوني هائل.
ومعناه: و أقسم بـــ النجم إذا هوى سقط من مكانه وعلوه بقدرتنا، وتناثر في الجو أشلاءً.
وذلك: يكون في الدنيا، ويكون في يوم القيامة.

* * *

ولكن ..
علام هذا القسم ..؟
إنه ولابد على أمر عظيم.
نعم ..
الجواب:

{ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى }
[الآيتان : ٢، ٣]

أي: ما ضل عن الحق صاحبكم محمد وما غوى في إتباع الباطل.
و ليس هذا فقط..
بل إنه ما ينطق فيما يأتيكم به، ويبلغه لكم عن الهوى

* * *

وكأن سائلاً يسألك ..
من أين يأتي لنا بما يقول .. ؟
فيكون الجواب:

{ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى }
[الآية : ٤]

نعم ..
ما هو إلا وحي من الله يوحى إليه.

* * *

أتدرون من بلغه هذا الوحي، وعلمه إياه .. ؟

{ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى }
[الآيتان : ٥، ٦]

نعم .. علمه له بإذن ربه شديد القوى وهو جبريل عليه السلام، الذي وصفه ربه بأنه ذو مرة أي: قوة. فاستوى لمحمد صلى الله عليه وسلم وظهر له في صورته الحقيقية، حينما أحب النبي صلى الله عليه وسلم أن يراه عيناً بياناً.

* * *

كيف كان ذلك ..

{ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى }
[الآيات : ٧-١٠]

وهو أي جبريل عليه السلام، الذي كان بالأفق الأعلى من السماء.
ثم دنا أي: اقترب من رسول الله فتدلى ونزل من السماء فكان قريباً منه قاب مقدار قوسين ومحمد صلى الله عليه وسلم على الأرض أو أدنى أقرب من ذلك.
فأوحى وهو على هذا الحال بأمر ربه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى وهو الذي يبلغكم صلى الله عليه وسلم به.

* * *

وكان هذا حقيقة واقعية ..

{ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى }
[الآية : ١١]

لقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل، وأخذ عنه،وفهم منه، وهو في كامل وعيه، ورعاية ربه.
ولذلك ما كذب الفؤاد أي: القلب في ما رأى وسمع، وبلغ.

* * *

{ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى}
[الآية : ١٢]

وبعد ذلك ..
أفتمارونه وتجادلونه وتكذبونه على ما يرى من إنعام ربه، ويبلغكم به ..؟

* * *

وليس هذا فقط.

{ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى }
[الآيات : ١٣-١٧]

و إذا كانت المرة التي رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في الأرض..
فـــ لقد رآه نزلة أي مرة أخرى في السماء.
وذلك عند سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى
إذّ يغشى هذه السدرة ما يغشى من خلائق الرحمن.
وفي هذه الأحوال القدسية، والتجليات الربانية:
ما زاغ البصر من محمد صلى الله عليه وسلم بسبب ما رآه، ولا فيما رآه وما طغى وتجاوز حدوده حينئذ، بل كان عبداً طائعاً لمولاه سبحانه وتعالى.

* * *

وغير هذا أيضاً:

{ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى }
[الآية : ١٨]

لقد رأى في هذه المناسبة العظيمة، التكرمة الجليلة، وهي ليلة المعراج من آيات ربه الكبرى الدالة على عظمته سبحانه وتعالى، الشيء الكثير.

* * *

وبعد أن قدر الله تعالى أمر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ..
ذكر ما ينبغي أن يبدأ به الرسول في دعوته.
وهو: أمر التوحيد.
حيث يقول مناقشاً لهم مزاعمهم الفاسدة في ذلك:

{ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى }

[الآيتان : ١٩، ٢٠]

يعني: بعد أن عرفتم عظمة الله، وقدرته، ونفاذ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى، وما بينها.
أفرأيتم حقارة ما تعبدون من الأصنام .. مثل اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى معهما ..؟
أيضاً ..

{ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى }
[الآيتان : ٢١، ٢٢]

كانوا ــ في الجاهلية ــ يقولون: الملائكة بنات الله، ويعبدونها.
وفي ذات الوقت: يكرهون البنات، ويئدونهن قتلاً في التراب.
يعيب الله عليهم هذا الفهم السيء، وهذا السلوك الفاحش، فيقول ألكم تجعلون الذكر من دون الله وله سبحانه الأنثى ..؟
تلك القسمة إذا قسمة ضيزى غير عادلة؛ لأنها مبنية على عقيدة فاسدة، وأوهام كاذبة.

* * *

والحقيقة:

{ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى * أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى }
[الآيات : ٢٣-٢٥]

نعم .. ما هذه الأصنام، التي تعبدونها إلا أسماء سميتموها وآلهة اخترعتموها أنتم وآباؤكم
ما أنزل الله بها ولا بصحة ألوهيتها من سلطان أي: دليل.
يا محمد ..
إنهم ما يتبعون إلا الظن الفارغ الذي يظنون ..!!
و كذلك: ما يتبعون إلا ما تهوى الأنفس لديهم من هذه الأباطيل.
ولقد جاءهم من ربهم الهدى على لسانك فرفضوه.
وهذا تصرف خاطئ منهم.
وإلا فهل للإنسان أن يفعل ما تمنى ولو كان ضاراً ..؟
على أية حال:
فلله كل شيء، ومرد الأمور كلها إليه حيث له سبحانه الآخرة والأولى في الدنيا والآخرة.

* * *

يقولون كذباً: نحن ما نعبدهم إلا ليشفعوا لنا، يقربونا إلى الله زلفى.
فيكون الرد عليهم:

{ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَـاءُ وَيَرْضَى }
[الآية : ٢٦]

يا هؤلاء ..!!
إذا كان الملائكة المقربون لا يملكون الشفاعة لأحد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى سبحانه وتعالى ..!!
فكيف تشفع لكم هذه الأصنام أيها الجاهلون .. ؟

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً }
[الآيتان : ٢٧، ٢٨]

نعم ..
إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة على الوجه الذي بينه الإسلام أخطأوا خطأ آخر شنيعاً؛ حيث إنهم ليسمون الملائكة تسمية الأنثى لما قالوا: إنهم بنات الله.
وما لهم به أي: بهذا القول في حق الملائكة من علم يستندون إليه.
بل إنهم قالوه إلا اتباع الظن والتخمين.
وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً
ولذلك: فهم على باطل، وفهمهم باطل، وقولهم باطل.

* * *

لهذا ..
يقول رب العزة لمحمد صلى الله عليه وسلم، ولكل داع إلى الله تعالى

{ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى }
[الآيتان : ٢٩، ٣٠]

يعني: فـ إذا أعيتك الحيل، وبلغ عنادهم مبلغه أعرض عمن تولى وابتعد عن ذكرنا وهو الحق الذي جاء في القرآن ولم يرد لنفسه إلا الحياة الدنيا وزينتها فقط.
حيث إن ذلك مبلغهم من العلم وقدرهم في الجهل.
ولذلك: فضلوا الحياة الدنيا على الآخرة.
ولا تحزن عليهم، ولا تغتم من أجلهم .. فليس أمر هدايتهم بيدك.
إن ربك سبحانه هو أعلم بمن ضل عن سبيله من العباد وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى وسيجازى كل أحد من الضالين ومن المهتدين بما يستحق.

* * *

نعم ..

{ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }
[الآية : ٣١]

سبحانه المالك لكل ذلك: لا راد لحكمه، ولا معقب لأمره؛ يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.
ليجزي الذين أسآؤا عدلاً منه بما عملوا من سوء.
ويجزي الذين أحسنوا فضلاً منه بالحسنى وهي الجنة.

* * *

أيها الكرام .. !!
أتريدون معرفة أهل الحسنى، وهي الجنة .. ؟
إنهم ..

{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى }
[الآية : ٣٢]

أهل الجنة ــ جعلنا الله وإياكم منهم ــ هم الذين يجتنبون كبائر الإثم ويبعدون عنها، بصفة عامة.
و كذلك: يبتعدون عن الفواحش منها.. بصفة خاصة. وفي الحديث الشريف (اجتنبوا السبع الموبقات ..
الإشراك بالله تعالى.
والسحر.
وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
وأكل مال اليتيم.
وأكل الربا.
والتولي يوم الزحف.
وقذف المحصنات الغافلات"
وقال بعض العلماء: إن المنصوص عليها في الأحاديث أنها كبائر خمس وعشرون.
ثم يقول ربنا عز وجل إلا اللمم وهي صغائر الذنوب، التي يقعون فيها بحكم بشريتهم، ثم يتوبون منها، ولا يصرون عليها.
وهذه: يغفرها الله لهم.
حيث إن ربك واسع المغفرة فقد وسعت رحمته كل شيء، لمن تاب عنها، ورجع إلى ربه وأناب.
وقد يظن بعض الناس: أنهم بصلاتهم وصيامهم، وباقي عبادتهم أنهم على شيء، وأنهم أطهار، وأنهم، وأنهم ...
وأنهم: أهل التقوى.
وهذا: لا ينبغي؛ حيث إن الذي يحدد ذلك هو الله عز وجل، الذي بيده قبول هذه الأعمال وعدم قبولها.
ولذلك يقول سبحانه لهؤلاء.
هو أعلم بكم من أنفسكم.
نعم .. هو أعلم بكم أولاً إذا أنشأكم من الأرض بإنشاء أبيكم آدم منها.
وهو أعلم بكم ثانياً إذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم كيف تكونون، وماذا تكونون، آنذاك، وبعد ذاك .. ؟
لذلك:
فلا تزكوا أنفسكم وتمدحوها، وتمنّوا على الله بطاعاتكم، وتتباهوا أمام الخلق بعبادتكم.
إذّ هو سبحانه أعلم بمن اتقى منكم ربه، وابتغى رضاه .. !!

* * *

وإذا كان هذا حال المحسنين .. !!
وإذا كان هذا أسلوب تربيتهم، وتطهير نفوسهم .. !!
فإن الله عز وجل يحدثنا عن المسيئين ..
فيقول سبحان:

{ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى }
[الآيتان ٣٣، ٣٤]

تعجيب من هؤلاء الكفار المعاندين المسيئين ..
أفرأيت هذا الكافر الذي تولى وأعرض عن الإيمان، وحارب أهله، وعاند الداعين إليه ..
وأعطى في عناد الحق جهداً قليلاً لا قيمة له وأكدى نفسه وأتعبها من أجله.

* * *

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾
[الآية : ٣٥]

هل عنده علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.
لذلك فهو يرى أنه لا عذاب له؛ حيث لا بعث ولا نشور، ولا حساب .. ؟

* * *

أهذا: هو السبب في كفره، وصده الآخرين عن الإيمان .. ؟

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾
[الآيتان : ٣٦، ٣٧]

أم أنه: جهل، لم ينبأ بما في صحف موسى عليه السلام و هو الذي بلغه إبراهيم عليه السلام الذي وفى به، وعمل بمقتضاه.

* * *

ولكن ..
ما هذا الذي كان في صحف موسى، وبلغه إبراهيم، عليهما السلام .. ؟
إنه ..

{ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى * وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى }

[الآيات : ٣٨-٥٤]

كل هذا: في صحف موسى عليه السلام، ووفى إبراهيم عليه السالم بإبلاغه.
وبيانه كالتالي:
أنه: لا تزر نفس وتحمل ذنب نفس أخرى.
وأنه: ليس للإنسان إلا جزاء سعيه هو، وسوف يرى هذا الجزاء لا محالة إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.
وذلك: يوم القيامة .. ثم يجزاه الجزاء الأوفى الذي لا زيادة فيه، ولا نقصان.
وأنه: إلى ربك المنتهى يوم القيامة؛ فيكون هذا الجزاء،
وأنه سبحانه هو الذي خلق الأضداد، فمثلاً.. أضحك وأبكى
وأنه سبحانه القادر على كل شيء، فهو الذي أمات وأحيا
وأنه سبحانه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة واحدة إذا تمنى وتتدفق في الرحم.
وأن عليه عز وجل النشأة الأخرى وهي البعث، كما أنه كان صاحب النشأة الأولى من النطفة.
وأنه تبارك وتعالى أغنى عباده بالمال وغيره وأقنى جعلهم يمتلكون ما يقتنونه ويحتفظون به.
وأنه سبحانه هو رب الشعرى وهو النجم، الذي كان يعبده فريق من الناس زوراً وبهتاناً.
وأنه سبحانه أهلك عاداً الأولى بظلمهم وكفرهم، وعنادهم لنبيهم وثمود قوم صالح أيضاً أهلكهم فما أبقى منهم أحداً.
و كذلك أهلك قوم نوح من قبل هؤلاء حيث أنهم كانوا هم أظلم وأطغى
و أيضاً المؤتفكة وهو قوم لوط أهوى بهم، ودمر عليهم ديارهم فغشاها بالعذاب ما غشى سبحانه وتعالى فعل كل ذلك.
ولستم أيها الضالون في مأمن من أن يفعل بكم مثل ذلك .. !!

* * *

ومع كل هذا: فنعمه كثيرة عليكم.
لذلك .. يقول سبحانه:

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى }
[الآية : ٥٥]

خبرني بربك أيها الإنسان ..!!
بأي نعمة من آلاء ربك أي: نعمة عليك تتمارى وتشك فيها، وأنها من فضله وإنعامه .. ؟
وهذا: إثبات للوحدانية.

* * *

على أية حال .. !!

{ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى }
[الآية : ٥٦]

أي: هذا النبي الذي أرسل إليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم نذير لكم من جنس النذر الأولى السابقة للأمم المتقدمة.
وهذا: إثبات لرسالته صلى الله عليه وسلم.
أيضاً:

{ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ }
[الآيتان : ٥٧، ٥٨]

أي: اقتربت القيامة ليس لها من دون الله سبحانه كاشفة عن أحوالها، ومنجية من أهوالها.

* * *

يا قوم ..

{ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ }
[الآيات : ٥٩-٦١]

أفمن هذا الحديث وهو القرآن تعجبون وتنكرون ..؟!!
وتضحكون استهزاءً وسخرية ولا تبكون خشوعاً كما يفعل المؤمنون المتقون .. ؟!!
كل ذلك وأنتم سامدون غافلون، عما يحيط بكم من عذاب الله.

* * *

وبعد هذا الترهيب والتخويف، بهذا الكلام الصادق البليغ..
أمرهم قائلاً:

{ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا }
[الآية: ٦٢]

وقد سجدوا بالفعل على شركهم؛ تأثراً بروعة هذا البيان، وقوة هذا التعبير.
وهو: أمر بالخضوع والسجود والإذعان والطاعة؛ لله رب العالمين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية
وهي: تبدأ بقوله عز وجل:

{ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ }
[الآية : ١]

يعني: اقتربت الساعة أي: القيامة من الوقوع والمجئ.
و قد انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن طلب الكفار منه ذلك دلالة على صدقه، فيما يخبرهم به.
وبعد أن رأوا هذه الآية بعيونهم كذبوا.
يقول سبحانه:

{ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ }
[الآية : ٢]

يعني: وإن يروا أي: هؤلاء الكفار آية أي آية يعرضوا عن الإذعان لها، والإيمان بالله، والاتباع لمحمد صلى الله عليه وسلم.
ويقولوا هذا الذي نراه سحر مستمر وليس معجزة تدل على صدق محمد.

* * *

نعم .. إنهم عاندوا:

{ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ }
[الآية : ٣]

وكذبوا النبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا لجهلهم وسفاهتهم أهواءهم الفاسدة.

وكل أمر من أمرهم أو أمر النبي صلى الله عليه وسلم مستقر ومنته إلى غاية يتبين عندها المحق من المبطل.
وهو تهديد لهم.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ }
[الآية : ٤]

و مع ذلك لقد جاءهم من الأنباء عن هلاك المكذبين ما فيه مزدجر لهم..
ولكنهم .. لم ينزجروا، ولم يؤمنوا.
وهذا القرآن أيضاً..

{ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ }
[الآية : ٥]

أي: ما فيه حكمة بالغة تنفعهم لو كانوا يعقلون .. !!
ولكنهم وصلوا إلى حالة لا يفيد معها أي شيء.
لذلك:
فما تغن النذر معهم، ولا تفيد.

* * *

ولهذا يقول رب العزة للحبيب:

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ }
[الآيات : ٦–٨]

أي: فتول عنهم أي: عن هؤلاء الذين مهما رأوا من آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر واتركهم ..
وانتظر يوم يدع الداع في يوم القيامة إلى شيء فظيع نكر تكرهه الأنفس لشدة هوله.
يومها: يخرج هؤلاء من قبورهم خشعاً أبصارهم أذلاء، مكسورين، وهم كثر كأنهم جراد منتشر في كل الأنحاء والجهات.
ويكونون مهطعين أي: مسرعين إلى تلبية دعوة الداع الذي دعاهم ونادى عليهم.
وساعتها .. يقول الكافرون من شدة ما يجدون وهول ما يعانون هذا يوم عسر صعب شديد، لا نجاة لنا فيه.

نعوذ بالله تعالى من هؤلاء، ومن مصيرهم الذي يلاقون..!!

* * *

بعد أن قال ربنا تبارك وتعالى لحبيبه فتول عنهم ..!!
وبعد أن بين ربنا عز وجل بعض أوصافهم في هذا اليوم العسر ..!!
وبعد أن أخبرنا سبحانه: بأنه جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. ولم يزدجروا ..!!
أخذ جل شأنه يعرض بعض هذه الأنباء..
فقال:

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ }
[الآية : ٩]

أي: كذبت قبلهم قبل قومك يا محمد قوم نوح عليه السلام، وعاندوه، وسخروا منه.
واستمروا على تكذيبهم له فكذبوا عبدنا نوحاً وقالوا عنه: إنه مجنون فيما يطالبنا به من عبادة الله وحده.
وازدجر أي: وزجروه، وقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين [الشعراء١١٦]
فماذا فعل نوح .. ؟
استمر على دعوته معهم، ثم توجه إلى ربه..

{ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ }
[الآية : ١٠]

فـ لما وجدهم لا يستجيبون دعا ربه قائلاً أني ضعيف مغلوب منهم، وأنت القوى العزيز فانتصر منهم لدينك ودعوتك.
فماذا حدث .. ؟
أجاب الله دعاءه، وهزم أعداءه..
يقول سبحانه:

{ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ }
[الآيتان : ١١، ١٢]

أي: على الفور فتحنا أبواب السماء بماء منهمر يصب عليهم صباً من فوقهم.
وفجرنا الأرض من تحتهم عيوناً تفور بالماء.
فالتقى الماء الذي ينهمر من السماء، مع الذي يفور من الأرض على أمر قد قدر أي: قدره الله، وهو إغراقهم.
وبالفعل: غرقوا في هذا الطوفان.
ولكن ..
أين نوح عليه السلام من هذا الطوفان .. ؟

يقول المولى عز وجل:

{ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ }
[الآيتان : ١٣، ١٤]

أي: وحملناه نوحاً عليه السلام بقدرتنا على سفينة ذات ألواح خشبية ودسر مسامير من الحديد.
هذه السفينة: هي التي أمرناه بصنعها قبلاً واصنع الفلك بأعيننا [هود٣٧].
على أية حال: حملناه على هذه السفينة، التي صارت تجري على وجه الطوفان بأعيننا ورعايتنا.
وهلك مكذبوه .. !!
وكان هلاكهم جزاء لمن كان كفر.
وانتهت قصة نوح عليه السلام .. مع قومه، الذين كذبوه.
وأما سفينته..
فيقول عنها رب العزة:

{ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }
[الآية : ١٥]

أي: ولقد تركناها أي: خبرها وقصتها وعبرتها آية لمن يعتبر، ويتعظ.
فهل من مدكر بها، ومستفيد منها .. ؟
وهكذا كانت قصة نوح نبي الله عليه السلام، مع قومه المكذبين ..!!
وهكذا كان هلاكهم ..!!

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ }
[الآية : ١٦]

أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ونذري؟
إنه .. أليم، أليم، أليم .. !!
فهل تتعظون يا كفر هذه الأمة .. ؟
خاصة .. أنه:

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }
[الآية : ١٧]

نعم . ولقد يسرنا وسهلنا القرآن للذكر والإفادة منه، والاتعاظ به؛ لجميع الناس، وفي كل عصر..!!
فهل من مدكر ينتفع به؛ فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان ..؟؟
وهكذا ..
توجيه: بعد تهديد ..!!
وتيسير: بعد تشديد ..!!

* * *

وإلى قصة أخرى من هذه الأنباء، التي جاءت هذه الأمة.
وهي: قصة .. عاد، قوم هود عليه السلام.
يقول سبحانه:

{ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ }
[الآية : ١٨]

أي: كذبت عاد هوداً عليه السلام، في دعوته لهم إلى اتباعه في الإيمان بالله الواحد.
أنظر:
فكيف كان تخويفي لهم، بـــ عذابي قبل نزوله، و جعلي هذا العذاب نذر وتخويف لمن بعدهم ..؟
وقد يسأل سائل ..
كيف كان هذا العذاب، الذي نزل بعاد قوم هود .. ؟
الجواب:

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ }
[الآيتان : ١٩، ٢٠]

إنا لما كذبوا نبيهم، وعاندوه، واستمروا على كفرهم ..
أرسلنا عليهم بقدرتنا ريحاً صرصراً شديدة البرودة.
وذلك في يوم نحس شؤم عليهم مستمر بهم.
وصارت هذه الريح تنزع الناس من بيوتهم وأماكنهم، وصاروا يتطايرون فيها كأنهم أعجاز نخل منقعر أجساد بلا رؤوس؛ حيث تطايرت رؤوسهم وقلعت من أجسادهم.
وهكذا .. كان هلاكهم ..!!

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ }
[الآية : ٢١]

أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذب رسلي ونذري..؟
إنه: أليم، أليم، أليم.
فهل تتعظون يا كفار هذه الأمة .. ؟
خاصة .. أنه:

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }
[الآية : ٢٢]

نعم .. ولقد يسرنا وسهلنا القرآن للذكر والإفادة منه، والإتعاظ به، لجميع الناس، وفي كل العصور ..!!
فهل من مدكر ينتفع به؛ فيؤمن من بعد كفر ويتوب بعد عصيان ..؟
وهكذا ..
توجيه: بعد تهديد ..!!
وتيسير: بعد تشديد ..!!

* * *

وإلى قصة ثالثة: من هذه الأنباء، التي جاءت هذه الأمة.
وهي: قصة ثمود، قوم صالح عليه السلام.
يقول سبحانه:

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ }
[الآية : ٢٣]

أي: كذبت ثمود صالحاً عليه السلام، في دعوته لهم إلى اتباعه في الإيمان بالله الواحد.
وبهذا: تكون ثمود قد كذبت بالنذر التي جاءت من عند الله كلها.
ولكن..
كيف كان تكذيبهم .. ؟
يقول تعالى:

{ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ }
[الآيتان : ٢٤، ٢٥]

يعني: لما دعاهم صالح إلى الإيمان بالله سارعوا فقالوا له مستنكرين: أبشراً منا واحدا من بيننا نتبعه ..!!

ثم قالوا إنا لو فعلنا ذلك،واتبعناه كنا إذا لفي ضلال وبعد عن الصواب وسعر ومجانين أيضاً.
ثم قالوا ثالثاً أألقى الذكر الذي جاء به إلينا ألقى عليه من بيننا وفينا من هو أحق منه بذلك.
ثم قالوا أخيراً بل هو فيما جاء به، وفيما يدعونا إليه كذاب أشر شديد الكذب.
قال تعالى لنبيه صالح عليه السلام: لا تبتئس من موقفهم هذا، ولا تحزن من تكذيبهم .. !!
فإنهم:

{ سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ }
[الآية : ٢٦]

عند نزول العذاب بهم سيعلمون علم اليقين من الكذاب الأشر هم، أو أنت.
يا صالح .. !!

{ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ }
[الآيتان : ٢٧، ٢٨]

نعم ..
إنا مرسلوا الناقة آية دالة على قدرتنا، وهي فتنة أي: اختبار لهم
فارتقبهم وانظر ماذا يصنعون بآية الله.
واصطبر في دعوتك لهم، وإقامتك معهم.
و كذلك..
نبئهم وأعلمهم أن الماء الموجود عندهم قسمة بينهم وبين هذه الناقة؛ حيث يكون لها شرب يوم ولكم شرب يوم آخر معلوم [الشعراء ١٥٥]
كل شرب محتضر، أي يحضر صاحبه لنواله، لا تجور الناقة في يومكم، ولا تجورون عليها في يومها.
علماً بأنها في يوم شربها: ستعطيكم لبنا قدر ما تشرب من الماء؛ تنتفعون به.
فماذا فعلوا.. حينما قال لهم صالح هذا الكلام ..؟
بل: ماذا فعلوا .. حينما جاءت الناقة، وسار الحال .. ؟
يا ألله ..!!
لقد بطروا وطغوا..
يقول تعالى.

{ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ }
[الآية : ٢٩]

في سورة النمل يقول تعالى وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون [الآية٤٨]
فنادوا صاحبهم واحد منهم، وهو أشقاهم فتعاطي الخمر وشرب منها حتى سكر فعقر أي: نحر الناقة وذبحها، والكل ينظرون راضون بما فعل؛ حيث لم ينكر عليه أحد منهم ما فعل.

حقاً .. كذبت ثمود بطغواها * إذا انبعث اشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها..
[الشمس ١١-١٤]
ماذا حدث لهم ..؟
يقول تعالى:

{ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ }
[الآية : ٣٠]

أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذب رسلي، ونذري ..؟
إنه: أليم، أليم، أليم.
فهل تتعظون يا كفار هذه الأمة .. ؟
ولكن ..
كيف كان عذاب الله لثمود قوم صالح عليه السلام .. ؟
يقول عز من قائل:

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ }
[الآية : ٣١]

إنا لما كذبوا نبيهم، وعاندوه،واستمروا على كفرهم، وعقروا الناقة بغياً وطغياناً أرسلنا عليهم بقدرتنا صيحة واحدة أهلكتهم جميعاً.
فكانوا بعدها كهشيم المحتظر كمخلفات الحيوانات التي جفت، ولا قيمة لها.
هذا: عذاب ثمود، قوم صالح عليه السلام.
جاء نبؤه في القرآن الكريم.
فهل تتعظون، وتؤمنون ..!!؟
خاصة .. أنه:

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }
[الآية : ٣٢]

نعم .. ولقد يسرنا وسهلنا القرآن للذكر والإفادة منه، والاتعاظ به؛ لجميع الناس، في جميع العصور ..!!
فهل من مدكر ينتفع به؛ فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان ..؟
وهكذا ..
توجيه: بعد تهديد .. !!
وتيسير: بعد تشديد ..!!

* * *

وإلى قصة رابعة: من هذه الأنباء، التي جاءت هذه الأمة.
وهي: قصة قوم لوط عليه السلام.
يقول سبحانه وتعالى:

{ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ }
[الآية : ٣٣]

أي: كذبت قوم لوط لوطاً عليه السلام، في دعوته لهم إلى اتباعه في الإيمان بالله الواحد، وترك ما هم فيه من فاحشة.
وبهذا: يكون قوم لوط، قد كذبوا بالنذر التي جاءت من عند الله كلها.
أتدرون ماذا حدث لهم، وماذا حدث للوط عليه السلام ..؟

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ }
[الآيتان : ٣٤، ٣٥]

إنا لما كذبوا نبيهم، وعاندوه، واستمروا على كفرهم وفاحشتهم أرسلنا عليهم بقدرتنا حاصباً حجارة ترميها بها، فتهلكهم جميعاً ..
إلا آل لوط الذين آمنوا به.. فقد نجيناهم من هذا العذاب، وأخرجناهم من القرية في الليل بسحر
وذلك نعمة من عندنا عليهم؛ ورحمة بهم.
كذلك الذي فعلناه مع لوط نجزي من شكر نعم الله، وآمن به،واتبع رسله.
ولكن .. ما قصتهم بشيء من التفصيل ..؟
يقول تعالى:

{ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ }
[الآيات : ٣٦ - ٣٩]

نعم ..
ولقد أنذرهم لوط، وخوفهم بطشتنا بمن كفر، وعاند، وطغى،
فتماروا وتشككوا بالنذر التي تأتيهم من عند الله.
أتدرون ماذا فعل الله بهم حينذاك..؟
يقول سبحانه: فطمسنا أعينهم أعميناهم
وقلنا لهم فذوقوا عذابي ونذر
فماذا فعل بهم بعد هذا العمي ..؟
يقول تعالى ولقد صبحهم بكرة في أول النهار عذاب مستقر بهم، لا هروب لهم منه، ولا نكال لهم عنه.

وقلنا لهم فذوقوا عذابي ونذر
هذا .. عذاب قوم لوط عليه السلام.
جاء نبؤه في القرآن الكريم.
فهل يتعظون، وتؤمنون .. !!؟
خاصة .. أنه:

{ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ }
[الآية : ٤٠]

نعم .. ولقد يسرنا وسهلنا القرآن للذكر والإفادة منه، والاتعاظ به؛ لجميع الناس، في جميع العصور ..!!
فهل من مدكر ينتفع به؛ فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان ..؟
وهكذا..
توجيه: بعد تهديد ..!!
وتيسير: بعد تشديد .. !!

* * *

وإلى قصة خامسة: من هذه الأنباء، التي جاءت هذه الأمة.
وهي: قصة .. آل فرعون.
يقول سبحانه:

{ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ }
[الآيتان : ٤١، ٤٢]

ولقد جاء آل فرعون النذر مع موسى عليه السلام.
أتدرون .. ماذا فعل فرعون وآله .. ؟
إنهم كذبوا بآياتنا التسع التي جاء بها موسى لهم كلها
أتدرون أيضاً ماذا حدث لهم لما كذبوا ..؟
يقول العزيز الغالب فأخذناهم بالعذاب أخذ عزيز غالب مقتدر فأبادهم الله جميعاً، ولما يبق منهم أحدا.

* * *

هذه هي بعض الأنباء التي جاء بها القرآن، وأخبركم بها محمد صلى الله عليه وسلم، وخوفكم بها رب العالمين.
قل لهم: يا محمد ..

فهل تتعظون ..؟
وهل تؤمنون ..؟
أو تظلون على كفركم ..؟
فإذا بقيتم على كفركم وعنادكم: فخبروني ..!!

{ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ }
[الآيتان : ٤٣، ٤٤]

يعني: أكفاركم الذين يعاندون خير من أولئكم الذين أهلكمهم الله وعذبهم ..؟
بحيث لا يعذبهم ..!!
أم أن لكم وعندكم براءة من العذاب في الزبر في الكتب المتقدمة.
وبذلك: أمنتم إهلاك الله لكم، وتعذيبه إياكم.
أم أنهم يقولون لكم يا مؤمنون نحن جميع معنا القوة والعدة والعتاد منتصر لا ينزل بنا سوء، ولا يمسنا عذاب.
إذا قالوا ذلك..
قل لهم ..

{ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ }
[الآية : ٤٥]

أي: سيهزم الجمع الذي تعتدون به.
وقد كان يوم بدر، وتحققت بذلك نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم.
ويولون الدبر أي: وينصرفون منهزمين.
وهي: في ذات الوقت بشارة لهذه الأمة، كلما تحقق إيمانها، وطغى وتجبر عليها أعداؤها.
وأكثر من هذا...
يقول تعالى:

{ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ }
[الآية : ٤٦]

بل الساعة وهي يوم القيامة يكون موعدهم للعذاب الأليم، الأشد من عذاب الدنيا.
و هذه الساعة حقيقة أدهى عليهم وأمر عذابا بهم.

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ }
[الآيتان : ٤٧، ٤٨]

إن المجرمين الكافرين في ضلال وضياع في الدنيا وسعر أي: نار موقدة مستعرة يوم القيامة.
يوم يسحبون ساعتها في النار علىوجوههم فلا يدرون أين يذهب بهم..؟
ويقال لهم توبيخاً وتبكيتاً ذوقوا مس عذاب سقر وهي جهنم.

* * *

وتدليلاً على حكمة الله وقدرته في ذلك .
يقول سبحانه

{ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ }
[الآيتان : ٤٩، ٥٠]

إنا بقدرتنا وحكمتنا كل شيء في ملكنا خلقناه بقدر وحكمة، ولغاية وعلة.
وما أمرنا لأي شيء ليكون كما نريد إلا قولة واحدة هي: كن، فيكون كلمح بالبصر
ولذلك .. عليهم إن كانوا عقلاء أن يخافوه سبحانه، وأن يؤمنوا به عز جاهه.

* * *

ثم يكون التنبيه الأخير في السورة للكافرين.
حيث يقول لهم رب العزة.

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ }
[الآيات : ٥١-٥٣]

أي: ولقد أهلكنا أشياعكم أشباهكم في الكفر، كما جاء في القرآن، وأخبر به محمد صلى الله عليه وسلم.
ولستم أفضل منهم.

فهل من مدكر فيكم يتعظ، فيؤمن بعد كفر، ويتوب بعد عصيان .. ؟
هذا ..
وكل شيء فعلوه مدون في الزمر لا يغيب من شيء.
وأنتم كذلك .. !!
أيضاً ..
وكل صغير وكبير منكم ومنهم مستطر ومكتوب في اللوح المحفوظ، وستحاسبون عليه.

* * *

وإذا كان هذا هو حال الكافرين.
فالمؤمنون على خلاف ذلك.
يقول عنهم رب العزة:

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ }
[الآيتان : ٥٤، ٥٥]

إن المتقين في جنات ونهر يتمتعون عكس الأشقياء الذين يكونون في ضلال وسعر يعذبون.
كما أن هؤلاء المتقين.
يكونون في مقعد صدق دار كرامة ورضوان، وفضل من الله عليهم.
وهذا المقعد الصدق يكون عند مليك مقتدر أي: عند عظيم، مقتدر على كل شيء، وعلى ما يطلبون ويريدون ، في هذا النعيم.
جعلنا الله وإياكم منهم أجمعين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خير خلق الله .
وبعد ..
فهذه : هي سورة الرحمن

وهى : فى قول جمهور العلماء .. سورة مكية .
تبدأ .. بقوله تعالى :

{ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ }
[الآيات ١ - ٤]

والرحمن هو الله سبحانه ، المتصف ببالغ الرحمة ، صاحب الأفضال والنعم.
ولما ثبت كون الله .. هو الرحمن : أشار بعده إلى دليل الرحمة ومصدر الشفاء ، وعظيم النعمة .. وهو القرآن ..!!
فقال علم القرآن .
أى : يسر حفظه وفهمه والعمل به ، على من رحمه من خلقه .
ثم ذكر نعمه تبارك وتعالى ..
وبدأ بخلق الإنسان ، الذى لولا وجوده ، لما انتفع بشئ من نعم الله وآلائه.
فقال :
خلق الإنسان .
يعنى : ليتعلم القرآن ؛ فيعرف الدين ، ويعبد الله الذى خلقه حق عبادته .
ثم بين نعمة الإدراك فى هذا الإنسان .
فقال :
علمه البيان .
أى : ميزه بالعلم والنطق ، الذى لولاه .. لما انتفع بشئ من النعم .

* * *

وبعد هذا الاستفتاح الطيب لهذه السورة .. !!
يكون الذكر لباقى النعم ..
فيقول سبحانه :

{ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }
[الآيات ٥ - ٧]

والشمس والقمر نعمتان من نعم الله على خلقه ، وهما يجريان فى هذا الكون الهائل الفسيح بحسبان دقيق ، يعلمه الله ، ويسيره كيف يشاء ، وينتفع به الإنسان ، فى مصالحه ومعاشه .

والنجم وهو النبات الذى لا ساق له والشجر المعروف يسجدان لله تعالى ؛ انقيادا وطاعة .
كما أن الشمس والقمر يسيران كما يريد الله ؛ انقيادا وطاعة .
ووضع سبحانه الميزان : الذى به توضع الأمور فى نصابها ، ولا يكون ظلم ولا إجحاف .
وهذا الميزان .. هو : العدل .
أيها الكرام ..
كل ما مر من دلائل وحدانية الله ، وقدرته ، وعظمته : يدعوا إلى الخضوع له ، والإيمان به ، واتباع رسله ، والعمل بشرعه سبحانه .

* * *

ومادام الميزان من وضع الله : فينبغى أن يلتزم به البشر .
ولذلك : كان هذا التكليف الإلهى ، والأمر المباشر .

{ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ }
[الآيتان ٨ ، ٩]

نهى من الله تعالى عن الطغيان فى كل الأمور ، وأمر بالعدل فيها ، ونهى – أيضا – عن الخسران .
وهكذا أمر المؤمن : إقامة للحق والعدل ، دون إفراط أو تفريط .

* * *

ثم يبدأ ربنا سبحانه : في ذكر نعمه وآلائه على خلقه ..
فيقول :

{ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ }
[الآيات ١٠–١٢]

سبحانه القادر ..!!
كما رفع السماء ، وضع الأرض ، وجعلها صالحة للأنام وهى :جميع الخلائق ، يستقرون عليها ، وينتفعون بها .. !!
جعل فيها ما يعيشون عليه ، ويتمتعون به .
فـفيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان .
وهذه : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!

* * *

يا معشر الجن والإنس ..

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ١٣]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من هذه النّعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..!! ؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أولا تعبدان ، أولا تتقيان الله ..!!

* * *

لاحظوا : هذه أول مرة ترد فيها هذه الآية الكريمة ، التى ذكرت فى هذه السورة ، إحدى وثلاثين مرة .
ويقول العلماء :
ثمان مرات منها : تأتى عقب ذكر نعم الله ، ودلائل قدرته .
وسبع مرات منها – بعدد أبواب جهنم – تأتى عقب تهديد المجرمين ، الكافرين ، المكذبين بهذه النعم ، المنكرين لوحدانية الله وقدرته .
وثمان مرات منها – بعدد أبواب الجنة – تأتى عقب ذكر الإنعامات العديدة ، لمن خاف مقام ربه فآمن بوحدانيته ، وأذعن لقدرته .
وثمان مرات منها – بعدد أبواب الجنة كذلك – تأتى عقب ذكر إنعامات عديدة عقب الإنعامات السابقة على المتقين أهل الجنة .

* * *

يقول تعالى :

{ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ }
[الآيتان ١٤ ، ١٥]

سبحان القادر ..!!
خلق الإنسان بقدرته من صلصال طين يابس كالفخار.
وخلق الجان بقدرته من مارج لهب خالص لا دخان فيه من نار .
وهذه : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس .

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ١٦]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من هذه النعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..!!

* * *

ثم يقول تبارك وتعالى .

{ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ }
[الآية ١٧]

وهو سبحانه : رب المشرق والمغرب [الشعراء ٢٨] .
وهو سبحانه : رب المشارق والمغارب [المعارج ٤٠] .
وشروق الشمس وغروبها : آية من آيات الله الدالة على : وحدانيته سبحانه وقدرته.
حيث إن الشمس لها فى كل لحظة مشرق ومغرب ..
فهى إذا : لها مشارق ومغارب .
كما أن الناظر إليها يرى لها مشرقا ومغربا ..
فهى إذا : لها مشرق ومغرب .
وفى ذات الوقت ما يراه الناظر مشرقا يراه غيره فى الجهة المقابلة مغربا ، وما يراه هو مغربا ، يراه غيره مشرقا ..
فهى إذا : لها مشرقين ومغربين .
وهذه : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس .

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ١٨]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من هذه النعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..!!
ثم يقول جل شأنه :

{ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ }
[الآيتان ١٩ ، ٢٠]

سبحان القادر ..
مرج أرسل البحرين العذب والمالح ، وجعلهما يلتقيان ويختلطان مع بعضهما البعض .
وكان بقدرته بينهما برزخ أى : حاجز ، حتى لا يبغيان على بعضهما البعض كذلك .
وفى ذلك : من مصالح الناس ما فيه ..!!
وهذه : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس ..

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }

[الآية ٢١]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من هذه النعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..!!

* * *

ثم يقول عظم شأنه :

{ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ }
[الآية ٢٢]

سبحان القادر ..!!
يخرج منهما أى : من مجموع البحرين اللؤلؤ والمرجان .
وفى هذا : لفت نظر الناس ، إلى هذه النعم الجمالية الدقيقة ، التى أودعها الله فى الكون ، وجعلها من الزينة .
وهذه : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس .

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٢٣]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من هذه النعم، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..!!

* * *

ثم يقول تعالت عظمته .

{ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ]
[الآية ٢٤]

سبحان القادر ..!!
وله وحده : تسخير وتيسير الجوار السفن بأشكالها وأنواعها المنشآت الموجودات فى البحر كالأعلام أى : مثل الجبال الشاهقة الارتفاع .
وفى هذا : تذكير بتسخير الله الأشياء للناس ، حتى يتمكنوا من خلالها قضاء مصالحهم ومنافعهم .
وهى : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .

سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس ..

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٢٥]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من هذه النعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله .. !!

* * *

ثم يقول سبحانه :

{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ }
[الآيتان ٢٦، ٢٧]

سبحان القادر ..!!
كل من عليها أى : الأرض من الأحياء فان أى : سيموت .
ويبقى وجه ربك دون فناء أو موت ، فهو ذو الجلال أى : صاحب العظمة والسلطان والإكرام وهو الإحسان
.
وفى هذا : تنبيه على أنه عز وجل .. أهل لأن يُجَلَّ فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يُخالف.
وهى فى ذات الوقت : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس .

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٢٨]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من هذه النعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..!!

* * *

ثم يقول عز وجل :

{ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ }
[الآية ٢٩]

سبحان القادر ..!!
يسأله من فى السموات والأرض الرحمة ، وما يحتاجون إليه فى دينهم ودنياهم.
كل يوم هو سبحانه فى شأن من شئونهم يعز من يشاء ويذل من يشاء ويولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى [آل عمران ٢٦ ، ٢٧] .
ويشفى سقيما ، ويمرض سلميا ، ويغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع من يشاء ، ويضع من يشاء ، سبحانه وتعالى .
وهذه : آية من آيات وحدانيته ، ودليل من دلائل قدرته .
سبحان المنعم .. جل جلاله ..!!
يا معشر الجن والإنس .

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٣٠]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من هذه النعم ، ودليل من هذه الدلائل : تكذبان أنها من نعم الله..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..؟

* * *

وهكذا ..
انتهت المرات الثمان .. التى يعدد الله فيها نعمه على خلقه ، ويدعوهم بتذكيرهم إياها للإيمان به ، وشكره ، وعبادته ، وتقواه .

* * *

ثم تبدأ مرات التهديد السبع .. لمن لا يؤمن بهذه الدلائل ، ولايعترف بوحدانية الله ، ويذعن لقدرته .
فيقول عز من قائل :

{ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ }
[الآية ٣١]

يا ألله ..!!
إنه : تهديد مخيف .
سنفرغ لكم أى : سنقصدكم ، وننتقم منكم ، وننكل بكم أيها الثقلان الإنس والجن .
وهو : تهديد لمن لا يؤمن بهذه الدلائل ، ولا يعترف بوحدانية الله ، ويذعن لقدرته .
ثم يقول لهما :

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٣٢]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من النعم السابقة ، ودليل من الدلائل المذكورة : تكذبان أنها من نعم الله .. ؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..؟

* * *

ثم يقول القوى العزيز :

{ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ }
[الآية ٣٣]

يا ألله ..!!
إنه : تهديد رهيب .
يا معشر الجن والإنس كلكم إن استطعتم مجتمعين أو منفردين أن تنفذوا أى : تخرجوا من أقطار السموات والأرض وهى : مساحة محدودة فى ملكوت الله فانفذوا .
وللعلم : إنكم لا تستطيعون ، ولا تنفذون بالفعل إلا بسلطان منا نعطيه لكم.
وهو : قمة التحدى .. لمن لا يؤمن بالله ، ولا يعترف بوحدانيته ، ويذعن لقدرته.
ثم يقول لهما :

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٣٤]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من نعم الله ، ودليل من دلائل قدرته : تكذبان ..!!؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..؟

* * *

ثم يقول المنتقم الجبار :

{ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ }
[الآية ٣٥]

يا ألله ..!!
يا رحيم ..!!
ليس للبشر بهذا التهديد طاقة .
يرسل عليكما أيها الكفار من الجن والإنس شواظ أى لهب من نار ونحاس تعذبان به عذابا ليس له مثيل .
وساعتها : تطلبان الخلاص من هذا العذاب .
فلا تنتصران فى طلبكما ، وتنجوان من هذا العذاب .

وهذا : قمة الورع والتخويف .. لمن لا يؤمن بالله ، ولا يعترف بوحدانيته ، ولا يذعن لقدرته .
ثم يقول لهما :

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٣٦]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من نعم الله ، ودليل من دلائل وحدانيته وقدرته : تكذبان ..!!؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..؟

* * *

ثم يقول القوى القادر :

{ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ }
[الآية ٣٧]

يا ألله ..!!
إنه : يوم رهيب .
نسأل الله فيه النجاة .
فإذا انشقت السماء يوم القيامة ، وانفك بعضها عن بعض لقيام الساعة .
فكانت ساعتئذ وردة كالدهان أى : صارت كلون الورد ؛ حيث تختلط الألوان والأصباغ من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة .
إذا حدث ذلك .. ماذا تفعلون .. ؟
إذن ..

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٣٨]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من نعم الله ، ودليل من دلائل وحدانيته وقدرته تكذبان ..!!؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..؟

* * *

ثم يقول العادل سبحانه :

{ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ }
[الآية ٣٩]

أى : فى هذا اليوم لا تسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم ؛ لأنهم يُعْرَفون بسيماهم ، وسواد وجوههم .
ما رأيكم .. قل فضلكم أيها المجرمون .. ؟

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٤٠]

خبرونى .. !!
بأى نعمة من نعم الله ، ودليل من دلائل وحدانيته وقدرته تكذبان ..!!؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..؟

* * *

ثم يقول العليم الحكيم :

{ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ }
[الآية ٤١]

نعم .. إنهم لا يسألون ، بل يعرفون ، حيث إن علامات سوء نهاياتهم تظهر على سيماهم .
لذلك : يؤخذون أخذ عزيز مقتدر بالنواصى والأقدام ..!!

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٤٢]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من نعم الله ، ودليل من دلائل وحدانيته وقدرته تكذبان ..!!؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان الله ..!!

* * *

ثم يقال لهم توبيخا وتبكيتا :

{ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ }
[الآيتان ٤٣ ، ٤٤]

أى هذه جهنم التى كان يكذب بها المجرمون فى الدنيا .
واليوم .. يدخلونها ، ويطوفون يترددون ويسعون بينهابين جنباتها وبين حميم آن أى : ماء حار شديد الحرارة .

يعنى : يحرقون بها ، فيستغيثون منها ، فينقلون إلى الحميم ، فيسقون منه ، ويصب فوق رؤسهم ، فإذا استغاثوا منه : ينقلون مرة أخرى إلى النار ، وهكذا .
هذا هو العذاب .

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٤٥]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من نعم الله ، ودليل من دلائل وحدانيته وقدرته تكذبان ..؟
وبالتالى : فلا تؤمنان ، أو لا تعبدان ، أو لا تتقيان ..!!

* * *

وهكذا ..
انتهت المرات السبع .. التى هدد الله فيها وبكَّت المجرمين على عدم تذكرهم بنعمه التى بينها لهم ، ومتعهم بها .
ولكنهم .. لم يؤمنوا ، ولم يعبدوا ، ولم يتقوا ربهم .

* * *

ثم تبدأ مرات الذين يخافون مقام ربهم .
وهى : ثمان مرات ، على النحو التالى :
حيث يقول تعالى :

{ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ]
[الآية ٤٦]

أى : ولمن خاف مقام ربه فترك المعاصى ، وأدى الفرائض ، وراقب ربه فى كل حال .
وهم : السابقون المقربون ، من الإنس والجن .
لهم جنتان من ذهب ، آنيتهما ، وما فيهما ، وهما جنّة عدن ، وجنة النعيم.
يا أهل هذا النعيم ..

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآية ٤٧]

خبرونى ..!!
بأى نعمة من نعم الله الدنيوية التى ذكرت ، والأخروية التى توعدون ،بها تكذبان ..؟
ولا بشئ من آلائك كلها .. نكذب يارب العالمين .

* * *

{ذَوَاتَا أَفْنَانٍ }
[الآية ٤٨]

أى : هاتان الجنتان .. فيهما أشجار كثيرة ، ولهذه الأشجار أغصان جميلة ، لها ثمار يانعة ، ومناظر بديعة ، وظل ظليل .
إذن ..

{ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ]
[الآية ٤٩]

يقول أهل الصلاح : ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب .

* * *

{ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٥٠ ، ٥١]

فى هاتين الجنتين ، البديعتين : عينان من الماء الزلال ، إحداهما التسنيم ، والثانية السلسبيل .
وهاتان العينان تجريان بالماء ؛ حيث شاء أهل هذا النعيم .
فبأى آلاء ربكما يا أهل الدنيا تكذبان .
يقول أهل الصلاح : ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب .

* * *

{ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٥٢ ، ٥٣]

فى هاتين الجنتين ، البديعتين من كل فاكهة تخطر على البال ، أو لا تخطر :زوجان صنفان ، أحدهما معروف لأهل الجنة ، والآخر جديد عليهم .
فبأى آلاء ربكما يا أهل الدنيا تكذبان .
يقول أهل الصلاح : ولا بشئ من نعمك كلها ربنا نكذب .

* * *

ثم يصف ربنا بعض أحوال أهل هاتين الجنتين .
فيقول :

{ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٥٤ ، ٥٥]

أى : منعمين مستريحين على فرش وثيرة بطائنها الداخلية من استبرق وهو الحرير السميك المزين .
ويقول ابن مسعود : وهذا ظاهرها ، فما بالكم بباطنها ..!!؟
وجنى أى : ثمر الجنتين بكل أنواعه دان وقريب منهم ، متى أرادوه .. نالوه بيسر وسهولة .
فبأى آلاء ربكما يا أهل الجنة تكذبان .
يقول أهل الصلاح : ولا بأى من آلائك نكذب ياربنا .

* * *

ثم يصف ربنا تبارك وتعالى شيئا مما لمن خاف مقام ربه : من صور الانعام والتكريم..
فيقول :

{ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيات ٥٦ – ٥٩]

فيهن أى فى هذه الجنان ، وعلى هذه الفرش التى بها : نساء قاصرات الطرف حياءً وأدباً ، لا ينظرن إلا إلى أزواجهن .
بل تقول الواحدة منهن لرجلها " والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ، ولا أحب إلى منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك " .
وهؤلاء النسوة : أبكار لم يطمثهن أى : يجامعهن إنس قبلهم ولا جان .
فبأى آلاء ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان ..؟
وهؤلاء النسوة أيضا كأنهن لحسنهن : فى صفاء الياقوت وجمال المرجان .
خبرونى .. فبأى آلاء ربكما هذه تكذبان ..؟

* * *

ثم يقرر ربنا عز وجل ويؤكد ما لمن خاف مقام ربه من النعيم .
بقوله تعالى :

{ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٦٠ ، ٦١]

ما تظنون يا معشر الجن والإنس .. ؟
هل تظنون أن جزاء الإحسان فى الدنيا من الإيمان والعمل الصالح شيئا آخر غير هذا الإحسان ، الذى عرفتم شيئا من ألوانه وصوره ..؟
إذن ..

فبأى آلاء ربكما تكذبان
فلا تشكران ، وتؤمنان ، أو تعبدان ، أو تتقيان الله ..!!

* * *

وهكذا ..
انتهت المرات الثمان ، من قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان التى ذكرها الله عز وجل فى حديثه عن من خاف مقام ربه.
وهم السابقون المقربون .

* * *

ثم تبدأ ثمان مرات أخر .. مع الحديث عن أهل اليمين .
يقول الحليم الكريم :

{ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٦٢ ، ٦٣]

أى : ومن دون الجنتين السابقتين جنتان لأهل اليمين .
وهما : جنة الفردوس ، وجنة المأوى .
وهما : من فضة .. آنيتهما ، وما فيهما كله .
فبأى شئ من آلاء ربكما هذه تكذبان فلا تشكران يا معشر الجن والإنس..!!؟

* * *

وهاتان الجنتان ..

{ مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٦٤ ، ٦٥]

مدهامتان أى : شديدتا الخضرة ، وهو أفضل الألوان فى المزروعات .
فبأى آلاء ربكما ونعمه هذه تكذبان يا معشر الجن والإنس ، فلا تشكران الله.. ؟

* * *

ثم يقول سبحانه عن هاتين الجنتين .

{ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }

[الآيتان ٦٦ ، ٦٧]

أى : فى هاتين الجنتين عينان من الماء الزلال نضاختان فوارتان به دائما ، لا ينقطع ماؤهما أبدا .
وهو منظر : فى غاية الحسن والجمال .
فبأى آلاء ربكما ونعمه ، الدالة على وحدانيته ، وقدرته .. تكذبان يا معشر الجن والإنس .. ولا تشكران ..
؟

* * *

أيضاً :

{ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٦٨ ، ٦٩]

* * *

أيضا :

{ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيات ٧٠ ، ٧٥]

فيهن أى فى هذه الجنات : مخلوقات خيرات جميلات حسان الخَلْق والخُلق .
فبأى آلاء ربكما تكذبان ولا تشكران ..؟
وهؤلاء الخيرات : هن حور ذوات عيون جميلة ، واسعة ، بياضها شديد ، وسوادها شديد .
وهن مقصورات فى الخيام ملازمات للخيام حياءً وأدبا ، لَسْنَ من الطوافات المتبذلات فى الطرقات .
فبأى آلاء ربكما تكذبان ولا تشكران ..؟
وهؤلاء الحور : عربا أترابا ، أبكارا لم يطمثهن أى : لم يجامعهن أبدا قبلهم إنس ولا جان .
فباى آلاء ربكما إذن تكذبان ولا تشكران ..؟

* * *

ثم يصف ربنا بعض أحوال أهل هاتين الجنتين ..
فيقول سبحانه :

{ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }
[الآيتان ٧٦ ، ٧٧]

أى : منعمين مستريحين على رفرف وسائد خضر اللون تريح العيون و حرير عبقرى حسان جيد .

فبأى آلاء ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ..!!؟
فلا تشكران المولى .. فتؤمنان ، أو تعبدان ، أو تتقيان الله ..!!

* * *

وهكذا ..
انتهت المرات الثمان الأخيرة من قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان .
بل انتهت المرة الحادية والثلاثون .
والتى كان المولى يقرع فيها الإنس والجن : لعدم إيمانهم .
بل يحث فيها الإنس والجن : على الإيمان والطاعة .

* * *

ختاما لهذه النعم ، ولهذا الوعيد ، ولتلك الوعود ..
يقول الحكيم الخبير :

{ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }
[الآية ٧٨]

حقا .. تبارك وتعاظم إسم ربك الواحد الأحد .
سبحانه ذى الجلال والمهابة والإكرام لأوليائه بالإنعام .
حقا .. هو العظيم : الذى ينبغى أن يطاع فلا يعصى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى .
سبحانه وتعالى جل شأنه ، وتعالت عظمته ، سبحانه .

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عنها أحد الصالحين: من أراد أن يعلم... نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة وأهل النار، ونبأ أهل الدنيا وأهل الآخرة: فليقرأ سورة الواقعة.
ودخل عثمان بن عفان على عبد الله بن مسعود، يزوره في مرضه الذي مات فيه..
فقال له: ما تشتكي..؟
قال: ذنوبي..
قال له: فما تشتهي..؟
قال: رحمه ربي.
قال له: أفلا ندعو لك طبيبا..؟
قال: الطبيب أمرضني.
قال له: أفلا نأمر لك بعطاء..؟
قال: لا حاجة لي فيه.
قال له: يكون لبناتك من بعدك.
قال: أتخاف على بناتي الفقر من بعدي..؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة الواقعة كل ليلة، حيث إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من قرأ سورة الواقعة لم يصبه فقر أبدا".
صلى الله عليه وسلم يا سيدي يا رسول الله

* * *

أيها الأحبة في الله..!!
وتبدأ هذه السورة بقوله عز وجل:

{ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجاً * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَساً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثاً * وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً }
[الآيات : ١-٧]

نعم..
(إذا وقعت الواقعة) أي: قامت القيامة لا يكون هناك مكذب بها.
وهي (خافضة) لأقوام؛ حيث تدخلهم النار (رافعة) لشأن أقوام آخرين. وهم الصالحين؛ حيث تدخلهم الجنة.
وذلك يكون (إذا) حدث.
و(رجت الأرض رجا) أي: أهتزت وتحركت حركة شديدة، رهيبة بكل ما عليها ومن عليها.
(و) بعد ذلك (بست الجبال بسا) أي: تفتتت إلى ذرات (فكانت هباءً) غباراً (منبثا) أي: منتشراً في الفضاء.

و(كنتم) يا أيها الناس في هذا اليوم (أزواجاً) أي: أصنافاً ثلاثة.
صنفان في الجنة، وصنف في النار.
وذلك حسب البيان الإلهي التالي..

{ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ }
[الآيات : ٨-١٠]

وهكذا..
الصنف الأول: هم أصحاب الميمنة، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وهم من أهل الجنة.
والصنف الثاني: هم أصحاب المشأمة، الذين يؤتون كتبهم بشمالهم، وهم من أهل النار.
والصنف الثالث: هم (السابقون) في الدنيا إلى الخيرات (السابقون) يوم القيامة إلى الجنات.

* * *

وهؤلاء السابقون يقول عنهم رب العزة.

{ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ }
[الآيتان : ١١، ١٢]

يعني: هم (المقربون) عند الله، يقيمون (في جنات النعيم)
وهؤلاء المقربون..

{ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ }
[الآيتان : ١٣، ١٤]

ثلة: أي جماعة كثيرة (من) المؤمنين (الأولين) التابعين للأنبياء السابقين، ومن صدر هذه الأمة التابعين لمحمد صلى الله عليه وسلم.
(وقليل من) المؤمنين (الآخرين) من هذه الأمة.

وهؤلاء المقربون..

{ عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَ لا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً }

[الآيات : ١٥-٢٦]

نعم.. إنهم يكونون في جنات النعيم (على سرر موضوعة) أي: منسوجة ومرصعة بالذهب.
كما أنهم يجلسون (متكئين عليها) في سعادة بالغة (متقابلين) و(يطوف عليهم) وهم في هذا النعيم (ولدان مخلدون) في وضعهم هذا وسنهم هذا؛ يخدمونهم ولا يهرمون.
وهم من خلق الجنة الجديد، كالحور العين.
يطوفون عليهم (بأكواب وأباريق وكأس) كلها مملوءة (من معين) أي: عين تجرى بخمر الجنة، لا تنقطع، ولا تنتهي ما فيها.
وهم (لا يصدعون عنها) أي: لا يصيبهم صداع يصيب شارب خمر الدنيا، (ولا هم عنها ينزفون) أي: ولا تذهب عقولهم سكرا من شربها كما يصيب شارب خمر الدنيا.
وهم في ذات الوقت (لا يسمعون فيها) أي: في الجنة (لغوا ولا تأثيما) كلا ما ساقطاً أو سيئاً.
نعم.. لا يسمعون فيها (إلا قيلا سلاما سلاما).

* * *

ولما ذكر الولى هؤلاء السابقين المقربين ونعيمهم، عطف عليه بذكر أصحاب اليمين الأبرار.
فقال سبحانه:

{وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ }

[الآيات : ٢٧-٣٤]

يعني: (وأصحاب اليمين) الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم لصلاحهم في الدنيا فما أعظم وأحلى وأجمل ما فيه (أصحاب اليمين) هؤلاء.
إنهم يتمتعون (في)
ثمار (سدر مخضود) لا شوك فيه يؤلم أناملهم.
(وطلح منضود) ثمار شجر الموز الكثيرة الناضجة.
(وظل ممدود) لا حر فيه ولا برد.
(وماء مسكوب) جار بنعومة؛ تسر به العين، ويسعد به الخاطر.
(وفاكهة كثيرة) الأنواع والأشكال والطعوم (لا مقطوعة) عنهم (ولا ممنوعة) منهم.

(و) لهم في الجنة (فرش مرفوعة) عالية القدر، رفيعة المنزلة عليها خلق جديد من نساء الجنة.
يقول عنهن رب العزة تبارك وتعالى:

{ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ }
[الآيات: ٣٥-٣٨]

أي: أنشأناهن إنشاءً جديداً، حيث (جعلناهن أبكارا) حتى وإن كن قد متن ثيبات.
(عرباً أترابا) أي: صغيرات، مستويات في السن، في الثالثة والثلاثين كما في الأحاديث، لا يهرمن ولا يمرضن، ولا يتحول جمالهن.
وهن (لأصحاب اليمين) إنعاماً من الله تعالى.
وللعلم.. أصحاب اليمين هؤلاء يكونون:

{ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ }
[الآيتان: ٣٩، ٤٠]

(ثلة) أي: جماعة كثيرة (من) المؤمنين (الأولين) التابعين للأنبياء السابقين، ومن صدر هذه الأمة التابعين كذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم.
(و) كذلك (ثلة من) المؤمنين (الآخرين) من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

* * *

أيها الأحبة في الله تعالى.
بعد أن ذكر الله عز وجل في أول السورة طوائف الناس يوم القيامة..!!
وبعد ذكر نعيم السابقين، وأصحاب اليمين..!!
يبين فيما يلي أحوال أصحاب الشمال، وما هم فيه من سوء مصير.. فيقول:

{ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ }
[الآيات: ٤١-٤٤]

يعني: (وأصحاب الشمال) الذين يؤتون كتبهم بشمالهم يوم القيامة، لسوء أفعالهم في لدنيا، ما أسوأ وأبأس وأفظع ما فيه (أصحاب الشمال) هؤلاء.

إنهم (في) عذاب (سموم) وهي الريح الحارة التي تخرج لهم من النار، وتنفذ في مسامهم (وحميم) كذلك أي: ماء شديد الحرارة.
[و] هم في (ظل من يحموم) دخان شديد السواد، يعمي العيون، ويزكم الأنوف.
هذا الظل (لا بارد) مثل أي ظل (ولا كريم) في منظره.
ولكن..
لماذا كل هذا..؟
يقول العزيز الحكيم:

{ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ }
[الآيات : ٤٥-٤٨]

نعم..
(إنهم كانوا) في الدنيا (قبل ذلك) اليوم يتصفون بسيئات ثلاث.
الأولى: أنهم كانوا (مترفين) لا يتعبون أنفسهم في طاعة الله.
الثانية: [أنهم كانوا يصرونعلى الحنث العظيم] وهو الشرك.
الثالثة: أنهم (كانوا) ينكرون البعث، و(يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون) مرة أخرى (أو آباؤنا الأولون)؟

* * *

ولخطورة هذا الكلام وفساده؛ يقول رب العزة لمحمد صلى الله عليه وسلم: رد عليهم هذه المفاهيم الفاسدة.

{ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ }
[الآيتان : ٤٩، ٥٠]

(قل) لأصحاب هذه المزاعم (إن الأولين والآخرين) بقدرة الله تعالى (لمجموعون) بعد إحيائهم وبعثهم (إلى ميقات يوم معلوم) وهو يوم القيامة.
حيث يتفضل المولى على أهل الإيمان بالنعيم، وينزل عذابه العادل بأهل الكفر المشركين.

* * *

ولخطورة مواقفهم،وفساد سلوكهم يهددهم الجبار سبحانه.
حيث يقول:

{ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ }
[الآيات : ٥١-٥٥]

(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) في أي زمان، وفي أي مكان، ومن أي جنس إذا بقيتم على كفركم وعنادكم..!! لداخلون إلى جهنم، وآكلون فيها (من شجر من زقوم) وهو شجر ينبته الله في جهنم، بشع المنظر، كريه الرائحة، سيء الطعم.
وليس لكم في الأكل منه وعدم ذلك خيار.
فإنكم من شدة الجوع تأكلون من أشجاره وتأكلون (فمالؤن منها البطون)
ثم يصيبكم العطش؛ فتحتاجون إلى الشراب.
يقول المولى (فشاربون عليه) أي: هذا الزقوم (من الحميم)
وهو الماء الحار، الذي تتقطع منه الأمعاء، دون إرتواء.
فتزدادون عطشاً على عطش.
فتشربون ثانية وثالثة، دون ارتواء.
(فــ) تصيرون (شاربون شراب الهيم) وهي البهائم العطشى التي لا تدري ماذا تفعل.

* * *

{ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ }
[الآية : ٥٦]

نعم.. هذا طعام أصحاب الشمال وشرابهم، وجزاؤهم، ومكانهم، واستحقاقهم في (يوم الدين) وهو يوم القيامة.
ألا.. فلينتبه الضالون المكذبون.
ألا..فلينتبه الضائعون المترفون.
ألا..فلينتبه المعاندون اللاهون.

* * *

ثم يقول عز وجل لهؤلاء المكذبين:

{ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ }
[الآية : ٥٧]

أي: (نحن) الذين (خلقناكم) أولاً، وبالتالي: فنحن قادرون على إعادتكم ثانياً، وعلى مجازاتكم على الخير خيراً، وعلى الشر بمثله.
(فلولا) فهلا (تصدقون) بيوم البعث هذا، وبالتالي تؤمنون بالله وبقدرته، فتعبدونه، وتطيعونه..!!

* * *

ثم يقدم الله عز وجل لهم الأدلة الملزمة لإيمانهم، والمبطلة لتكذيبهم.
حيث يقول:
في الدليل الأول:

{ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ }
[الآيات : ٥٨-٦٢]

أي: أخبروني عن (ما تمنون) وهو الماء الذي تقذفونه في الأرحام (أأنتم) تخلقونه بشرا (أما نحن الخالقون) له..؟
أليس ذلك بدليل على قدرة الله ووحدانيته؟
ثم (نحن) الذين (قدرنا) أعمالكم بالطول لهذا والقصر لغيره، وجعلنا (بينكم الموت) نهاية لحياتكم (وما نحن بمسبوقين) أي: بعاجزين (على) أي: عن (أن نبدل أمثالكم) ونغير خلقكم يوم القيامة.
(وننشئكم فيما لا تعلمون) خلقاً آخر في الصفات والأحوال.
أليس ذلك بدليل على قدرة الله ووحدانيته..؟
خاصة أنه..
(قد علمتم النشأة الأولى) وهي الخلق الأول وأعترفتم أن الله هو الذي خلقكم..
(فلولا) فهلا (تذكرون) فتؤمنون بالله وبقدرته، فتعبدوه وتطيعونه..؟

* * *

وفي الدليل الثاني يقول سبحانه:

{ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ }
[الآيات : ٦٣-٦٧]

أي: أخبروني عن (ما تحرثون) من الأرض، وإلقاء البذر فيها (أأنتم) الذين (تزرعونه) أي: تنبتونه (أم نحن) بقدرتنا (الزارعون) له..
أليس ذلك بدليل على قدرة الله ووحدانيته..؟
يا هؤلاء
(لو نشاء لجعلناه) بقدرتنا (حطاماً) هشيماً مشكرا، لا نفع فيه (فظلتم تفكهون) تتعجبون، وتتحسرون على ما أنفقتم عليه.
وتقولون (إنا لمغرمون) دفعنا وأنفقنا وغرمنا وخسرنا، (بل نحن محرومون) أصحاب حظ سيء.
أليس رزقنا لكم، وعطفنا عليكم بدليل على قدرتنا ووحدانيتنا..؟
وهلا آمنتم بالله وبقدرته، فتعبدونه وتطيعونه..!!

* * *

وفي الدليل الثالث يقول سبحانه:

{ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ }
[الآيات: ٦٨-٧٠]

أي: أخبروني عن (الماء الذي تشربون) منه (أأنتم) الذين (أنزلتموه من المزن) أي السحاب (أم نحن) بقدرتنا (المنزلون) له منها..؟
أليس ذلك بدليل على قدرة الله ووحدانيته..؟
يا هؤلاء
(لو نشاء جعلناه) بقدرتنا (أجاجا) شديد الملوحة والمرارة، بدل ما هو عذب فرات.
أليس ذلك ــ أيضاً ــ من رحمتنا بكم وعطفنا عليكم، وهو دليل على قدرتنا ووحدانيتنا..؟
إذا..
(فلولا تشكرون) الله، فتؤمنون به، وتعبدونه وتطيعونه..؟!
وفي الدليل الرابع يقول العليم الحكيم:

{ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ }
[الآيات: ٧١-٧٣]

أي: أخبروني عن (النار التي تورون) تشعلونها (أأنتم) الذين (أنشأتم) خلقتم (شجرتها) أي: الشجر (أم نحن) بقدرتنا (المنشئون) الخالقون لها..؟
أليس ذلك بدليل على قدرة الله ووحدانيته..؟
يا هؤلاء..
(نحن جعلناها) للناس (تذكرة) دائمة أمامهم بنار جهنم.
(و) جعلناها كذلك (متاعاً) منفعة (للمقوين) المسافرين يهتدون بها.
أليس ذلك بدليل على قدرتنا ووحدانيتنا..؟
هلا آمنتم..!!
هلا أطعتم ربكم..!!

* * *

وفي نهاية هذه الأدلة القوية الواضحة يتركهم رب العزة، ويقبل على حبيبه صلى الله عليه وسلم آمراً له بما يجب على كل البشر لرب العالمين.
حيث يقول له:

{ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }
[الآية: ٧٤]

أي: عظم ربك على هذه النعم الجليلة، ونزهه سبحانه عما يقول الكافرون.
(سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً) [الإسراء ٤٣]. ولما قدّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم الدلائل على وحدانية الله تعالى وقدرته للمنكرين ومع ذلك لم يؤمنوا..!!
لم يبق إلا القسم.
لذلك قال لهم:

{ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ }
[الآيتان: ٧٥، ٧٦]

أي: أقسم (بمواقع النجوم) وهي: منازلها عند انتقالها وحركتها في هذا الكون الفسيح.
(وإنه) في حقيقة الأمر (لقسم لو تعلمون) سعة هذا الكون، وكثرة نجومة ومجراته، ودقة سيرها، وعدم اصطدامها لعرفتم أنه قسم (عظيم).
ولكن..
علام هذا القسم..؟
على أن القرآن من عند الله تعالى، وهو كتاب كريم.
يقول سبحانه

{ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات : ٧٧–٨٠]

نعم.. (إنه لقرآن كريم) على الله، عظيم النفع في الدنيا والآخرة وهو (في كتاب مكنون) أي: مصون عن أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، وهو اللوح المحفوظ، أو المصحف الشريف.
وهذا الكتاب ــ ثالثاً ــ (لا يمسه إلا المطهرون) أي: الملائكة، أو لا يمسه إلا الذين طهروا أنفسهم من الأحداث.
وهو ــ وصف رابع ــ (تنزيل) على محمد صلى الله عليه وسلم (من رب العالمين) وليس كما يقول الكافرون من أنه: سحر أو كهانة، أو شعر.. الخ ما قالوه.
هذا هو القرآن الكريم..!!
وهذه بعض أوصافه..!!

* * *

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى للكافرين بهذا القرآن:

{ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ }
[الآيتان: ٨١، ٨٢]

يعني: (أفبهذا) القرآن (أنتم) مكذبون..؟
(وتجعلون) شكر (رزقكم) به من الله تعالى، وهو أفضل أنواع الرزق (أنكم تكذبون) به.
إنكم حقاً لا تعقلون..!!

* * *

ثم يقول عز وجل للمنكرين للبعث والحساب:

{ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآيات: ٨٣-٨٧]

أي: فهلا (إذا بلغت الروح الحلقوم) ساعة احتضار الميت، (وأنتم) في هذه الحالة (تنظرون) إليه، وعاجزون عن فعل أي شيء (ونحن) بقدرتنا (أقرب إليه منكم) إليه (ولكن لا تبصرون) هذه القدرة؛ لعدم إيمانكم.
على أية حال:
فهلا (إن كنتم) كما تزعمون (غير مدينين) أي: غير محاسبين؛ لإنكاركم البعث تستطيعون أن (ترجعونها) وهي الروح في هذه الحالة إلى الجسد، فلا يموت المرء (إن كنتم صادقين) في نفي قدرتنا ووحدانيتنا..؟

* * *

يا هؤلاء..
أعلموا جيداً. أن الناس في هذه اللحظة ثلاثة أصناف:
وهؤلاء هم، وهذه أحوالهم فيها..

{ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ }
[الآيات: ٨٨-٩٤]

يعني: (فأما إن كان) المرء (من المقربين) وهم (السابقون السابقون)..
فله راحة، وأمان، ورائحة طيبة، في نعيم مقيم.
و(أما إن كان) المرء (من أصحاب اليمين) وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم..
فيقال له في هذه الحال: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين، في بشارة سارة طيبة.
(وأما إن كان) المرء (من المكذبين الضالين) وهم أصحاب الشمال..
فله: (نزل) ضيافة (من) شراب (حميم) حاد، تتقطع منه أمعاؤه.
وله بعد ذلك (تصلية جحيم) أي: دخول في جهنم يصلى بعذابها.

* * *

ختاماً..

{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }
[الآيتان :٩٥، ٩٦]

أي: (إن هذا) القرآن وما فيه (لهو حق اليقين) الذي لا شك فيه.
لذلك (فسبح باسم ربك العظيم) أي: عظم ربك على هذه النعم الجليلة، ونزهه سبحانه عما يقول الكافرون (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) [الإسراء ٤٣].

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة: سورة مدنية.
وهي تبدأ بقوله تعالى:

{ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }
[الآية : ١]

جاءت واحدة من الصحابيات تشتكي زوجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
فنزلت هذه الآيات.
قد سمع الله قول المرأة التي جاءت تجادلك تحاورك في شأن زوجها عندما قال لها "أنت علي كظهر أمي" وكان ذلك قبل الإسلام طلاقاً.
وتشتكي إلى الله ما قال زوجها إذ قالت في شكواها: أكل مالي، وأفنى شبابي،ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي ظاهر مني..!! اللهم إني أشكو إليك..!!
واستمع إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: حرمت عليه.
يقول تعالى والله يسمع تحاوركما.
وبينما هي في أزمتها وشدتها التي لجأت فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واشتكت فيها أمرها إلى الله..!!
حقاً.. إن الله سميع لكل مضطر عليم بحاله، يكشف عنه كربه.

* * *

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى زوجها، وقال له: ما حملك على ما صنعت..؟
قال: الشيطان فهل لي من رخصة..؟
فتلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات الأربع من صدر هذه السورة.
وبين الله لهذه الصحابية السيدة خولة بنت ثعلبة ولزوجها أوس بن الصامت رضي الله عنهما، وللمسلمين معهما وضع هذه العادة الجاهلية، وهي الظهار في دين الله تعالى وشرعه.
حيث قال:

{ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ }
[الآية : ٢]

نعم إنها عادة جاهلية مرفوضة في شرع الله؛ حيث إن الزوجة التي تقول لها أنت علي كظهر أمي.

أولاً: ليست في الحقيقة أمك، إنما أمك التي ولدتك.
ثانياً: هذا القول في شرع الله منكر من القول وزور، ولا ينبغي الوقوع فيه.
ولكن لقد كنا نقوله قبل هذه الآيات فما العمل..؟
يقول تعالى: وإن الله على ما سبق منكم بهذا الخصوص لعفو غفور

* * *

ثم بين ربنا تبارك وتعالى لهذه الصحابية الجليلة، وزوجها، رضي الله عنها، وللمسلمين معهما حكم من يقع في هذا الموضوع، ويظاهر من زوجته بعد الآن.
حيث قال سبحانه:

{ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآيتان : ٣، ٤]

أي: والذين يظاهرون من نسائهم بعد ذلك ثم يعودون لما قالوا أي: لنقض ما قالوا، ولا يريدون إنهاء الحياة الزوجية..!!
فـــعليهم كفارة هذا الظهار.
وهي:

أولاً: تحرير رقبة أي: عتق إنسان من ذل العبودية.
وذلك لابد أن يتم من قبل أن يتماسا أي: الرجل والمرأة صاحبي هذا الظهار.
يقول تعالى ذلكم الحكم توعظون به أي: تعاقبون به؛ فتعظون، فلا تعودون إلى هذا الخطأ ثانية.
والله بما تعملون خبير مطلع عليكم، يعلم سركم وجهركم.
فمن لم يجد رقبة يعتقها، أو مالاً يعتق به. انتقل إلى الأمر الثاني.
ثانياً: فصيام شهرين متتابعين متواصلين.
وذلك: لابد أن يتم كذلك من قبل أن يتماسا أي: الرجل والمرأة، صاحبي الظهار.
فمن لم يستطع هذا الصيام انتقل إلى الأمر الثاني:
ثالثاً: فإطعام ستين مسكينا بالتمام والكمال.
وذلك: لابد أن يتم أيضاً من قبل أن يتماسا.
ذلك الحكم، والتخفيف فيه لتؤمنوا بالله ورسوله وتعملوا بشرائعه التي فرضها عليكم، وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم.
وتلك الأحكام.. هي حدود الله التي لا يجوز تعديها، أو إهمالها، أو تأجيل العمل بها.
وللكافرين بها عذاب أليم.

* * *

ثم يبين المولى عز وجل جزاء الذين يتعدون أحكام الله وشرعه، أو يعتدون عليها، أو يكفرون بها..
حيث قال:

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
[الآية : ٥]

نعم.. إن الذين يحادون يخالفون ويعادون الله ورسوله في أي زمان أو مكان كبتوا أخزوا وهلكوا كما كبت الذين من قبلهم ممن حاد الله وعاند رسله.

خاصة: وقد أنزلنا آيات بينات دالة على وحدانية الله، وقدرته، وحكمته، ورحمته، وصدق رسله، وصلاح أمرهم وحياتهم.
و قد أعددنا للكافرين بهذه الآيات عذاب مهين

* * *

ثم يبين تعالى متى يكون هذا العذاب المهين، مؤكداً له..؟
حيث يقول:

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
[الآية : ٦]

ذلك العذاب المهين لهم يكون يوم يبعثهم الله جميعاً من قبورهم للحساب فينبئهم وقتها بما عملوا من سيئات وظلم، قد أحصاه الله عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها [الكهف ٤٩]
و لكنهم نسوه لأنهم تهاونوا به حينما ارتكبوه.
والله على كل شيء شهيد لا يغيب عنه شيء، بل هو عالم بكل شيء.

* * *

ثم أكد ربنا بيان علمه بكل شيء بقوله سبحانه:

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية : ٧]

يعني: ألم تر بقلبك وعقلك أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض بعلمه الواسع المحيط بكل شيء..!!
إنه ما يكون من نجوى سرية بين ثلاثة إلا هو سبحانه رابعهم ولا نجوى بين خمسة إلا هو سبحانه سادسهم
و كذلك لا أدنى أقل من ذلك ولا أكثر إلا هو سبحانه معهم بعلمه.
وذلك أينما ومتى كانوا يتناجون.
ثم ينبئهم سبحانه بما عملوا وبما تناجوا به يوم القيامة فيجازيهم عليه.
حيث إن الله سبحانه بكل شيء عليم.

* * *

وعلى ذكر هذا التناجي، وخطورته.
فإنه تأتي آيات تبين حال أناس نهوا عن النجوى.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآية : ٨]

يعني: ألم تر إلى هؤلاء الذين نهوا عن النجوى بالباطل الذي لا خير فيه ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم يفعلونه والعدوان على الآخرين ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به.

و أنهم إذا جاؤك لأي أمر حيوك بما لم يحيك به الله أي: بدلاً من السلام يقولون: السام، وهو دعاء بالموت.

و هم يقولون في أنفسهم لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول ولكنه ليس بنبي..
ولذلك لا يعذبنا الله بما نقول
خسئوا، وكذبوا..
حسبهم عذاب جهنم عذاباً لهم يصلونها فبئس المصير.

* * *

ثم يبين رب العزة للمسلمين أدب التناجي الحق، وأدب المجالس التي لابد منها.
حيث يقول:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }
[الآية : ٩]

أي: يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم في مجالسكم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان كما يفعل الذين نهوا عن ذلك، من أهل الكتاب الكفرة والمنافقين.

و لكن تناجوا إذا كان ولابد بالبر بالخير والطاعات والتقوى البعد عن المعاصي والمحرمات.
واتقوا خافوا الله الذي إليه تحشرون فيجازيكم على ما كان منكم.

* * *

يا أيها الذين آمنوا:

{ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }
[الآية : ١٠]

إنما النجوى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، التي تكون من أهل الكتاب، أو المنافقين هي من تحريض الشيطان لهم.

وذلك ليحزن بها الشيطان الذين آمنوا عندما يرون الأعداء، يتهامسون عليهم، ويتآمرون بهم..!!
و لكن ليس الأعداء أو الشيطان بضارهم شيئاً إلا بأذن الله
و لذلك على الله فليتوكل المؤمنون دون تأثر بهذه النجوى من أعدائهم.

* * *

ولأن النجوى عادة تكون في المجالس فإليكم من آداب المجالس ما يلي:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }
[الآية : ١١]

يا أيها الذين آمنوا إذا جلستم مع بعضكم البعض، وقيل لكم تفسحوا توسعوا في المجالس ليجلس بعضكم فافسحوا

فإذا فعلتم يفسح الله لكم في الرزق، والصدر، والقبر، وغير ذلك.

وإذا قيل لكم من الإمام، أو المسئول انشزوا أي: قوموا لغيركم، أو انصرفوا من مجلسكم، أو انهضوا لأمر مشروع فانشزوا فوراً؛ امتثالاً للأمر، وطاعة لولي الأمر.

فإذا فعلتم يرفع الله الذين آمنوا صدقوا منكم وامتثلوا

و كذلك الذين أوتوا العلم منكم درجات في الشرف والمنزلة، وفي الآخرة كذلك.

والله سبحانه بما تعملون امتثالاً للأمر، وطاعة للشرع خبير فيجازيكم عليه.

* * *

يا أيها الذين آمنوا..

إذا كان الكفار من أهل الكتاب والمنافقين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حرام.

فإليكم أدب المناجاة مع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الآيات التالية، فاستمعوا إليها..

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآيتان : ١٢، ١٣]

يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم أي: أردتم مناجاة الرسول فقدموا بين يدي قبل نجواكم معه صلى الله عليه وسلم صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لهذا المقام الشريف، وهو مناجاة رسول الله.

ذلك التقديم للصدقة خير لكم في دينكم وأطهر لكم من الذنوب فإن لم تجدوا ما تتصدقون به قبل هذه المناجاة فإن الله يقبل عذركم فتناجوا معه؛ حيث إنه سبحانه غفور لذنوب عباده رحيم بهم.

ولما نزل هذا التكليف شق على بعض الناس الاستمرار فيه

وخافوا من التقصير..!!

فخفف الله قائلاً: أأشفقتم أخفتم أن تقدموا بين يدي نجواكم مع الرسول صدقات وتستمرون على ذلك.

على كل: لقد خففنا عنكم.

فإذا لما تفعلوا ذلك وتقدموا هذه الصدقات، قبل المناجاة، بناءً على تخفيفنا عنكم تاب الله عليكم وخفف عنكم بترك تقديم الصدقة على المناجاة..!!

فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله وداوموا على ذلك؛ حيث إن هذه مما لا ينبغي التساهل فيها، أو التفريط في أوانها بحال من الأحوال.

والله خبير بما تعملون فيجازيكم عليه.

* * *

بينت الآيات السابقة في هذه السورة: أن الذين يحاربون دين الله.. يخزيهم الله في الدنيا والآخرة.
وقد بينت ــ كذلك ــ مظهراً من مظاهر هذه الحرب، وهي التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول.
وها هي الآيات الكريمة تبين مظهراً آخر من عداء هؤلاء للإسلام، وهو موالاة أعداء الله.
يقول سبحانه:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }
[الآية : ١٤]

ألم تر إلى هؤلاء المنافقون الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم وهم اليهود، وصاروا يفشون إليهم أسراركم.
إن أمرهم عجيب.
على أية حال.. هؤلاء المنافقين ما هم منكم يا مسلمون كما يدعون، ولا منهم أي: ولا من اليهود.
وهم يحلفون على الكذب الذي يقولونه للأعداء عنكم وهم يعلمون أنهم كاذبون في أيمانهم.

* * *

هؤلاء:

{ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
[الآيتان : ١٥، ١٦]

نعم.. أعد الله عز وجل لهم عذاباً شديداً في القبر إنهم ساء ما كانوا يفعلون من موالاتهم وتوددهم ومعاهداتهم مع أعداء الله.
كما أنهم اتخذوا أيمانهم الكاذبة، التي كانوا يحلفونها للمسلمين على أنه ما بينهم وبين أعداء المسلمين ولاء ولا محبة جنة وقاية لدفع الأذى عن أنفسهم.
فصدوا بذلك الناس من خلال الأمن لهم والثقة فيهم عن سبيل الله ودينه فلهم عذاب مهين في الدنيا والآخرة.

* * *

هؤلاء:

{ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]
[الآية : ١٧]

لن تغني لن تدفع عنهم أموالهم مهما كثرت ولا أولادهم مهما قويت من عذاب الله شيئاً يوم ينزل بهم هذا العذاب.

على كل:

أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون

* * *

ومن العجيب في أمرهم: أنه..

{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ]
[الآية : ١٨]

يوم يبعثهم الله ويحشرهم جميعاً فلا يترك منهم أحداً ويسألهم للحساب فيحلفون له أنهم كانوا مخلصين غير منافقين تماماً كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا على ذلك.

و الأعجب إذّ يحسبون أنهم كانوا في الدنيا على شيء من الصواب، بل كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً [الكهف ١٠٤]

ألا إنهم هم الكاذبون في أيمانهم هذه في الدنيا وفي الآخرة.

* * *

هؤلاء:

{ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ]
[الآية : ١٩]

استحوذ استولى عليهم الشيطان بوسوسته وإغوائه فأنساهم ذكر الله وخشيته، وطاعته، وشرعه، وجعلهم محاربين لدين الله.

حقاً.. أولئك حزب الشيطان جنده، وأعوانه، وأنصاره ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

* * *

وهكذا حكم الله عز وجل..

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }
[الآيتان : ٢٠، ٢١]

إن هؤلاء الذين يحادون يحاربون دين الله ورسوله وشرع الله ورسوله، وأولياء الله ورسوله أولئك في الأذلين الأشقياء المطرودين من رحمة الله، المعذبين في الدنيا والآخرة.

حيث كتب الله عنده، في اللوح المحفوظ لأغلبن هؤلاء الأعداء أنا ورسلي في الدنيا والآخرة.

ولا غرابة في ذلك.. إن الله قوي عزيز

* * *

يا سادة.. الإيمان الحقيقي: لا يكون معه مودة، ولا موالاة، مع أعداء الله، منافقين، أو مشركين، أولاد ينين أو كافرين من أهل الكتاب.

يقول عز وجل:

{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

[الآية : ٢٢]

نعم.. إنك لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً، حقيقياً. وفي ذات الوقت: يوادون ويوالون من حاد الله ورسوله وحاد بهما وحارب شرعهما وعذب أولياء هما.

حتى ولو كان هؤلاء الذين يحادون الله ورسوله آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم يعني: مهما كانت قرابتهم لهم.

أولئك الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ينعم الله تعالى عليهم بهذه النعم.

أولاً: كتب في قلوبهم الإيمان ومكنه منها، واستجمعه فيها.
ثانياً: وأيدهم بروح أي: بنور منه سبحانه
ثالثاً: ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها
رابعاً: رضي الله عنهم بسبب بوحيدهم الخالص، وطاعتهم الصادقة.
خامساً: ورضوا عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم.

يقول ابن كثير: لما أسخطوا الأقارب الذين يحاربون الله ورسوله عوضهم الله برضاه عنهم، وإعطائهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، حتى رضوا عنه بهذا الثواب العظيم.

أولئك يا سادة..
حزب الله جنده، وأنصاره، وأهل دعوته، وحملة راية دينه.
ألا إن حزب الله هم المفلحون في الدنيا والآخرة.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: الممتحنة، مدنية.
وهي: تبدأ بقوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }
[الآية : ١]

يعني: يا أيها الذين آمنوا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً لا تتخذوا عدوي وعدوكم في الدين أولياء وأصدقاء، ومستشارين تلقون إليهم بالمودة والمحبة، وتثقون فيهم، وتفضون إليهم بأسراركم..!!
وقد كفروا بما جاءكم من الحق وهو دين الإسلام، وهم وآباؤهم كانوا يخرجون الرسول من مكة، وإياكم من دياركم أيضاً بالاحتلال لها، والإفساد لأهلها.
وذلك بسبب إيمانكم بالله ربكم.
نعم.. لا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي وابتغاء مرضاتي.
يا أيها الذين آمنوا أنتم أي بعضكم تسرون إليهم بالمودة يتودد إليهم في الخفاء وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم فأحاسبكم عليه.
على أية حال ومن يفعله منكم أي يتخذهم أولياء، ويتودد إليهم، ولو سراً فقد ضل سواء السبيل وأهلك نفسه في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة.
وصدق الله.. فإننا نشاهد هذا الضلال عن سواء السبيل الذي تضيع بسببه الأوطان، ويهلك بسببه العباد في أيامنا هذه التي نحياها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

ثم يبين الله عداوة الكفارة للمؤمنين فيقول:

{ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ }
[الآية : ٢]

نعم.. إنهم إن يثقفوكم يتمكنوا منكم يكونوا لكم أعداءً خالصي العداوةً، ولا يوالونكم كما توالونهم ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء أي: لآذوكم بكل وسيلة ممكنة بالقول أو بالفعل.
وودوا مع ذلك لو تكفرون كما كفروا هم، فتكونون سواء. ولذلك: مودة أمثالهم، وموالاتهم أمر خطير، وضرر كبير.

* * *

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا، ولا تتخذوا الكفار أولياء، ولو من أجل أقاربكم وأولادكم، ومراعاة مصالحهم..
حيث إنه:

{ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية : ٣]

يعني: لن ينفعكم هؤلاء يوم القيامة إن اتخذتم الكفار في الدنيا أولياء من أجلهم.
يوم القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه يفصل بينكم وبين هؤلاء الأقارب الذين تتخذون الكفار أولياء بسببهم.
فلا تتخذون الكفار أولياء إذاً بأي حال من الأحوال.
والله بما تعملون بصير فيجازيكم على أعمالكم.

* * *

يا أيها الذين آمنوا اقتدوا بالصالحين في عدم موالاة الأعداء.
نعم..

{ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية : ٤، ٥]

يعني: قد كانت لكم قدوة حسنة في إبراهيم والذين معه من المؤمنين.
وذلك: حينما قالوا لقومهم الكافرين، إنا بريؤن من كفركم، ومن عبادتكم للأصنام، وبيننا وبينكم عداوة وبغضاء لا تنتهي حتى تؤمنوا بالله وحده وتتركوا ما أنتم عليه من كفر وطغيان.
ولكن إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء فلا تتأسوا به فيه؛ حيث كان هذا الاستغفار عن وعد وعده لأبيه سابقاً بقوله سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا [مريم] حيث ظن إسلامه، ولكن تبين خلافه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه [ ]
ثم قولوا مع إبراهيم وقومه، حين فارقوا قومهم، وتبرأوا منهم، وتضرعوا إلى بقولهم:
ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير
ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا إذا انتصروا علينا فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل؛ فيفتنوا بذلك.
ربنا إنك أنت العزيز الحكيم

* * *

يا أيها الذين آمنوا:

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }
[الآية : ٦]

نعم.. لقد كان لكم فيهم أي: إبراهيم والذين معه أسوة حسنة في التبريء من الكفار، وعدم اتخاذهم أولياء.

وذلك أي: هذا الاقتداء والتأسي بهم لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر هو الواجب اتباعه؛ إذ فيه خير كثير

ومن يتول ويبتعد عن هذا الاقتداء، ويوالي أعداء الله أعداء المسلمين فإن الله هو الغني عن خلقه الحميد لأهل طاعته.

* * *

لما أمر الله تعالى ـ أيها الأماجد ـ بعداوة الكفار في صدر الإسلام: شددوا في.. عداوة آبائهم وأولادهم وجميع أقاربهم، والبراءة منهم.

فأنزل الله عز وجل:

{ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية : ٧]

أي: لا تشددوا وتسرفوا في عداوتكم لهم عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم في الدين منهم مودة محبة بعد عداوة، وألف.. بعد فرقة.. بأن يوفقهم الله للإيمان؛ فيصيروا لكم أولياء.

وسبحان الله..!!

لقد حدث ذلك حيث أسلم أقارب كثير من المهاجرين بعد فتح مكة.

والله قدير على تبديل الأحوال، وتقليب القلوب، وهدايتهم للإيمان.

والله غفور رحيم لمن أسلم من المشركين.

* * *

أيها الأحبة في الله.

بعد أن الله عز وجل على عدم الولاء مع الكافرين: بين حدود التعامل معهم.. بقوله سبحانه:

{ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآيتان : ٨، ٩]

يعني: يا أيها الذين آمنوا لا ينهاكم ويمنعكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين أي بسبب الإسلام ولم يخرجوكم من دياركم لإيمانكم أن تبروهم أي: تكرموهم، وتحسنوا إليهم قولاً وفعلا وتقسطوا إليهم أي: ولا تظلموهم.

حيث إن الله يحب المقسطين العادلين.

وإذا كان هذا مع المخالفين في الدين.. فما بالنا بأهمية العدل، وعدم الظلم بين المسلمين..!!

إنما ينهاكم الله عن موالاة، وإكرام، والإحسان إلى الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم بأنفسهم من دياركم أو أخرجكم غيرهم وظاهروا وساعدوهم على إخراجكم.

ويمنعكم سبحانه أن تولوهم بأي لون من ألوان الموالاة والمودة.

و اعلموا أن من يتولهم ويتودد إليهم ويصادقهم منكم فأولئك هم الظالمون.

* * *

وأيضاً لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار،وعدم موالاتهم، وكان الزواج من أقوى أسباب الموالاة، وأسلم بعض النسوة، وهاجرن من مكة تاركات أزواجهن شرع الله امتحان هؤلاء النسوة؛ لمعرفة صدق إيمانهن.. فقال:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }

[الآية : ١٠]

والمعنى: ياأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات من مكة مهاجرات فارات بدينهن فامتحنوهن لتعرفوا مدى الصدق في إيمانهن.

وذلك بأن يحلفن أنهن ما هاجرن إلاَّ رغبة في الإسلام.

وللعلم الله أعلم بإيمانهن

فإن علمتوهن وغلب على ظنكم أنهن مؤمنات صادقات فلا ترجعوهن إلى الكفار مرة ثانية.

حيث أنه لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن

وقد انقطعت بالإيمان والهجرة العلاقة بينهم وبين هؤلاء الكفار.

و على ذلك آتوهم أي: اعطوا الكفار الذين كانوا أزواجهم ما أنفقوا عليهن من المهور.

و أيضاً لا جناح لا إثم ولا حرج عليكم أن تنكحوهن في هذه الحالة.

وذلك إذا آتيتموهن أجورهن أي: مهورهن.

وهذا في الزوجات اللاتي أسلمن وتركن أزواجهن.

وأما إذا أسلم الزوج وهاجر، وبقيت زوجته على الكفر فإن الله عز وجل يقول:

ولا تمسكوا بعصم زوجاتكم الكوافر لقطع هذه العلاقة بسبب إسلامكم.

و في هذه الحالة اسألوا أي: اطلبوا ما أنفقتم من مهور عليهن وليسألوا هم بدورهم أي الرجال الكفار ما أنفقوا على زوجاتهن اللاتي أسلمن.

ذلكم الذي ذكر هو حكم الله وشرعه يحكم به بينكم فاتبعوه، واعملوا به.

والله عليم بما يصلح عباده حكيم فيما يشرعه لهم.

* * *

هذا...

{ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ }
[الآية : ١١]

يعني: وإن فاتكم وضاع عليكم شيء من مهور أزواجكم اللائي رجعن عن الإسلام، وعدن إلى الكفار فعاقبتم أي: وقعت بينكم وبين الكفار معركة، فانتصرتم وغنمتم أموالهم فآتوا من هذه الغنائم الذين ذهبت هربت أزواجهم إلى الكفار مثل ما أنفقوا من مهورهن؛ تعويضاً لهم.

واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون

أيها الأحبة..

كانت هذه الأحكام التي ذكرت قبل فتح مكة شرفها الله.

وعندما أتم الله النعمة على المسلمين، وأعز الله الإسلام بفتح مكة، وأسلم أهلها بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ على الجهاد والإسلام.

وهنا.. جاءت النساء، اللاتي أسلمن، وطلبن من النبي صلى الله عليه وسلم أن يبايعهن.

فنزل قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية : ١٢]

والمعنى: يا أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات يبايعنك على الإسلام، وهذه الأشياء الستة المذكورة فبايعهن واستغفر لهن الله عما سلف منهن، وما يكون مستقبلاً ويتبن عنه.

حيث إن الله غفور لهن رحيم بهن.

وهذه الأشياء الستة، التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم النساء عليها..

أولاً: أن لا يشركن بالله شيئا

ثانياً: ولا يسرقن

ثالثاً: ولا يزنين

رابعاً: ولا يقتلن أولادهن كما كان يفعل من وأد البنات في الجاهلية.

خامساً: ولا يأتين ببهتان أي: كذب يفترينه بين أيديهن وأرجلهن فتلحق الولد بغير أبيه.

سادساً: ولا يعصينك في معروف وهو كل ما أمر به الشرع وحسنه، أو نهى عنه وقبحه.

وقد بايعهن صلى الله عليه وسلم، دون مصافحة، بل بالقول فقط.

* * *

وفي نهاية السورة: يؤكد ربنا على ما بدأت به من النهي عن موالاة الكافرين. حيث يقول سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ }
[الآية : ١٣]

يعني: يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا ولا تتوددوا، ولا تصادقوا قوماً غضب الله عليهم من اليهود، أو النصارى، أو سائر الكفار من أصحاب النحل الفاسدة، والملل الباطلة.

فإن هؤلاء لا أمان لهم، ولا تودد معهم، ولا موالاة بينكم وبينهم؛ حيث قد كفروا بالله، وكذبوا رسوله، وأنكروا البعث، ويئسوا من ثواب الآخرة تماماً كما يئس الكفار جميعاً من بعث أصحاب القبور وحاسبهم.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه سورة: الصف.
وهي: سورة مدنية.
تبدأ بقوله سبحانه وتعالى:

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية : ١]

بدء: يشعر بعزة الله، وعظمته، وحكمته.

* * *

ثم تحمل السورة في مطلعها بالإنكار على من يعد وعدا، أو يقول قولا: ثم لا يفي به.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ }
[الآيتان : ٢، ٣]

إذ لابد أن يتطابق القول ــ عند المؤمن ــ مع العمل.
كما لابد أن يكون العمل وفق ما يرضى الله ورسوله.

* * *

ثم تحث السورة في مطلعها كذلك المسلمين على: وحدة الصف، واجتماع الشمل، والترابط بينهم.
حيث يقول تعالى:

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ }
[الآية : ٤]

والمراد: التماسك، والتعاون فيما بينهم، وتكامل المواقف، وعدم التخاذل، وعدم وجود الثغرات في الصف الإسلامي، حال القتال وغيره.
وذلك: شيء يحبه الله عز وجل من المسلمين.

ويعد أن بين الله حبه للقتال المنظم في سبيله ضد أعداء الدعوة: أخذ في بيان مبررات هذا القتال.
إذ يقول سبحانه:

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }
[الآية : ٥]

أي: واذكر إذ قال موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل يا قوم لم تؤذونني بالتكذيب، والعناد،وغيره وقد وأنتم تعلمون أني رسول الله حقاً إليكم بالهداية والنور..؟
وبهذا العناد والتكذيب فقد زاغوا وبعدوا عن الحق.
فلما زاغوا عن الحق باختيارهم أزاغ الله قلوبهم عن الهداية، وخرجوا عن الطاعة، وصاروا فاسقين.
والله لا يهدي القوم الفاسقين
وبهذا: الإيذاء لنبيهم، والزيغ عن الهداية، والفسق: صاروا حرباً على الإسلام وأهله.
وهذا من مبررات قتالهم، الذي حث عليه الإسلام، ونظم له الصف الإسلامي.

* * *

أيضاً:

{ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ }
[الآية : ٦]

أي: واذكروا إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل حيث بعث فيهم ولهم إني رسول الله إليكم خاصة مصدقاً لما بين يدي أي: قبلي من التوراة التي نزلت على موسى ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد يأتي للناس كلهم.
فلما جاءهم بالبينات المعجزات الدالة على صدقه في هذه الأشياء الثلاثة، التي ذكرها لهم.
قالوا منكرين، ومعاندين هذا سحر مبين واضح.
وبهذا التكذيب لنبيهم والتحريف لما جاء به: صاروا حرباً على الإسلام وأهله.
وهذا من مبررات قتالهم، الذي حث عليه الإسلام، ونظم له الصف الإسلامي.

* * *

هكذا..

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }
[الآية : ٧]

أي: أنه لا أحد أشد ظلماً من الذي يفتري على الله الكذب..
كأن يقول على القرآن أنه سحر، أو أن الله ليس بواحد، أو أن محمداً ليس برسول.
وذلك: في الوقت الذي يدعوه ربه فيه إلى الإسلام، الذي فيه سعادة الدارين.
أليس هذا بظالم..؟
بلى إنه بهذا الفعل أظلم الظالمين.
والله لا يهدي القوم الظالمين الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق.
ودفع هذا الظلم: من أقوى مبررات الجهاد، الذي حث عليه الإسلام، ونظم له الصف الإسلامي.

* * *

وكل هؤلاء، وغيرهم..

{ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }
[الآية : ٨]

نعم إنهم يريدون ليطفؤا نور الإسلام بأقوالهم الباطلة، وشبهاتهم الفاسدة.
لكن هذا مستحيل.
حيث إن الله عز وجل متم نوره ولو كره الكافرون ذلك كلهم، مجتمعين، ومنفردين.

* * *

على كل حال فالمستقبل للإسلام.
حيث إن الله تعالى:

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ }
[الآية : ٩]

نعم هو سبحانه الذي أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى وهو القرآن ودين الحق الذي هو الإسلام.
وذلك ليظهره ويعليه على الدين كله من جميع الأديان المخالفة له.
وسوف يتم ذلك بإذن الله ولو كره المشركون ذلك.
وإذا كان في هذه الآية: بشارة بنصر الإسلام، وإعزاز أهله فإن ذلك الهدف من أقوى مبررات الجهاد، الذي حث عليه الإسلام، ونظم له الصف الإسلامي.

* * *

وإذا كان تعالى قد أشار إلى بعض مبررات الجهاد: فإنه عز وجل يبين أنه أحب الأعمال إلى الله..
فيقول:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية : ١٠]

خبروني بربكم أيها الكرام..
من منا لا يحب أن يعرف هذه التجارة، التي تنجيه من عذاب أليم..؟
اسمعوا معي أعزكم الله لبيان المولى لها..
حيث يقول:

{ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية : ١١]

هذه التجارة التي لا تبور، والتي تنجي من عذاب أليم.
هي: الإيمان الحق بالله ورسوله، ثم الجهاد الصادق في سبيل الله بالمال والنفس.
يقول تعالى ذلكم المذكور من الإيمان، والجهاد خير لكم من تجارة الدنيا، والكد لها.
وذلك إن كنتم تعلمون النافع المفيد من الكد الذي قد يضيع.

* * *

ثم يبين ربنا لم كان الإيمان بالله والرسول والجهاد في سبيل الله خيراً لهم.
بقوله:

{ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآيتان : ١٢، ١٣]

هذه الأشياء: هي من ثواب الله على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله.
وهي:
غفران الذنوب.
ودخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، والتي فيها المساكن الطيبة، للإقامة الدائمة.
حقاً.. ذلك الجزاء هو الفوز العظيم للمؤمنين المجاهدين وهناك نعمة أخرى تحبونها
وهينصر من الله لكم في معارككم مع أعدائكم.
وكذلك فتح قريب لهم في البلاد، وفي مجالات نشر دين الله.
و بذلك بشر المؤمنين يا رسول الله.
وفي نهاية السورة: يخاطب ربنا عز وجل المؤمنين. آمراً لهم أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، وأن يستجيبوا لله وللرسول كما استجاب الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام.
وذلك في قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ }
[الآية : ١٤]

يعني: كونوا أنصار دين الله.
وذلك كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري منكم في الدعوة إلى دين الله...؟
قال له الحواريون وهم أول من آمن به، وصاروا أصفياءَه نحن أنصار دين الله معك.
ولما بلغ عيسى دعوته لقومه،وناصره في ذلك الحواريون: اهتدت طائفة من بني إسرائيل، وآمنت بالله، واتبعته، وكفرت طائفة منهم. وعاندته.
فأيدن الذين آمنوا بالكرامات الكثيرة على عدوهم يقول تعالى فأصبحوا لذلك ظاهرين على غيرهم من بني إسرائيل، في أنهم على الحق، واستجاب لهم خلق كثير في كل مكان.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }
[الآية : ١]

هذه هي الآية الأولى من سورة: المنافقون، المدنية.
وهي تكشف للنبي صلى الله عليه وسلم ما في قلوب فريق من الناس كانوا يظهرون له الود، وما في قلوبهم غير ذلك.
يقول سبحانه إذا جاءك المنافقون يا محمد قالوا لك بأسلنتهم فقط: نحن نشهد إنك لرسول الله دون أن تقر قلوبهم بذلك.
والله حقيقة يعلم أنك لرسوله كما يدل عليه قلوبهم.
و لكن في ذات الوقت الله عز وجل يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما يقولون بالسنتهم.

* * *

هؤلاء:

{ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ }
[الآيتان : ٢ ، ٣]

أي: جعلوا أيمانهم التي أقسموا بها كذباً أنهم مسلمون جنّة وقاية لهم من القتل، أو الأسر، أو لمقاطعة معهم.
فصدوا بتظاهرهم بالإسلام، وهم يكيدون له الكثيرين عن سبيل الله لاغترارهم بهم، وانخداعهم بأفكارهم.
إنهم بهذا الخداع ساء ما يفعلون
ذلك السوء لعملهم؛ بسبب أنهم آمنوا ظاهرا عن طريق النطق بالشهادتين بألسنتهم ثم كفروا بقلوبهم.
فطبع على قلوبهم وختم عليها جزاء نفاقهم.
فهم حقاً لا يفقهون يتدبرون، فيعرفون سوء فعلهم فيتوبون.

* * *

والعجيب أنه:

{ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }
[الآية : ٤]

وإذا رأيتهم يا رسول الله، ويا كل مؤمن تعجبك أجسامهم منظراً، وصحة.

و أيضاً إن يقولوا تسمع لقولهم من شدة فصاحتهم، وقوة بيانهم.
ومع ذلك: فهم في غاية الضعف والخوف منكم..
كأنهم خشب مسندة إلى الحوائط، لا سند لهم من عقيدة قوية، أو فهم سليم.
كما أنهم من الخوف الداخلي عندهم يحسبون كل صيحة بصوت عال عليهم لأنهم الهدف المقصود، والعدو المرصود.
على أية حال:
هم العدو الحقيقي لك فاحذرهم ولا تغتر بخداعهم.
قاتلهم الله أهلكهم ولعنهم أنى يؤفكون يصرفون عن الهدى إلى الضلال بعد قيام البرهان.

* * *

والأعجب من ذلك: أنه..

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ }
[الآية : ٥]

لما نزل قول الله تعالى والله يشهد إن المنافقين لكاذبون وافتضح أمرهم: أتاهم بعض أقاربهم من المؤمنين، وقالوا لهم، تعالوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوبوا إليه من النفاق، واسألوه أن يستغفر لكم ربه: أعرضوا ورفضوا.
فنزلت هذه الآية.
يعني: لووا رؤسهم إعراضاً، وامتناعاً وغروراً ورأيتهم يصدون يرفضون وهم مستكبرون.

* * *

ولما طلب من النبي بعض أقارب هؤلاء المنافقين أن يطلب من الله المغفرة لهم، ومال إلى ذلك صلى الله عليه وسلم...
قال له ربه:

{ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }
[الآية : ٦]

أي: هم ليسوا بأهل للاستغفار؛ لأنهم لا يؤمنون، ولذلك لن يغفر الله لهم ماداموا على النفاق.
حيث إن الله لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن طاعته، وهؤلاء هم الفاسقون الحقيقيون.

* * *

أليسوا...!!

{ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ }
[الآية : ٧]

نعم هم الذين يقولون لأصحابهم من الأنصار لا تنفقوا من أموالكم على من عند رسول الله من المهاجرين حتى يجوعوا، وينفضوا عنه ويتفرقوا، وهي خطتهم مع الدعاة إلى الله تعالى إلى يوم القيامة.
و قد فاتهم أنه لله خزائن السموات والأرض خلقاً وملكاً.
يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.
ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك؛ لعدم إيمانهم.

* * *

أليسوا هم الذين..

{ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية : ٨]

نعم.. هم الذين يقولون عند عودتهم من إحدى الغزوات لئن رجعنا أي: عدنا إلى المدينة من هذا السفر ليخرجن الأعز منها وهو قائل هذا الكلام.. عبد الله بن أبي، وهو يقصد بالأعز: نفسه الأذل ويقصد لعنه الله بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقد قال ذلك: من شدة الحقد على رسول الله والبغض له.
حقاً ليس هو الأعز، ولسيت العزة له؛ بل لله العزة ولرسوله وللمؤمنين.
ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك، فيقولون ما يحلوا لهم.

* * *

وبعض فضح المولى للمنافقين، وتعرية صورتهم على هذا النحو: يدعوا الله عز وجل المؤمنين إلى البعد عن أخلاقهم، والتحلي بأخلاق الإسلام.
إذ يقول:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ }
[الآية : ٩ ، ١٠]

يأمر الله تعالى المؤمنين بعدم الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله، قراءة للقرآن، وصلاة، واستغفارا.
ويخبرهم أن من شغل بذلك عن ذكر الله: فقد صار من الخاسرين.
ثم يأمرهم بالإنفاق مما رزقهم الله به.
وذلك: من قبل أن يأتي الموت، فيندم البخيل، ويقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب ولو زمناً قليلاً، فأعود فأصدق بمالي في سبيل الله وأكن من الصالحين بعد هذا التفريط الذي كان مني في الطاعات.

* * *

يقول تعالى مخبراً عباده الذين قد ينشغلون عن ذكر الله...

{ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآية : ١١]

يعني: سارعوا إلى مرضاة الله، واستعدوا للقائه قبل أن تحين آجالكم، وتطلبون الإمهال والتأخير؛ لإصلاح ما فات.

فإنه لن يؤخر الله نفساً عن موعدها إذا جاء أجلها المكتوب في اللوح المحفوظ.
والله خبير بما تعملون فيجازيكم عليه بمثله.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الطلاق

بسم الله ارحمن الرحيم

وهي: سورة مدنية يبين الله عز وجل فيها بعض أحكام الطلاق، ويقدر فيها سبحانه أحكام الآثار الناتجة منه، المترتبة عليه.
وهي: تبدأ بقوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا }
[الآية : ١]

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم..
يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم يعني أردتم طلاق النساء المدخول بهن، واللاتي يحضن..
فطلقوهن مستقبلات لعدتهن، بأن يكون هذا الطلاق في طهر ليس فيه جماع.
وكان ذلك: لتستقبل المرأة عدتها بأخصر وقت، وليكون طلاق زوجها لها وهو في كامل إدراكه وتفكيره ووعيه.
ويقول ربنا جل وعلا وأحصوا العدة أي: احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق؛ ليتم معرفة بدء مدة العدة ونهايتها، فيراجعها قبل انتهاء العدة، أو يفارقها بعد انتهائها. بالمعروف.
ثم يقول سبحانه واتقوا الله ربكم في تطبيق هذه الأحكام بدقة ووعي وإحسان.
بحيث لا تخرجوهن من بيوتهن أي: بيوت الزوجية، طرداً لهن، أو غضباً منهن، ولا حتى بالإذن لهن إذ العدة حق الله ولا يخرجن كذلك بأنفسهن إن أردن ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بالفعل كالزنا، أو بالقول كإيذاء أهل الزوج، فتخرج لإقامة الحد عليها، أو وقاية لأهل الزوج منها.
وتلك الأحكام المذكورة حدود الله أي: تشريعاته.
ومن يتعد حدود الله فلا يلتزم بها، أو يتجاوز في تنفيذها فقد ظلم نفسه؛ لأنه عرضها للعقوبة الإلهية في الدنيا والآخرة. وقد كان الحكم بعدم خروج المرأة من منزل الزوجية خلال فترة العدة؛ حيث إنك أيها المطلق لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا من الندم على الطلاق، فتكون المراجعة؛ فتستمر الحياة الزوجية.

* * *

فإذا ما اقتربت مدة العدة من نهايتها: فإنه تعالى يقول:

{ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا }
[الآيتان : ٢ ، ٣]

أي : فإذا بلغت المعتدة وقاربت نهاية مدتها فعلى الزوج: إما الإمساك عليها بالمعروف ومراجعتها؛ لتستمر الحياة بينهما بإحسان.
وإما الفراق بينهما بالمعروف، دون ضرر، أو إيذاء.
وأشهدوا على الفراق أو الإمساك ذوي عدل منكم صيانة للحقوق، ومراعاة للعدالة والسلامة.
ثم يقول تعالى للشهود وأقيموا أي: أدوا هذه الشهادة بالعدل خالصة لوجه الله وليست محاباة لأي واحد من الطرفين.

ذلكم الحكم أيها المؤمنون يوعظ به ويلتزم بتطبيقه من كان منكم يؤمن بالله فيعمل بشرعه واليوم الآخر فيتقي غضب الله فيه.

ومن يتق الله فيطلق على هذا الوجه المشروع المذكور، ولا يخرج إمرأته عند الطلاق من بيت الزوجية، ويشهد على الطلاق يجعل له ربه مخرجاً من ضيق وهم ويرزقه من فضله من حيث لا يحتسب ولا يتوقع، ولا يخطر بباله.

ومن يتوكل على الله من أحد الزوجين أو الزجين في كل أموره، ويفوض أمره إليه فهو حسبه وكافيه، ومتولي أموره.

حيث إن الله بالغ أمره في تنفيذ قضائه، وأحكامه، ومشيئته في خلقه بما يشاء، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

خاصة أنه سبحانه قد جعل بغاية الحكمة لكل شيء قدرا ميقاتاً وقدراً معلوماً.

* * *

هذا...

وبعد أن بين الله تعالى عدة المطلقة طلاقاً رجعياً إن كانت تحيض فإنه سبحانه يبين عدة.

١ – من لا تحيض لكبر، أو لصغر، أو لسبب.
٢ – والحامل.

فيقول سبحانه:

{ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً }
[الآيتان : ٤، ٥]

يعني: و النساء اللائي يئسن من المحيض من نسائكم لتقدمهن في السن إن ارتبتم في عدتهن، أو في دمهن هل هو حيض أو استحاضة فعدتهن ثلاثة أشهر قروء في حق من تحيض.

و كذلك عدة اللائي لم يحضن لصغر سن، أو لسبب صحي، فعدتهن ثلاثة أشهر.

و أما أولات الأحمال أي: النساء الحوامل فأجلهن أي: فعدتهن أن يضعن حملهن ولو بعد الطلاق أو الموت بلحظات يسيرة.

فاتقوا الله في تنفيذ هذه الأحكام والتشريعات.

ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا

خاصة وأن ذلك الذي ذكر أمر الله وحكمه وشرعه أنزله إليكم مع رسوله صلى الله عليه وسلم.

فاتقوا الله في اتباع أحكامه سبحانه وشرعه.

ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا.

* * *

فإذا ما انتهت العدة، وصار الأمر إلى فراق بالمعروف:

كانت أحكام السكن والنفقة للمعتدة، حاملاً أو غير حامل.

حيث يقول تبارك وتعالى:

{ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً } [الآيتان : ٦ ، ٧]

ثلاثة أمور مترتبة على الطلاق: السكن، والإرضاع، والنفقة.
بالنسبة للسكن في مدة العدة يقول تعالى
أسكنوهن من حيث سكنتم أي: في نفس مسكن الزوجية أو في مسكن آخر من وجدكم أي: يكون مناسباً.
ولا تضاروهن في موضوع ا لسكن لتضيقوا عليهن نكاية.
وبالنسبة للإرضاع يقول تعالى:
وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن هذا أولاً.
ثم فإن أرضعن لكم أولادكم منهن فآتوهن أجورهن على هذا الإرضاع.
وأتمروا بينكم وبينهن أي: أنفقوا بخصوص أجور هذا الإرضاع بمعروف لا مغالاة من الأم، ولا تقتير من الأب.
وإن تعاسرتم اختلفتم في أمر هذا الإرضاع أو أجره أو امتنعت الأم فسترضع له امرأة أخرى غير الأم، صيانة لحياة الصغير.
وأما بالنسبة للنفقة على المرأة وعلى الصغير، خلال العدة وبعدها.. فيقول تعالى:
لينفق ذو سعة من سعته أي: كل واحد قدر طاقته.
ومن قدر ضيق عليه رزقة فلينفق مما آتاه رزقة الله حيث لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها من رزق.
فأنفقوا، ولا تبخلوا..
سيجعل الله بعد عسر يسرا بمشيئه سبحانه.

* * *

يا أيها الناس...
هذا شرع الله، فالتزموا به ولا تخالفوه.

{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً }
[الآيتان : ٨ ، ٩]

نعم.. وكأين من قرية وكثير من البلاد عتت عصت، وخرجت عن أمر ربها وأحكامه وشرعه ورسله فلم تتبع منهجهم فحاسبناها حساباً شديداً بالمناقشة معها، والإقناع لها وعذبناها بالهم والغم والقلق عذاباً نكرا
فذاقت بهذا وبال أمرها في الدنيا.
وكان عاقبة أمرها بهذا الشكل خسرا.

* * *

كما أنه:

{ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً }
[الآية : ١٠]

أي: أعد الله عز وجل لهم في الآخرة عذاباً شديداً فوق عذاب الدنيا.
لذلك:
فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ولا تكونوا مثلهم بل اعملوا بشرعه، واتبعوا رسله.

خاصة وأنه قد أنزل الله إليكم ذكرا وهو القرآن فلا يليق بكم أن تخالفوه بعد اهتمامه هذا بكم.

* * *

وهذا الذكر قد أرسل به:

{ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً }
[الآية : ١١]

نعم.. رسولاً هو محمد صلى الله عليه وسلم أرسله يتلوا عليكم آيات الله مبينات في الكتاب المسطور، وهو القرآن، وفي الكون المنظور.
وذلك ليخرج بهذه التلاوة الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور وقد كان، وهو مستمر إلى يوم القيامة.
و لذلك فإنه من يؤمن بالله ويثق في شرعه، ويلتزم بأحكامه ويعمل صالحاً يرضى الله، ويسعد العباد، ويصلح البلاد يدخله سبحانه جنات تجري من تحتها الأنهار ويكونون خالدين فيها أبدا
وبهذا يكون قد أحسن الله له رزقاً

* * *

يا أيها الذين آمنوا..
التزموا بشرع الله، ونفذوا أحكامه، ولا تخالفوا رسوله؛ لتنالوا رضا ربكم سبحانه.
حيث إنه هو..

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً }
[الآية : ١٢]

نعم.. هو الله القادر الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن كذلك
يتنزل الأمر أي أمر الله وحكمه بينهن وعلى من فيهن.
وذلك:
لتعلموا أن الله على كل شيء قدير فتهابوه، وتخشوا عقابه إن خالفتم أحكامه وتشريعاته، أو أهملتموها.
و لتعلموا كذلك أن الله قد أحاط بكل شيء علماً فتراقبوه في كل أقوالكم وأعمالكم؛ ابتغاء نوال مرضاته.

* * *

رزقنا الله عفوه ورضاه.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى رأسهم خير البرية المصطفى.
أما بعد.
فهذه سورة الملك، التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كل ليلة، لا يترك ذلك في سفر ولا حضر، كما ورد ذلك في الأثر.
وهي: سورة مكية
تبدأ بقوله عز وجل.

{ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ }
[الآيات : ١ – ٤]

يعني: تبارك الله تعاظم عن صفات المخلوقين.
فهو سبحانه:
الذي بيده وحده الملك كله، يتصرف فيه كيف يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو سبحانه على كل شيء قدير.
الذي خلق بقدرته الموت في الدنيا والحياة في الآخرة.
وذلك ليبلوكم أي: يختبركم أيكم أحسن عملا وأكثر استعداداً في حياته لما بعد الموت وهو سبحانه العزيز الذي لا يفر منه عاص ولا ظالم الغفور للتائبين عن ذنوبهم.
الذي خلق بقدرته سبع سماوات طباقاً على نحو بديع رائع.
ما ترى أيها الإنسان في خلق الرحمن كله، ومن ذلك السموات من تفاوت من اختلاف، أو تناقض.

* * *

فإن كنت أيها الإنسان تشك في ذلك:

أي: فانظر وعاين يا ابن آدم بعينك وأجهزتك إلى السماء هل ترى من فطور أي: خلل فيما تراه..؟
ولا تعاين مرة واحدة، بل كثير..

ثم ارجع البصر ودقق النظر كرتين كثيرا وسوف ينقلب إليك البصر خاسئاً ذليلاً كليلاً وهو حسير قد انقطع من الإعياء، ولم يجد عيباً ولا خلالاً.

* * *

حقاً إنها خلق الله...

{ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ }
[الآية : ٥]

نعم...ولقد زينا السماء الدنيا التامة الخلق، البديعة الصنع بمصابيح وهي الكواكب المضيئة وجعلناها أي: هذه الكواكب؛ حيث ينفصل عنها شهباً، تكون رجوما للشياطين في الدنيا.
و قد أعتدنا أي: أعددنا لهم في الآخرة عذاب السعير.

* * *

{ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ }
[الآيات : ٦-١١]

أي: و أعتدنا للذين كفروا بربهم من الجن والإنس عذاب جهنم وبئس المصير.
إذا طرحوا، وألقوا فيها للعذاب سمعوا لها شهيقاً صوتاً منكراً وهي تفور تغلي بهم وعن فيها.
كما أنها تكاد تميز تنقطع من الغيظ على الكفار.
هذا..
وكلما طرح، وألقى فيها فوج من هؤلاء الكفار سألهم خزنتها من الملائكة، قائلين لهم توبيخاً.
ألم يأتكم نذير رسول، يخوفكم من هذا العذاب..؟

وهنا لا يستطيعون الإنكار: حيث قالوا لهم مجيبين: بلى قد جاءنا نذير ودعانا للإيمان، وتوحيد الله فكذبنا هم، وقلنا في الدنيا لهم ما نزل الله مما تقولون من شيء بل قلنا لهم إن إنتم إلا في ضلال كبير بعيد عن الحق. ثم ندم الكفار، وصار يتحسرون..!!
وقالوا لأنفسهم، وبعضهم البعض لو كنا نسمع سماع تدبر أو نعقل ما كانوا يقولون ما كنا الآن في أصحاب السعير.
وهكذا..
فاعترفوا بذنبهم حين لا ينفع الاعتراف..!!
وعلى هذا:
فسحقاً لأصحاب السعير أي: بعداً لهم من رحمة الله.

* * *

ولما ذكر الله وعيد الكفار، وعذابهم: ذكر وعد الله للمؤمنين، وجزاءهم..
فقال سبحانه:

{ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }
[الآية : ١٢]

يعني: إن المؤمنين الذين يخشون ربهم يخافونه، فيطيعونه بالغيب كما يطيعونه علانية لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير وهو الجنة.

* * *

وبعد وعيد الكافرين بالعذاب، ووعد المؤمنين بالنعيم..!!
ينبه سبحانه إلى عدة أمور هامة:
أولاً: علمه بكل شيء، خفيّه وجليَّه.
إذ يقول:

{ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }
[الآيتان : ١٣، ١٤]

أي: يستوي عنده علم السر والجهر؛ لأنه سبحانه عليم بذات الصدور كما أنه هو الذي خلق هذا الإنسان صاحب السر والجهر، ويعلم حقائق الأشياء ودقائقها.

* * *

الثاني: قدرته على بعث الخلائق.
حيث يقول:

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }
[الآية : ١٥]

أي: هو سبحانه الذي جعل لكم بقدرته الأرض ذلولاً سهلة للانتفاع بها، وأمركم بهذا الانتفاع قائلاً فامشوا أي: اسعوا بالعمل والاستدلال على قدرته في مناكبها أي: جوانبها وكلوا من رزقه سبحانه.
و واعلموا أنه إليه وحده سبحانه القدرة على النشور وهو بعث الخلائق.

* * *

ثم بدأ ربنا عز وجل في تخويف الكفار المكذبين المعاندين.
فقال لهم:

{ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ }
[الآيتان : ١٦، ١٧]

يعني: أكفرتم، وأمنتم من في السماء عذابه، سبحانه أن يخسف بكم الأرض التي تستقرون فوقها، وتعيشون عليها...!!
فإذا هي بهذا الخسف تمور بكم وتضطرب وتقع بكم..؟
ثم زادهم تخويفاً فقال:
أ كفرتم، وأمنتم من في السماء عذابه، سبحانه أن يرسل عليكم حاصباً ريحاً ترميكم بالحجارة التي تخصبكم وتهلككم..؟!
إذا وقع الخسف بكم، أو أرسلت الحجارة عليكم فستعلمون ساعتها كيف نذير أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من كفر وكذب به..!!

* * *

على أية حال:

{ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ }
[الآية : ١٨]

أي: كيف إنكاري وتعذيبي لهؤلاء الذين كذبوا من قبلهم..؟

* * *

ثم نبه سبحانه على قدرته على الخسف بهم، وإرسال الحاصب عليهم بقوله:

{ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ }
[الآية : ١٩]

يلفت الله نظر الإنسان إلى هذا المخلوق الضعيف، وهو الطير، وقد سخر له الله الجو، فأفاد به ليستدل بذلك على قدرته، فيؤمن به، والبعث، ويستعد لليوم الآخر بالعمل الصالح.

* * *

ولان هؤلاء الكفار كانوا يمتنعون عن الإيمان، معتمدين على قوتهم بأموالهم وكثرة عددهم فقد أبطل الله ذلك.
بقوله:

{ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ }
[الآية : ٢٠]

أمن هذا الذي تعتقدون أنه هو جند لكم يحميكم من عذاب الله على كفركم وينصركم من دون غير الرحمن سبحانه..؟
خبروني عنه، لو كان..!!
إنه لا يكون؛ حيث لا وجود له مع قدرة الله.
حقاً إن الكافرون بهذا الفهم إلا في غرور غرهم به الشيطان.

*   *   *

ولأن هؤلاء الكفار أيضاً كانوا يمتنعون عن الإيمان، معتمدين على أن أصنامهم ستجلب لهم الخير، وتدفع عنهم الضر فقد أبطل الله عز وجل ذلك.
بقوله:

{ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ }
[الآية : ٢١]

يعني: أمن هذا الذي تعتقدون أنه يرزقكم إن أمسك الرحمن رزقه عنكم..؟
خبروني عنه، لو كان..!!
إنه لا يكون؛ حيث لا وجود له مع قدرة الله.
بل لجو وتمادوا كفراً وعناداً في عتو تكبر ونفور عن الحق.

*   *   *

وعلى ذلك: فهؤلاء الكفرة، في غايه الضلال صحيح

{ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية : ٢٢]

وهذا مثل يضربه الله للكافر الذي يتخبط في الظلمات، وللمؤمن الذي يمشي على هداية من الله.

أيهما أهدى سبيلاً في الدنيا..؟
وهما في الآخرة كذلك:
الكافر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، والمؤمن يمشي منتصب القامة، إلى دار النعيم.

*   *   *

وإذا كان الله تعالى ـ أيها الأحبة في الله ـ قد لفت نظر الكافر إلى الطير مسخرات في جو السماء؛ ليستدل بذلك على قدرة الله. فيؤمن بقدرته: فإنه يلفت نظره هذه المرة آيات في نفسه هو، ليستدل بذلك على قدرة الله، فيؤمن بقدرته.
حيث يقول للنبي صلى الله عليه وسلم:

{ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }
[الآيتان : ٢٣، ٢٤]

أي: قل لهؤلاء المعاندين هو الله القادر الذي أنشأكم خلقكم وجعل لكم آلات العلم، وهي السمع والأبصار والأفئدة لتستدلوا بها على قدرته، ووحدانيته.
فلم تفعلوا، ولم تشكروا.
بل كنتم قليلاً ما تشكرون
وقل لهم أيضاً هو الله ربي القادر الذي ذرأكم نشركم في الأرض لتعمروها عبادة الله وإليه في النهاية تحشرون فتحاسبون، وتجازون على الخير خيرا، وعلى الشر بمثله.

*   *   *

هؤلاء: لا فائدة منهم..
إنهم ينكرون البعث، ويستبعدونه..

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية : ٢٥]

نعم.. ويقولون استهزاءً متى يكون هذا الوعد أي: البعث، الذي تعدوننا وتخوفوننا به إن كنتم صادقين فيما تقولون..؟

* * *

يقول ربنا: أجبهم يا محمد...

{ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }
[الآية : ٢٦]

قل لهم ليس العلم بموعده عندي إنما العلم بذلك عند الله وحده، وقد بلغتكم وإنما أنا نذير لكم، أبين الشرائع، وأخوفكم على مخالفتها، عقابكم في يوم البعث مبين واضح البلاغ، وقد أديته.

* * *

هؤلاء الكفار يخبر عنهم ربنا بقوله:

{ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ }
[الآية : ٢٧]

أي: فلما قامت القيامة، ورأوه أي: البعث والحشر، بعيونهم زلفة وقع سريعاً سيئت أسودت وجوه الذين كفروا غماً ونكداً.
وقيل لهم زيادة في التوبيخ هذا هو البعث الذي كنتم به تستهزئون، وتدعون أنه لن يكون، قد جاء، وبعثتم.
خبروني ماذا تفعلون، وكيف تنجون من العذاب...؟

* * *

يا محمد، يا كل داعية إلى الله...

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية : ٢٨]

أي: إنهم يتمنون موتك، وموت من معك من المؤمنين.
قل لهم أرأيتم يعني: أخبروني..
إن حقق الله ما تتمنون، وأهلكني الله ومن معي من المؤمنين أو رحمنا وأخرنا إلى آجالنا فلا دخل لهذا في نجاتكم من عذابه.
وعلى هذا فمن يجير الكافرين من عذاب إليم سوى أن تؤمنوا.
فآمنوا، وخلصوا أنفسكم من عذاب الله.

* * *

{ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآية : ٢٩]

قل لهم هو الرحمن سبحانه آمنا به وعليه توكلنا في جميع أمورنا.
وأما أنتم فلم تؤمنوا به.
فستعلمون من هو نحن أو أنتم في ضلال مبين

* * *

أخيراً...

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ }
[الآية : ٣٠]

قل أخبروني إن أصبح ماؤكم غورا غائراً في باطن الأرض، لا تستطيعون إخراجه فمن الذي يأتيكم بماء معين سهل لكم، تشربون منه، وتحيون عليه، غير الله ..؟!
يا قوم استعملوا عقولكم، لتعرفوا قدرة ربكم، فتؤمنوا به، تنجون من عذابه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

وتسمى أيضاً: سورة "ن"
وهي: من أوائل ما نزل من القرآن الكريم بمكة المكرمة.
وتبدأ بقوله سبحانه:

{ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ }
[الآيات : ١-٤]

هذا قسم من الله وجوابه.
نعم قسم بـــ ن والقلم وما يسطرون على أن محمداً صلى الله عليه وسلم: ليس بمجنون، كما كان الكفار يقولون عليه، وعلى أن له من الله أجراً غير منقطع ولا منته، وعلى أنه صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم.

* * *

ثم يعد ربنا محمداً صلى الله عليه وسلم، ويهدد أعداءه قائلاً

{ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ }
[الآيتان : ٥، ٦]

أي: فستعلم ويعلمون يا محمد، في الدنيا وفي يوم القيامة كذلك بأيكم المفتون أي: من منكم المجنون، هم أو أنت.
بالقطع هم؛ لأنهم ضلوا عن سبيل الله.

* * *

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }
[الآية : ٧]

يعني: هو سبحانه أعلم بالمجانين، الذين ضلوا عن سبيله، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين الذي اهتدوا بهداه.
وفي الكلام تخويف للمكذبين، وبشارة للمؤمنين.

* * *

{ فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ }
[الآيتان : ٨، ٩]

أي: كما أنعمنا عليك يا محمد، وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم.. فلا تطع المكذبين
حيث إنهم ودوا ورغبوا وتمنوا لو تدهن تلين لهم، وتتخلى عن شيء من دعوتك فيدهنون يلينون لك ولا يعادونك بشدة.
نعم.. لا تطعهم؛ فإن صاحب الدعوة على الحق، لا ينبغي أن يتخلى عنه أبداً.

* * *

ثم ينهي ربنا حبيبه بعدم طاعة الموصوفين بمجموعات من الصفات التي بينها له في قوله تعالى:

{ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ }
[الآيات : ١٠-١٥]

أي: كما أنعمنا عليك يا محمد، وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم فلا تطع كل من اتصف بهذه الصفات، وهي:
حلاف كثير الحلف، بالباطل.
مهين حقير في الرأي والتمييز.

هماز عياب للغير، مغتاب للناس.
مشاء بنميم نقال للحديث السيئ بين الناس لإفسادهم.
مناع للخير بخيل بماله عن أداء الحقوق.
معتد أي: ظالم كثير الظلم.
أثيم كثير الأثام، وارتكاب المحرمات.
عتل بعد ذلك وفوق ما مر فهو: غليظ، جاف، قاسي القلب.
زنيم فاحش لئيم، وقيل: دعي ينتسب إلى غير أهله.
نعم... لا تطع من هذه صفاته.
حيث إنه: مغرور أن كان ذا مال وبنين فقد اغتر بماله وولده، ونسى أن هذا من فضل الله، واستدراجه له؛ ليشكر أو يكفر.
وقد كفر.
ولذلك إذا تتلى عليه آياتنا وهي القرآن قال عنها إنها أساطير الأولين

* * *

على أية حال.. من كانت هذه صفاته.

{ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ }
[الآية : ١٦]

أي: سنعلمه بعلاقة أهل النار، وهي سواد وجهه يوم القيامة.
وهذا كناية عن عذابه عذاباً شديداً في نار جهنم.

* * *

ثم يضرب الله المثل على امتحانه لهؤلاء المعاندين بالنعم.
فيقول سبحانه:

{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ }
[الآية : ١٧]

يعني: اختبرنا كفار مكة بكثرة النعم، كما اختبرنا أصحاب الجنة، أي: البستان، بنعمنا عليهم.

ويلاحظ: أن الاختبار بالنعم مستمر لجميع الناس إلى يوم القيامة، يرسب فيه من يرسب؛ حيث يكفر ولا يشكر، وينجح فيه من ينجح.
نسألك اللهم أن تجعلنا من الشاكرين الناجحين.
وهذا المثل كما تذكره الآيات الكريمة هو..
يقول تعالى:

{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ }
[الآيات: ١٧-٣٢]

أصحاب الجنة هؤلاء: كانوا قوماً بخلاء.
وذات عام طابت ثمار بستانهم، وأرادوا جمعه، ولكن في وقت لا يراهم فيه فقير، ولا صاحب حاجة؛ حتى لا يعطوه شيئاً.
وأقسموا ليصرمنها أي: يجمعون ثمارها، في الصباح الباكر، ولا يستثنون ولم يقولوا إن شاء الله، وصاروا يفكرون، ويدبرون!!
ولكن: ما قدر الله يكون، لا ما يشآؤن فطاف عليها طائف من ربك أصابتها آفة عاجلة فأصبحت قبل أن يصلوا إليها كالصريم أي: هلكت ثمارها.
هذه قصتهم باختصار.
وإليكم التفاصيل لهذه الكارثة التي حلت بهم.
يقول المولى:
فتنادوا مصبحين وهم يقولون لبعضهم البعض أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين جامعين لثمره.
فانطلقوا إلى بستانهم وهم يتخافتون بقولهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين فيأخذ منا ما لا نحب أن نعطيه.
وغدوا على حرد قوة وتصميم على منع الفقراء قادرين
ووصلوا إليها..
فلما رأوها قد هلك ثمرها، وضاع ما فيها قالوا إنا لضالون تائهون عن بستاننا، فليس هو هذا.
ولكنهم تأملوا فيها، وحاولوا التأكيد: فعرفوا أنها هي جنتهم.
فقالوا بل نحن تعساء محرومون من ثمارها وخيرها.
وطال بينهم النقاش.
وهنا قال أوسطهم أعدلهم وأعقلهم مذكرا لهم ألم أقل لكم حين عزمتم على منع حق الله من ثمارها لولا تسبحون أي: تذكرون الله، وتبتعدون عن خبث نيتكم وتعقدوا العزم على إعطاء الفقراء حقوقهم..؟!!
قالوا له ــ ولكن بعد فوات الأوان ــ حقاً ما كنت تقول، وذكروا الله قائلين، سبحان ربنا إنا كنا ظالمين
ثم صاروا ــ فيما بينهم ــ يتعاتبون.
فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون
وأخيراً: اعترفوا بذنبهم؛ حيث
قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين
ثم توجهوا لربهم تائبين قائلين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون
وبهذا انتهت هذه القصة.

* * *

يقول الحكيم الخبير:

{ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }
[الآية : ٣٣]

أي: هذه النهاية هي عقوبة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر وأشق للكافرين والعصاة لو كانوا يعلمون ولكنهم لا يعلمون الذين ماتوا على كفرهم ولم يؤمنوا، والذين ماتوا على معاصيهم ولم يتوبوا. ولذلك يفعلون ما يؤدي بهم إلى هذا العذاب.

* * *

ثم يبين الله جزاء المتقين فيقول:

{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ }
[الآية : ٣٤]

أي: للمتقين الذين أطاعوا ربهم عند ربهم في دار البقاء جنات النعيم التي لا انقضاء لها ولا انتهاء، بخلاف نعيم الدنيا الفاني.

* * *

وهكذا..
كان عدل الله سبحانه وتعالى.
العذاب للعصاة والكافرين.
والنعيم للمؤمنين المتقين.
وإلا..

{ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }
[الآيتان : ٣٥، ٣٦]

وهل يعقل أن يكون المطيع كالعاصي..؟
أبداً لا يكون ذلك نهائياً.
إذن ما لكم كيف تحكمون بذلك، وتفهمون ذلك، وتظنون أن هذا يكون، وتفعلون أيها العصاة ما تريدون، ولا تعبأون بما تعملون؛ ظناً منكم أن الكل متساوون.
إن هذه التسوية التي تظنونها: لن تكون.

* * *

خبروني أيها العصاة..
علام اعتمدتم في فهمكم هذا..؟

{ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ }
[الآيتان : ٣٧، ٣٨]

هل عندكم كتاب منزل من السماء فيه تدرسون وتقرأون إن لكم فيه لما تخيرون
وبذلك: يكون اعتمادكم في فهمكم هذه التسوية بين المسلم والمجرم على كتاب منزل من السماء..!!
طبعاً.. ليس لكم ذلك.

{ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ }
[الآيتان : ٣٩، ٤٠]

هل أعطيناكم عهوداً أكدناها وأقسمنا عليها، إلى يوم القيامة وفيها إن لكم لما تحكمون به لأنفسكم، مما تشتهون..؟
سلهم أيهم بذلك العهد والميثاق إن كان هو به زعيم وضامن لكم ذلك..؟
طبعاً ليس لكم عهود بذلك، ولا عندكم زعيم متكفل بهذا.

{ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ }
[الآيات : ٤١–٤٣]

هل لهم شركاء في هذا التساوي بين العاصي والمطيع الذي يدعونه..؟
إذا كان لهم فليأتوا بشركائهم هؤلاء إن كانوا صادقين في دعواهم هذه،وفهمهم هذا.
وذلك:
يوم يكشف عن ساق من شدة الأمر،وصعوبة الموقف، وهول يوم القيامة.
ويدعون في هذا اليوم السجود توبيخاً لهم على تركهم السجود في الدنيا فلا يستطيعون حيث تصير ظهورهم جامدة لا تلين لهم.
بل تكون خاشعة ذليلة أبصارهم لا يرفعونها ترهقهم تغشاهم ذلة وهوان.
عجيب لماذا أوقفوا أنفسهم هذا الموقف وقد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود وهم سالمون فامتنعوا.

* * *

أتدرون لماذا امتنعوا عن السجود؛ فأوقفوا أنفسهم هذا الموقف المخزي في يوم القيامة..؟
الجواب.
إنهم كذبوا بالقرآن.
لذلك يقول العزيز الجبار:

{ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ }
[الآيتان : ٤٤، ٤٥]

فذرني اتركني يا محمد، ويا كل مسلم ومن يكذب بهذا الحديث وهو القرآن، ولا تهتم به، ولا تنشغل بمفاهيمه حيث إنا سنستدرجهم بالصحة، والغنى، والجاه، والكثير من متاع الدنيا الزائل من حيث لا يعلمون إنه استدراج لهم؛ حيث لا يشكرون الله على هذه النعم.
وأملي لهم أي: أمهلهم، وأخر عذابهم!!
ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر
إن كيدي عذابي متين قوي شديد، لمن خالف أمري، وكذب رسلي، وأصر على معصيتي.

* * *

ولكن.. ما السبب في إصرارهم على هذا التكذيب..؟

{ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ }
[الآيتان : ٤٦، ٤٧]

هل تسألهم على تبليغ الرسالة إليهم أجراً..؟
وعلى ذلك فهم من مغرم يدفعونه لك مثقلون، ومتعبون.
ولذلك: لا يؤمنون..؟
أم أن عندهم الغيب وهو اللوح المحفوظ، الذي فيه الغيب فهم يكتبون منه ما يقولون، وما به يحكمون..؟
طبعاً لا هذا، ولا ذاك.
إذن فهم متعنتون.

* * *

وعلى ذلك وما دمت لم تؤمر بقتالهم حتى الآن...

{ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ }
[الآيات : ٤٨- ٥٠]

أي: فاصبر لحكم ربك بإمهالهم، وتأخير العذاب عنهم، ونصرتك عليهم.
ولا تكن كصاحب الحوت تغضب عليهم، وتتصرف بغير إذن منا، كما فعل صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام.
حتى لا يصيبك مثل ما أصابه...
إذ نادى ربه وهو مكظوم مهموم مغموم.
لولا أن تداركه نعمة من ربه بإجابة دعائه، وقبول عذره: لنبذ من بطن الحوت بالعراء وهو مذموم ملام لكنه رحم من ربه، فنبذ غير مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين.

* * *

هذا..
ومن المواقف التي تحتاج منك إلى الصبر عليهم: شدة عداوتهم لك، وقولهم عليك إنك لمجنون.

نعم...

{ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ }
[الآية : ٥١]

أي: أوشك الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم يعني يؤذونك بأبصراهم حسداً؛ وذلك لما سمعوا الذكر منك وهو القرآن.
ويقولون أيضاً عليك إنه لمجنون
فلا تهتم بهم، واصبر على أذاهم هذا..!!
فإنا نحميك منهم، ونعصمك من أذاهم.
يا محمد..

* * *

لقد نظروا إليك باستخفاف عداوة و....... .. من أجل القرآن!!
وقالوا عليك أيضاً إنه لمجنون من أجل القرآن..!!

{ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ }
[الآية : ٥٢]

أي: ما القرآن الذي قالوا عليك ذلك من أجله إلا ذكر وموعظة للعالمين كلهم من الجن والأنس.
ولذلك: كيف يحكم بالجنون على من جاء بمثله..؟

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
وتبدأ بقوله تعالى:

{ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ }
[الآية : ١]

يعني: سأل سائل من الكفار المنكرين للبعث، المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم بعذاب واقع أي: عن عذاب يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه واقع بهم..!!
لمن يكون هذا العذاب..؟
ومتى يكون..؟

* * *

وكأنه يستعجله استهزاء.
فيكون الجواب.

{ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ }
[الآيات : ٢ – ٤]

نعم..
هذا العذاب، للكافرين وليس له دافع يرده عنهم، ويحميهم منه.
لأنه واقع بهم من الله ذي صاحب المعارج وهي مصاعد السموات؛ حيث تعرج الملائكة والروح إليه بأعمال العباد، وتلقي التكليفات.
وهذا العذاب أيضاً يكون في يوم القيامة، الذي كان بمعنى يكون مقداره على الكافر خمسين ألف سنة من شدة الأهوال.

وفي الحديث الشريف: أن هذا اليوم يكون على المؤمن أخف من صلاة مكتوبة، كان يصليها في الدنيا.

* * *

ثم يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم، ولكل داعية على الله.

{ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا }
[الآيات : ٥-٧]

أي: فاصبر على أذاهم، وسخافة أقوالهم، وعنادهم.
إنهم يرونه بعيداً استهزاءً وإنكاراً.
ونراه ..... قريباً واقعاً لا محالة لذلك: نحن نؤمن به، ونستعد له، وإن كنا لا نعرف موعده بالتحديد.

* * *

هذا اليوم الذي يراه الكافرون بعيداً، ويراه المؤمنون قريباً..
هو يوم القيامة..

{ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ }
[الآيتان : ٨، ٩]

إنه يوم رهيب تتبدل فيه الأحوال، وتتغير فيه الأوضاع تكون السماء فيه كالمهل الزيت العكر، والألوان المختلطة وتكون الجبال فيه كالعهن أي: الصفوف الهش المنفوش، المصبوغ بالألوان العيدة......

* * *

أتدرون ما حال هؤلاء الذين كانوا يسألون العذاب هؤلاء..؟
إنهم يتخبطون..

{ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ }
[الآيات : ١٠-١٤]

يفاجئون بهذه الأهوال، وبهذا العذاب فيشغلون بأنفسهم، ويبحثون عن طريق للخلاص ولا يسأل حميم حميما أي: قريب عن قريب؛ لانشغاله بنفسه، بالرغم من أنهم يبصرونهم يعني: يرونهم وهم كذلك في أهوالهم.
في هذا اليوم يود المجرم الكافر لو يفتدي من عذاب يومئذ بكل ما يملك، حتى ولو ببنيه وصاحبته زوجته وأخيه وفصيلته كل أهله وأقاربه وعائلته التي تؤيه وينتمي إليها و أكثر من هذا من في الأرض جميعاً.
ثم ينجيه هذا الغداء من هذا العذاب.

* * *

ولكن الجواب على أمنيته هذه: يكون

{ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى }
[الآيات : ١٥-١٨]

أي: كلا لا فداء في هذا اليوم.
إنها النار لظى التي كانوا ينكرونها وهي الآن نزاعة للشوى تحرق مكارم وجهه وأطرافه وكل شيء فيه.
وهي تدعو تحرق كل من أدبر عن الحق وتولى عن الإيمان والطاعة وجمع المال فأوعى وبخل به فلم يؤد حق الله فيه لأصحابه.

* * *

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن الإنسان وطبيعته بصفة عامة..
فيقول:

{ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ }
[الآيات : ١٩-٢٢]

إن طبيعة الإنسان أنه خلق هلوعاً يصاب بالفزع و الجزع سريعاً.
لذلك تراه إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا
إلا المصلين فهم على خلاف ذلك.

* * *

تعالوا بنا أيها الأحبة لنتعرف عليهم، حتى نتحلى بصفاتهم، عسى أن نكون من الناجين معهم.
يقول سبحانه:

{ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ }
[الآيات : ٢٣-٣٤]

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات: هم الذين لا يصابون بالهلع والجزع، حيث يتحلون بالصبر الجميل، والخلق الحسن.

* * *

نعم...
من يقول: ماذا لهم..؟
يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ }
[الآية : ٣٥]

افيدوني أفادكم الله.. هل بعد هذا النعيم.. نعيم..؟
أقول: جعلنا الله منهم، وحشرنا معهم.

* * *

ومع وضوح هذه الصفات للمصلين، ومكارم الأخلاق التي يتحلون بها، والجزاء الحسن الذي يوعدون به من رب العالمين فإن الكافرين يعاندون، ولا يهتدون.
يقول ربنا سبحانه:

{ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ }
[الآيات : ٣٦–٤١]

فمال فأي شيء جعل الذين كفروا قبلك عندك مهطعين مسرعين في البعد عنك، والحرب لك..
كما أنهم متفرقون عن اليمين وعن الشمال أي في كل جهة عزين فرقاً وجماعات.
يقولون: لئن أدخل هؤلاء المؤمنون الجنة لندخلنها قبلهم..
وعلى هذا أيطمع كل أمريء منهم أن يدخل جنة نعيم..؟

* * *

ويرد عليهم ربنا قائلاً:

كلا سيكون البعث الذي ينكرونه، ولن يدخلوا الجنة، التي يستهزئون بها، بل سيدخلون جهنم.
إنهم أنكروا قدرتنا، وتجاوزوا حدودهم؛ حيث إنا خلقناهم مما يعلمون وهو الماء المهين.
وتناسوا ذلك.
فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على بعثهم وحسابهم، وعذابهم، بل على أن نبدل الآن خيراً منهم في طاعة الله وما نحن بمسبوقين أي: بعاجزين عن ذلك.
فلم إذن: لا يؤمنون...؟

* * *

على أية حال لقد بلغت وأنذرت..

{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ }
[الآيات : ٤٢-٤٤]

فذرهم أي: فدعهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم.
وذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون العذاب فيه، وساعتها سيعرفون سوء مصيرهم.
وهذا اليوم يكون يوم يخرجون من الأجداث وهي القبور سراعاً لا تباطؤ فيه ولا تأخير عن إجابة الداعي، يسيرون كأنهم إلى نصب هدف واضح يوفضون يسرعون.
خاشعة ذليلة أبصارهم لا يرفعونها.
ترهقهم ذلة يغشاهم هوان وخذلان، بعد استكبارهم في الدنيا.
ويقال لهم تحسيراً ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون به، ولا يؤمنون، ولا يستعدون له. فذوقوا العذاب فيه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
وتبدأ بقوله تعالى:

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية : ١]

إنا أرسلنا نوحاً عليه السلام؛ رحمة منا إلى قومه قائلين له أن أنذر قومك وخوفهم من غضب الله عليهم، بسبب عبادتهم للأصنام.
وذلك ليؤمنوا من قبل أن يأتيهم عذاب إليم

* * *

وبلغ نوح عليه السلام هذه الرسالة.

{ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآيات : ٢ – ٤]

وظل يدعوهم عليه السلام، ويدعوهم، ويدعوهم..
أتدرون أيها الأحبة كم بلغت المدة التي ظل يدعوهم فيها إلى الإيمان..؟
يقول المولى فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما [العنكبوت١٤] ومع ذلك: لم يستجيبوا الدعوة، ولم يؤمنوا بربهم.

* * *

أتدرون أيضاً ماذا فعل بعد ذلك..؟
توجه إلى ربه..

{ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً }
[الآيتان : ٥، ٦]

أي: دعوتهم للإيمان بك، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً، وفراراً مني، وبعداً عني.

* * *

{ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً }
[الآية : ٧]

* * *

وواصل قائلاً لما كان يرغبهم به في الإيمان:

{ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً }
[الآيات : ٨-١٢]

* * *

ثم بين أنه كان يذكرهم بقدرة الله في خلقهم..

حيث قال لهم:

{ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً }
[الآيتان : ١٣، ١٤]

أي: ما لكم لا تؤمنون بالله الذي خلقكم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم.. إلى تمام خلق الإنسان في هذه الصورة الحسنة..؟
أي: آمنوا به سبحانه.

* * *

ثم يبين أنه كان يذكرهم بقدرة الله في الأجرام العلوية..
حيث قال لهم:

{ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً }
[الآيتان : ١٥، ١٦]

أي آمنوا به سبحانه.

* * *

ثم يبين أنه كان يذكرهم بخلقهم وبعثهم..
حيث قال لهم:

{ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً }
[الآيتان : ١٧، ١٨]

نعم.. هو سبحانه الذي أنبتكم خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم، وأنتم بالغذاء منها.
ثم يعيدكم فيها للدود والتراب في القبر، وإما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر نار جهنم.
و هو الذي يخرجكم ويبعثكم إخراجاً للعرض والحساب والجزاء.

آي: آمنوا به سبحانه.

* * *

ثم يبين أنه كان يذكرهم بقدرة الله في الأرض التي يعشون عليها.
حيث قال لهم:

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً }
[الآيتان : ١٩، ٢٠]

نعم.. هو سبحانه الذي جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً
نعم.. هو سبحانه الذي جعل لكم الأرض بساطاً مسبوطة؛ لتسيروا في: طرقها،وجبالها، ووديانها، وبحارها الواسعة، كيف شئتم.
أي: آمنوا به سبحانه.

* * *

ثم حكى حالهم معه لربه..

{ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً }
[الآيات : ٢١-٢٤]

أي: إنهم عصوني، ولم يؤمنوا، وآذوني، وقالوا لبعضهم البعض: لا تتركوا عبادة آلهتكم وذكر منها خمسة.
ثم قال: وقد أضلوا غيرهم كثيراً، وبهذا: فقد ظلموا.
وسنتك يا رب: أنك لا تزد الظالمين إلا ضلالاً.

* * *

وكانت النتيجة: أيها الأفاضل: أنه

{ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً }
[الآية : ٢٥]

نعم..
بسبب خطيئاتهم هذه، وكفرهم: أنهم أغرقوا بالطوفان، فماتوا فأدخلوا ناراً في قبورهم.
وضاعوا..
فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً.

* * *

وكان هذا العذاب لهم: بعد دعاء نوح عليه السلام.
حسب قوله تعالى:

{ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً }
[الآيات : ٢٦–٢٨]

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية
وهي تبدأ بقول الله عز وجل:

{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً }
[الآيات : ١-١١]

نداء من المولى للحبيب، صلى الله عليه وسلم: يعقبه تسعة تكاليف.
يا أيها المزمل أي: المتزمل المتلفف بثيابه، حين نزول الوحي إليه؛ هيبة له، وخوفاً منه.
إليك هذه التكليفات:
التكليف الأول: قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه أي: من النصف قليلا أو زد عليه أي: على النصف.
وقد كان ذلك: واجباً عليه صلى الله عليه وسلم وحده.
التكليف الثاني: ورتل القرآن ترتيلا حيث إنا سنلقي عليك فيه قولاً ثقيلا وهي التكاليف الشاقة من الأوامر والنواهي.
يا محمد إن ناشئة الليل أي: القيام والترتيل للقرآن فيه هي أشد وطأً أصعب من صلاة النهار،والتلاوة فيه.
و لكنها أقوم قيلا أثبت في القراءة، لهدوء الأصوات، وسكون الحركات.
وفي ذات الوقت إن لك في النهار سبحاً طويلا فراغا كبيرا، لأعمالك وراحاتك.
التكليف الثالث: واذكر اسم ربك في كل وقت وحين بالصلاة، وتلاوة القرآن،ودراسة العلم.. الخ
التكليف الرابع: وتبتل إليه تبتيلا أي: انقطع لعبادته، وأخلص له فيها.
واعلم أنه سبحانه رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو
لذلك:
فاتخذوه وكيلا لك توكل عليه، وفوض كل أمرك إليه وهذا هو التكليف الخامس.
التكليف السادس: واصبر على ما يقولون كذبا وعناداً علي وعليك.
التكليف السابع: واهجرهم هجراً جميلا لا عتاب فيه وكان هذا قبل الأمر بقتال الكفار.
التكليف الثامن وذرني اتركني والمكذبين الكافرين أولي النعمة أصحاب الترف، والتنعيم بملذات الدنيا.
التكليف التاسع ومهلهم زمنا قليلا يلاقون بعد جزاءهم في الدنيا.
وقد قتل زعماؤهم بالفعل، في يوم بدر.
وحقاً لكل ظالم نهاية.
وهذا في الدنيا.

* * *

و أما في الآخرة: فيقول تعالى..

{ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً }
[الآيتان : ١٢، ١٣]

إن لدينا عندنا لهؤلاء الظالمين أنكالاً قيوداً ثقالا وجحيما نار محرقة وطعاما ذا غصة يلتصق بالحلق، فلا يخرج ولا يدخل وعذاباً أليما شديداً غاية الشدة، مؤلما غاية الألم.

* * *

نعم..
هذا العذاب: يكون في الآخرة..

{ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً }
[الآية : ١٤]

أي: يوم القيامة حين ترجف تتزلزل الأرض والجبال زلزلة شديدة.
وكانت الجبال ساعتئذ كثيبا رملا مهيلا سائلا كالماء.

* * *

ثم يهدد الله كفار مكة، وهو في ذات الوقت تهديد لكفار الدنيا كلها..
فيقول:

{ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً }

[الآيات : ١٥-١٨]

يعني: يا أهل مكة إنا أرسلنا إليكم وإلى الدنيا كلها رسولاً هو محمد صلى الله عليه وسلم شاهدا عليكم يوم القيامة.

وذلك كما أرسلنا موسى عليه السلام إلى فرعون رسولا يدعوه إلى الإيمان وعبادة الله فعصى فرعون الرسول..!!

فــ كانت عاقبته: أن أخذناه بعذابنا أخذاً وبيلا شديداً غليظا.

وعلى هذا..

فكيف تتقون غضب الله وعذابه إن كفرتم يا أهل الدنيا..

يوما يجعل الولدان شيبا من شدة عذابه وأهواله..؟

في هذا اليوم: تكون السماء منفطر به أي: منفطرة متشققة من هول هذا العذاب.

وكان وعده أي: وعد الله بهذا العذاب للكافرين مفعولا

* * *

يا أهل الدنيا كلها..

{ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً }
[الآية : ١٩]

إن هذه السورة وما فيها من تكليفات، آيات تخويف تذكرة للخلق؛ ينتفعون بها.

فمن شاء اتعظ، واتخذ إلى مرضاة ربه سبيلا طريقاً إلى تقوى الله وخشيته.

* * *

ثم يخفف الله عز وجل عن حبيبه صلى الله عليه وسلم، وأصحابه..

في بعض هذه الأحكام والتكليفات..

فيقول سبحانه:

{ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا

اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية : ٢٠]

المعنى: إن ربك يا محمد يعلم أنك تقوم أدنى أقل من ثلثي الليل ونصفه وثلثه طاعة لله، وكذلك طائفة من المؤمنين الذين معك الذين يقتدون بك.
وهؤلاء: كان الواحد منهم يقوم الليل كله، حتى تورمت أقدامهم وذلك: لمدة عام أو أكثر.
ولهذا: خفف الله عنهم قائلاً علم أن لن تحصوه أي: لن تطيقوا قيام الليل بهذا الشكل إلا بصعوبة ومشقة..!!
فتاب عليكم وخفف عنكم، وأسقط فرضية قيام الليل، وجعلها ندبا، وتطوعا.
فاقرأوا إذن ما تيسر من القرآن أي: قوموا من الليل ما تيسر لكم، وصلوا فيه ما شئتم من غير تحديد.
وذلك التيسير بسبب أنه:
علم أن سيكون منكم
أولاً مرضى يشق عليهم قيام الليل.
ثانياً وآخرون يضربون في الأرض أي: يسافرون يبتغون من فضل الله من رزقه بالتجارة، وطلب العلم،وغير ذلك، وهؤلاء: يشق عليهم قيام الليل.
ثالثاً وآخرون يقاتلون في سبيل الله وهؤلاء: يشق عليهم قيام الليل.
من أجل هؤلاء: نقول للجميع..
فاقرأوا ما تيسر لكم منه أي من القرآن في الصلاة وبهذا تغير حكم قيام الليل من الفرضية إلى الندبية.
و كذلك:
أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله بالإنفاق قرضاً حسنا
واعلموا أنه وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا
واستغفروا الله من السيئات والتقصير في الحسنات إن الله غفور رحيم بالمؤمنين

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مكية.

تبدأ بقوله تبارك وتعالى:

{ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ }
[الآيات : ١–٧]

نداء من المولى للحبيب صلى الله عليه وسلم، يعقبه ستة تكليفات.
يا أيها المدثر أي: المتدثر، المتلفف بثيابه، حين نزول الوحي إليه، هيبة له، وخوفاً منه.
إليك هذه التكليفات:
التكليف الأول قم فأنذر ابدأ، وبلغ أهل مكة بالإسلام، وخوفهم من عذابي إذا لم يؤمنوا فأنت رسولي إلى العالمين.
التكليف الثاني وربك فكبر أي: فعظم؛ حيث لا عظيم سواه.
التكليف الثالث وثيابك فطهر أي: كن طاهر الفعل والقول، والظاهر والباطن.
التكليف الرابع والرجز فاهجر أي: اترك الأصنام والمعاصي.
التكليف الخامس ولا تمنن تستكثر أي: كن على أجمل الأخلاق، وأفضل الأداب.
التكليف السادس ولربك فاصبر أي: اجعل صبرك على ما تلاقيه من الأذى في سبيل دعوتك خالصاً لوجه الله، واصبر كذلك على امتثال الأوامر والنواهي، التي تكلف بها.

* * *

ولكن..!!
لماذا تنذر الناس عذابي..؟
لأنه..

{ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ }
[الآيات : ٨–١٠]

يعني: فإذا نقر في الناقور أي: نفخ في الصور، النفخة الثانية وهي نفخة البعث..
فذلك الوقت يومئذ يوم عسير شديد الأهوال.
وهو على الكافرين غير يسير لا تيسر لهم من العسر فيه.

* * *

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التكليفات..!!
وبلغ صلى الله عليه وسلم الدعوة، وأنذر وخوف من عذاب الله..!!
ووجد الصدود والعناد والإيذاء من قومه..!!
فأنزل الله تعالى عليه قوله:

{ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ }
[الآيات : ١١-٢٦]

يعني: اترك لي هذا الكافر العنيد، الذي أنعمت عليه بالكثير، وما يزال يطمع في المزيد..!!
مع أنه: كفر، وعاند آياتنا، وقال على وحينا إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر
على أية حال:
اتركه لي سأصليه سأدخله سقر

* * *

أتدري ما سقر ..؟

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ }
[الآيات : ٢٧-٣٠]

نعم.. وما أدراك ما سقر..!!
إنها جهنم وهي لا تبقى ولا تذر لمن فيها لحماً ولا عظما، ولا عصبا، فهي تحرقه، ثم يعود كما كان، ثم تحرقه، وهكذا.
يا مغيث..!!
إنها أيضاً لواحة للبشر تلفح الجلود بلهيبها لفحا، فتحرقها حرقا.
إنها عليها تسعة عشر

* * *

وكأن سائلاً يسأل..!!
ما هؤلاء التسعة عشر..؟
ولم كانوا تسعة عشر فقط..؟
فيكون الجواب:

{ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ }
[الآية : ٣١]

أصحاب النار هؤلاء هم: خزنتها، وهم ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.
وقد جعلنا عددهم تسعة عشر فتنة أي: اختبار الناس.
أولاً: ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أن محمدا صادق.
وذلك: لتطابق ما نزل عليه لما في الكتب السابقة، التي يعرفونها؛ في أن الملائكة تسعة عشر.
ثانياً وليزداد الذين آمنوا منهم إيمانا أي: تصديقا بالنبي صلى الله عليه وسلم.
ثالثاً: ولا يرتاب ولا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون من غير أهل الكتاب في شأن هذا القرآن، وصدق ما فيه.
رابعاً وليقول في المستقبل الذين في قلوبهم مرض أي: نفاق والكافرون كذلك ماذا أراد الله بهذا مثلا..؟ منكرين أنه من عند الله، بل مستهزئين به.
كذلك: الإضلال، والهداية.
يضل الله من يشاء من عباده، وهم الذين علم منهم اختيار الضلال وساروا بالفعل في طريقه.
ويهدي من يشاء من عباده،وهم الذين علم منهم اختيار الهوى، وساروا بالفعل في طريقه.
أما بالنسبة للملائكة هؤلاء، وعددهم.. نقول:
وما يعلم جنود ربك عددا، أو أنواعا إلا هو سبحانه.
وأما بالنسبة لهذه الآية التي بينت ذلك فنقول:
وما هي إلا ذكرى وموعظة وتنبيهاً للبشر كي يعقلوا، ويؤمنوا.

* * *

ثم يحض الله الناس على قبول هذا الإنذار، والتأثر بهذا التخويف.
فيقول سبحانه:

{ كَلاَّ وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيراً لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }

[الآيات : ٣٢-٣٨]

كلا إنهم لا يتذكرون، ولا ينتفعون بهذه المواعظ.
والقمر * والليل إذ أدبر أي: ذهب والصبح إذا أسفر طلع وأنار..!!
كل هذا قسم.
والجواب إنها أي: سقر لإحدى الكبر أي: المصائب العظام.
أخبربها محمد صلى الله عليه وسلم، وكان نذيرا بها للبشر كلهم.
على أية حال:
لمن شاء منكم أيها البشر أن يتقدم إلى الإيمان، ثم إلى الجنة أو يتأخر عن الإيمان، ثم يكن مصيره إلى سقر.
حيث إنه كل نفس بما كسبت من شر رهينة أي مربوطة بعملها يوم القيامة، ومأخوذة به إلى النار.

* * *

ولكن..!!
هل كل الناس كذلك..؟
لا.
يقول سبحانه:

{ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ }
[الآيتان : ٣٩، ٤٠]

نعم.. إلا أصحاب اليمين فهم في جنات يتساءلون

* * *

ولكن..!!
عن أي شيء يتساءلون..؟
يقول تعالى:

{ عَنِ الْمُجْرِمِينَ }
[الآية : ٤١]

يعني: يتساءلون عن المجرمين وأحوالهم، وماذا جرى لهم.
فيرونهم..
فيقولون لهم:

{ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ }
[الآية : ٤٢]

أي: ما الذي أدخلكم في سقر؟ أي: جهنم.

* * *

فيكون جواب المجرمين على هذا السؤال.

{ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ }
[الآيات : ٤٣-٤٧]

أي: قالوا متحسرين، معترفين بخيبتهم:
أولاً: لم نكن من المسلمين، نصلي لله مع المصلين
ثانياً: لم نك نحسن إلى خلق الله، ونطعم المسكين
ثالثاً: وكنا نخوض في آيات الله وشرعه مع الخائضين المكذبين بها، المنكرين لها.
رابعاً: وكنا نكذب بيوم الدين فلا نؤمن ببعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا جنة ولا نار.
كل ذلك: كنا مصرين عليه حتى أتانا اليقين وهو الموت.
لذلك: فنحن فيما ترون من العذاب.

* * *

وكأنهم قالوا للمسلمين: فهل من شافع لنا عندكم؛ يخرجنا أو يخفف عنا ما نحن فيه..؟
فكان الجواب من رب العالمين:

{ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ }
[الآية : ٤٨]

يعني: لا شفاعة لهم.

* * *

وهكذا ـ أيها الكرام ـ أصبحت الأمور كلها واضحة، ومازال الكفار ـ بالرغم من هذا التذكير ـ يتبجحون!!

{ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ }
[الآيات : ٤٩-٥١]

أي: ما الذي جعلهم عن هذه التذكرة معرضين يفرون منها كأنهم حمر مستنفرة أي: وحشية فرت هاربة خوفاً من قسورة وهو الأسد.

* * *

إن هؤلاء: لا ينقصهم الدليل ليؤمنوا، وليتعظوا.
إنما هو العناد والتكبر.

{ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً }
[الآية : ٥٢]

إن كل واحد من هؤلاء الكفار: يريد أن ينزل عليه كتاب من الله، ويكون مفتوحا يقرؤه الجميع، كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

* * *

فهل يعطي أي واحد منهم ما طلب عنادا ..؟

{ كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ * كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ }
[الآيات : ٥٣-٥٦]

كلا لن ينالوا ما يريدون عنادا .. !!
حيث إنهم لا يخافون الآخرة ولذلك يقولون ما يقولون..!!
كلا حقاً إنه أي: القرآن تذكرة كافية لمن أراد الإيمان والموعظة.
لذلك: فمن شاء الهداية ذكره وانتفع به.
على كل حال:
وما يذكرون ولا ينتفعون إلا أن يشاء الله لهم ذلك.
وهو سبحانه أهل التقوى ينبغي أن يتقيه من أراد الهداية.
و هو سبحانه أهل المغفرة ينبغي أن يطلبها منه أراد الرضوان.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية

وهي: تبدأ بقوله الله عز وجل.

{ لا أقسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ * وَلا أقسِمُ بِالنَّفسِ اللَّوَّامَةِ }
[الآيتان : ١، ٢]

هذان قسمان جوابهما محذوف.
تقديره: لتبعثن.
والمعنى: أقسم بيوم القيامة، واقسم بالنفس اللوامة أن البعث للحساب والجزاء حق.
ويوم القيامة: معروف.
والنفس اللوامة: هي النفس التقية، التي تلوم نفسها على التقصير في طاعة الله.

* * *

ثم تبدأ الآيات في توبيخ الكفار الذين ينكرون هذا البعث.
فيقول سبحانه:

{ أيَحْسَبُ الإنسَانُ أن لَن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ }
[الآية : ٣]

يظن هذا الإنسان الكافر المنكر للبعث، ولا يلوم نفسه: أنا لا نقدر على جمع عظامه، وإحيائه بعد الموت، وبعثه..؟

* * *

{ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ }
[الآية : ٤]

أي: نحن قادرون على جمع عظامه، وإحيائه، وبعثه بل أكثر من هذا وهو تسوية أصابعة، كما كانت في الدنيا.

* * *

ولكن..!!
ما الذي يدفعه لهذا الإنكار ليوم القيامة..؟
الجواب..

{ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ }
[الآية : ٥]

يعني: ليدوم على فجوره، ويستمر على فسوقه وعصيانه، ولا يضبط نفسه بميزان شرع، أو تعليمات وحي.

* * *

لذلك: تراه وهو في فجوره واستهتاره.

{ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ }
[الآية : ٦]

وهو: سؤال استبعاد وإنكار، وليس سؤال تعلم ورغبة في الاستعداد للإيمان والعمل الصالح.

* * *

ويظل هذا العاصي: في استهتاره،ولهوه، وانشغاله..

{ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ }
[الآيات : ٧–١٠]

أي: فإذا قامت القيامة:
برق البصر زاغ من شدة الأهوال.
وخسف القمر ذهب ضوءه.
وجمع الشمس والقمر طوياً معا، وأصبح كتلة واحدة، في قبضة الملك العلام والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى
وساعتها..
يقول هذا الإنسان الكافر يومئذ أين المفر والمهرب من هذه الأهوال الجسام..؟

* * *

ويكون الجواب..

{ كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ }
[الآيات : ١١–١٥]

كلا أبدا لا وزر لا مفر له،ولا مهرب من هذا الهول.
حيث إنه إلى ربك يومئذ المستقر فإما إلى جنة أبدا، وإما إلى نار أبدا.
كما أنه ينبؤ الإنسان ويعّرف ويكشف له يومئذ بما قدم وأخر من عمل، صغيرا كان أو كبيرا.
وكل ذلك: مدون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.
ولذلك: لا يحتاج الأمر إلى شهود.
بل الإنسان على نفسه وعمله بصيرة حجة ودليل.
ولا يقبل منه أية اعتذارات ولو ألقى معاذيره وتعلل بها لينقذ نفسه فلن يحميه هذا من العذاب.

* * *

أيها القارىء الكريم..
إن القرآن العظيم هو الذي جاء فيه الكلام على يوم القيامة، وقضية البعث.
هذا القرآن يعلم ربنا عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يتلقاه حين الوحي به إليه.
فيقول له:

{ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }
[الآيات : ١٦-١٩]

لا تحرك به أي: بالقرآن لسانك سريعاً لتعجل به حفظاً، خلال الوحي به عليك؛ خوفاً من تفلته منك.
وكن مطمئناً حيث إن علينا جمعه في صدرك وقرآنه أي: جريانه على لسانك بسهولة ويسر.
فإذا قرأناه عليك، ويسرنا لك بقراءة جبريل فاتبع قرآنه أي: فاستمع قراءته عليك.
ثم بعد ذلك الاستماع الجيد منك علينا بيانه بالتفهيم لك، والتوضيح لما أشكل عليك من معاينه.

* * *

ثم يبين الله عز وجل سبب هجر القرآن، وإهمال تعاليمه..
فيقول:

{ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ }
[الآيتان : ٢٠، ٢١]

كلا لا ينبغي منكم إهمال القرآن، وترك العمل بتكاليفه، بل أنتم تحبون العاجلة وتنشغلون بها.
و لذلك تذرون تتركون الآخرة ولا تستعدون لها.

* * *

يا أيها الناس...!!
آمنوا بالقرآن.
ولا تنكروا البعث.
واستعدوا بالعمل الصالح للآخرة.
حيث إنه في يوم القيامة تكون:

{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ }
[الآيات : ٢٢–٢٥]

نعم.. وجوه يومئذ ناضرة حسنة مشرقة مسرورة، والسبب أنها إلى ربها ناظرة تراه عيناً، سبحانه وتعالى.
و هناك وجوه يومئذ باسرة عابسة كالحة تظن أي: توقن أن يفعل بها فاقرة داهية عظيمة، تقصم فقرات الظهر.

* * *

ثم يذكر الله الإنسان بلحظات الموت.
فيقول سبحانه:

{ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ }
[الآيات : ٢٦–٣٠]

كلا لا ينبغي منكم إهمال القرآن، أو إنكار البعث، أو عدم الاستعداد ليوم القيامة.
وتذكروا إذا بلغت الروح التراقي عظام الحلق، وذلك في حالة النزع الأخير.
و ساعتها قيل ممن حوله من راق له، يرقيه مما به، ويذهب عنه ما يعاني من سكرات الموت.
أو قيل من الملائكة: من راق، يصعد ويرقى بروحه؟ هل ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب..؟
وظن أيقن هذا الذي يموت أنه أي: الذي يعاينه..
هو الفراق للدنيا، التي يحبها، والتي انشغل بها.
وفي هذه الساعة:
التفت الساق منه بالساق ولفت في الأكفان، ونزل به البلاء، واشتدت الأهوال.
نعم.. إلى ربك يومئذ المساق المرجع والمصير، وحكم ربها الذي تسحقه.

* * *

أيها الأحباب في الله..
يقول ربنا عن الإنسان الكافر الذي يستبعد ألن نجمع عظامه، وينكر البعث، ولا يستعد للقاء الله:

{ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى }
[الآيات : ٣١-٣٣]

أي: فلا صدق هذا الإنسان بالله والرسول واليوم الآخر ولا صلى لله في حياته.
ولكن كذب ولم يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر وتولى عن الهداية، والطريق المستقيم.
ثم ذهب إلى أهله يتمطى في خيلاء، غير مبال بشيء، كأنه لم يخلق لعبادة، وقيام بمهمة وأمانة.
وهذا يقال له يوم القيامة:

{ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى}
[الآيتان : ٣٤، ٣٥]

أي أولى لك أن كنت تلقانا في هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح فأولى
ثم أولى لك ما تلقاه من العذاب والنكال بسبب تكذيبك وعصيانك فأولى

* * *

ويكون سؤال التوبيخ لكل كافر..

{ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }
[الآية : ٣٦]

يعني: أيظن هذا الكافر أنه خلق عبثا، وسوف يترك سدى في الدنيا بلا تكليف، وبعد الموت بلا بعث وحساب.

* * *

كلا فهو مخلوق لغاية، وهو مكلف، وسوف يبعث ويسأل؛ لأن له إلهاً قادراً حكيما..

{ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى}
[الآيات : ٣٧-٤٠]

على العاقل أن يتفكر ويجيب..
ألم يك هذا الإنسان نطفة من مني يمنى..؟
ثم كان بعد ذلك علقة فخلق الله من بشرا فسوى هذا المخلوق ونفخ فيه من روحه؟ [السجدة ٩]
فجعل منه بعد هذا الخلق الزوجين الذكر والأنثى..؟
خبروني أيها البشر..
أليس فاعل ذلك المذكور بقادر على أن يحيى الموتى مرة أخرى، ويعيدهم للحساب والجزاء.
الجواب..
بلى وألف بلى.
إنه عز وجل قادر.
إذن آمنوا أيها الناس، واستعدوا للقائه بالعمل الصالح، الذي يرضي الله، ويصلح البلاد، ويسعد العباد.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ بقوله تعالى:

{ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ }
[الآيات : ١-٧]

هذا قسم من الله تعالى على وقوع البعث والعذاب للكافرين.
حيث أقسم المولى سبحانه بالرياح قائلاً:
والمرسلات عرفا وهي المتتابعة، العاصفة الشديدة الهبوب فالعاصفات عصفا
ثم أقسم تبارك وتعالى بالملائكة قائلاً:
والناشرات للشرع بين أهل الأرض نشرا
فالفارقات بين الحق والباطل بما تأتي به فرقا
فالملقيات إلى الرسل وحيا فيه للخلق ذكرا
كل ذلك عذرا للخلق وقطعا لعللهم في عدم الطاعة أو نذرا فيه تخويف لهم من العقبات.
وجواب كل هذا القسم العظيم.. إنما توعدون به من البعث والحساب والجزاء لواقع لا محالة.
فآمنوا، وأطيعوا، واستعدوا لهذا اليوم إن كنتم عقلاء.

* * *

إن هذا اليوم: رهيب.

{ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ }
[الآيات : ٨-١٠]

أي: فإذا النجوم في هذا اليوم طمست وذهب ضوؤها، وإذا السماء فرجت وتشققت، وكانت أبواباً وإذا الجبال نسفت وصارت هباءً منثورا..!!
إذا حدث هذا: لرأيت هولاً فظيعا.

* * *

{ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ }
[الآيات : ١١-١٣]

يعني: وإذا الرسل أقتت عرفت الوقت الذي تشهد فيه على أممها.
وهنا يقال لأي يوم هذا الذي أجلت وتأخرت شهادتها على أممها؟
الجواب:
ليوم الفصل بين الخلائق.

* * *

أيها الأحبة في الله..
بعد بيان مصير المكذبين وتهديدهم به: يشرف ربنا المؤمنين ببيان مالهم في هذا اليوم..
حيث يقول:

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ }
[الآيات : ٤١-٤٥]

نعم..إن المتقين الذين آمنوا بربهم، وأطاعوا نبيهم في جنات وعيون* وفواكه مما يشتهون في هذا اليوم.
ويقال لهم تكريما كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون
حيث إنا كذلك نجزي المحسنين وهذا جزاؤكم.
حقاً.. ويل يومئذ للمكذبين المحرومين من هذا الجزاء الطيب.

* * *

إنهم لم يحرموا من هذا الجزاء الحسن في الآخرة فقط.
بل يقال لهم في الدنيا:

{ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ }
[الآيتان : ٤٦، ٤٧]

أي كلوا وتمتعوا وأنتم في الدنيا متاعاً قليلا وزمنا قليلا، فمتاعها فان، وزمانها قصير.
والحرمان ينتظركم، والعذاب مصيركم في الحياة الدائمة، في يوم القيامة.
وذلك حيث إنكم مجرمون كافرون؛ عاصون.
حقاً ويل يومئذ للمكذبين الذين لا يتعظون.

* * *

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ }
[الآيتان : ٤٨، ٤٩]

و كانوا في الدنيا كذلك إذا قيل لهم اركعوا مع الراكعين لا يركعون واسجدوا مع الساجدين لا يسجدون، وآمنوا مع المؤمنين لا يؤمنون؛ عناداً، واستكباراً..!!
حقاً.. ويل يومئذ للمكذبين الذين لم يستجيبوا لأوامر رب العالمين.

* * *

خبروني بعد حديث القرآن، وتوضيحه هذا...

{ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }
[الآية : ٥٠]

حقاً.. آمنا بالله وبما أنزل.
وليس بعد بيان القرآن بيان..!!
وليس بعد هدى القرآن هداية..!!
نسأل الله أن ينفعنا به أجمعين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبدأ بقول ربنا عز وجل:

{ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ }
[الآيات : ١-٥]

عن ماذا يتساءل هؤلاء المكذبون المستهزؤن..؟
هل يتساءلون عن النبأ العظيم وهو القرآن..؟
الذي هم فيه مختلفون
فبعضهم يقول: إنه سحر.
وبعضهم يقول: إنه شعر.
و ... و .... إلى آخر ما يقولون.
كلا لقد أخطأوا في تساؤلاتهم، وتكذيبهم، واستهزائهم وعنادهم.
على كل حال: إنهم سيعلمون عاقبة تكذيبهم هذا.
ثم كلا سيعلمون ما يحل بهم من عقاب، وينزل بهم من عذاب.

* * *

إنهم اختلفوا حول القرآن، وأنكروا ما فيه من البعث.
وفاتهم: أن الذي أنزله قادر على تحقيق ما جاء فيه، وما أخبر به، من بعثهم وحسابهم وعقابهم.
وإلا فليجيونا ...

{ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً }
[الآيات : ٦-١٦]

يا سبحان الله .. !!
من الذي صنع كل ذلك .. ؟
إنه الله عز وجل.
الذي يختلفون حول كتابه، وينكرون ما فيه، ويعاندون الرسول الذي بلغهم به.
وما ذلك: إلا لأنهم ينكرون وحدانية الله، وينكرون قدرة الله .. الذي:

١- جعل الأرض مهاداً لهم، يعيشون عليها في أمان.
٢- وجعل الجبال بقدرته أوتاداً لهذه الأرض حتى لا تميل وتهتز بمن عليها.
٣- وخلق كل شيء زوجين؛ لتستمر الحياة.

٤- وجعل النوم سباتاً، أي: راحة لكم.
٥- وجعل الليل لباساً يستركم، وتسكنون فيه وتستريحون.
٦- وجعل النهار مضيئاً، لتكتسبوا فيه معاشكم، وتؤدون فيه أعمالكم.
٧- وبنى فوقكم سبع سماوات قوية محكمة.
٨- وجعل الشمس سراجاً مضيئاً لكم، وهاجاً بالدفء والحرارة التي تحتاجون إليها.
٩- وأنزل سبحانه من المعصرات وهي السحاب ماءً ثجاجاً ينزل بشدة وكثرة.

وذلك: ليخرج الله لكم به الحب والنبات والفواكه، وكل أنواع الثمار والزروع.
حقاً .. إنه سبحانه قادر.
فهل يؤمنون...؟
أو يظلون: مختلفين مكذبين..!!

* * *

على أية حال..!!
إن ظلوا: مختلفين مكذبين..!!
فإن المولى يهددهم قائلاً: كلا سيعلمون عاقبة تكذيبهم ثم كلا سيعلمون
ولكن ..
متى يكون ذلك .. ؟
إنه يكون في يوم الفصل.
نعم ..

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً }
[الآيات : ١٧-٢٠]

يوم الفصل: هو يوم القيامة.
وهو اليوم الذي يفصل فيه بين المكذبين والمصدقين.
وهو يوم له وقت محدد، لا يعلمه إلا الله.
وفي هذا اليوم:
ينفخ في الصور نفخة بعث الخلائق من قبورها لحضور العرض على الملك العلام، والحساب على ما سبق منها وكان.
فإذا نفخ في الصور فتأتون أيها الناس أفواجاً جماعات جماعات، كل أمة مع رسولها الذي بعث إليها...
وفتحت ساعتها السماء لنزول الملائكة فكانت أبواباً كثيرة.
وكذلك سيرت الجبال وتحركت من أماكنها وزالت من الوجود، بقدرة الله فكانت سراباً لا أثر لها.
إنه يوم رهيب .. !!
ينقسم الناس فيه إلى فريقين.
الطغاة، والمتقون.

* * *

ويكون مصير الطغاة كما يلي:

{ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً }
[الآيات : ٢١–٣٠]

نعم...
إن الطغاة: يدخلون جهنم التي كانت لهم مرصاداً معدة لهم، وفي انتظارهم.
ولا غرابة: فهي لهؤلاء الطاغين مآبا مرجعاً ومستقراً ومقاماً.
يدخلونها، ويظلون لابثين أي: ماكثين ومقيمين فيها أحقاباً بعد أحقاب، وأزمنة بعد أزمنة، لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها.
كما أنهم خلال هذا الخلود: لا يذوقون فيها برداً ينفس عنهم حر جهنم ولا شرابا يذهب عطشهم.
إلا أي: لكن يذوقون فيها حميماً ماء حاراً تنقطع منه أمعاؤهم وغساقاً صديد أهل النار.
كل هذا يكون لهم: جزاءً وفاقاً لأعمالهم وتكذيبهم، لا ظلم فيه لهم.
والسبب في ذلك: أمران.

الأول إنهم كانوا لا يرجون لا يخافون حساباً لعدم إيمانهم بالبعث.
الثاني: وكذبوا بآياتنا أي القرآن كذاباً مستمراً، فيه إصرار وعناد.
وفاتهم: إن كل شيء مما قدموه، واستحقوا عليه هذا العذاب أحصيناه كتاباً وسجلناه عليهم فيه.
لذا .. يقال لهم:
فذوقوا هذا العذاب.
فلن نزيدكم مهما طلبتم وصرختم إلا عذاباً فوق هذا العذاب.

* * *

وإذا كان هذا مصير الطغاة.. أعاذنا الله وإياكم منه..!!
فما مصير المتقين الطائعين المصدقين..؟
فلتقرأ كلام رب العالمين.
حيث يقول:

{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً }
[الآيات : ٣١–٣٥]

نعم..
إن للمتقين مفازا فوزاً في الجنة، ونجاة من كل مكروب، وظفراً فيها بكل محبوب.
ولهم فيها كذلك: حدائق بساتين مثمرة وأعناباً من كل ما يشتهون.
ولهم فيها أيضاً: جواري كواعب صغيرات السن أتراباً متماثلات العمر.
كذلك لهم في هذه الجنة: كأساً دهاقاً أي: مملوءة بكل ما يحبون شرابه.
وهم مع كل ذلك لا يسمعون فيها أي في الجنات لغواً من القول ولا كذاباً في الحديث.

* * *

كل ذلك:

{ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً }
[الآية : ٣٦]

أي: فضلاً من ربك لهم، لا نهاية له، ولا انقضاء.

* * *

نعم ...
من ربك ..

{ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً }
[الآية : ٣٧]

أي: هو عطاء لهم من القادر العظيم، رب السموات والأرض وما بينهما إنه الرحمن سبحانه.
الذي لا يملكون منه خطاباً إلا بإذنه سبحانه.

* * *

ولكن..!!
متى يكون هذا..؟؟

ا لجواب.
يكون ذلك:

{ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً }
[الآية : ٣٨]

يكون ذلك.. في يوم القيامة..!!
يوم يقوم الروح وهو جبريل عليه السلام والملائكة جميعاً صفاً واحداً، أمام الواحد الأحد سبحانه.
وهم صامتون لا يتكلمون في الشفاعة لأحد إلا من أذن له الرحمن منهم بالكلام، فتكلم وقال صوابا.

* * *

{ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً }
[الآية : ٣٩]

أي: اليوم الواقع لا محالة.
لذلك:
فمن شاء النجاة من أهوال هذا اليوم: اتخذ إلى مرضاة ربه مآبا مرجعاً بالعمل الصالح من الآن، وقبل فوات الآوان.

* * *

يا أيها الناس ..

{ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً }
[الآية : ٤٠]

إنا أنذرناكم أي: خوفناكم عذاباً ينزل بكم قريباً في يوم القيامة.
يوم ينظر المرء ساعتها إلى ما قدمت يداه من خير وشر؛ فيتحسر ويقول يا ليتني كنت ترابا حتى لا أقف هذا الموقف، وأعذب هذا العذاب.

* * *

اللهم نجنا من عذابك، وأعنا على طاعتك يا رب العالمين .. !!

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبدأ بقول الله عز وجل:

{ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا }
[الآيات : ١-٥]

هذا: قسم من الله عز وجل بالملائكة ..
ومعناه: أقسم بالملائكة النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد غرقا أي: نزعاً تاماً، بكل شدة.
والناشطات أي: الملائكة، التي تنزع الأرواح من الأجساد نشاطاً أي: بسهولة ويسر.
والسابحات في الفراغ لتنفيذ أمر الله سبحا
فالسابقات في الإيمان والتصديق بوحدانية الله سبقا.
المدبرات أمرا النازلات من السماء بأمر ربها لتدبير شئون الخلائق.
أيها الكرام ..
كل هذا القسم .. : محذوف لشدة العلم به، وهو: "لتبعثن أيها الناس".

* * *

ولكن ..
متى يكون ذلك .. ؟
إنه يكون :

{ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ }
[الآيتان : ٦، ٧]

أي: في يوم القيامة.
وذلك يوم ترجف الراجفة تتحرك الأرض حركة شديدة، تتزلزل زلزالاً هائلاً، عند النفخة الأولى، التي يموت معها كل من على وجه الأرض.
ثم ..
ثم تتبعها الرادفة وهي النفخة الثانية، التي يحيا معها .. كل من كان حياً قبل ذلك؛ للبعث والحساب.

* * *

ولكن ..
ما حال الكفار الذين أنكروا البعث، يومئذ .. ؟
الجواب.

{ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ }
[الآيتان : ٨، ٩]

يعني: قلوب هؤلاء الكفار يومئذ واجفة خائفة قلقة، من هول ما ترى.
أبصارها أي: أبصار أصحاب هذه القلوب خاشعة ذليلة.

* * *

ولكن ..
ما السبب في خوفهم هذا، وذلتهم التي نزلت عليهم .. ؟
السبب: أنهم في الدنيا كانوا ..

{ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ }
[الآيات : ١٠-١٢]

يعني: يقولون أنرد بعد الموت إلى الحافرة وهي: الحياة مرة أخرى.
هذا بعيد..
أئذا متنا وكنا عظاماً نخرة بالية : نحيا من جديد .. ؟
ثم قالوا مستهزئين..!! لو حدث هذا: ستكون تلك العودة إذا كرة عودة خاسرة.

* * *

ويرد الله عليهم وعلى كل المكذبين هذا الاستهزاء..
فيقول سبحانه:
ليس الأمر صعباً علينا ..

{ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ }
[الآيتان : ١٣، ١٤]

أي: هي زجرة صيحة واحدة بأمرنا فإذا هم أحياء مرة أخرى بالساهرة على وجه الأرض، في حالة فزع وخوف من شدة الأهوال.
فهل بعد هذا: لديكم استعداد أن تؤمنوا أيها المكذبون .. ؟
وهل بعد هذا: لديكم استعداد أن تتوبوا أيها العصاة .. ؟

ثم يواسي ربنا عز وجل حبيبه على عناد الكافرين له ..
قائلاً:

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى }

[الآيتان : ١٥، ١٦]

وذهب موسى عليه السلام للقاء ربه ..
وأوحى الله إليه قائلاً:

{ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى }
[الآيات : ١٧-١٩]

وذهب موسى إلى فرعون، ومعه من ربه الآيات الدالة على صدق في أنه رسول من رب العالمين.

{ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى }
[الآية : ٢٠]

وهي: العصا، التي ابتلعت كل حيل سحرة فرعون.

* * *

أتدرون .. ماذا فعل فرعون .. ؟
يقول ربنا سبحانه:

{ فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى }
[الآيات : ٢١-٢٤]

يعني: فكذب فرعون موسى وعصى الله تعالى.
ثم أدبر أي: ترك فرعوُن موسى، وصار يسعى في البحث عمن يبطل آية موسى هذه.
ولذلك:
جمع السحرة
فحشر الناس في مكان كبير
فقال لهم متحديا موسى ورب موسى سبحانه أنا ربكم الأعلى وليس لكم رب غيري، كما يزعم موسى.
فلا تتأثروا به، ولا تفتنوا بدعوته.
حقاً .. إن هذا: قمة الكفر والطغيان.

* * *

تسألون .. ماذا حدث لهذا الطاغية .. ؟
يقول القوي العزيز:

{ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى }
[الآية : ٢٥]

نعم .. فأخذه الله وأهلكه بالغرق.
وكان هذا الغرق
نكال أي عقاب الكلمة الآخرة هذه، وهي أنا ربكم الأعلى والكلمة الأولى أيضاً، وهي ما علمت لكم من إله غيري [القصص٣٨]

* * *

حقاً:

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى }
[الآية : ٢٦]

فهل تعتبرون ... أيها المكذبون .. ؟
وهل تعتبرون ... أيها العاصون .. ؟

* * *

يا أيها المكذبون بوحدانية الله .. !!
يا أيها المعاندون لرسل الله .. !!
يا أيها البعيدون .. عن طاعة الله .. !!
خبروني ..

{ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ }
[الآيات : ٢٧-٣٣]

يعني: هل بعثكم أصعب على الله تعالى، الذي فعل بقدرته عز وجل هذه الأشياء .. ؟

* * *

على أية حال ..
ستبعثون ..

{ فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى }
[الآيات : ٣٤-٣٦]

يعني: فإذا بعثتم في يوم القيامة، وجاءت الأحداث والأهوال الطامة الكبرى
يوم ذاك: يحدث أمران..
يتذكر الإنسان ما سعى إليه وعمله في الدنيا من خير وشر.
الأمر الثاني وبرزت الجحيم لمن يرى

* * *

وحينذاك: تختلف مقامات الناس ...

{ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى }
[الآيات : ٣٧-٤١]

اللهم: نجنا من الطغيان، ولا تجعلنا من الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة .. يا رب العالمين.
اللهم: اجعلنا من الذين يخافون مقامك، وينهون النفس عن الهوى .. يا رب العالمين.
اللهم: لا تجعل الجحيم مأوانا، وأجعل الجنة هي دارنا ومصيرنا .. يا رب العالمين.

* * *

ثم يقول ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسلم:

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا }
[الآية : ٤٢]

أي: يسألك هؤلاء الكفار عن يوم القيامة، قائلين، متى يكون .. ؟

* * *

ثم يجيب ربنا عز وجل .. قائلاً لحبيبه أيضاً:

{ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا }
[الآيات : ٤٣-٤٥]

يعني: ليس لك علم بوقتها، بل علمها عند الله.
وأنت لم تبعث لِتُعْلِم بوقتها، بل لتُذِّر وتخوف من أهوالها من يريد النجاة من شدائدها.

* * *

على أية حال..
حينما تقوم الساعة: يصير هؤلاء المكذبون..

{ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا }
[الآية : ٤٦]

أي: يندمون عما كان منهم في الدنيا، القصيرة، السريعة النهاية.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ: بقول الله تبارك وتعالى:

{ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أن جَاءَهُ الأعْمَى }
[الآيتان : ١، ٢]

عبس النبي صلى الله عليه وسلم، وقطب جبينه غضباً وتولى معرضاً، وقت أن جاءه الأعمى وهو: عبد الله بن أم مكتوم.
حيث كان معه صلى الله عليه وسلم بعض كبار القوم، يعرض عليه الإسلام.

* * *

وقد عاتبه ربه سبحانه على هذا التصرف .. بقوله:

{ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ ألاَّ يَزَّكَّى * وَأمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأنتَ عَنْهُ تَلَهَّى }
[الآيات : ٣-١٠]

أي: لم فعلت هذا .. ؟
وما يدريك لعله يزكى ويتطهر بما سمعه منك أو يذكر ويتعظ فتنفعه هذه الذكرى.
وأما من استغنى بماله عن الإيمان والهداية فأنت له تصدى وتهتم به.
وهذا: ما كان ينبغي ..!! خاصة أنه وما عليك ألا يزكى حيث إن الذي عليك البلاغ فقط.
وأما من جاءك يسعى في طلب الخير والهداية وهو يخشى الله عز وجل ويرجو رحمته: فأنت عنه تلهى وتتشاغل.
ولذلك: كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما جاءه عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يرحب به، ويقول له" مرحبا بمن عاتبني فيه ربي".

* * *

ثم يكون النهي الإلهي للحبيب صلى الله عليه وسلم عن فعل مثل ذلك مرة أخرى.
مع بيان المولى لفضل القرآن الكريم.
إذ يقول:

{ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ }

[الآيات : ١١-١٦]

كلاً يعني: لا تعد لمثل ذلك يا محمد.
وعلى كل حال ..
إنها أي: آيات العتاب هذه جاءت في القرآن: تذكرة يستفيد منها الناس في تحقيق المساواة بينهم.
لذلك:
فمن شاء الهداية، والانتفاع بالقرآن ذكره وتعلمه، واتعظ به، وعمل بأحكامه.
خاصة أنه: أي القرآن

أولاً: في صحف مكرمة عند الله.
ثانياً: هذه الصحف مرفوعة في السماء.
ثالثاً: أنها مطهرة عن كل دنس، أو زيادة فيها، أونقض منها.
رابعاً: أنها منسوخة من اللوح المحفوظ بأيدي ملائكة سفرة بين الله وبين خلقه، وهم كرام على ربهم؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون [التحريم٦]

* * *

حقاً .. هذا كتاب ينبغي أن يكون هادياً للخلق في أقوالهم، وأفعالهم.
فمن اهتدى به: هداه الله.
ومن ضل عنه، أو عاند: فإن الله يهدده بقوله:

{ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ * كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ }
[الآيات : ١٧-٢٣]

قتل لعن الإنسان الكافر.
ما الذي أكفره وحمله على هذا العناد، وعدم الإيمان .. ؟
هل يدري هذا المعاند من أي شيء خلقه ربه .. ؟
إنه سبحانه من نطفة ضعيفة خلقه فقدره أي: قدر أجله، ورزقه، وعمله، وشقى هو أو سعيد.
ثم بعد حياة طويلة، أو قصيرة أماته بقدرته فأقبره أي: أمر بدفنه؛ تكريماً له.
ثم إذا شاء أنشره أي: بعثه بعد موته، وذلك للحساب، والجزاء.
فهل اتعظ الإنسان بفعل الله هذا، وآمن به، وعمل بهديه .. ؟
كلا إنه بالكاد لما يقض ما أمره به ربه من التكاليف، التي كان عليه أن يؤديها.

* * *

ومع ذلك: فإن الله ينعم على الإنسان بما يستحق منه سبحانه الشكر عليه، والاعتراف بقدرته سبحانه.
حيث يقول:

{ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ }
[الآيات : ٢٤-٣٢]

نعم .. فلينظر الإنسان نظر اعتبار إلى طعامه الذي يأكله؛ ليعرف إنعامنا عليه ذلك ..
أنا صببنا الماء من السحاب؛ لمصلحته صبا
ثم شققنا الأرض بالنبات شقا
فأنبتنا فيها بهذا الماء حباً كالقمح وغيره وعنباً وكذلك قضبا وهو علف الدواب وزيتوناً ونخلاً وحدائق بساتين، أشجارها غلبا أي: غليظة كثيرة وفاكهة من كل نوع، وطعم وأبا وهو ما تأكله الدواب.
كل ذلك
متاعا لكم ولأنعامكم إنعام من الله عليكم.
فهل اتعظ الإنسان بنعم الله هذه، وشكره سبحانه عليها، وآمن به، وعمل بهديه ..؟

* * *

وبعد ..
أيها الكرام.
يبين الله تعالى: حال من أتعظ وآمن، وحال من لم يتعظ وعاند، وذلك في يوم القيامة.
حيث يقول:

{ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ]
[الآيات : ٣٣-٤٢]

يعني فإذا جاءت النفخة الصاخة التي تصم الآذان.
وذلك: في يوم القيامة يوم يفر المرء هارباً من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته أي: زوجته وبنيه
لماذا يفر المرء هكذا .. ؟
لأنه لكل امرئ منهم يومئذ شأن في نفسه يغنيه يشغله عن غيره.
يومها: تكون الخلائق فريقين.
وجوه منهم يومئذ مسفرة مضيئة ضاحكة فرحة مستبشرة بالنعيم والرضى أولئك هم: المؤمنون.
ووجوه منهم يومئذ عليها غبرة من سوء ما قدمت ترهقها تعلوها قترة سواد يجعل منظرها سيئاً.
أولئك هم الكفرة في قلوبهم الفجرة في أعمالهم.

* * *

اللهم ..
اجعل وجوهنا يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة
ولا تجعل وجوهنا يومئذ عليها غبرة ولا ترهقها قترة بفضلك يا رب العالمين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبدأ بقوله سبحانه:

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾
[الآيات : ١-٣]

دعاء بالخسران، وتهديد بالهلاك للمطففين الذين يبخسون حقوق الناس.
ولزيادة التعريف بهم .. يقول ربنا:
هم الذين إذا اكتالوا على الناس أي: من الناس يستوفون حقوقهم بأخذها كاملة وافية.
وهذا لا عيب فيه .. !!
و لكن العيب.
أنهم إذا كالوهم أي: كالوا لهم أو وزنوهم أي: وزنوا لهم يخسرون أي ينقصون.
وإذا كان هذا العمل، في الكيل والميزان: مذموم..!! فهو في باقي الأمور العادية والمعنوية .. أشد ذماً.

* * *

والله .. إنه لعجيب أمر هؤلاء .. !!

﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
[الآيات : ٤-٦]

يعني: ألا يظن يعتقد ويعرف أولئك المطففون أنهم مبعوثون من قبورهم ليوم عظيم وهو يوم الحساب.
يوم يقوم الناس جميعاً لرب العالمين.
وعليه:
فلا ينبغي منهم هذا التطفيف، بل عليهم العمل بالسوية والعدل في كل أخذ وعطاء، بل في كل قول وعمل.

* * *

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾
[الآيات : ٧-١٣]

كلاً لا ينبغي لهم ولا منهم هذا التطفيف.

حيث إن من يعتاد عدم العدل في الحقوق أخذاً وعطاءً: هو من الفجار.
والله عز وجل يقول:
إن كتاب الفجار أي: صحائف أعمالهم لفي سجين الذي يدون الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس.
وما أدراك ما فظاعة سجين هذا الذي هو في الأرض السابعة، محل إبليس وجنوده ..؟
وكتاب الفجار كتاب مرقوم مختوم لا يزاد فيه، ولا ينقص منه.
ثم يهدد الله هؤلاء الفجار قائلاً ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وهو يوم القيامة، فيفعلون ما يفعلون مما لا يرضى رب العالمين.
و على أية حال ما يكذب به أي بيوم الدين إلا كل من اتصف بهذه الصفات:

أولاً: معتد مجاوز لقدره، وحدود الله التي شرعها.

ثانياً: أثيم في أقواله وأفعاله
إن حدث كذب، وإن وعد أخلف، وإن خاصم فجر، وإن عاهد غدر.

ثالثاً: إذا تتلى عليه آياتنا من القرآن: قال عنها مكذباً لها إنها أساطير الأولين التي لا أصل لها، وهي مكذوبة.

وعليه: فلا ينبغي منهم هذا التكذيب.
بل عليهم، أن يسارعوا في الإيمان والطاعة.

* * *

ثم يقول سبحانه:

{ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ }
[الآية : ١٤]

كلا ليس الأمر كما يقولون، فيكذبون به.
بل الحقيقة: أنه ران غلب على قلوبهم حتى غطاها، وأعماها عن الحق ما كانوا يكسبون من المعاصي.

* * *

{ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ }
[الآيات :١٥-١٧]

كلا أي: حقاً إنهم عن عن رحمة ربهم يومئذ لمحجوبون ممنوعون ثم إنهم نتيجة هذا الحرمان لصالوا لداخلوا الجحيم للحريق والعذاب.
ثم يقال لهم تبكيتاً وتحسيراً هذا اليوم، وهذا العذاب هو الذي كنتم به تكذبون فذوقوه، واخلدوا فيه.

* * *

أيها الكرام ..
بعد هذا البيان الإلهي لكتاب الفجار، وحالهم، ومصيرهم ..
الذي يخوف الله بذكره عباده.
يبين ربنا عز وجل: الفريق المقابل لهم، وحالهم، ومصيرهم...
ترغيباً لعباده في العمل الصالح، الذي يرضى الله، ويسعد العباد، ويصلح البلاد.
فيقول سبحانه:

{ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ }
[الآيات : ١٨-٢١]

كلا لا ينبغي الفجور والعصيان، والمخالفة لأوامر الله.
بل الواجب: هو الطاعة الكاملة؛ ليكون العبد من الأبرار.
حيث إن كتاب الأبرار أي: صحائف أعمالهم لفي عليين الذي يدون الله فيه أعمال الصالحين المطيعين من الجن والإنس.
وما أدراك ما عظمة عليين هذا، الذي هو في السماء السابعة تحت عرش الرحمن..!!؟
وكتاب الأبرار هذا .. كتاب مرقوم مختوم، لا يزاد فيه، ولا ينقص منه.
أيضاً يشهده المقربون من الملائكة.

* * *

حقاً:

{ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ }
[الآيات : ٢٢-٢٨]

إن الأبرار لفي نعيم مقيم على الأرائك متكئين ينظرون إلى ما أعطوا من النعيم.
إذا نظرت إليهم: تعرف ترى في وجوههم نضرة النعيم بهجته، وأثره عليهم.
وهم في هذا النعيم: يسقون شراباً خالصاً لا غش فيه من رحيق مختوم لا يَفُكُّ ختمه الذي يغلق به، إلاهم.
ختامه إذا فتح: رائحته مسك.
وفي ذلك النعيم، والرحيق، والمسك فليتنافس المتنافسون بالمسارعة إلى عمل الصالحات، والابتعاد عن السيئات.
و هذا الرحيق، الذي يشربونه مزاجه الذي يخلط به:
من تسنيم وهو: أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه حال كونه عيناً يشرب بها ومنها المقربون.

* * *

هذا: هو جزاء الأبرار المتقين، الذين آمنوا.
وللعلم: كان الكفار يضحكون من هؤلاء في الدنيا، وعليهم يتغامزون.
ولذلك: يقول سبحانه:

{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ }
[الآيات : ٢٩-٣٢]

إن الذين أجرموا كفروا كانوا في الدنيا من الذين آمنوا يضحكون ويستهزؤن بهم وعليهم.
و كان الكافرون إذا مروا بهم أي المؤمنين يتغامزون عليهم؛ استهزاءً بهم.
وإذا انقلبوا أي: رجعوا إلى أهلهم بعد هذا الاستهزاء انقلبوا فكهين معجبين بما فعلوه.
و كانوا أيضاً إذا رأوهم في أي وقت، أو أي مكان قالوا عليهم إن هؤلاء الضالون لإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

* * *

ويرد الله عز وجل عليهم في موقفهم هذا ..
بقوله تعالى:

{ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }
[الآيات : ٣٣-٣٦]

يعني: لم شغل الكفار بالمؤمنين على هذا الشكل .. ؟!
و هم ما أرسلوا علهيم حافظين لأحوالهم، مراقبين لأعمالهم، في الوقت الذي تركوا فيهم هم ما كلفوا به من الإيمان والطاعة.
على أية حال:
فاليوم أي: يوم القيامة تنعكس الآية، ويصير الذين آمنوا من الكفار يضحكون مجازاة لهم.
ويكون المؤمنون في النعيم على الأرائك ينظرون من منازلهم إلى الكفار وهم يعذبون.
حقاً ..
هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون بالمؤمنين في الدنيا .. ؟
نعم ..
لقد جوزوا أوفر الجزاء وأكمله .. !!
فبئس مثوى الكافرين .. !!
ونعم دار المؤمنين .. !!
والحمد لله رب العالمين .. !!

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبدأ بقوله تعالى.

{ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ }
[الآيات : ١-٣]

هذا: قسم من الله تعالى يقسم فيه سبحانه:
بالسماء، وما فيها، ومن فيها.
وبالطارق .. الذي يعظم أمره، قائلاً وما أدراك ما الطارق..؟ لتتطلع النفس لمعرفة هذا الذي عظمه الله ..!!
ثم يفسره ويبينه قائلاً .. هو النجم الثاقب الذي يثقب الظلام بضوئه.
أيها الكرام ..
هذا هو القسم ..
وجوابه.

{ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ }
[الآية : ٤]

أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظها، بتكليف الله له، من الآفات، كما يحفظ بالكتابة عملها ورزقها وأجلها،
فإذا استوفى ذلك: مات الإنسان.

* * *

{ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ }
[الآيات : ٥-١٠]

نعم ..
فلينظر الإنسان في نفسه؛ ليعرف مم خلق .. !!
فإذا فعل ذلك، وتفكر فيه: سيعرف أنه خلق بقدرة الله تعالى من ماء دافق
وهذا الماء: يخرج أيضاً بقدرة الله ولطفه من بين الصلب للرجل، وهو عظام الظهر والترائب للمرأة، وهي عظام الصدر.
إنه سبحانه، وقد خلق الإنسان بهذا الشكل على رجعه حياً يوم البعث القادر
وذلك: يوم تبلى تنكشف السرائر الخفية، التي لا يعملها إلا الله.
وساعتها: فما له من قوة في نفسه تنقذه مما هو فيه ولا ناصر يدفع عنه ما يلاقيه ويعاينه.

* * *

ثم يقسم ربنا قسماً آخر قائلاً:

{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ }
[الآيتان : ١١، ١٢]

أي: أقسم بالسماء ذات الرجع للمطر وإعادته إلى الأرض.
وأقسم كذلك بالأرض ذات الصدع أي: الشق؛ حيث تتشقق بالنبات وبالبراكين، وبغير ذلك.
أيها الكرام.
هذا هو القسم ..
وجوابه:

{ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ }
[الآيتان : ١٣، ١٤]

إنه أي: القرآن لقول فصل بين الحق والباطل وما هو كما يقول المكذبون بالهزل بل هو جد كله .. !!
لذا: يجب أن يكون مهيباً في الصدور، مهيمنا على الحياة.

* * *

ختاماً ..

يا محمد، ويا كل داعية إلى الله .. !!

{ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً }
[الآيات : ١٥-١٧]

إنهم أي: الطغاة المكذبون المعاندون يكيدون لهذا الدين وأهله كيداً من الصد عنه، والإيذاء لأهله. و لكن أكيد لهم كيدا حيث أجازيهم على كيدهم ومكرهم بما هو أنكى لهم، وأشد تنكيلاً.
على أية حال .. !!
لا تدع بهلاكهم، ولا تستعجل لهم ..
أي: أصبر، وسترى ما سيحل بهم، مادمت قد بذلت كل ما في وسعك في تنفيذ أمر الله لك ..!!

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بـــ سبح اسم ربك الأعلى وهذه السورة .. في صلاة العيد، ويوم الجمعة.
وهي: تبدأ بهذا السؤال من الله عز وجل:

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ }
[الآية : ١]

والمعنى: قد أتاك حديث الغاشية وهي يوم القيامة، التي تغشي الناس جميعاً وتعمهم بأهوالها.
فماذا أعددت لها .. ؟

* * *

على أيه حال:
هذه أحوال الكافرين فيها ..

{ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ }
[الآيات : ٢-٧]

نعم ..
لهم وجوه يومئذ إذا غشيت الناس الغاشية: خاشعة ذليلة من الخزي والهوان.
عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبه في الآخرة، ومتعبة من العذاب والهلاك.
حيث تصلى تدخل ناراً حارة شديدة الحرارة حامية
فإذا ما عطشت: تسقى من عين ماء آنية انتهى حرها واشتد غليانها.
هؤلاء ليس لهم طعام في هذه النار إلا طعام من ضريع وهو الزّقّوم، الذي هو سم قاتل.
وهذا الطعام: عديم الفائدة؛ حيث إنه لا يسمن ولا يغني من جوع

* * *

وأما المؤمنون ..
فهذه بعض أحوالهم.

{ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ }
[الآيات : ٨–١٦]

نعم..
لهم وجوه يومئذ إذا غشيت الناس الغاشية ناعمة أي: منعمة لـــ ثواب سعيها في الدنيا بالطاعة راضية سعيدة في الآخرة.
وهي ــ أي أصحاب هذه الوجوه ــ مقيمة في جنة هذه الجنة: موصوفة بهذه الصفات.
أولاً: عالية حسًّا ومعناً.
ثانياً لا تسمع هذه الوجوه فيها لاغية أي كلمة لغو.
ثالثاً: فيها أي هذه الجنة عين أي: عيون بالماء جارية.
رابعاً فيها أي هذه الجنة سرر أي: أسرة مرفوعة الذات والقدر والمحل.
خامساً: و فيها أكواب موضوعة على حواف هذه العيون الجارية، معدة لشربهم.
سادساً و فيها نمارق أي: وسائد مصفوفة بشكل يسعدهم الجلوس والإتكاء عليها.
سابعاً: و فيها زرابي بسط: جمع بساط مبثوثة منثورة في أماكنها بشكل يسعد العين ويريح النفس.

* * *

أيها الكرام ..
هذه هي الغاشية .. !!
وتلكم أحوال الناس فيها من مؤمنين وكافرين .. !!
خبروني بربكم ..
ألا يستدعي الأمر إعادة النظر مرات ومرات في ملكوت الله؛ بما يساعد على الإيمان به سبحانه، وزيادة الاعتبار بآياته.
لذلك: يقول سبحانه ..

{ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ }
[الآيات : ١٧–٢٠]

أفلا ينظرون أي: هلا ينظر الناس
إلى الإبل ويعرفون كيف خلقت ..؟
حيث إنها: خلق عجيب، وتركيبها غريب، فهي في غاية القوة والشدة، ومع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، ويؤكل لحمها، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها.
وبهذا: يعتبرون؛ فيؤمنون، أو يزدادون إيماناً .. ؟
وإلى السماء كذلك ينظرون، ويعرفون كيف رفعت..؟
حيث إنها: رفعت رفعاً بعيد المدى، وكثرت نجومها كثرة هائلة، وتعددت كواكبها.
وبهذا: يعتبرون؛ فيؤمنون، أو يزدادون إيماناً .. ؟
وإلى الجبال أيضاً: ينظرون، ويعرفون كيف نصبت .. ؟
حيث إنها: راسخة، لا تحيد وتضطرب بأهلها.
وبهذا: يعتبرون؛ فيؤمنون، أو يزدادون إيماناً .. ؟
و رابعاً إلى الأرض: ينظرون، ويعرفون كيف سطحت .. ؟
حيث إنها: بسطت ومدت، ومهدت، للحياة عليها.
وبهذا: يعتبرون؛ فيؤمنون ، أو يزدادون إيماناً .. ؟

* * *

أخيراً ..
هل ينظرون .. ؟
وهل يعتبرون .. ؟
إذا حدث هذا، أو لم يحدث..

{ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}
[الآيات : ٢١-٢٦]

أي فذكر الناس يا محمد، ولا عليك من عدم إيمانهم إنما أنت مذكر ومبلغ فقط.
كما أنك لست عليهم بمسيطر حتى تلزمهم بالإيمان وتكرههم عليه.
إلا أي: لكن من تولى وأعرض عن الإيمان والعمل الصالح وكفر بقلبه ولسانه: فيعذبه الله العذاب الأكبر في جهنم.
حيث إن إلينا بالموت، أو يوم القيامة إيابهم رجوعهم.
ثم إن علينا بعد رجوعهم إلينا حسابهم فلا يفلتون من عقابنا وعذابنا..!!

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ بقوله تعالى:

{ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ }
[الآيات : ١ – ٤]

يقسم ربنا عز وجل بهذه الأشياء الخمسة، وله سبحانه أن يقسم بما يشاء.
حيث يقسم قائلاً:
والفجر والمراد: فجر كل يوم.
وليال عشر وهي: العشر الأول من ذي الحجة.
والشفع وهو: الزوج من كل شيء.
والوتر أي: الفرد كذلك من كل شيء.
والليل إذا يسر يجري ويدور مقبلاً ومدبرا.

* * *

ولكن ..
علام يقسم ربنا سبحانه بهذه الأشياء..؟
يدل على الجواب: ما بعد هذه الآيات..
وهو: إن ربك ليحاسب ويعاقب ويثيب.
وليس الأمر سدى كما يظن بعض الناس.

* * *

خبروني بربكم .. !!

{ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ }

[الآية : ٥]

أي: هل في ذلك القسم السابق بهذه الأشياء قسم لذي حجر أي: لذي عقل؛ ينبههم، ويدعوهم إلى طاعة الله وعبادته .. ؟

* * *

الواقع أن كثيراً من الناس .. لا ينتبهون، ولا يطيعون، بالرغم من تنبيه المولى الدائم، وتحذيره المستمر، على ألسنة رسله.

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ }
[الآيات : ٦-١٢]

ماذا فعل بهم .. ؟
اسمع .. يقول ربنا عز وجل:

{ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ }
[الآية : ١٣]

حيث أهلك سبحانه عاداً قوم هود بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما * فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية [الحاقة ٦، ٧]

كما أهلك ثمود قوم صالح بالرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين [الأعراف ٧٨]
وكذلك أهلك فرعون وقومه، حيث يقول سبحانه فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين [الزخرف ٥٥، ٥٦]

* * *

حقاً ..

{ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ }
[الآية : ١٤]

نعم .. لا يفر من عقابه ظالم،
ولا ينجو من عذابه طاغية.

* * *

وللعلم ..
لا يريد الله تبارك وتعالى من الإنسان: إلا الطاعة.
وأما الإنسان: فلا يهمه إلا العاجلة، ولا يشغله إلا زخرفها ومتاعها..
لذلك: يكشف ربنا هذه الطبيعة.
حيث يقول:

{ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}
[الآيتان : ١٥، ١٦]

نعم ..
يخطيء الإنسان .. حيث يفهم أن الاختبار بالنعم تكريم، وأن الاختبار بالمحن إهانة.
والحقيقة: أن الأمر ليس على هذا النحو..
فإن الله عز وجل يعطي الدنيا ومتاعها: من يجب ومن لا يجب.
ولذلك: فالطاعة في الحالين ــ اليسر والعسر ــ هي المطلوبة، والإنسان لا يفهم ذلك.

* * *

بل هناك ما هو أشد خطأ من ذلك.
استمع معي ..

{ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّماً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُباً جَماً }
[الآيات : ١٧– ٢٠]

نعم الله.. هذه صفات خسيسة، وأفعال ذميمة؛ تؤدي بصاحبها إلى الخسران، ليس في الدنيا فقط، بل في الآخرة أيضاً.

* * *

حيث يقول ربنا سبحانه:

{ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى }
[الآيات : ٢١-٢٣]

في يوم القيامة، ووسط هذه الأهوال الجسام: يتذكر الإنسان عمله؛ فيندم.
ولكن ماذا يفيد الندم..!!
أتدرون.. ماذا يقول..؟

{ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي }
[الآية : ٢٤]

الآن.. عرف أن الحياة الحقيقية: هي ما بعد البعث.
لذلك: يتحسر، ويتمنى لو كان قدم لهذا اليوم عملاً صالحاً غير الذي كان يعمل.

* * *

على أية حال:

{ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ }
[الآيتان : ٢٥، ٢٦]

نعم ..
ليس هناك من يعذب عذاباً أشد من عذابه .. !!
وليس هناك من يوثق ويقيد في العذاب أشد من قيده .. !!

* * *

يا رب ..
نسألك السلامة، وحسن الختام.

* * *

أيها الأحبة في الله..
ما سبق كان حديثاً عن الطغاة الظالمين، ومصيرهم، وما يحدث لهم.
ولكن .. المؤمنين المتقين ــ جعلنا الله وإياكم منهم ــ على خلاف ذلك.
يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي }
[الآيات : ٢٧–٣٠]

الله .. !!
يقول ربنا سبحانه للمؤمن عند الموت، وعند البعث، وعند الحساب يا أيتها النفس المطمئنة بطاعة ربها.
ارجعي إلى جوار ربك وثوابه ونعيمه راضية بذلك مرضية عنده.
فادخلي في جملة عبادي الصالحين، وكوني معهم.
وادخلي جنتي خالدة مخلدة فيها.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ بهذا القسم:

{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }
[الآيات : ١-٨]

يقسم ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآيات: بسبعة أشياء، وله سبحانه أن يقسم بما يشاء.
حيث يقسم ربنا قائلاً:

١- والشمس المنيرة وضحاها الدائم.
٢- والقمر إذا تلاها جاء بعدها مباشرة.
٣- والنهار إذا جلاها أي: أظهرها.
٤- والليل إذا يغشاها أي: يسترها، ويخفيها في الآفاق.
٥- والسماء وما بناها أي: وبناءها المعجز
٦- والأرض وما طحاها أي: بسطها، ومهدها للإقامة عليها.
٧- ونفس وما سواها وجعلها سوية الفطرة فألهمها أي: فأفهمها وأعلمها فجورها وتقواها وبين لها هذا وهذا، وسهل لها طريق هذا وهذا..!!

* * *

ولكن..
علام يقسم ربنا عز وجل بهذه الأشياء..؟
الجواب:

{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا }
[الآيتان : ٩، ١٠]

حقاً..
قد أفلح وفاز برضوان الله، ونجا من غضبه سبحانه: من زكاها وطهرها، وتعهدها بالتربية والرعاية، والإبعاد عن المعاصي.
وقد خاب أيضاً.. خسر وضاع منه رضوان الله: من دساها ضيعها، وأبعدها عن ركب الهداية.

* * *

أتحبون أيها الكرام: أن تعرفوا نموذجاً لمن ضيع نفسه ودساها، وجعلها تخسر كل شيء..!!؟
إقرأوا معي قوله تعالى

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا }
[الآيات : ١١-١٥]

نعم..
هذه هي "ثمود" قوم "صالح عليه السلام" التي طغت في الأرض، وبغت على الناس.
اذكر من قصتها ما يلي:
إذ انبعث أشقاها وهو واحد منهم، يوم أن قال لهم رسول الله صالح عليه السلام: هذه ناقة الله التي طلبتم أن يخرجها الله لكم من الصخر؛ آية وعلامة على صدقي في دعوى الرسالة لإنقاذكم، وهذا سقياها الذي بينته لكم؛ حيث تشربون الماء يوماً، وتشربه هي اليوم الآخر وتعطيكم لبناً بقدره.
ماذا فعلوا..؟
فكذبوه
لا حول ولا قوة إلا بالله..!!
ولكن.. هذا شأن الطغاة.
وبالتالي:
فعقروها أي: ذبحوها، وهي آية الله، ونعمته لهم..!!
ولكن الذي ذبحها واحد منهم، وليسوا كلهم..!!
نعم.. واحد منهم، ولكنهم لم يمنعوه، بل رضوا فعله؛ فحق عليهم العذاب جميعا.
فدمدم أي: هدم عليهم ربهم جميعاً بلادهم وأهلكهم، وذلك بذنبهم هذا.
فسواها على هذا النحو، الذي لم يغادر منهم صغيراً ولا كبيراً، دون هذا العذاب.
وهكذا: تم إهلاكهم من القوي الجبار
و هكذا لا يخاف سبحانه من أحد عقباها أي: تبعة، أو ملامة من أحد.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ: بقول الله عز وجل:

{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى }
[الآيات : ١–٣]

يقسم ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآيات: بثلاثة أشياء، وله سبحانه أن يقسم بما يشاء. حيث يقسم ربنا قائلاً.

١– والليل إذا يغشى الخلق كله بظلامه، وهو آية..!!
٢– والنهار إذا تجلى بضيائه ونوره على الخليقة كلها، وهو آية..!!
٣– وما خلق سبحانه الذكر والأنثى من كل شيء، وهو آية..!!

* * *

ولكن..
علام يقسم ربنا عز وجل بهذه الأشياء..؟
الجواب ..

{ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى }
[الآية : ٤]

أي: إن سعيكم لاكتساب أعمالكم لشتى مختلف فهذا في الخير، وهذا في عكسه. وهكذا..

* * *

ويزيد ربنا الأمر في هذا الاختلاف وضوحاً..
فيقول سبحانه:

{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى }
[الآيات : ٥–١١]

نعم..
الناس مختلفون، وأعمالهم مختلفة..
وهذه حكمة الله في خلقه.
وليس الأمر في ذلك ــ وحاشا لله ــ عبثاً.
فأما من أعطى حقوق ماله لأصحابها واتقى الله وصدق بالحسنى وهي ملة الإسلام، وعمادها "لا إله إلا الله"..!!
يقول ربنا تبارك وتعالى عنه: فسنيسره لليسرى وهي الطاعة، وعمل الخير، ودخول الجنة.
وأما من بخل بماله، فلم يعط الحقوق لأصحابها واستغنى عن ربه، وطغى وتكبر وكذب أيضاً بالحسنى وهي ملة الإسلام، وعمادها.. "لا إله إلا الله"..!!

يقول عنه ربنا عز وجل: فسنيسره للعسرى وهي المعصية، وعمل الشر، ودخول جهنم وما يغني عنه في هذه الحالة ماله ولا ينفعه كذلك إذا تردى سقط في القبر، أو في جهنم.

* * *

وبعد أن عرف الله الخلق: أن سعيهم شتى..!!
وبعد أن بين ما للمحسنين من اليسرى، وما للمسيئين من العسرى..!!
يخبر عز وجل.. أن عليه بمقتضى حكمته بيان الهدى من الضلال، وأن الإنسان هو الذي يختار هذا أو ذاك.
حيث يقول:

{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى * فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى }
[الآيات : ١٢–١٦]

إن علينا إنعاماً منا للهدى وبيان طريقه للناس..!!
وإن لنا قدرة وملكاً وتصرفاً للآخرة والأولى فلا قدرة لغيرنا، ولا ملك لغيرنا، ولا تصرف لغيرنا.
وعلى هذا..
فأنذرتكم وخوفتكم ناراً تلظى تتلهب وتزداد اشتعالاً؛ حتى لا تقعوا فيها.
هذه النار:
لا يصلاها ويدخلها دخولاً أبدياً إلا الأشقى الذي كذب الرسل وتولى إعراضاً عن طاعة الله، والدخول في رحاب دينه.
يا منجي من هذا العذاب.. يا رب..!!

* * *

ولكن.. أين المؤمنون، الصالحون..؟
يقول سبحانه:

{ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى }
[الآيات : ١٧–٢١]

الحمد لله..
سيجنبها ويبعد عنها الأتقى وهو: المؤمن الصالح، العامل.
الذي يؤتي ماله لأصحاب الحقوق عليه، ومنهم الفقراء، وهو بذلك يتزكى ويتطهر.
وما لأحد عنده وهو يؤتي هذا المال من نعمة تجزى فيكافئه بذلك.
وإنما يدفعه ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلباً لمرضاته.
حقاً..
ولسوف يرضى برضوان الله عليه، من كان فعله هذا.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي سورة: مكية.
تبدأ: بقول العظيم سبحانه.

{ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى }
[الآيتان : ١، ٢]

يقسم ربنا تبارك وتعالى في هاتين الآيتين: بشيئين، وله عز وجل أن يقسم بما يشاء.
حيث يقسم ربنا قائلاً:

١- والضحى وهو: صدر النهار، حيث ترتفع الشمس.
٢- والليل إذا سجى أظلم، وهدأت فيه الكائنات.

وهما: آيتان من دلائل قدرة الله تعالى.

* * *

ولكن..!!
علام يقسم ربنا هنا.
الجواب:

{ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى }
[الآيات : ٣-٥]

الله..!!
إنعام على نبينا صلى الله عليه وسلم.. بهذه الأشياء الثلاثة.
الأولى ما ودعك وتركك ربك، كما يقول الأعداء الحاقدون وما قلى أي: وما أبغضك وكرهك، بل هو معك، وأنت في رعايته، وفي روضات حبه.
الثانية وللآخرة وما فيها من إنعامات خير لك من الأولى هذه التي تحياها.
الثالثة ولسوف يعطيك ربك من إنعاماته، ورضوانه ما يعطيك فترضى بعطاء الله وإنعامه.

* * *

يا محمد..!!

{ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى}
[الآيات : ٦–٨]

نعم..
ألم يجدك ربك فيما تقدم من أمرك يتيماً بفقد أبيك فآوى بأن ضمك إلى عمك، وجعلك في كفالته..؟
ووجدك أيضاً ضالاً عما أنت عليه الآن فهدى أي: هداك إلى دين الله وشرعه..!!؟
ووجدك كذلك عائلاً أي: فقيراً فأغنى أي: أغناك بما أنت فيه من غنى النفس ورضوان الله..!!؟
الجواب: بلى، وألف بلى.

* * *

لذلك:

{ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ }
[الآيات : ٩–١١]

الله أكبر..!!
هذا هو التشريف الإلهي لنبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق، وهو ــ في ذات الوقت ــ تربية لأمته على التحلي بها.
فأما اليتيم فلا تقهر وكن له عطوفاً، وبه رحيماً.
وأما السائل عن شيء فلا تنهر بل أعطه وأفده، ما دام صادقاً في سؤاله.
وأما بنعمة ربك عليك وهي كثيرة فحدث بها واشكر عليها.
أعاننا الله.. نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، على التحلي بهذه الأخلاق دائماً.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية
وهي تبدأ بقول الله عز وجل:

{ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ }
[الآيات : ١-٤]

لاحظوا.. أيها الكرام..!!
أن هذه السورة الكريمة: تستمر في تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بنعم الله تعالى عليه.
فبعد أن قال له ربه سبحانه في السورة السابقة ألم يجدك يتيماً فآوي* ووجدك ضالاً فهدى*ووجدك عائلاً فأغنى
يقول عز وجل له هنا مقرراً ومؤكداً: يا محمد..
ألم نشرح بالنور والنبوة صدرك..؟
ووضعنا كذلك عنك وزرك..؟
حيث طهرناك، وغفرنا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، بعد أن كان هو الذي أنقض وأتعب ظهرك..؟
ورفعنا ثالثاً لك ذكرك..؟
حيث قرنَّا إسمك بإسم ربك في الشهادة والآذان والإقامة والتشهد، وغير ذلك، بل أمرنا بالصلاة والسلام عليك إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما [الحزاب: ٥٦]؟
ولذلك فالجواب: بلى، وألف بلى.
صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله.

* * *

وما دام الأمر كذلك: فلا تيأس من فضل الله، ولا تألَم من مواقف المعاندين وأفعالهم..

{ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً }
[الآيتان : ٥،٦]

نعم..
إن مع العسر الذي تلاقيه في أمر الدعوة وتبليغها، والعمل الشاق على هداية الناس بتعاليمها: يسراً من الله تعالى لك في كل ذلك.
حيث إن من سنتنا.. أنه مع هذا العسر الذي يلاقيه دعاة الحق: يسرا لهم من ربهم سبحانه.
ويقول صلى الله عليه وسلم مبشراً: "لن يغلب عسر يسرين"

* * *

لذلك:

{ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ }
[الآيتان : ٧،٨]

أي: فإذا فرغت من دعوة الخلق إلى الحق، في أي وقت، سواء استجابوا أو لم يستجيبوا: فانصب إلى ربك بالعبادة، والذكر، والدعاء.
وإلى ربك دائماً فارغب وتوجه إليه بالسؤال، وطلب المعونة والتوفيق، في أمور الدنيا والآخرة.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة: تسمى بسورة "العلق"
وبداياتها: أول ما نزل من القرآن الكريم.
وتبدأ: بقول الله عز وجل:

{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }
[الآيات : ١-٥]

لاحظوا أيها الكرام..!!
أن هذا الأمر الإلهي العظيم: موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الأمي، الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.
ولذلك: ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أن المراد بهذه القراءة.. أمر آخر، غير قراءة الكلمات المكتوبة.
ولكن.. ما هذا الأمر الآخر..؟
إنه هذا الكون البديع، وهذا الإنسان العجيب.
نعم..
اقرأ وتأمل، وتفكر؛ مستعيناً باسم ربك سبحانه وتعالى الذي خلق كل شيء في هذا الوجود.
ومن أبدع ما خلق: أنه خلق الإنسان في مراحله الأولى من علق ثم بقدرته سبحانه صيره إنساناً سوياً في أحسن تقويم
اقرأ وتأمل، وتفكر وربك الأكرم الذي لا كرم فَوْقَ كرمه سبحانه، ولا كرم يضاهي كرمه عز وجل.
فهو الذي علم بالقلم
وهو الذي علم الإنسان مالم يعلم

* * *

كانت هذه هي الآيات الأولى التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كانت فاتحة الخير، وبشارة السعادة لهذه الأمة.
وقد توالت بعدها الفتوحات الإلهية، والإنعامات على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ثمَّ على أمته، وعلى الدنيا كلها.
فماذا كان موقف البشرية من هذه الإنعامات الإلهية..؟
لقد فرح وسعد وعمل بها قوم: فأنعم الله عليهم بالهداية والرضوان الإلهي..!!
وعاندها وشقى بسبب البعد عنها والحرمان منها: كثيرون..!!
ولكن.. لماذا..؟
إنه طغيان الإنسان وجهله.
حقاً..

{ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى }

[الآيتان : ٦، ٧]

أوقع هذا الشقي: جهله، وغروره بماله، أو بولده، أو بمنصبه ومركزه.. أن يطغى ويتجبر؛ حيث نسب هذه النعم لنفسه وجهده، ولم يرد الفضل لله تعالى.
ولذلك يردعه ربنا لقوله كلا..
عسى أن يفيق ويعود إلى رشده.

* * *

بل أكثر من هذا..
حيث يهدد قائلاً:

{ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }
[الآية : ٨]

أي: يا أيها الطاغية.. لا تغتر، وعد إلى صوابك، واعبد ربك.
وإلا فإن إلى ربك الرجعى بعد الموت، وستحاسب، ولن ينفعك ما تغتر به، وتطغى بسببه.

* * *

ثم يخاطب ربنا حبيبه صلى الله عليه وسلم، بما فيه تأنيس لكل داعية إلى الله، وتقوية لجانبه، وشد لأزره.
حيث يقول تبارك وتعالى:

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى }
[الآيات : ٩-١٤]

أرأيت يا محمد..، ما يدعوا إلى الدهشة التعجب..؟
إنه هذا الإنسان الطاغية الذي ينهى عبداً عن الصلاة إذا صلى وعن الزكاة إذا دفعها للفقراء، وعن الإيمان عامة، بل يحارب أهل هذه الأمور....!!
وبذلك: يضر نفسه ضرراً كبيراً.
أرأيت يا محمد.. ما يدعوا إلى الدهشة والتعجب..؟
إنه هذا الإنسان الطاغية الذي إن كان على الهدى في نفسه أو أمر غيره بعد استقامته هو بالتقوى..!!
أليس ذلك: أفضل وأنفع له..؟
أرأيت يا محمد.. ما يدعوا إلى الدهشة والتعجب..؟
إنه هذا الإنسان الطاغية، الذي إن كذب بالحق وتولى معرضاً عنه، جاحداً له: أوقع نفسه في الهلاك..!!
ألم يعلم هذا الإنسان الذي ينهى عبداً إذا صلى والذي يبتعد عن الهدى ولا يأمر بالتقوى، والذي يكذب بالحق ويتولى معرضاً عنه ألم يعلم بأن الله يرى كل شيء من أحواله، وسيجازيه على كل ذلك..؟

* * *

على أية حال:

{ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ }
[الآيات : ١٥-١٨]

كلا كلمة فيها التهديد التخويف للطغاة.

لئن لم ينته كل طاغية عما هو فيه لنسفعاً بالناصية أي: لنأخذن بناصيته، وهي مقدم رأسه، التي يرفعها غروراً وتباهياً وتعالياً، ونجره منها إلى نار جهنم.

فهي: ناصية كاذبة خاطئة أي: هي ناصية كاذب في أقواله، خاطئ في أفعاله.

ثم يستهزئ به القوي الجبار قائلاً فليدع هذا الطاغية ساعتئذ ناديه ومن كان يتقوى بهم في طغيانه؛ ليدفعوا عنه العذاب والمهانة.

فلن يجيبوه..!!

ولا أجابوه: لن يفيدوه..!!

حيث إنا سندع الزبانية وهم ملائكة العذاب، الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ليعذبوه..!!

* * *

ثم يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم، والكل من سار على دربه وتحلى بشريعته:

{ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ }
[الآية : ١٩]

كلا ! لا تفتن بما هو فيه، ولا تتأثر بطغيانه، ولا تطعه في ضلاله.
واستمر في طاعتك لربك، وحمايتك لدينك، ونصرتك لأمتك
واسجد له سبحانه، سجود خضوع وعباده،
واقترب منه عز وجل، بالمداومة على ذلك.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تتحدث عن تلك الليلة: الموعودة المشهودة، التي سجلها الوجود كله في فرح واغتباط وابتهال.
وهي: ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى.
وهي: ليلة بدء نزول القرآن الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.
وهي تبدأ: بقول الله عز وجل:

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ }
[الآيتان : ١، ٢]

يخبر الله عز وجل أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، أي: ليلة تقدير الأمور، وقضائها.
وقد سميت بذلك: لشرفها على سائر الليالي.
وهي: الليلة المباركة، كما قال تعالى عنها إنا أنزلناه في ليلة مباركة [الدخان٣]
وهي: ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، كما قال تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن [البقرة ١٨٥]
وقد عظم المولى شأنها بقوله وما أدراك ما ليلة القدر هذه..!!؟
يعني: لم يبلغ علمك غاية فضلها، ومقدار عظمتها.

* * *

ثم بين سبحانه هذا الفضل وهذا القدر بقوله.

{ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ }
[الآية : ٣]

أي: هذه الليلة.. خير من ألف شهر ليس فيهم ليلة القدر.

* * *

ولكن..
لماذا كل هذا الفضل..؟
بقوله سبحانه:

{ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ }
[الآيتان : ٤، ٥]

نعم..

تنزل أي: تتنزل الملائكة إلى السماء، أو إلى الأرض والروح أيضاً، وهو جبريل، أو الرحمة فيها أي: في هذه الليلة.

وذلك: عند الذكر، وتلاوة القرآن، وطلب العلم، وعمل الصالحات.

كل ذلك بإذن ربهم من أجل كل أمر قضاه الله تعالى وقدره لخلقه.

كما أن هذه الليلة سلام هي حيث لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير، وسلام لكثرة سلام الملائكة على المؤمنين.

وذلك حتى مطلع الفجر

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية
وهي: سورة تهز القلوب الغافلة هذاً عنيفاً.
حيث تبدأ بقوله سبحانه.

{ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا }
[الآيات : ١-٣]

يعني إذا زلزلت الأرض في يوم القيامة زلزالها أي: اهتزت وتحركت واضطربت بهذا العنف الرهيب.
وأخرجت الأرض في هذا الوقت أثقالها أي: ما فيها من أموات، وكنوز.
ورأي الجميع: تفاهة ما كانوا يعبدون من دون الله، وحقارة ما كانوا به ينشغلون عن عبادة الله، بل ما كانوا من أجله يتخاصمون ويتحاربون في الدنيا.
وقال الإنسان مفزوعاً مما يحدث: ما لها..؟
وذلك للوهلة الأولى.
ثم يقول الكافر متحسراً يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؟[يس ٥٢]
وأما المؤمن فيقول هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون[يس ٥٢]

* * *

{ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا }
[الآيتان : ٤،٥]

هذا: جواب الشرط.
والمعنى: يوم تتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها، ويقول الإنسان من هؤلاء.. ما لها..!!
حينئذ تحدث الأرضُ الخلقَ وتخبرهم أخبارها وما عمل الناس عليها من خير أو شر.
وذلك بأن أي: بسبب أن ربك أوحى لها وأذن أن تخبر بهذا وذاك؛ بشارة للمؤمن، وتكديراً للكافر.

* * *

أيضاً..

{ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ }
[الآيات : ٦ – ٨]

والمعنى: يوم تتزلزل الأرض، وتخرج أثقالها، ويقول الإنسان مذهولاً.. ما لها..!!
حينئذ يصدر الناس ويخرجون من قبورهم أشتاتاً متفرقين، مختلفين، فيهم بيض الوجوه، وفيهم سود الوجوه.
وذلك ليروا أعمالهم أي: نتائجها، ما يحدث لهم.
يا أيها الناس..
هذه حقائق لا شك فيها، وتنبيهات ينبغي أن نعيها.
حقاً..
فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره في الآخرة ثواباً عظيماً.
ومن يعمل في الدنيا مثقال ذرة شراً يره في الآخرة جزاءً عدلاً من الله تعالى.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥)}
[الآيات : ١-٥]

في هذه السورة الكريمة، وبهذه الآيات: يقسم ربنا عز وجل بخيل المعركة.
ولله تعالىٰ أن يقسم بما يشاء.
حيث يقول:
(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً) أي: الخيل التي تعدو في سبيل الله وهي تضبح بصوتها من الجري الشديد.

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً) حين تحتك حوافرها بالصخر وهي تجري، فينقدح الشرر.
(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً) أي: تغير علىٰ العدو وقت الصباح.
(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥))

نعم: تثير الغبار، وتتوسط بسرعتها جموع الأعداء؛ لإيقاع الهزيمة بهم.

* * *

ولكن.. علام يقسم ربنا سبحانه..؟

{ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) }
[الآيات : ٦-٨]

يعني: (إن الإنسان) وهذه طبيعته ــ إلا من عصم الله(لربة)ونعم ربه (لكنود) كفور بها، جحود لا يعترف بذلك.
(وإنة) وهذا هو الأعجب: (على ذلك) الجحود (لشهيد)(وإنة) في ذات الوقت: (لحب الخير) كل الخير (لشديد)حريص جدًّا.

* * *

ومع كل هذا.. فمن رحمة الله بهذا الإنسان: أنه ينبهه إلىٰ الأفضل، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. قائلًا:

{ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) }
[الآيات : ٩–١١]

يعني: (أفلا يعلم) هذا الإنسان (إذا بعثر ما فى القبور)من الأموات وخرجوا منها بقدرة الله تعالىٰ..!!
وكذلك (وحصل) وانكشف (ما فى الصدور) من المستور..!!
(إن ربهم بهم) وبما عملوا (يومئذن لخبير) لا يخفىٰ عليه من أمر الخليقة كلها شيء..!!
وسيجازيهم علىٰ الخير خيرًا، وعلىٰ الشر بمثله.
الجواب..
بلىٰ.. وألف بلىٰ..
فلم إذا.. لا يطيعون..!!؟

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي سورة مكية.
وهي: سورة تدعو للإيمان والتقوى والعمل الصالح، ببيان عاقبة المتقين الذين ثقلت حسناتهم، وعاقبة الكافرين الذين ثقلت سيئاتهم.
وذلك: من خلال الحديث عن يوم القيامة.
حيث تبدأ السورة.. بقول الله عز وجل:

{ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)}
[الآيات : ١-٣]

تهويل، وتفخيم، وتفزيع.. من هذه القارعة.
وهي: يوم القيامة، الذي لا يدرك حقيقته، ولا مقدار أهواله أحد.

* * *

ثم يفسر الله هذا اليوم ببعض أهواله وأحواله.. فيقول:

{ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)}
[الآيتان : ٤،٥]

أي: (يوم) هذه القارعة (يكون الناس) في الضعف والانتشار والتفرق والحيرة: (كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) في الهواء.
(وتكون) كذلك هذه (الجبال) الشامخات الرواسي، في الخفة والتطاير وعدم التماسك: (كالعهن) وهو الصوف (المنفوش) كل ذلك: بقدرة الله تعالىٰ.

* * *

في هذا اليوم: تختلف أحوال الناس ومنازلهم، حسب أعمالهم

{ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)}
[الآيات : ٦-١١]

نعم..

(فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)بالحسنات وزادت علىٰ سيئاته، وذلك بإيمانه وعمله الصالحات: (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)وهي الجنة.

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) من الحسنات، وزادت سيئاته؛ وذلك بكفره وإهماله للصاحات: (فَأُمُّهُ) أي نهايته ومصيره في(هاوية) وهي جهنم، الرهيبة، الفظيعة.

التي يبينها المولى بقوله (وما ادراك ما هى)؟

يا ألله.. إنها شيء فظيع، إنها (نار حاميه) حارة، شديدة الحر، قوية اللهب.

عن أبي هريرة عن النبي (ص).. أن النبي (ص) قال: «نار بني آدم، التي توقدون: جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم»، قالوا- أي الصحابة رضوان الله عليهم-: يا رسول الله!! إن كانت كافية؟ فقال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا» أعاذنا الله وإياكم أحبتي في الله منها.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية
وهي تبدأ بهذا القسم الإلهي:

{ وَالْعَصْرِ }
[الآية : ١]

أي: أقسم بالزمان الذي يعيشه الإنسان، وتكون فيه أعماله من خير أو شر.

* * *

ولكن..
علام يقسم ربنا عز وجل بهذا القسم..؟
الجواب:

{ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ }
[الآية : ٢]

نعم..
جنس الإنسان، في خسر وضياع وهلاك.

* * *

يا ألله..!!
هل كل الناس كذلك.. في خسر وضياع وهلاك..؟
لا..
يقول تبارك وتعالى.

{ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }
[الآية : ٣]

أي: لا ينجوا من هذا الخسر والضياع والهلاك إلا الذين اتصفوا، والذين يتصفون بهذه الصفات.
أمنوا حق الإيمان بالله ورسوله، ووثقوا في هذا الدين، وخضعوا لشرع الله
وعملوا الصالحات التي ترضي الله، وتصلح البلاد، وتسعد العباد.
وتواصوا بالحق وهو الخير كله، فعل للطاعات، وبعد عن المعاصي.

وتواصوا بالصبر على فعل الطاعة ومشقاتها، وعلى البعد عن المعاصي ومغرياتها، وعلى البلايا وآلامها، وفي ساحات الجهاد في سبيل الله وأهوالها.

* * *

وهذا: هو الإنسان الكامل، الذي تصلح به البلاد، ويسعد به العباد، ويفوز برضوان الله تعالى.

* * *

ويلاحظ: أنه مستثنى من عموم الخاسرين.

* * *

تعالوا بنا نتعرف على بعض صفات هؤلاء الخاسرين،
التي ندعوا الله تعالى أن: يبعدنا عنها، وأن يبعدها عنا.
وذلك في السورة التالية.
وهي ...

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مكية
وهي تبدأ بهذا التهديد الالهي..

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ }
[الآيات : ١-٣]

ويل أي: هلاك وعذاب لكل واحد يكون همزة يطعن في الناس، ويعيب عليهم، في غيبتهم لمزة يتغامز بهم، وينتقص منهم، في مواجهتهم.
الذي يفعل ذلك: قد يكون غروراً بماله.
نعم.. هو الذي جمع مالاً من الحلال ومن الحرام وعدده فتن به، واغتر، وتعالى على خلق الله.
هل يحسب أن ماله هذا أخلده يعني ضمن له الخلود، بحيث لا يموت.؟!!

* * *

{ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ }
[الآيات : ٤-٧]

كلا سيموت، ويعذب، ولينبذن أي: يرمي بشدة ومهانة في الحطمة
وما أدراك أيها الإنسان ما الحطمة؟
إنها شيء فظيع..!!
إنها نار الله الموقدة لعذاب العصاة.
وهي التي تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم، وتتطلع بلهيبها على هذه الأفئدة الفاسدة.

* * *

يا ألله..!!

{ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ }
[الآيتان : ٨،٩]

مغلقة، مطبقة، لا ينفكون عنها، ولا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، كما أنهم أيضاً في قيود وأثقال.
يصرخون.. فلا يجابون.
ويستغيثون.. فلا يغاثون.

* * *

على العاقل إذاً..
أن يبتعد عن صفات الخاسرين..!!
وأن يتحلى بصفات المؤمنين الفالحين الفائزين.

* * *

وإذا كان هذا مصير الخاسرين في الآخرة: فيشير ربنا سبحانه إلى بعضهم مبيناً أن نتيجة كيدهم في الدنيا لأهل الإيمان.. هو الهلاك والدمار.
وذلك في السورة التالية:
وهي:

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبين بالغ قدرة الله تعالى، وتشير إلى نصره للمؤمنين.
وذلك من خلال قصة الفيل.
بقوله سبحانه:

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ }
[الآية : ١]

يلفت الله عز وجل نظر كل عاقل- وإن كان الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً- إلى قدرته سبحانه، في رد الظالمين، ودحر المعتدين، والدفاع عن بيته، الذي جعله مثابة للناس، ونقطة الانطلاق لعقيدة التوحيد، وحرية أهل الأرض من كل عبودية لغير الله.
ولكن..
ماذا فعل ربنا بأصحاب الفيل هؤلاء، الذين قدموا لهدم بيت الله الحرام..؟

{ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ }
[الآيات : ٢-٥]

نعم..
جعل الله عز وجل كيدهم ومكرهم في تضليل وضياع، ودون فائدة، أو أية نتيجة.
وبذلك: ضياع هدفهم، ولم يتحقق قصدهم.
وأرسل كذلك عليهم لإهلاكهم طيراً أبابيل في جماعات كثيرة؛ من جميع الجهات.
فكانت هذه الطيور ترميهم بحجارة من سجيل أي: حجارة مطبوخة بنار جهنم، وليست بنار الدنيا.
وبذلك: هلكوا.
فجعلهم الله سبحانه بقدرته كعصف مأكول ورق الشجر الجاف، الذي لا وزن له ولا قيمة ولا فائدة.
وهكذا..
ضاعوا..
وضاع سعيهم.

* * *

وهو: تهديد دائم لكل ظالم يتجاهل قدرة الله عز وجل، ويتناسى شرعه ودينه، ويبغي على عباده وخلقه.

* * *

ويلاحظ: أن ما حدث لأصحاب الفيل الظالمين، وإهلاكهم.. يوضح سنة إلهية، وقاعدة ربانية في فعل الله عز وجل في الطغاة في أي عصر، وأي مصر..!!
حيث إنه تبارك وتعالى.. قد فعل ما فعل معهم؛ لإيلاف أهل هذا البيت الحرام، وهم قريش.
والسورة التالية.. توضح ذلك.
وهي:

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

وسورة قريش: مكية.
وتبدأ: بقول المولى سبحانه:

{ لإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ }
[الآيتان : ١، ٢]

أي: كان ما فعلناه من إهلاكنا لأصحاب الفيل المعتدين لإيلاف قريش تأمينهم وسلامتهم في إقامتهم حول بيت الله الحرام.
وكذلك إيلافهم خلال رحلة تجارتهم في الشتاء إلى اليمن جنوباً و رحلة الصيف إلى الشام في الشمال.

* * *

{ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ }
[الآيتان : ٣، ٤]

أي: كما جعل لهم حرماً آمناً؛ فليشكروا الله على هذه النعمة العظيمة، بالتوحيد والعبادة.
نعم.. فليعبدوا رب هذا البيت
فهو الذي أطعمهم ويطعمهم من جوع
وهو الذي آمنهم ويؤمنهم من كل خوف

* * *

ولقد أسلمت قريش.. فزادها الله خيراً، وزادها أمناً.
وهو درس لكل من يعتزون بالإسلام، ويلتزمون بتعاليمه وأحكامه.

* * *

ولما أمر المولى هنا بالعبادة، وامْتَنَّ بإطعام الجائع.
عاب من سها عن العبادة، وذم من بخل فلم يطعم الجائع..
وذلك في السورة التالية..
وهي:

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى:

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ }
[الآية : ١]

يعني: هل رأيت وعرفت الذي يكذب بالدين..؟

* * *

إن كنت لا تعرف: فهذه علاماته، وهذه أوصافه:

{ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ }
[الآيتان : ٢، ٣]

فهو ذلك الذي يكذب بالدين، ولا يعمر به قلبه، ولا تستنير به جوانبه.
كما أنه:

أولاً: الذي يدع أي: يقهر اليتيم، ويعنّفه، ويظلمه، ولا يحسن إليه.
ثانياً: الذي: لا يحض أي: لا يأمر ولا يشجع، فضلاً عن بخله هو على طعام المسكين وهو الفقير، الذي لا يجد شيئاً يقيم به حياته.

* * *

ومن العجيب: أن هذا الذي يكذب بالدين.. قد يصلي أحياناً.
ولكن.. هل يخفى ذلك على الله تعالى..؟
كلا.. أبداً، أبدا..!!
ولذلك يكمل ربنا باقي صفات هذا الذي يكذب بالدين.
إذ يقول تعالى:

{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ }
[الآيات : ٤-٧]

ثالثاً: أنه منافق.

نعم.. هو يكذب بالدين، حتى ولو كان يصلي أحياناً.
حيث إن هؤلاء المصلين منهم، يكونون:
عن صلاتهم ساهون أي عن أدائها غافلون، وعن ما تؤدى إليه وتثمره من خير في المرء، بعيدون.
كما أنهم بها يراؤن الناس، ولا يخلصون فيها لله تعالى.
وكذلك: هم للزكاة لا يؤدون، بل أكثر من هذا، حيث إنهم يمنعون عن الناس الماعون فهم في تعاملاتهم: يأخذون ولا يعطون.

* * *

وبهذا: فمن الواضح أن الذي يكذب بالدين يتصف بهذه الصفات:-
قهر اليتيم وظلمه، وعدم الإحسان إليه.
البخل، وعدم الحث على طعام المسكين.
ترك الصلاة، أو الإهمال في أدائها.
المراءاة بها، وعدم الإخلاص لله تعالى فيها.
البخل، وسوء التعامل مع الآخرين.
ومن الواضح كذلك: أن من يتصف ببعض هذه الصفات، له من التكذيب بالدين نصيب.

* * *

هذا..
ويتعطف المولى سبحانه وتعالى على عباده بعرض الصورة المقابلة لهذا الذي يكذب بالدين..
وذلك في السورة التالية.
وهي:

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

وسورة الكوثر: مكية.
وهي تبدأ بقول ربنا تبارك وتعالى

{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ }
[الآيات : ١-٣]

يعني: إنا أعطيناك يا محمد؛ إنعاماً منا لك، وتفضلاً عليك: الكوثر وهو الخير الكثير في الدنيا والآخرة.
لذلك: فصل مخلصاً في صلاتك وكل عباداتك لربك وحده سبحانه
وانحر كذلك باسمه وحده، لا كما يفعل المشركون.

* * *

هذا..
ولا تتأثر بما يفعله معك، ولا بما يقوله عليك: أعداؤك وكارهوك.
حيث إن شانئك أي مبغضك هو الأبتر المقطوع، الذي لا خير فيه، ولا خير له.

* * *

واعلم أيها المسلم: أن الذي يشرفه ربه بهذه المنزلة العالية.. هو الذي يتمسك بدينه، ويرفع لواءه، ويعمل على نصرته.
وهو الذي يساومه الأعداء- في ذات الوقت- على التهاون في هذا التمسك، وعلى التراخي في هذه المناصرة.
ولذلك: جاءت السورة التالية.. تبين لهذا المسلم القوي الطريق الواضح الذي ينبغي له أن يسلكه مع هؤلاء الأعداء.
وهذه السورة:- هي سورة الكافرون.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية
يقول فيها رب العزة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكل فرد من أمته:

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ }
[الآيات : ١–٥]

أيها الأحبة في الله..
قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: هيا بنا تعبد أنت ما نعبد، ونعبد نحن ما تعبد..!!
فإن كان ما نعبد خيراً: أصبت منه معنا.
وإن كان ما تعبد خيراً: أصبنا منه معك.
فأنزل الله تعالى: هذا السورة.
والمعنى:

قل لهم يا أيها الكافرون المصرون على كفركم: اسمعوا مني، واعرفوا موقفي.
فأنا لا أعبد حالياً ما تعبدون من الأصنام وغيرها.
ولا أنتم فيما أثق وأعلم من ربي عابدون حالياً ما أعبد وهو الله الواحد رب العالمين.
وقل لهم أيضاً: ولا أنا عابد فيما يأتي من الزمان أبداً ما عبدتم أنتم.
ولا أنتم فيما أثق وأعلم من ربي عابدون فيما يأتي من الزمان أبداً ما أعبد أنا.
ختاماً.. سلم الأمر– أمام إصرارهم وعنادهم– لله.
وقل لهم:

{ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }
[الآية : ٦]

أنتم كفرتم باختياركم، فاتركوني وديني.
وبعد هذا الصراع بين الحق وأهله من جهه وبين الباطل وأهله من جهه..!! يبين ربنا: أن النصر لأهل الحق آت لا محالة.
وذلك في السورة التالية.
وهي: سورة النصر.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة: مدنية.
وهي آخر سورة من القرآن الكريم: نزلت كاملة.
وهي تبدأ بقول الله سبحانه وتعالى

{ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً }
[الآيتان : ١،٢]

يعني إذا جاء نصر الله أي: عونه لك على أعدائك يا محمد
و تم الفتح لمكة وغيرها، بدخول الإسلام فيها
ورأيت الناس الذين كانوا يعادونك ويحاربونك يدخلون طائعين في دين الله وهو الإسلام أفواجاً كثيرة..!!

* * *

إذا حدث ذلك:

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً }
[الآية : ٣]

نعم..
فاعلم أن هذا النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام: إنما هو بفضل الله.
ولذلك: فسبح بحمد ربك شاكراً له واستغفره حيث إنه سبحانه كان ولا يزال تواباً.
وفي هذه السورة دروس تربوية عظيمة..
منها:
تربية الأمة على أدب حمد الله تعالى وشكره ودوام استغفاره: عند حدوث النعمة.
أن السورة أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بأمور مستقبليه ثم وقعت، ولا يكون ذلك إلا من علام الغيوب.
كذلك: البشارة بالنصر والفتح للإسلام وأهله في القلوب والبلدان، مما يعين على دخول الناس في هذا الدين أفواجا، إلى يوم القيامة.
وذلك: بالرغم من شدة الحرب والحصار للإسلام وأهله؛ مما يرفع رصيد الثقة عند المسلم بنفسه ودينه وربه سبحانه.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) }
[الآيتان : ١، ٢]

(تبت) أي: هلكت (يدا أبى لهب) وهو عم النبي(ص)الذي كان يعاديه، ويحاربه، ويصرف الناس عن اتباعه (ص)والإيمان بدعوته.
(و) قد (تبت) هلك بالفعل، حيث ظل علىٰ كفره، حتىٰ مات في الدنيا ميتة شنيعة، ويذوق في النار ــ مخلدًا فيها ــ عذابًا أليما.
وهكذا(ما اغنى عنه)ونجاه من هذا العذاب (ماله) مهما كان كثيرًا، ولا نفعه (وما كسب)في الدنيا من جاه، أو ولد، أو غير ذلك

* * *

وليس هو وحده في هذا الذل والعذاب.
حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

{ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) }
[الآيتان : ٣ ، ٥]

أي: (وامرأته) معه في هذا العذاب.
أليست هي (حماله الحطب) والشوك، لتجعله في طريق رسول الله، والنميمة تصرف بها الناس عنه..؟
علىٰ أية حال: (فى جيدها) يوم القيامة حبل من مسد) أي قلادة من نار، طولها سبعون ذراعًا، بدل الذي كانت تتباهى به في الدنيا من زينة.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة : مكية.
وهي والتي بعدها: توجيه من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم إبتداءً، وللمؤمنين من بعده جميعاً، للجوء إليه، والعياذ بحماه، من كل ما يُخاف منه، ظاهراً وباطناً، مجهول أو معلوم.
وفيها يقول رب العزة:

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ }
[الآية : ١]

أي: قل يا محمد، ويا كل مؤمن.. حال كونك معترفاً بالعجز والقصور، مستعيذاً بالله العلي القدير أعوذ برب الفلق وهو: الصبح، أي: رب هذه الآية الدالة على عظمته سبحانه.

* * *

ولكن.. من ماذا تكون هذه الإستعاذة..؟
إنـها: تكون..

{ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }
[الآيات :٢-٥]

نعم..
من شر ما خلق الله كله، من إنس وجن، وكل الكائنات.
ومن شر غاسق وهو الليل إذ وقب يعني إذا أظلم.
ومن شر النفوس السيئة النفاثات لسمومها وسحرها في العقد بالتوجيه السيء، والفعل الخبيث.
ومن شر كل حاسد يظهر حسده، ويعمل بمقتضاه إذا حسد
وفي السورة مع هذا التوجيه: تعليم الإذعان لله، واللجوء إليه، والأعتماد عليه، سبحانه وتعالى.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر